ABU ABDO ALBAGL

وداد من حلب

قحطان مهنا

رواية

مدونة ابو عبدو

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معتّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

وداد من حلب

قحطان محمد مهنا

وداد من حلب

قحطان محمد مهنا

روايـــــة

تصميم الغلاف : باسم صباغ

الإخراج الفني : علي عبد الرحمن

الطبعة الأولى : تشرين أول/2010

التوزيع في سورية:

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

دمشق. ص.ب/9838/

هاتف/ فاكس 009311/6133856

جوال 00963 944/266681

البريد الالكتروني addar@mamdouhadwan.net

elhamadwan@gamil.com

جميع الحقوق محفوظة لدار ممدوح عدوان©

لا يجوز نقل أو اقتباس أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب

بأي وسيلة كانت دون إذن خطي مسبق من الدار

وداد من حلب

قحطان محمد مهنا

روايـــــــــة

ABO ABDO ALBAGL

تدبُّ الحياة في سوق المدينة في حلب رويداً رويداً.. وهي تبدأ بعد صلاة الفجر بقليل، كان أبو محمود أوّل من يفتح محلّهُ هو وصانعه، أما جاره أبو أحمد فقد كان آخر القادمين.

كان محلُّ أبو محمود متواضعاً يبيع فيه الأقمشة متوسطة الأسعار قليلة التنوع.. ولكنّه كثير الزبائن. أمّا جاره أبو أحمد فكان محلُّه عامراً بالأقمشة الفاخرة مع تنوُّع كبير وزبائن أقلّ، كان يملك مكتباً خشبياً جميلاً في صدر الدُّكان، يضع عليه هاتفاً نصف آليٍّ يستخدمه في عقد الصفقات مع تُجّار المدن الأخرى.. حماة.. حمص.. الشام.. و بيروت وكانت له صلات حتى مع تجار في بغداد.

كانا جارين متحابين في السوق رغم الفوارق بينهما.. التي كانت تتعدى قوّةَ أبي أحمد المالية لتصل إلى الناحية الثقافية، وكان السبب في ذلك المدرسة، فقد ارتادها أبو أحمد لمدة عشر سنوات تقريباً، وكاد يصل إلى سنته الأخيرة فيها لولا مرض أبيه المفاجئ.. الأمر الذي اضطرَّه لترك المدرسة والمواظبة في المحلّ مع والده العليل.. الذي لم يلبث أن فارق الحياة بعد أن أصرَّ على تزويجه من ابنةِ عمِّه، وكان عمره حينها ثماني عشرة سنة.

أما أبو محمود فقد اكتفى بالكتّاب لسنوات قليلة قبل أن ينضم إلى والده في المحلّ، لكن سرعان ما أصابه ما أصاب جاره.. فقد توفي والده أيضاً في العام نفسه.. جمعهما المصاب أكثر، قرَّبتهما من بعضهما رهبة

الموت ورهبة المسؤوليَّة الجديدة في هذه السن المبكرة، وكان هناك أمر آخر مشترك بينهما، فالاثنان ولدا مع بداية القرن.. القرن العشرين وبالتحديد عام 1901، كانا وفيين لبعضهما بعضاً لا تشوب علاقتهما أية شائبة.. غيرة أو خلاف، حتى أنَّ زواج أبي محمود تمَّ بترتيبٍ من صديقه أبي أحمد، إذ انتقى له زوجةً من قريباته البعيدات، وكان انتقاءً موفَّقاً بكل معايير تلك الأيام.

عندما بلغا الثلاثين من عمرهما فاجأ أبو أحمد صديقه وكانا جالسين أمام محليهما بالقول:

ـ أنا سأتزوج.

ـ تتزوج؟!.. ممن؟!..

ـ لا أعرف.

نظر إليه أبو محمود مندهشاً، فقال أبو أحمد:

يا صاحبي الذي تزوج وعمره ثماني عشرة سنة شخص لاأكاد أعرفه، إنَّهُ شخص آخر، يحمل اسمي.. صحيح، وبعض صفاتي.. صحيح، ولكنّه الآن شخصٌ آخر تماماً، لا أعرفه ولا يعرفني، وكي أُصدقكَ فإنَّه لا يعجبني، وأشكُّ في أنني أعجبه.

ابتسم أبو محمود وقال:

ـ لماذا عليك أن تفلسف الأمور دائماً؟ قل إنَّ نفسك تراودك على الزواج من امرأة ثانية.. وهذا حقُّك.. مال وشباب..

ـ والله العظيم الموضوع ليس كذلك.. الموضوع كلّه يتلخص بكلمتين: أريد أن أختار، من تزوَّجتها على الرأس والعين، ولكنهم اختاروها لي.. أريد الآن أن أتزوج ممن أختارها أنا.. أتعرَّف عليها.. أجالسها.. أسألها رأيها..

ـ ماذا؟!.. أنت تحلم؟!.. هنا في حلب، وفي هذه الأيام؟!..

كان أبو أحمد ـ واسمه رأفت ـ شابّاً وسيماً.. طويلاً.. نحيلاً، ذا مشية واثقة منتصبة، وكان قد بدأ بارتداء البنطلون والجاكيت من دون ربطة

عنق، يضع على رأسه طربوشاً أنيقاً سرعان ما تخلّى عنه عندما بدأ يستعمل كريم «البريانطين» على شعره، أما في السوق فكان يعود إلى الطربوش مرتدياً قنبازاً مخططاً وحذاءً عصرياً يستبدل به ـ ما أن يدخل المحل ـ صرماية حمراء نظيفة ومريحة، كان قارئاً جيداً مذ كان صغيراً.. في البداية شُغفَ بروايات الأدب العالمي.. فقرأ منها الكثير، ثمَّ اتَّجه إلى التاريخ فبهره وأغناه بثروة معرفية لا تضاهى، وكان حلم حياته أن يؤسس مكتبة مميزة في مكان مميز فيجمع بين متعته وتجارته بالكتب.

ما هي إلا أشهر قليلة حتى زُفَّت فادية ابنة الثمانية عشر ربيعاً إلى رأفت زوجة ثانية، كانت ابنة حج محمد التاجر المعروف، وكان من المفروض أن تتزوج من قريب لها مذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها، لكنَّ مرضاً غريباً أصاب الشاب.. فاضطرَّت إلى انتظار شفائه، ولمَّا طال المرض أعفاها أهل الشاب من الانتظار، وهذا يفسر بلوغها الثمانية عشر عاماً دون أن تتزوَّج، هذا العمر المتقدِّم نسبياً كان من الأسباب الرئيسة التي دفعت رأفت لاختيارها، وكان هناك سبب آخر، فقد كانت أمُّ فادية من جذور تركيَّة، ومن استانبول تحديداً، وهذا ما أغراه على الافتراض بأنَّ قليلاً من التحرر والعصريَّة لا بدَّ أن يكونا من صفات هذه العائلة، كان طموحه لقليل من التحرُّر لا أكثر لأنَّه لم يكن لينسى بيئته المحافظة المتديِّنة.

لم يُوفَّق رأفت إلا قليلاً بما كان يطمح إليه من التعرُّف عليها ومخالطتها، ولم ينجح إلا بتحقيق شرط واحد أصرَّ عليه.. وهو أن يسمع موافقتها منها بلا وساطة أو وكيل، وكان الأمر.. جلبوها إلى غرفة الضيوف في بيت أهلها حيث كان رأفت يجلس مع والدها.. دخلت الفتاة وجلةً مرتعدةً من هذا الخرق للأعراف.. كانت تضع منديلاً جميلاً على رأسها معقوداً عند عنقها، وكانت خالتها قد نجحت في اللَّحظة الأخيرة، وقبل دخولها من الباب، في سحب مُؤخرة المنديل إلى الأسفل بشدَّةٍ واحدةٍ..

مما سبَّب انحساره قليلاً وأتاح بذلك لخصلات أكثر من شعرها في الظهور، جلست وبنظراتٍ سريعةٍ أشبه بالتلصُّص رأته.. فانبهرت بشكله.. وبعد قليل غادرها خوفها، وشعرت بثقةٍ عارمةٍ بنفسها وبالدور الذي ستلعبه.. فلقد كانت الفتاة الوحيدة من كلِّ قريباتها وصديقاتها التي توفَّرت لها الفرصة لترى خطيبها ولتقول نعم أو لا، أوافق أو لا أوافق.. طبعاً تذكَّرت التعليمات جيداً، في البداية ستقول: الذي تراه يا والدي، ولكن عندما سيصرُّ الخطيب.. ستنظرُ إليه وتجيب.

لم يتسنَّ له الانفراد بها أبداً، ولم يبادلها الحديث إلا مرتين أو ثلاثاً وفي حضور أحد من عائلتها، كانت تدخل بصينية القهوة ومنديل رأسها ينحسر في كلِّ مرَّة أكثر بفضل شدِّ خالتها أو إحدى أخواتها له من الخلف، حتّى أنه سقط في آخر مرَّة على كتفها فتململ الأبُّ وطلب الإسراع في إتمام الزواج معتبراً أنَّ تنازلاته وصلت إلى أكثر مما يستطيع تحمّله.

كان رأفت قد أخذ عهداً على نفسه أن يقوم هو بإبلاغ زوجته قراره بالزواج، ولكنه عندما همّ بمفاتحتها بالأمر اكتشف أنها تعلم به ولم يعرف ممن.. نظرت إليه بعينين فيهما حزن العالم وقالت:

ـ ماذا يعني أن أسمع الخبر منك؟!.. أهو قيمة لي؟!.. وهل قيمتي تكمن في أن أكون أوّل من تبلغها بالخبر؟.. وقيمتي الأساسيَّة في الموضوع برمَّته أين هي؟!..

عرف على الفور أنَّه مهزومٌ سلفاً في أيِّ طريقةٍ يناقش بها الموضوع، كان يستطيع أن يربح لو اتَّبع الطريقة المعروفة.. طريقة كُلِّ الرجال عندما ينوون الزواج ثانيةً: هذا حقي.. ديني وشرعي أعطياني هذا الحق، ولكنَّ شخصيَّته ـ كما عرفها كلُّ الناس ـ لم تكن لتسمح له.. فهو أبو النقاش والجدال.. كُلُّ شيء قابل للجدال والحوار عنده.. هذا كان قانونه الأوَّل، لذلك قال:

ـ أنت قيمتك محفوظة في كلِّ الأحوال.. كانت وستبقى محفوظة أبداً.

ـ هل تعلم ما الذي يقهرني أكثر من أيِّ شيء آخر؟.. كانوا يقولون.. رأفت غير كلِّ الرجال.. مثقف، متحرِّر، مع المرأة في جميع الأحوال.. يا إلهي كيف غششت كلَّ هؤلاء الناس كل هذا الوقت.. أنا..

قاطعها بشيء من الحِدَّة:

ـ لا لزوم لهذا الكلام.

صمتت للحظات بينما كان هو يُفكِّر بإنهاء الجدل، ثمَّ قالت:

ـ لي طلب واحد.

ـ تفضلي.. اطلبي ما تشائين.

ـ يوم عرسك.. دعني أذهب لبيت أهلي.

انتفض مُحدِّقاً بها:

ـ هل هذا تصرُّف لائق؟.. ثمَّ لن يكون هناك عرس، الجواب لا.

قالت بلهجة قويَّة باردة:

ـ على عيني.. لن أذهب، لكن لا تنتظر منِّي أن أرقص في ليلة دخلتك. هل تريد شيئاً؟..

سألت وهي تقف، فقال بصوت خافت:

ـ سلامتك.

خرج رأفت من منزله حزيناً.. شاعراً بالذنب، أخذ يمشي ويمشي كعادته كلَّ يوم، إلا أنَّه في هذا اليوم أطال، لم يكن هذا ما خطَّط له، أراد أن يختار رفيقةً له، صديقة.. حبيبة، ولكن على ما يبدو سيكون زواجه هذا نسخة مُكرَّرة عن زواجه الأوَّل، كان على استعداد لتحمُّل الذنب لو نجح بمراده، أمَّا وأنَّ الأمر لم يكن كذلك فإنَّ شعوره بالذنب كان مضاعفاً، فجأةً خطرت بباله فكرة المكتبة.. فأخذ قراره: غداً سيشتري المحل الكبير الذي سأل عنه مُؤخراً، وستكون له المكتبة الأولى في البلد.. حلم حياته، ارتاح بعض الشيء وقرَّر الذهاب إلى المقهى الشعبي، ولكنَّه عرَّجَ في طريقه على محلِّ الصائغ حنّا، وطلب منه أن يضاعف كلَّ

ما أوصاه عليه من ذهبٍ لعروسته.. فسأله الصائغ:

ـ أضاعف.. كيف؟!..

ـ تضرب باثنين كل شيء.. السوار يصبح سوارين، العقد عقدين، وزوج الحلق زوجين.. وهكذا، طبعاً غيِّر النموذج قليلاً، ولكن ضاعف كل شيء.

ظنَّ الصائغ حنًّا أنَّ أبا أحمد سيتزوج من امرأتين دفعة واحدة، ففكَّر مذهولاً.. هذه أوَّلُ مرَّةٍ يحدث ذلك، ثمَّ تساءل: هل الإسلام يسمح بذلك؟!.. من معرفته فالجواب هو.. ولكن ما أدراه وماهمَّهُ، سيضاعف كلَّ شيءٍ، وأرباحه ستتضاعف في كلِّ شيء.

أمَّا أبو أحمد فقد قال في نفسه: لن يحلَّ الذهب مشكلة أمّ أحمد، ولكنَّه سيسكتها.

في الصباح التالي في السوق قال له صاحبه أبو محمود:

ـ أراك مهموماً..

ـ لا.. لا شيء، كل شيء تمام.. بلَّغنا أم أحمد وانقضى الأمر.

ـ نُبارك لكَ وتُبارك لنا إذن.

ـ خير.. ألف مبارك..

ـ أمس ولَّدت أم محمود.. وأرسل الله لنا بنتاً تأسر الألباب.

ـ مباركة.. تربى بعزِّك، هل اخترتم الاسم؟!..

ـ هاتِ لنا اسماً جميلاً من عندك.

فكَّرَ أبو أحمد قليلاً ثمَّ قال:

ـ أمّي ـ الله يرحمها ـ كان اسمها زينب، لكن ولا مرَّة، أقول ولا مرَّة سمعت أحداً يناديها باسمها، الوالد كان يناديها أم رأفت، نحن.. يامو، الجيران والمعارف كلهم أم رأفت، ما رأيك أن نسمع رنَّة هذا الاسم الجميل في بيتك؟!..

ـ لعيونك.. لن نسمِّيها إلا زينب.

فتح أبو محمود محلّه في هذا الصباح الربيعي، ووضّب وصانعه البضائع كعادته كلّ يوم، ثمّ أخذ مقصّاً طويلاً ورفيعاً وذهب إلى المرآة الصغيرة المعلّقة على الجدار الداخلي في عمق محلّه، وبدأ يشذّب شاربيه.. نظر في المرآة محدّقاً في وجهه وقال لنفسه: نعم يا سيدي أنت الآن ابن خمس وأربعين سنة، انتبَهَ إلى شعرات الشيب القليلة على فوديه فلم يهتم بها، بعدها جلس منتظراً بدء الحركة في السوق والتي لم تتأخر، الذي تأخّر هو صاحبه أبو أحمد.

قبل أن ينهي كأس الشاي الأوّل.. إذ خال زوجته أبو أنور يفاجئه بزيارة في هذه الساعة المبكّرة.. كان موظّفاً في المصالح العقاريّة، وقد تقاعد منذ مُدَّة، وهذا سبب استيقاظه المبكّر وحاجته للخروج من المنزل.

رحَّب به وجلسا يدردشان، سأله عن أحواله، وعن زواج خديجة ابنته، وكم رزقت من الأولاد، وهل تجاوزت زينب الـ15 عاماً من عمرها، وهل هناك خُطّاب لها، وعن محمود ودراسته، ثمّ سأله عن صديق عمره وجاره أبو أحمد الذي يسمع عنه كثيراً، وعن أحواله المزدهرة، فأخبره أبو محمود أنّ صديقه - بعد أن حقّق حلم حياته بإنشاء مكتبة معتبرة - هو الآن بصدد إنشاء معمل نسيج، كانا على وشك تناول الفنجان الثاني من القهوة.. عندما ظهر أبو أحمد، مرتدياً الجاكيت والبنطلون، حيَّا بحرارة أبا أنور، كان يعرفه جيداً، ثمّ استأذن ودخل دُكانه الذي سبق لصنّاعه أن فتحوه، وخرج بعد دقائق لابساً القنباز والطربوش، وجلس مع الاثنين.

سأل أبو أحمد السؤال المتوقع:

ـ ما رأيك بالأوضاع يا «أبو أنور»؟..

ـ نحن الآن في العام 1946، الدنيا قائمة قاعدة، الفرنساويون رحلوا، والجميع طاحش على الحكم.

ضحك رأفت وقال:

ـ الأمر طبيعي.. ألم يكن متوقعاً؟..

ـ قل لي يا «أبو أحمد»، أنا وكثيرون غيري، نتساءل لم رفضت الدخول بالحزب وعندك كلّ المقومات والصفات التي تؤهلك للعمل في السياسة؟..

ـ أنت مُخطئ يا عزيزي.. ليس عندي أي صفة مما ذكرت.

ـ ولو ثقافة ومال، وكنت لا تترك مظاهرة أو تحركاً ضد الفرنسيين إلا وتكون أنت وصاحبك أبو محمود على رأسها.

ـ كان الأمر مختلفاً.. الأمر كان يتعلّق بالتحرُّر من الفرنساويين، السياسة لم تكن موجودة إلا بالاسم.

تدخَّلَ أبو محمود.. الذي كان هو وخال زوجته قد انتسبا إلى حزب الشعب:

ـ رأي أبو أحمد أنَّ الحزبين الرئيسين الآن: الشعب والوطني لا فرق بينهما، حزب الشعب تجمُّع لتجار ومُلاك الأراضي ومؤيدوهم بقاعدة حلبية، والحزب الوطني تجمُّع لتجار وملاك الأراضي بقاعدة شامية، وبقية المدن والمناطق ملحقة بالاثنين.

ـ ولكن هذا اختصار فظيع للأمور فعدد الشوام في حزب الشعب لا يحصى، وعدد الحلبيين في. .

ـ معك حقّ.. التلخيص مرَّات يُشوِّه الفكرة تماماً، على كلٍّ يا «أبو أنور» الخيار صعب بين الحزبين، فالاثنان وطنيان ومتشابهان، ولو كان الأمر لي لسعيت لضمِّهما في حزب واحد وهذا أفضل للبلد.

أجاب أبو أنور:

ـ ولماذا لا تدخل في أحدهما وتسعى مسعاك النبيل هذا؟!..

كان واضحاً أنَّ أبا أنور مُكلَّفٌ باستمالة وتنظيم أبي أحمد. ابتسم رأفت وقال:

ـ الأمور لا تسير هكذا.

ألحَّ أبو أنور وقد شكَّ بأمر هذا المراوغ:

ـ طيِّب.. هناك أحزاب أخرى أصغر، ولكنها فعَّالة أو يُنتظر أن تكون كذلك.. حزب البعث مثلاً وهو قيد الإنشاء حالياً، الحزب السوري القومي، الشيوعي، الأخوان المسلمون.

ـ صدّقني أنا لا أصلح للسياسة، أنا أهتم بها وأجادل فيها كثيراً.. هذا صحيح، ولكن العمل فيها والدخول في زواريبها!.. أنا أعرف إمكاناتي يا أبا أنور أطالَ الله عمرك، على كلٍّ البركة فيك وبأبي محمود.

أتى صانع أبو أحمد يقول أنَّه مطلوب على الهاتف من دمشق، فاستأذن ودخل محلَّهُ.

سأل أبو أنور:

ـ ألم يتزوَّج بعد وفاة أم أحمد؟..

ـ لا.. لقد حزن عليها حزناً شديداً لاأستطيع أن أصفه لك، تُوفيت بعمر ثمانية وثلاثين سنة منذ ثلاث سنوات مرضت بالتيفوئيد، ولكن «أبو أحمد» يقول: الحسرة والتيفوئيد قتلاها، كان يعتقد أنَّ زواجه الثاني آذاها كثيراً.

ـ ما هذا الكلام الفارغ.. كلُّ النساء يتقبلن ضُرَّة أو اثنتين.

ـ ليس الكل يا «أبو أنور».. ليس الكل، لذلك هو لم يفكر بالزواج على زوجته الحالية.

عاد أبو أحمد ليجلس معهما قائلاً لأبي محمود:

ـ عندي سفرة إلى دمشق.

سأله أبو أنور:

ـ ألا زلت تذهب إلى المقهيين؟..

ـ مرَّة أو مرتين في الأسبوع لكلٍّ منهما.

كان المقهيان المعنيان اشتهرا في تلك الأيام بسبب نوعيَّة روُّاد كلٍّ منهما، فأحدهما أصبح اسمه المقهى الشعبي وكان اسمه مقهى الأفراح، كان روّاده من أولاد البلد الطيبين كما كان يصفهم رأفت، نجارون وسمَّانون وأصحاب محلات متواضعة، وكان يقع في باب الفرج.

أما المقهى الآخر فكان اسمه مقهى الأفندي، روّاده من الموظفين المهمين والتجار المعروفين، أسماء بدأت تظهر في الحياة السياسية الجديدة، وكان يقع في حيّ العزيزيَّة.

قال أبو أنور:

ـ وأيهما يستهويك أكثر؟!..

لكلٍّ منهما نكهته الخاصَّة.. ما تسمعه من أحاديث ونقاشات في الأول هو ذاته ما تسمعه في الثاني مع اختلاف كبير في الأسلوب، طبعاً في المقهى الشعبي تحس بمتعة حقيقية.. تحس بنبض الناس.. تعليقات عفوية.. بعض المرات ساذجة.. معظم الأحيان فظّة، ولكن الأمر الغريب أنهم لا يضيعون البوصلة أبداً، أما في المقهى الآخر.. فقراءة الناس للأحداث مختلفة.. هم متعلمون ومثقفون، ولما كانوا يعتقدون أنهم مطلعين على الأمور، فإنَّ مناقشاتهم تتراوح بين التحليلات المنطقيَّة وهي قليلة، وبين الحذلقة والشوفينية والتذاكي على بعضهم بعضاً، وهي الأغلب، ولكنك تجد أيضاً أشخاصاً أذكياء بحس وطني عال وصبر جميل في النقاش.

قال أبو أنور مستأذناً في الانصراف:

ـ ستراني كثيراً في مقهى الأفندي من دون أن أكون أفندياً!..

ـ لا يا أبا أنور، أنت شيخ الأفندية.

بعد مغادرة أبي أنور قال أبو محمود لصديقه:

- مشاركتك في الحديث كانت قليلة الحماسة، ما مأخذك الحقيقي على حزب الشعب؟!..

ـ ولا أي مأخذ سوى أنه يميل إلى الإخوان في العراق إلى الهاشميين ونوري السعيد، وهذا سيستتبع ميل الحزب الوطني إلى تحالف السعودية ـ مصر أو هكذا أفترض، ويبدأ الصراع على سوريا عربياً عن طريق هؤلاء، ودولياً لأسباب أكثر جديَّة، نحن في سوريا في قلب التحرُّك السياسي الكبير في المنطقة يا صاحبي.. حزب الشعب، الحزب الوطني.. تفاصيل هامشيَّة.

وصل رأفت إلى داره قبل موعد العشاء بقليل.. كانت داره تقع في حي الفرافرة، كانت داراً عربيَّة تقليديَّة.. صحن دار كبير مع نافورة ماء في الوسط جدرانها مغطاة بالفسيفساء الملوَّن، أربع غرف نوم في الطابق العلوي، وثلاث في الطابق الأرضي.. حيث توجد أيضاًصالة الاستقبال الكبيرة، وصالة معيشة أقلّ منها مساحةً وُضعت فيها منذ سنوات قليلة طاولة طعام كبيرة، وعلى طرف صحن الدار كان هناك درجٌ ضيِّق بانحدارشديد ينزل إلى بيت المونة، وكان أشبه بمغارةٍ عميقةٍ تحت الأرض، كان الأولاد في صغرهم يلجؤون إليها عند القيظ الشديد، فيمنعهم أبوهم شارحاً لهم مضار سوء التهوية فيها.

كان عنده أربعة أولاد من أم أحمد: ذكران وفتاتان، وثلاثة من فادية أم نضال: ذكر وابنتان، ابنته الكبرى سلمى تزوَّجت منذ سنوات، والثانية وفاء مخطوبة، أمَّا أحمد وأخوه خالد فهما متزوِّجان ويقيمان معه في الدار، ولكن ليس لمُدَّة طويلة، سينتقلان قريباً إلى شقَّتين متجاورتين في حيٍّ السبيل.

أولاد فادية نضال ورجاء وهدى هم دون الخامسة عشرة من عمرهم، أدخل رأفت بناته كلهنَّ - باستثناء سلمى البكر - المدرسة الفرنسية حتى عمر الاثني عشر سنة، أمَّا الفتيان فدخلوا المدارس العامة وكانت توازي حينها المدرسة الفرنسية بل تتفوق عليها في بعض النواحي، كان رأفت يشعر بضيقٍ شديد وغضبٍ أشد عندما كانت تترك إحدى بناته المدرسة في

تلك السن من عمرها، ولكن ما كان باليد حيلة، فبيئته المحافظة لم تكن تسمح بخلاف ذلك، يذكر جيداً ذلك اليوم منذ أربع سنوات، عندما تركت ابنته وفاء ورفيقتها زينب ابنة أبي محمود المدرسة الفرنسية.. قامتا بما يشبه المظاهرة في صحن الدار حتى لا يُطبق عليهما هذا القانون، ولكنَّهما انهزمتا.. فذرفتا الدموع الغزيرة.

سأل رأفت وكان الجميع على مائدة الطعام:

- كيف كان يومكم؟.. هل من أخبار مسليَّة؟!..

أجابت أم نضال:

- الأخبار عندك.

- أريد أخباركم أنتم.. لا أخبارهم.

نظر إلى ابنه أحمد وسأله عن سير العمل في ورشة المنشأة الجديدة، فأجابه أنَّ الأمور تسير كما هو مُخطَّط لها، وعلى الأغلب سيكون كلُّ شيء جاهزاً قبل وصول المكنات بمدَّة.

عاد والتفت إلى زوجته مبتسماً:

- ولا خبر مُسلٍّ؟!..

- كانت زينب عندنا تزور رفيقتها وفاء، فأقامتا الدنيا وأقعدتاها، لعب بالطابة ثمَّ بالحلجة لساعات، ثمَّ نقاشات ومشاحنات بصوتٍ عالٍ لساعات أخرى.. طوشونا!..

سأل ابنته وفاء:

- لمَ المشاحنات؟!..

- لم يكن هناك أيَّةُ مشاحنات.. كنَّا نتناقش حول آنا كارنينا.

تابعها مستفسراً.. فأكملت:

- زينب كانت تقول أنَّ آنا كارنينا غبية وبهيمة!..

- لماذا؟!..

- لأنه كان عليها أن تعرف أنَّ امرأة تترك زوجها من أجل آخر.. سيأتي

يوم يتركها هذا من أجل امرأةٍ اخرى.. حينها لن تجد حلاً سوى رمي نفسها تحت عجلات القطار، لذلك فهي غبيَّة وبهيمة!..

علّق رأفت:

ـ زينب قالت ذلك؟!..

فردَّت أم نضال:

ـ زينب عفريتة.. شاقة الأرض وطالعة.

سأل رأفت ابنته:

ـ وأنت ما رأيك؟!..

ـ أنا من رأي زينب ما عدا موضوع الانتحار.. يعني كان بإمكانها أن تتوب وتصبح راهبة وتدخل أحد الأديرة.. كانت القصة تصبح أجمل وأقلّ قسوة.

تدخَّلت أم نضال قائلةً:

ـ يا «أبو أحمد»، والله هذه الكتب والروايات لا تناسب البنات في هذا العمر.. بكيّر عليهن.

وافقها أحمد ابن زوجها:

ـ والله كلام خالتي أم نضال صحيح يا أبي.

فردَّ أبوه عليه:

ـ لا.. ليس صحيحاً.

شعر أن كلامه كان فجّاً، فنظر إلى وجه زوجته المستاءة وقال لها:

ـ يا أم نضال، هذه الروايات من أرقى الروايات في العالم، وكُتّابها من أعظم الكُتّاب في العالم.. وكاتب هذه الرواية «آنا كارنينا» لم يكتبها ليفسد عقول بناتنا بل ليصلحها، إنه يساعدك أنت الأم الفاضلة العظيمة على تربية أولادك.

انشرحت أم نضال لمديحه بعض الشيء، فقالت محاولةً التخفيف من جديّة النقاش:

- يعني الحقيقة الحقيقة.. لا يركب الموضوع على عقلي، بنتان طفلتان تلعبان في صحن الدار ساعتين بالطابة، ثمَّ ساعتين بالحلجة، ثمَّ تجلسان معنا تتحدَّثان عن آنا كارنينا.. فتأملُّوا يا ناس.

أجاب رأفت مبتسماً:

- إحداهنَّ ستتزوَّج بعد أشهرٍ قليلةٍ، وستصبح أماً بعد سنة.

احمرَّ وجه ابنته وفاء، وتلهَّت بطلب الملح، بينما كان أخوها خالد يغمزها بعينه.

نظر رأفت إلى ابنه خالد وتذكَّر مراهقته.. تذكَّر كيف ضبطه ذات يومٍ وكان يقرأ كتاباً رخيصاً عن الجنس، كان المحتوى رديئاً مُقززاً، جنس فموي وجنس في جميع الأوضاع.. حمل يومها الكتيِّب معه، وفي المكتبة أخذ ينتقي مجموعة من الكتب.. روايات شيقة من الأدب العالمي، ثمَّ لمح رواية ستاندال.. الأسود والأحمر، فقال لنفسه: ليتعرَّف على الجنس وسطوة الجنس ومرارات الجنس، حمل هذه المجموعة معه إلى البيت، وضعها على سرير خالد والكتيِّب الرخيص معها، كان مقتنعاً أنَّ من يقرأ الروائع لن يستهويه الرخيص ولن يستسيغه، إلا أنَّه أنَّبَ نفسه لتأخُّره في الانتباه لخالد، الأمر الذي لم يحدث مع بقيَّة أبنائه.

نظرمرَّة ثانية إلى خالد وتساءل إن كان الأمر قد نجح معه.. ثمَّ ابتسم في سرِّه، فلقد كان «صيتْ» خالد الغندور يصلهُ من بعيد، إلا أنه استدرك قائلاً لنفسه: لكن ما دخل هذا بذاك؟..

كانوا على وشك الانتهاء من الطعام عندما سمعوا طرقاً على الباب، قالت أم نضال:

- اللهم خيرا!..

قام خالد ليفتح الباب وليعود سريعاً ومعه محمود ابن صديقهم، كان وجه محمود مُكفهراً خائفاً.. حيًّا وقال بكلمات سريعة:

- لا أعرف ماذا حصل لأمي.. كنا جالسين وفجأةً وضعت يدها على

صدرها واصفرَّ وجهها.. أرسلني أبي كي أحضر الطبيب، ولما عدت مع الطبيب قالت لي زينب أنَّهم ذهبوا إلى المستشفى، وأرادت أن تأتي معي فرفضت.

أسرع رأفت واقفاً، وطلب من خالد أن يسرع بطلب عربة خيل، وطلب من زوجته أن ترتدي ملابس الخروج.

دخل رأفت من باب المقهى الشعبي، وحيَّا الجميع، فبادلوه التحيَّة، كانوا يحبونه ويشعرون أنه يحبهم، كان واحداً من اثنين أو ثلاثة من روّاد المقهى يرتدون الجاكيت و البنطلون، ولم يشعر يوماً أن عليه ممالأتهم فيرتدي القنباز عندما يأتي لمقهاهم مع أنه يرتديه أحياناً، جلس وظهره إلى الحائط حول طاولة سبقه إليها أبو محمود صاحبه، سأله إن كان عرض زوجته على طبيب أختصاصي آخر، فأجابه أن كل الأطباء متفقون على أنّ أعراض انقراص الرقبة والنوبة القلبية متشابهة، وأن الجميع طلبوا منهم ألا يقلقوا. ألحَّ رأفت عليه:

ـ دع طبيباً أختصاصياً آخر يفحصها.

أتاه كأس الشاي سريعاً.. كان يعرف أنَّ نقاشاً ما كان دائراً، وأنَّ الجميع، عندما يحمى النقاش، يشتركون به. كل الطاولات وبشكل فوضوي مزعج. كان الامر يختلف في بعض المرات، فيهدؤون ويتبادلون آراءهم بهدوء، ولكنها مرَّات نادرة. افترض أن رحيل الفرنسيين وتشكيل أول حكومة وطنية كان محور النقاش، وسرعان ما أتاه السؤال:

ـ أليس صحيحاً يا «أبو أحمد» أنه كيفما دارت أو اتجهت، ثمَّ دارت واتجهت.. ستحط مكانها؟.. يعني الأغنياء والملاك والمليونيرية والبكوات سيستلمون الحكم؟..

ـ ليس بالضرورة.. ثمَّ ما بهم الأغنياء والملاك؟.. قسم كبير منهم وطنيون شرفاء.

أجابه أبو قاسم النجار:

ـ نحن نخاف من القسم الآخر.

فضجَّ الجميع بالضحك.

ضحكَ رأفت معهم، ثمَّ قال:

ـ على كلٍّ لم نرَ خيرهم من شرِّهم.. لننتظر ونحكم.

علّقَ رمضان، وهو بائع كتب مستعملة «يبسطها» على الرصيف، وهومن معارف رأفت المقربين:

ـ خيرهم قليل، وشرَّهم كثير يا «أبو أحمد».. كانوا كذلك على مرِّ التاريخ وسيبقون.

ابتسم له رأفت ثمَّ قال:

يا رمضان، الأغنياء كانوا دائماً قلَّة ذكية جشعة تستغل الأكثرية الساذجة.. هذا صحيح، ولكنها قلَّة جشعة مبدعة وخلاَّقة، والسبب بسيط جداًّ.. همُّها الأوَّل والأخير هو ابتكار أذكى الطرق وأسرعها لتحقيق أكبر ربح، ولكنها.. وهي تفعل ذلك، تُبدع وتخلق وتطوِّر وسائل وتشجِّع اختراعات وتسهم إسهاماً كبيراً في تقدُّم الناس وتعميم المكاسب.. هذه سنَّةُ الكون، الدنيا لا تعمر من دونهم يارجل.

لاحظ رأفت نظرات رمضان المتشككة بكلامه، ولكن وقبل أن يهمَّ هذا في البدء بمجادلاته الطويلة ـ كما هي عادته ـ سارع وغيَّر الموضوع وسأل فجأةً:

ـ ما هي أخبار فلسطين؟!..

قال أبو حسن السمَّان:

ـ يقولون أنَّ الانكليز والفرنساويين سيجلون عن كلِّ الأراضي العربية إلا فلسطين، سيبقى فيها الانكليز ليحموا اليهود المهاجرين من العرب.

تدخَّلَ رمضان بالقول:

ـ يا رجل قتل اليهود من الانكليز في فلسطين أكثر مما قتل العرب.

علت الأصوات:

- من أين أتيت بهذا الكلام؟!..

قال رأفت:

- في مرحلة معيَّنة قيَّد الانكليز هجرة اليهود إلى فلسطين، فجُنَّ جنون اليهود، قاموا بمهاجمة الانكليز.. نصبوا الكمائن ووضعوا المتفجرات وسبَّبوا أذىً كبيراً للقوَّات الانكليزية.. ولكنها مرحلة وانتهت، وعلاقاتهم جيدة الآن.

- إذن هو خلاف بين الأحبة..

علَّق أبو قاسم.

تدخَّلَ أبو محمود قائلاً:

- وعد بلفور هو وعد انكليزي بالأساس، وأوروبا.. كل أوروبا تريد أن تنتهي من مشكلة اليهود فيصدِّرونها إلينا.

علا صوتٌ:

- بيريني عن ديني.. يرحل الانكليز اليوم، ثاني يوم نأكلهم بلا ملح.. ناس جبناء!..

نظر إليه رأفت وابتسم، ثمَّ نظر إلى أبو صطيف.. زميل الدراسة التي تركها باكراً، وكان يُدخِّن الأركيلة، سُمِعَ صوت أبو صطيف عالياً:

- يا سيدي لم يكونوا يوماً جبناء.. أنا أتكلم عن اليهود هنا.. يهود حلب، طبيعي.. الأمور اختلفت الآن، بعد أن بدأ بنا يهود أوروبا في فلسطين.. تقوقع اليهود هنا على بعضهم، وخافوا من انتقامنا منهم، وهذا ما يظهرهم بمظهر الجبناء.

علت الأصوات هنا وهناك، وتداخلت مع بعضها فالكل يريد أن يتكلَّم، وانتهى الأمر بأن تكلَّموا جميعهم دفعةً واحدةً.

فجأةً ساد الهدوء للحظات، فاستغلَّه أبو خالد.. وهو رجلٌ تجاوز الستين من عمره.. يعمل في سوق الخضار.. قال:

- هل تريدون الحقيقة؟.. الحقيقة هي أننا كُنَّا نعيش معهم كالأهل تماماً كانت تحدث مشاجرات نعم، ولكنَّها كالمشاجرات التي تحصل بيننا، بل صدِّقوا أو لا تصدِّقوا أنا نفسي شاركتُ في صغري بأكثر من مشاجرة، وكان في كلا الطرفين يهود وعرب، يا جماعة إنَّهم ناس عاديُّون فيهم الأخيار والأشرار كما عندنا نحن أخيار وأشرار، أمَّا اليهود الأوغاد الذين هبطوا على فلسطين فهم مختلفون عن هؤلاء، أتوا من روسيا وأوكرانيا وبولونيا.. حاقدين مهووسين، هؤلاء من يجب قصف رقابهم لا يهودنا نحن!..

تساءل صوتٌ:

- هل سمعتم ما سمعت؟.. يهودهم ويهودنا؟.. ما هذا الكلام الفارغ؟..

فَكَّرَ رأفت في المُغادرة، وعندها سمع أبو جاسم النجار يقول:

- الموضوع لا يحتاج شطارة ولا استخارة ولا بكالوريا.. جاء اليهود إلى فلسطين بمهمَّة واضحة.. إنشاء دولة لهم.. نحن مهمَّتنا منع ذلك.

نظر رأفت إليهِ مُعجباً جداً بهذا التلخيص، وقف مُغادراً وهو يقول:

- هذا أبسط الكلام وأجمله.

خرج أبو أحمد من المقهى قبل العشاء بقليل، وسار باتجاه حي العزيزية.. كان يريد أن يصل إلى وكالة سنجر قبل أن تغلق أبوابها، في الطريق صادف صديقه أبا اسحق، سارا سويَّةً في نفس الاتِّجاه، سأله أبو اسحق:

- هل أنت ذاهب إلى مقهى الأفندي؟!..

- لا.. سأسافر غداً إلى الشام، وعندي هنا أشغال صغيرة سأقضيها، كيف أحوالك أنت؟!..

أجاب أبو اسحق وهو يهزُّ رأسه يمنةً ويسرة:

- أنا دائخ.. قليلاً وينفجر رأسي.

- الأوضاع سيئة أليسَ كذلك؟..

ـ جداً جداً.. أنا عمري الآن 55 سنة ولم تمرّ على أيام كمثل هذه الأيام طيلة حياتي.. خوف من المستقبل، قلق من الحاضر، رعب حقيقي من خسارة كل شيء.. حياتنا كلها هنا في حلب يا رجل، هنا ماضينا وحاضرنا ولا نعرف الآن أين سيكون مستقبلنا، ولا كيف يكون من دونها.

حاول رأفت التخفيف عنه:

ـ وكِّل الله يا رجل.. الأمور لم تنته بعد.

ـ يا رجل الناس تغادر.. الجميلية فرغت من نصف سكّانها اليهود، البيوت هناك أصبحت أسعارها مثل الفجل.

ثمَّ انتبه وتابع..

ـ لماذا لا تأخذ شقَّة أو اثنتين لك هناك.. الأسعار لا تُصدَّق، الآن في شارع اسكندرون هناك شقة رائعة للبيع.

ابتسم رأفت ولم يردّ، كانا قد وصلا إلى مفرق العزيزية.. قال له رأفت مودِّعاً:

ـ سأمرُّ لزيارتك خلال اليومين القادمين بعد عودتي من دمشق.

ـ وعد؟!..

ـ وعد.

أنهى رأفت عمله في وكالة سنجر واتَّجه نحو شارع بارون.. حجزَ لنفسه مقعداً في سفريات «أرسان» التي كانت تُسيِّر رحلتين إلى دمشق في اليوم، كانت عرباتها أمريكية مريحة، وسائقوها مَهرة، ثمَّ اتَّجه نحو داره بخطا سريعة.

في اليوم التالي، وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر، كان رأفت في دمشق، نزل من العربة مرهقاً، فالجلوس لمدَّة خمس ساعات في العربة ساكناً كان يرهقه، كان يعلم أنه لن يستطيع مراجعة أي دائرة حكومية بعد هذه الساعة، ذهبَ مباشرةً إلى ساحة المرجة، ونزل في فندقه المعتاد.. سيتناول الغداء ويأخذ قيلولة، وبعد العصر سيمرُّ إلى دار النشر التي يتعامل معها، ثمَّ يزور بعض الأصدقاء، ومساءً سيذهب إلى السينما.

غادر رأفت فندقه بعد القيلولة بقليل.. وأخذ يسير مُتسكّعاً في الشوارع المحيطة بساحة المرجة، ثمَّ اتَّجه إلى دار النشر.. تناول القهوة مع المدير، وقدَّمَ طلبيَّته من الكتب، وغادر باتِّجاه سوق الحميدية ليقضي بعض الوقت عند أصدقاء له، تجّار قماش مثله.. دخل إلى محلّ أبي صياح فقام الأخير من على كرسيه متفاجئاً فرحاً به، واستقبله بالأحضان.. جلسا يتسامران مع فنجاني قهوة إلى أن دخلت امرأتان، أخذ رأفت يراقب مرتشفاً قهوته.. ومتسلياً بمهارة أبي صياح في البيع، ثمَّ دخلت امرأة ثالثة بمفردها تحمل بقجةً كبيرةً وضعتها جانباً بسرعة وكأنَّها كانت منهكة من حملها، لاحظ رأفت قوامها الجميل، وقفت جانباً تنتظر أبا صياح أن ينتهي من الزبونتين، ولكن دفعة جديدة من الزبائن دخلت فامتعضت المرأة وخاطبت أبا صياح باستحياء قائلةً له:

ـ أنت مشغول الآن يا «أبو صياح».. سأغيب، وأعود بعد قليل.

نظر إليها أبو صياح ولم يرد، وتابع تعامله مع الزبائن.

عندما عاد أبو صياح إلى كرسيِّه قال فرحاً منتصراً:

ـ حقَّقنا بيعتين من ثلاث.. الأخذ والعطاء مع النساء صعب أليس كذلك؟..

ـ طول عمرك كنت الأمهر يا «أبو صياح».. من هي تلك المرأة صاحبة البقجة؟..

ـ من.. ربيعة؟.. إنَّها امرأة مسكينة مطلَّقة.. طلقها زوجها لأنَّها لا تنجب، كانت أحوال زوجها جيدة ولكنه رماها كالكلبة، وهي تعيش الآن عند أخ لها نذل، لا يعرف إلا الله مقدار ما تدفع له مقابل سكنها معه.

ـ وماذا تبيع لك؟!..

ـ أنا لا أشتري منها.. إنها ماهرة في شغل الصوف.. شغل السنارة، تحيك قطعاً من الصوف لا بأس بها، أساعدها بعض المرَّات في تسويق أشغالها، وبعض المرات أشتري منها للبيت والمعارف، ولكن زادتها في المرَّة الأخيرة.

وقبل أن ينهي كلامه دخلت ربيعة، وإذ وجدته جالساً سارعت إلى فكّ عقدة بقجتها، واتَّجهت نحوه، فبادرها أبو صياح:

ـ يا ربيعة.. الله يسترك لا تعذبيني.. قلت لك آخر مرَّة مصلحتي أنا في القماش وليس في الصوف.. أنا أريد مساعدتك ولكن آخر مرَّة زدتيها.. ثلاثون قطعة دفعة واحدة؟.. أنت لا تعرفين كم تعبت.. خمس قطع هنا وسبع قطع هناك وثماني قطع عند صديق في الصالحية، ثمَّ أنهى كلامه واقفاً:

ـ لا أريد أن أرى شيئاً، لا تفتحي البقجة..

كان قد لمح زبائن جدداً دخلوا لتوِّهم، تنحَّت ربيعة جانباً، ثمَّ استدارت تنظر إلى رفوف القماش.. رفعت غطاء وجهها لترى أفضل، فرأى رأفت وجهها، إنها في الثلاثينيات من العمر، سأل نفسه: هل هي جميلة؟.. يبدو أنها كانت كذلك.. أجاب نفسه وتابع: يا إلهي كم تفعل التعاسة في

الوجوه، كانت بشرة وجهها ناصعة البياض، خالية من أية مساحيق تجميل، ولكن العقدة بين حاجبيها، وخطوط رفيعة لاتكاد تُرى على وجهها وعلى جانبي فمها.. كل ذلك كان يعطي وجهها تقاطيع قاسية حزينة لا أثر للجمال فيه.

عاد أبو صياح إلى كرسيه فقالت له ربيعة:

- طول عمرك يا «أبو صياح» كنت شهماً معي..

- بلا شهامة.. بلا مروءة، الله وكيلك لن أُعيدها.

ثمَّ نهض مستقبلاً زبائن جدداً.

انحنت ربيعة لتعيد ربط بقجتها وهي تتمتم:

- ثلاثون قطعة؟.. يستطيع شراء ألف قطعة، يا لطيف ما أقسى قلوب التجار الكبار.

وإذ بها تسمع صوتاً:

- هل أستطيع إلقاء نظرة؟!..

رفعت ربيعة رأسها، ورأته لأول مرَّة، هي لا تعرف من أين أتى.. رجل بالجاكيت والبنطالون، كان على ما يبدو جالساً مذ قَدِمَت ولكنها لم تلاحظه.

- تنوي إضاعة وقتك أم وقتي؟!..

قالت وهي مستاءة.

- لا..

أجابها رأفت مبتسماً. تردَّدت، فقال:

- أنا تاجر من حلب.

وبسرعة البرق فتحت بقجتها، وبدأت تضع نماذج من أشغالها شارحةً كل نموذج وكل قطبة بكلمات سريعة ولكن واضحة.. كان يستمع لشرحها مُنقّلاً عينيه بين وجهها وبين ما تعرضه، قال في نفسه: قسمات وجهها عن قرب أقلُّ قساوةً.. ثمَّ خجل من نفسه، وأخذ يتابعها بكلِّ

اهتمام، لاحظ قوة قطبها، وتنوع نماذجها.. إلا أنَّ نموذجاً بعينه لفت نظره فوقف عنده، قالت مبتسمةً بصوتٍ خافت:

ـ أنا لن أغشَّك.. هذا صوفه من نوعيَّة أقل جودة وأقلّ ضيان.. هذا النموذج عصري يشتريه الأغنياء والبكوات، ولمَّا كانوا يرتدون الشيء لموسم واحد أو اثنين ثمَّ يرمونه.. لم أكن أستخدم أجود أنواع الصوف في حياكته مع أنَّه أغلى سعراً من النماذج الأخرى.

ابتسم رأفت ابتسامة عريضة مع أنه لم يكن مُتَّفقاً معها تماماً.. قال لها:

ـ ألم تسمعي بالتريكو؟..

نظرت إليه مندهشة، فتابع:

ـ أغلب الناس لم يسمعوا به.. إنَّها مكنات تحيك الصوف.

ـ تحيك الصوف بلا سنارتين؟..

ابتسم وفكَّر أن يعرض عليها أن تأتي إلى حلب فتفتح محلاً لشغل الصوف.. لقد كانت فعلاً ماهرة، إلا أنه بدل ذلك سألها:

ـ كم قطعة في هذه البقجة؟..

ـ خمس وعشرون.

ـ كم واحدة مضروبة.. «ستوك».

دُهشت من خبرته، أجابت:

ـ لا أعرف.. اثنين.. ثلاث.

ـ كم ثمن القطعة بالمتوسط؟..

ـ من 7 ـ 10 ليرات.

ـ سآخذها كلها.. سأعطيك الآن 200 ليرة، وسأطلب من أحدهم في حلب تصريفها، فإن خسرت تشتغلي لي ولجميع أولادي جاكيتات صوف من نوع جيد لتعوضي الخسارة.

لم تصدّق أذنيها.. كانت لتقبل 150 ليرة من أبي صياح.. جلست على

الكرسي تتأمَّله وهو يفتح محفظته ويناولها المئتي ليرة.. شكرته، وأسرعت محاولةً الخروج قبل أن يغيِّر رأيه، فقال لها:

ـ أريد خمس قطع من ذاك النموذج الذي أعجبني، ولكن بصوف جيِّد.

وأخذ يبحث عنه.

ـ أعرفه.. أعرفه.

وهمَّت بالمغادرة.

ـ أرسلي القطع عندما تجهز عن طريق «أبو صياح».. هو سيحاسبك.. كم تحتاجين من الوقت لإنهائها؟.. أجابت:

ـ أسبوع.

في اليوم التالي عاد رأفت من دمشق بعد أن أنهى صباحاً مراجعاته في الدوائر الحكومية.. وصل إلى بيته ليلاً، وكان منهكاً، من الخطوة الأولى بعد ولوجه الباب شعر بأنَّ شيئاً ما قد حدث.. فخفق قلبه.. اجتاز صحنَ الدار بثلاث خطوات، ثمَّ رأى ابنه أحمد.. نظر إليه بقوة من دون أن يفتح فمه، فقال أحمد:

ـ تعيش أنت يا أبي.. لقد تُوفِّت أم محمود.. عدتُ أنا و خالد من واجب العزاء منذ قليل، خالتي أم نضال لا تزال هناك.

جلس رأفت على أقرب كرسي وهو يتمتم: لاحول ولا قوة إلا بالله.. الله أعطى والله أخذ.. رحمكِ الله يا أم محمود.. رحمك الله أيتها الست الفاضلة، رفض أن يتناول شيئاً، طلب كأساً من الشاي، وما أن أنهاها حتى وصلت زوجته.. أم نضال، عندما رأته انهمرت دموعها وكأنَّها سمعت النبأ لتوِّها، جلست إلى جانبه، قالت له أن الأطباء أكَّدوا أنَّ النوبة الأولى كانت نوبة قلبية، ولم تكن انقراصاً في الرقبة، وأنها كانت بمثابة إنذار، أما النوبة الثانية فقد أودت بحياتها.. هزَّ رأسه ولم يُعلِّق، ثمَّ نهض قائلاً:

- أنا ذاهب إلى بيتهم.

- أنت واصل لتوِّكَ من سفرٍ طويلٍ.. غداً..

- أنا ذاهب الآن.

كانت وفاة أم محمود زلزالاً هزَّ كيان بيت أبي محمود.. حزن الجميع حزناً شديداً، إلا أنَّ الفجيعة كانت واضحة أكثر عند شخص واحد بذاته.. إنَّها زينب، ظلَّت الأيام الأولى مذهولة مأخوذة صامتة لا تنطق.. فيما بعد أخذت تسأل الأسئلة التي لا أجوبة لها.. وتُعلِّق تعليقات لا معنى لها، ثمَّ التجأت إلى غرفتها لا تبارحها أبداً.. كانت سمعت النساء في العزاء يتحدثن عن مشيئة الله، ثمَّ يحمدنه ويشكرنه، كانت مُستعدَّة أن تتفهَّم حمده، ولكن شكره لماذا؟.. وفي أحد الأيام جاهرت أباها بذلك، وإذ به يصفعها صفعةً قويَّةً كانت الأولى من أبيها مذ وُلِدَت، فانخلع قلبها من الخوف.. ليس من الصفعة، ولكن لأنَّها عرفت أنَّ إثماً كبيراً قد ارتكبته.. فأخذت تستغفر ربَّها ألف مرَّة في اليوم، وأكثرت من قراءة القرآن الكريم.. ساعات في الصباح، وساعات في المساء.. والحقيقة أنَّ قراءة القرآن كانت تُخفِّف من خوفها، وترمي السكينة في نفسها، وستبقى هذه القراءة تلازمها طوال حياتها، ولكنَّ خوفها لم يغادرها تماماً إلا عندما تذكَّرت فجأةً، وكان قد انقضى أسبوعان أو ثلاثة على وفاة والدتها، شفيعها.. كما كانت تُحبّ أن تقول، النبي محمد الأكرم، كانت قصَّتها معه بدأت منذ سنوات في المدرسة الفرنسية، كان لديها زميلة مسيحيَّة رقيقة جداً.. وكان عند هذه عادةُ التلفُّظ باسم العذراء السيدة مريم بمناسبة ومن دون مناسبة.. إذا سمعت خبراً كانت تقول يا عدرا.. إذا رأت شيئاً جميلاً تقول ياعدرا.. تقولها بطريقة عذبة جميلة دفعت زينب للبحث في الإسلام عن

اسم تستعمله لمثل هكذا مناسبات.. سألت عن مذكّر عذراء فلم يجبها أحد، سألت عن أية عذراء في الإسلام مُبجّلة ومحترمة فكان الجواب أنّه يوجد، ولكنها هي نفسها السيدة مريم البتول المُبجّلة والمحترمة جداً والوارد اسمها في القرآن، كانت تعرف ذلك، ولكنها دُهِشت لهذا المُشترك بينها وبين زميلتها تلك، إلا أنّها كانت تريد اسماً يخصُّها هي.. يخصّ دينها.. إلى أن سمعت يوماً خالتها مؤنسة، وكانت تُلبِس إحدى بناتها فستاناً جديداً.. ثمّ تبتعد خطوة إلى الوراء وتصرخ: يا محمد العربي ما أجملكِ.. أعجبتها العبارة والتقطتها، ومن حينها كانت إذا رأت وردةً جميلةً تقول يا محمد العربي ما أجملها.. وإذا سمعت أمراً أدهشها تقول يامحمد العربي، وإذا أقسمت تُقسِم بالنبي محمد، وهكذا وجدت لازمتها المنافسة للازمة زميلتها.. حين تذكّرت كل ذلك، قالت لنفسها.. مهما كان إثمي كبيراً فسيشفع لي النبي محمد، وغادرها خوفها نهائياً.

كانت أختها المتزوّجة خديجة قد تركت بيتها هي وزوجها وولداها الصغيران ليسكنوا معهم مؤقتاً.. على الأقل لما بعد الأربعين كما قالت حينها.. ولقد ساهم أولاد أختها إلى حدٍّ بعيدٍ في سلواها.. فكانا الوحيدين اللّذين تسمح لهما بدخول غرفتها إضافةً لوفاء صديقتها الأقرب. وفي إحدى الصباحات المبكرة - وكان انقضى أكثر من شهر على وفاة أم محمود - استيقظت خديجة مُبَكّرةً كعادتها لتتفاجأ بأنَّ المنزل بكُلِّ غرفه مُرَتَّب ومُنَظَّف، وزينب في المطبخ تُعِدُّ الفطور وهي تلاعب الصغيرين، تمعَّنت بها.. كانت نحلت بعض الشيء.. أمّا عيناها فلم يعد إليهما بريقهما السابق، سُرَّت خديجة بعودةِ الروح إلى أختها، وسألتها متجنّبةً الحديث في الموضوع:

- يا عفريتة كيف استطعت الانتهاء من شغل البيت بهذه السرعة.. هل استيقظت قبل صلاة الفجر؟..

ـ لا.. بعدها بقليل.. أنهيتُ ترتيب البيت، وأعددتُ الفطور لأبي، وودَّعتهُ حتى الباب.

ـ اللّه.. اللّه.. من يستطيع مجاراتك.

قامت زينب لتحضر القهوة لأختها.. كان شعرها مُسدلاً بكامله على كتفيها.. كانت طويلة بالنسبة إلى عمرها.. وقفتها ومشيتها وطريقة كلامها، كل ذلك كان يعكس ثقتها بنفسها واعتزازها بشكلها الحسن وبذكائها الذي كان محطَّ إعجاب الجميع.. فكَّرت خديجة في نفسها: ولكن كل ذلك مجروح الآن.. الثقة والذكاء والشكل والوقفة والمشية.. كله مجروح، كادت تبكي.. تذكرت جرحها هي أيضاً، فتمالكت نفسها وخرجت بسرعة لتعود بعد لحظات بوجهٍ طبيعي وتتناول القهوة مع أختها متبادلةً معها أطراف الحديث.

علِمَت منها أنَّ وفاء أجلَّت زواجها حتَّى نهاية الصيف بسبب وفاة والدتهما، وعلمت زينب منها أنَّ أمّ نضال لم تتركهم يوماً واحداً.. كانت ترسل الطعام يوميَّاً، وظلَّت كذلك حتَّى نهاية الأسبوع الثاني، ولولا إلحاح خديجة لما توقَّفت حتى اليوم.. هذا عدا عن مجيئها كل يومين أو ثلاث لتسأل عن حاجاتهم.

عندها قالت زينب:

ـ وأنا كنت أقول لنفسي من أين لخديجة هذا النفس الطيب في الطبخ!..

ـ طبخي أفضل من طبخك يا سعدانه!..

ولكزتها بكوعها، ثمَّ نهضت خديجة لتَفُكَّ اشتباكاً بدأ بين الصغيرين قائلةً لأختها:

ـ من أكبر بالعمر أنتِ أم وفاء؟..

ـ وفاء أكملت الستة عشر عاماً.. أنا ليس بعد، بيننا أربعة شهور.

❖❖❖

في المساء جلسَ رأفت إلى جوار صاحبه أبي محمود في السوق، فوجدهُ مهموماً شارداً.. حَدَّثهُ عن مصاعبه في البيت مع الأولاد، وأنَّ ابنته خديجة

ستغادر بعد فترة إلى بيتها.. ثمَّ قَصَّ عليه ما حدث مع ابنته زينب، وعن تجديفها أثناء فترة العزاء، فعلَّقَ رأفت غاضباً:

- هذا سببه أسلوب التلقين الأعمى.. يلقنونهم ولا يعلّمونهم، خاصَّةً في الأمور الدينيَّة.. يحثّونهم على الحفظ من دون فهم ولا معرفة.. انظر النتيجة، ألم تشرح لها لماذا نشكرُ الله؟..

- لقد فعلت.

- أرسل لها الشيخ عبد الستار، أو ما اسم تلك المرأة الفاضلة زوجة المرحوم الشيخ شعبان؟.. يقولون إنَّها تملك أسلوباً جميلاً أخذته من زوجها، أو..

ثمَّ فكَّرَ للحظات وسألَ:

- ماذا فَعَلَت عندما صفعتها؟..

- ذهبت وفتحت القرآن الكريم، وبدأت تقرأ فيه.

- لا ترسل لها أحداً.. إنَّها ذكيَّة ستُعَلِّم نفسها بنفسها.

ثمَّ قام رأفت وودَّعَ صاحبه قائلاً إنَّه ذاهب إلى مقهى الأفندي.

دخلَ رأفت إلى مقهى الأفندي، واتَّجهَ إلى طاولته المعتادة مُنضماً إلى الأستاذ ضياء أستاذ مادَّة الجغرافيا في ثانويَّات حلب، كان ثالثهم أبا شكري، وهو موظَّف مرموق في ديوان المحافظة، أمَّا الرابع فكان الأستاذ سمير أستاذ الفيزياء في مدرسة التيرسانت «الأرض المُقدَّسة»، وكان ينضمُّ إليهم في بعض الأحيان أبو اسحاق التاجر اليهودي القريب إلى القلب والذي كان غائباً ذلك اليوم.

كان الحديث حول طاولتهم الصغيرة يختلف عن الحديث الجاري حول طاولة الحج عبد القادر المجاورة لهم، هناك كانت النقاشات تتركَّز في مُعظمها حول الأمور السياسيَّة الداخليَّة.. أخبار الوزارة.. أخبار الوزراء، أخبار عن صراعات على المناصب، أخبار عن خلافات ضمن الحزب الواحد، أخبار عن وعود أُعطيت لشخصيَّات مُعيَّنة وأخبار عن نكوصٍ عنها، كانوا، إن تحدَّثوا في السياسة الخارجيَّة، فالتركيز عندهم كان على العراق، مع بعض الاستثناءات طبعاً.. عندها كانوا يغوصون في شرح الفوائد الكبرى المُتوخَّاة من الاتِّحاد بين سوريا و العراق، ومعنى أن تكون أسرة هاشميَّة على رأس هذا الاتِّحاد، و الحقيقة أنَّه في ذلك اليوم كان الحج عبد القادر يشرح ذلك المعنى بإسهاب، وما سيرافق ذلك من استقرار وازدهار، كانت الطاولة التي يجلس حولها الحاج عبد القادر ورفاقه قريبة بعض الشيء من طاولة الأستاذ ضياء ورفاقه.. التفتَ سمير أستاذ الفيزياء نحو رأفت، وقال بصوتٍ خافتٍ:

ـ التاجر يبقى تاجراً.. لو تكلَّمَ في الحُبِّ فهو تاجر، لو تكلَّمَ في الفنِّ فهو تاجر، فما بالك إذا تكلَّمَ في السياسة التي هي في الأساس تجارة واقتصاد!..

والغريب أنَّ الأستاذ سمير كان عندما يتكلَّم عن التجار.. ينسى دائماً رفيقه ونديمه التاجر رأفت، أو أنَّهُ كان لا يحسبه كذلك، أمَّا رأفت فلم يحسب نفسه مقصوداً أبداً.

قال رأفت:

ـ ليس كُلّ من يُطالب بالاتِّحاد مع العراق تاجراً، أو أنَّهُ يسعى وراء منافعه.

ـ من مثلاً؟..

ـ أنا.

نظرَ إليه الأستاذ سمير مُستفسراً فأردف قائلاً:

ـ كُلُّ اتِّحاد بين دولتين عربيتين هو مَكسب وإنجاز، الأُسر الحاكمة تأتي وتذهب، وتبقى الشعوب موحَّدة يا أخ سمير.

ـ يا عزيزي.. الأسرة الهاشميَّة طردها السعوديُّون من الجزيرة العربيَّة، وهي مذ ذاك تتسوَّلُ عرشاً هنا وإمارة هناك، ومن المُتصدِّق؟.. بريطانيا، وأين؟.. في العراق.. في بلاد الشام، الملكيَّة الهاشميَّة في العراق صناعة بريطانيَّة، وتريدُ أنتَ أن تتَّحد معها؟..

تدخَّلَ أبو شكري قائلاً:

ـ كلُّ دولنا في المنطقة هي صناعة بريطانيَّة، وصناعة فرنسيَّة أيضاً، كلُّها بلا استثناء، هل نسيت سيِّئي الذكر سايكس البريطاني، وبيكو الفرنسي؟..

ـ أنتَ تغشّ.. الموضوع مُختلف.

ـ ثمَّ ما بكَ والأسرة الهاشميَّة.. إنَّهم من أهل البيت يا أخي.

وأكمل ممازحاً:

- أم أنَّكَ كمسيحي تشعر بأنَّكَ غير معني؟..

- أنتَ تعرف أنَّ مسيحيَّتي لا علاقة لها بالموضوع.

كان الجميع يعرفُ ذلك جيِّداً.. ابتسمَ رأفت وقال:

- إنَّهُ يمازحكَ يا «أبو جورج».. إنَّهُ يمازِحُكَ.

هنا تدخَّلَ الأستاذ ضياء وقال:

- أنا مع رأفت في رأيهِ.. كلُّ اتِّحادٍ مطلوب.. ولا أحد يعرف المستقبل، فالحاكم أو الملك عندما يشعر بقوَّتهِ داخليّاً وبأنَّ الشعب معهُ يتخلَّى عن الأجنبي ويبيعهُ.

فأجابهُ الأستاذ سمير:

- أنتَ تحلُم يا أستاذ.. أنت تحلُم.

- لنُغيِّر الموضوع.. هل نيَّة اليهود الحقيقيَّة إقامة دولة لهم في فلسطين.. هل سينجحون في ذلك؟..

أجاب رأفت:

- لم يأتِ الروسي و الأوكراني إلى فلسطين ليندمجَ مع العربي.. أتوا ليقيموا دولة.. نجاحهم أو فشلهم يتوقَّف علينا وعلى الدول الكبرى، إن تقاعسنا قليلاً ودعمتهم الدول الكبرى قليلاً.. فدولتهم قائمة لا محال.

قال أبو شكري:

- أنا رأيي أنَّ مصالح الغرب معنا وليست معهم، النفط عندنا، والموقع الاستراتيجي عندنا، وقناة السويس عندنا، والغرب ليس أحمق ليهمل مصالحه الحيويَّة التي هي حصراً عندنا، فكيف يدعمهم؟.. إنَّه وببساطة يريد أن يتخلَّص منهم، ويقذفهم في وجهنا، ويسحب يدهُ من الموضوع.

- إنَّهم أذكياء، ويتاجرون جيداً بعقدةِ الذنب التي يحملها الغربيون تجاههم، خاصَّةً بعدَ انكشاف ما فعله الألمان النازيُّون بهم.

- الغرب ليس واحداً.. موقف أمريكا سيكون حاسماً، ولا أعتقد أنَّ موقفها قد تبلورَ حتى الآن.

وروسيا.. الاتحاد السوفييتي؟..

أجاب الأستاذ سمير:

- روسيا تدعمهم الآن.. هي ترى في المستوطنات اليهوديَّة الزراعيَّة صورة عن الكولخوزات السوفييتية، ولا تنسَ أنَّ رواد اليهود الأوائل في غالبيَّتهم الساحقة علمانيُّون، لاحِظ موقف الحزب الشيوعي السوري من الموضوع، إنَّهُ يتبع بانضباط شديد موقف الاتحاد السوفييتي الممالئ لهم.

قال له الأستاذ ضياء:

- هؤلاء أصدقاؤكَ!..

- نعم أنا أُحبُّهم، ولذلك فإنَّ نقدي لهم صارم.

- إذن هم يلعبون بخُبث.. يظهرون في مستوطناتهم الزراعيَّة وكأنَّهم جزء من الأمميَّة الاشتراكيَّة؟.. .

- مشروعهم قومي، ولن تنطلي على السوفييت، وسرعان ما يتخلَّون عنهم.

- مشروعهم منذ بدايته كانَ قوميّاً.. هو وليد الحركة القوميَّة التي شاعت في أوروبا القرن الماضي، وتمخَّضت عنها دولُ أوروبا الحاليَّة.

- أعطوه فيما بعد بُعداً دينيّاً أسطوريّاً بشكلٍ مُتقصَّد ليلعبوا على عقول العامَّة منهم.

- البُعد الديني كان موجوداً منذ البدايات.

- أنا أُراهن على أمريكا.. الولايات المتحدة ليس لها عندنا ماضٍ استعماري كالانكليز والافرنسيين، وهي الآن الوريثة الشرعيَّة لهما، ومصالحها هائلة في المنطقة، وهي أيضاً محبوبة عندنا، هي تعرفُ ذلك ولا تريد أن تُفرِّطَ به.

- محبوبة عندنا لأننا لا نعرفها.. ومكروهة في أمريكا الجنوبيَّة لأنَّهم عرفوها، ما فعلتهُ بهم لم يفعلهُ الانكليز والفرنساويون بنا، الدول الكبرى كلُّها متساوية في الشر وإن اختلفت الأساليب باختلاف العصور.

ـ أنا أتَّفقُ معكَ.. أسلوب الأمريكان مُختلف، يسعون وراء مصالحهم بمنتهى الوضوح.. ليس عندهم لؤم وتدليس الانكليز.. هم في مصالحهم مباشرون.. لا بعثات استكشافيَّة ولا علميَّة ولا مستشرقون ولا هم يحزنون، حتى البعثات العلميَّة التبشيريَّة لا يهتمُّون بها إلا فيما ندر.

ـ وأين تذهب بالكليَّة السوريَّة الإنجيليَّة في بيروت، والتي أصبحَ اسمها الآن الجامعة الأمريكيَّة؟..

ـ قُلتُ إلا فيما نَدَرْ.

في هذه اللَّحظة نَظرَ نحوهم الحاج عبد القادر، ونهضَ قائلاً بصوتٍ عالٍ:

ـ سأنضمُّ إليكم، فقد مللتُ من أصحابي..

قالها وأعقبها بضحكة مُجلجلة.

جلسَ على كرسيٍّ حول طاولتهم.. كان ضخماً.. صوته جهوري، دائماً عالي، مع كرشٍ يتناسبُ مع حجمه، وكان يرتدي بذلة فاخرة مصنوعة من الجوخ الانكليزي الفاخر، وربطة عنق جميلة.. بعد أن استقرَّ على كرسيِّهِ أخرجَ علبة سجائره.. كانت علبةً معدنيَّة من التنك، رفعَ غطاءها الأحمر الأرجواني المكتوب عليه «فيليب موريس» مع شعارها، وتناولَ منها سيجارة.. حاولَ أن يُقدِّمَ سجائر للجميع، لكنَّهم اعتذروا شاكرين.

قال وهو ينفثُ دخان سيجارته:

ـ لا بدَّ أنَّكم تتكلَّمون عن فلسطين.

ـ هذا صحيح.. كنَّا نتحدَّث عن مدى جَديَّةِ اليهود في إقامةِ دولة لهم هناك.

ـ أنا كنت في الشام منذ يومين.. معلوماتي الأكيدة أنَّ الانكليز لن يرحلوا من فلسطين قبلَ أن يقيموا حكومة مُختلطة من الفلسطينيين واليهود تستلم البلد وتديره.

قال أبو جورج:

ـ أشكُّ في هذا الكلام.. وأينَ تذهب بريطانيا بوعدِ بلفور؟..

ـ بريطانيا أعطَتْ وعوداً كثيرة، ولم تُنفّذ أيّاً منها.. هل نسينا وعدها للشريف حسين بإقامةِ الدولة العربيّة الكبرى؟..

ـ وعدها للهاشميين شيء، ووعدها لليهود شيءٌ آخرَ.. على كُلٍّ أخذَ الهاشميُّون منها جوائزَ ترضية في الأردن وفي العراق، وستحاول إعطاؤهم جائزة ترضية ثالثة.. سوريا..

امتعض الحاج عبد القادر فقال:

ـ لا تتطاول على هذه الأسرة الكريمة.. ستُثبت لكم الأيّام أنَّ هذه الأسرة الشريفة النبيلة هي مَفخرةٌ لكلِّ العرب.. مع كلِّ الظلم الذي تعرَّضت لهُ، خاصَّةً من ناسها قبلَ الآخرين.

أجابه الأستاذ ضياء بمنتهى الهدوء:

ـ لا شيء عندي وعند رفاقي ضدَّ هذه الأسرة الكريمة.. إنّنا فقط نعتقدُ أنّهُ وبعدَ فشل إقامة الدولة العربية الواحدة التي كانت حلم هذه الأسرة وحلمنا نحن جميعاً.. دخلت الأسرة في لعبة صناعة الدول والعروش، لعبة كانت تديرها بريطانيا حصراً.

نظرَ الحاج إلى الأستاذ ضياء، وقد أرضاه جزئيّاً هذا الجواب، ثُمَّ نقل نظره إلى رأفت قائلاً:

ـ هل بدأ معمل النسيج بالإنتاج؟..

ـ ليس بعد.. إنّهُ معمل صغير يا حاج.

ـ أستطيع مساعدتكَ في تصدير إنتاجكَ إلى العراق وغير العراق.. لاتخجل في الطلب.

ونهضَ عائداً إلى طاولته. كان شخصيَّةً قويَّةً طاغيةً، وكان هذا واضحاً على وجوه الرفاق الذين تنفّسوا الصعداء بعدَ مُغادرتهِ.

قال أبو شكري:

ـ من أين أتانا هذا؟..

ـ من قريش..

علت ابتسامةٌ على وجوههم حاولَ الجميع إخفاءها.

عندما جلس الحاج على كرسيِّه، مال نحو جاره أبو إحسان وكان قطباً كبيراً في الحزب ذاته:

ـ أبو جورج هذا هل هو شيوعي أم سوري قومي؟..

ـ لا هذا ولا ذاك.. من ذهبت لتجلس معهم يجمعهم عدم انتمائهم لأيِّ حزبٍ أو حركةٍ أو أيِّ نشاطٍ سياسي.. ولكنَّهم مثقَّفون جداً.

تدخَّلَ الأستاذ الياس، وكان قطباً آخرَ في الحزب نفسه:

ـ أنا أعرفهم.. إنَّهم مُنَظِّرون لا أكثر ولا أقلّ، لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، يقرأون كتاباً أو اثنين فيصبحون مثقَّفين، ويتكلَّمون معكَ كأنَّكَ تلميذ أمامهم.

أجابه أبو إحسان:

ـ صدِّقني إنَّهم من أكرم وأطيب الناس.. وأكثرهم تهذيباً.. لا تُخطئ في حقِّهم.

كان قد انقضى أسبوع أو أكثر بقليل على عودة رأفت من دمشق، كـان جالساً وراء مكتبه في عُمقِ محلّه في السوق يُراجعُ بعضَ الأوراق عندما ظهرت من على مدخلِ المحلِّ العريض.. كانت تحملُ صُرَّة صغيرة وحقيبة يد.. تنظرُ إليه واقفةً في مكانها.. أمعنَ النظر فعرفها.. وقفَ مندهشاً بينما كانت هي تدخل.

سلّمت ربيعة وجلَست على الكرسي، كانت تضعُ غطاءً مُضاعفاً على وجهها، بدأت الكلام من دون أن ترفع غطاءها:

ـ الحقيقة يا أبو احمد وعدُ الحُرِّ دين، أنا أنهيت طلبك منذ يومين، وذهبتُ إلى سوق الحميديَّة لأُسلّمَ القطع لأبو صيَّاح كما طلبتَ أنت فرأيتُ محلَّهُ مُقفلاً، سألت فعرفتُ أنَّ والدته قد توفيت، تعيش أنت، وأنَّ محلَّهُ سيبقى مُغلقاً لمدَّةِ أسبوع، احترتُ ماذا أفعل، سألتُ صاحب المحل جار أبو صياح..

ـ حج مصطفى..

ـ نعم.. حج مصطفى، فعَرِفكَ.. سألته عن عنوانك، ضحكَ وقال: عنوانه حلب فهو معروف.. حلب سوق المدينة، رأفت أفندي. ذهبتُ إلى الكراجات فلم أعرف كيف أرسل القطع، ولكنّي علمتُ أنَّ هناك بوسطة تُغادر في الصباح الباكر إلى حلب، وأخرى تعودُ من حلب عصراً، والراكب بليرة، ففكّرتُ بحمل البضاعة بنفسي.. خاصّةً أنّي كنتُ متضايقة جداً في الآونة الأخيرة، واعتقدتُ أنّها ستكون سفرة أُروّحُ بها عن نفسي قليلاً.

ـ لم يكن من داعٍ أن تُتعبي نفسكِ هكذا.

ـ يا إلهي إنَّها سفرة طويلة ومُتعبة.

ابتسمَ رأفت ولاحظَ أنَّها لم ترفع غطاءَ وجهها، ثمَّ قال:

ـ لا بُدَّ أنَّكِ جائعة..

نادى صانعهُ، وطلبَ منه الذهاب إلى اللحَّام ليوصيه على كباب.. حاولت أن تقاطعه قائلةً أنها ليست جائعة، ولكنَّهُ تابعَ مُخاطباً صانعهُ:

ـ احسُب حساب نفسكَ أيضاً.. فستتناول طعامك هنا في المحل مع الست، ثمَّ ستوصلها إلى الكراجات، وتابع ناظراً إليها:

ـ أنا مُرتبط مع ناس على الغداء، وسأذهب بعد قليل.

أعطتهُ الصرَّة بعدَ أن فتحتها، فتأمَّلَ على عجل القطع الصوفيَّة الخمس.. كانت من نوعيَّة جيدة، وقد تفنَّنت ربيعة في تنويع قطبها فيها.. أخرجَ محفظتهُ فقالت:

ـ قد تعوِّض هذه القطع خسارتك بالـ25 قطعة!..

ـ لم تكن هناك خسارة.. بيعت جميعها خلال أيَّام عندَ أحد أصدقائي.. محلُّهُ في التلل، وعندَ آخر، محلُّهُ في الجميليّة.

وأعطاها خمسين ليرة سورية ناظراً إليها مجدَّداً، ثمَّ سمحَ لنفسه بالقول:

ـ في المرَّةِ الماضيةِ رفعتِ غطاءَ وجهكِ وكان الأمرُ عاديَّاً، فما السرُّ اليوم؟..

لم تُجب.. عرفَ أنَّ في الأمر شيئاً.. ألحَّ، ولكنها لزمت الصمت، فقال بمنتهى الجديَّة:

ـ لن تخرجي من هنا قبل أن ترفعي غطاءكِ.

ـ لا يوجد شيء مهمّ يا أبو أحمد.. سقطتُ في الحمَّام وفُجَّ جفني وازرقَّ قليلاً.

ـ إرفعي الغطاء يا ربيعة.

فأُسقِطَ بيدها، رفعت غطاء وجهها، وأطرقت ناظرةً إلى قدميها.

وقفَ رأفت على الفور، وأخذت أنفاسهُ تتلاحق، كانت دائرة زرقاء كبيرة حول عينها اليسرى، وأخرى أصغر تحت عينها اليمنى، كان واضحاً أنَّها تعرضت للضرب، بل للكماتٍ قويَّةٍ.. سألها بعصبيَّةٍ:

ـ من فعلَ هذا؟..

ـ أخي.. إنَّهُ مسكين، ولكنَّ زوجته..

خرجَ من وراء مكتبه، ومشى بعصبية باتِّجاه باب المحل، كان عندما يسمع بأنَّ رجلاً ضربَ امرأة، أو يرى آثار ضربٍ على وجهِ امرأة يشعرُ بأنَّ جميع رجال الأرض اشتركوا في فعل ذلك، بمن فيهم هو نفسهُ.

عادَ الى مكتبه.. جلسَ على الكرسي، وسألها:

ـ كيف حصلَ ذلك؟..

ـ زوجةُ أخي سمعت منِّي بقصَّةِ المئتي ليرة، وأرادت أن تستولي عليها كلُّها، تشاجرنا، ثمَّ تدخَّلَ أخي وفعل ما فعله.

ـ ألديكِ أخ أو أخت غيره؟..

ـ لديَّ أخت أكبرُ منِّي متزوِّجة من رجلٍ قاسٍ وبخيل.. والداي متوفيان.

صمتَ لبرهة فقالت لهُ:

ـ الأمر ليسَ مهمَّاً.. لقد حصل قبلَ هذه المرَّة، واعتذر أخي مني، وعادت الأمور إلى مجراها.

ـ لن تعودي إلى بيتِ أخيك النذل هذا أبداً.

رجاها أن تذهب إلى مقدِّمة المحل، وتجلس على الكرسي القريب الموجود قربَ المدخل، ففعلت ما طلبه منها، رفعَ رأفت سمَّاعةَ الهاتف، وطلبَ صديقهُ أبو اسحاق، ذكَّرهُ بنصيحته له المتعلِّقة بشراء شقَّة في حيِّ الجميلية، وبأنَّهُ قرَّرَ الأخذ بها، طلبَ أبو اسحاق مهلةَ يوم أو يومين، فقال له رأفت:

ـ أعطيكَ يوماً واحداً.. يُستحسن أن تكون شقَّة مفروشة.. اشتريها

بشطارتك المعروفة، وسجّلها باسم ابني أحمد.. وأريدُ منك خدمة أخرى.. سأرسل لك بعد ساعة من الآن حُرمة.. سأقصُّ عليك قصَّتها فيما بعد.. استضفها عندك أو عند أختكَ ريثما تُؤمِّن الشقَّة.

نادى ربيعة فأتت لتجلسَ أمامه، قال لها:

- اسمعي يا ربيعة.. أنتِ إنسانة مظلومة، وعليك أن ترفضي ذلك.. أنا سأساعدكِ، ومردود عملك.. عرقُ جبينكِ سيكون لكِ، أنتِ ماهرة في حياكة الصوف، سأوفِّرُ لكِ كلَّ مستلزمات النجاح وستنجحين، ولن تعودي إلى دمشق إلا ستَّ الستات.

نظرت إليه، ولم تفهم إلا قليلاً.. في هذه الأثناء عاد الصانع مع الطعام فقال له أبو أحمد:

- تهيان طعامكما، وتوصلها إلى بيت أبو اسحق في الجميلية.. هل تعرفه؟..

- نعم أعرفه.

تدخَّلت ربيعة قائلةً:

- ولكن أغراضي حاجياتي.. لم أحمل معي أيَّةَ ثياب. .

فقاطعها رأفت:

- لن تحتاجي لأي منها.

ثمَّ ودَّعها، وغادر.

في اليوم التالي، وكان رأفت في محلّه في السوق، هاتفه أبو اسحق، وأبلغه أنَّهُ وجدَ شقَّة بسعر لا يصدَّق، وطلب منه أن يأتي ليراها، سأله:

- هل هي مفروشة؟..

- فرشها مقبول، ولا تحتاج إلا للقليل.

- وثمنها؟..

- ثلاثة آلاف ليرة.

طلب منه أن يشتريها، وينقلَ إليها الحرمة التي أرسلها له، فقال له

أبو اسحق:

- يا إلهي يا أبو أحمد.. ربيعة إنسانة مكسورة وضائعة.. لقد قطعت قلوبنا بمنظر وجهها.

- إنَّهُ الظلم يا أبو اسحق، إنَّهُ الظلم.. قاتله الله.

- ولكن يجب أن ترى الشقة بنفسك.

- لقد رأيتها أنت، وهذا يكفي.

أغلقَ الهاتف، وأطلَّ عبر مدخلِ محلّه على جارهِ أبي محمود، فرآهُ جالساً وحده، فجلسَ إلى جانبه مُستفسراً عن أخباره.. زفرَ صاحبه زفرةً طويلةً قائلاً:

- لا تتصوَّر يا أبو أحمد حجم الفراغ الذي تركتهُ أم محمود رحمةُ الله عليها.. حاولت ابنتي خديجة جهدها، ولكن لم تستطع ملء قسم صغير من هذا الفراغ، وتحاول الآن المسكينة زينب - وهي لا تزال جريحة - القيام بدور الأم معي ومع أخويها، لقد تغيَّرَ بيتنا يا صاحبي.. أصبحَ بيتاً آخرَ.

أجابهُ رأفت بحنان:

- وكِّل الله يا رجل.. الموت حقّ، كانت فجيعة من دون شكّ، ولكنَّ الحياة أقوى وأبقى.. أنت مسؤولياتك كبُرَت الآن.. وفي المستقبل القريب ستجد - إن شاء الله - زوجةً تليق بكَ وببيتكَ.

- هل تعرف أنَّ زينب أصبحت تستيقظ مع الفجر، وتُصلّي معي، وتُحضّر لي الفطور، وتبذل المستحيل معي ومع أخويها، وتبالغ في دلالي ومراعاتي، لقد فكّرتُ أنَّها تفعل ذلك شعوراً منها بالواجب - وهذا صحيح بالتأكيد - إلا أنَّها تفعله أيضاً من أجلِ أمرٍ آخرَ.

نظرَ رأفت إليهِ مستفسراً فتابع:

- عندي إحساس بأنَّها تعتقد أنَّهُ إذا تفانت في إدارة شؤون البيت وفي الحنو عليَّ وعلى أخويها بهذه الطريقة فإنّي سأمتنع عن الزواج.

ابتسمَ رأفت وقال:

ريد ان تحلّ امرأةٌ أخرى محل المرحومة أمها، ولكن عليها ان تُدركَ أنَّ زواجك أمرٌ لا بُدَّ منه، ليس فقط من أجلكَ، ولكن من أجلها هي وأخويها.

- متى علينا أن نُفكِّرَ بالزواج يا أبو أحمد؟..

- ليس قبل ستَّةِ أشهر من وفاة المرحومة، أليس كذلك؟.. زواجك هذه المرَّة سيكون مختلفاً يا أبو محمود.. فأنت هذه المرَّة ستختار زوجةً صالحةً لك ولأولادكَ، وهذه مهمَّةٌ صعبة.

وصلَ رأفت قبل المغرب بقليل إلى حيِّ الجميلية.. كانت له ذكرياتٌ جميلةٌ في هذا الحي عندما كان طالباً.. كان يعرفهُ شارعاً شارعاً، وكان حينها حيَّاً يهوديَّاً بالكامل، عددٌ كبيرٌ من أصدقائه اليهود غادروا في السنوات الخمس الأخيرة، نظرَ إلى البنايات، كان معظمها بطابقين وبعضها ثلاثة طوابق، لم يلبث أن وصلَ إلى محل أبي اسحق، توقَّف مُتأمِّلاً معروضات المحل من وراء الزجاج.. كانت البضائع معروضة بمنتهى الأناقة.. قمصان.. جاكيتات من الصوف، لاحظ مبتسماً أنَّ منها قطعاً من صنع ربيعة، ألبسة نسائية ورجالية مختلفة، كان قسم كبير من بضاعته يُنجَز في مشغلهِ القريبِ من المحل، وكان مع زوجتهِ يلتقطان آخرَ الموديلات فيقلِّدانها ثمَّ يعرضانها مع قطعة أو قطعتين أصليتين، ويقول إنَّ بضاعته كلها مستوردة، كان ماهراً، بشوشاً دائماً مع صلعة على رأسهِ تضيْ أكثر ابتسامته اللطيفة، وكان صديقاً وفيّاً لرأفت.

قال له أبو اسحق مُرحِّباً:

- وعدتني بزيارة منذ أكثرِ من عشرة أيام، ولم تفِ بوعدك.

- كيف؟.. ها أنا أفي بها، ولو بقليل من التأخير.

ضحكا، وجلسا سويَّةً.. كان قد مضى ثلاثةُ أو أربعةُ أيَّام على إرسال ربيعة إليه.. طمأنهُ أبو اسحق على الوضع قائلاً:

- لقد استقرَّت في الشقَّة، إلا أنَّها لاتزال مضطربة ولاتخرج منها أبداً.

أعطاه رأفت شيكاً بالمبلغ ثمناً للشقّة، وأخذ منه سند الملكيَّة.. قرأ اسم ابنه فيه، ثمَّ وضعهُ في جيبه، وقال:

- هيا نذهب لنزور ربيعة في الشقّة.

نظر إليه أبو اسحق بعينين ماكرتين، وقال:

- هل ذهابي أنا ضروري؟..

- نعم ضروري.

- إذن نشرب القهوة هنا أولاً.

في هذه الأثناء دخلت امرأتان من الحي إلى المحل، فاستقبلتهما ابنة أبي اسحق التي كانت تساعدهُ في المحل بالتناوب مع أمها، كانتا أم رافي «رافائيل» وصديقتها أم موسى.

قال أبو اسحق مُخاطباً رأفت:

- لقد تعرَّضَ رافي ابن هذه المرأة للضربِ المبرح أول من أمس.

- من فعلَ ذلك؟..

- شباب من حيِّ الكلاّسة.. تكاثروا عليه وغلبوه مع أنَّهُ شابٌّ قويّ.

- لا حول ولا قوَّة إلا بالله.

- كل يوم مشكله يا أبو أحمد.. كل يوم مشاجرة، الأمر لا يُطاق.

قطعَ حديثهُ، ونظرَ إلى باب المحلّ.. كانت تدخل منه أم ياسر وابنتها، كانت أم ياسر تسكن في بناية تقع على أطراف حي الجميلية.. بينه وبين حي الاسماعيلية، ألقَتْ التحيَّة، ثمَّ رفعت غطاء وجهها، وتوجَّهت بالتحيَّة إلى أم رافي قائلةً:

- كيف حالك يا ام رافي.. والله حزنت جداً لما حصل لرافي.

نظرَت إليها أم رافي بعينين باردتين، وقالت:

- حزنتِ؟.. كثَّرَ الله خيركِ.

ثمَّ أكملت بعصبيَّة:

- ابني يُضرَبْ ويُهانْ أمام منزلك، وأولادكِ يتفرَّجون عليه؟.. كثَّر الله

خيركِ يا أمَّ ياسر.

فوجئت أم ياسر، فقالت بصوتٍ منخفضٍ:

- صدِّقيني لم يكونوا في البيت.

- بلى، محمد ابنك كان في البيت.

قالت أم رافي مؤكِّدةً.

ردَّت أم ياسر بصوتٍ أكثر انخفاضاً:

- صحيح، ولكنَّهُ كان في الحمَّام.

فأجابتها أم رافي ساخرةً:

- منذ متى حمَّامكم يوم الأحد؟.. نقلتموه من يوم الخميس؟..

كانت أم ياسر في ذروة إرباكها:

- الله يعرف معزَّتكم عندنا يا أم رافي، ولكنَّهم كانوا أربعة شبان.. وأنتِ تعرفين هذه الأيام السيئة.

لم تُجبْها أم رافي، بل أعطتها كتفاً بارداً، ثمَّ أدارت لها ظهرها، انسحبت أم ياسر خارجةً من المحل دون أن تشتري شيئاً، ولحقتها أم رافي ورفيقتها دون أن يشتريا أي غرض.

قال أبو اسحق متألِّماً لرأفت:

- أرأيتَ بعينيك؟.. الأمر لا يُصدَّق.. هاتان الامرأتان كانتا أعزَّ صديقتين.

ثمَّ شرحَ سبب حنق أم رافي على أم ياسر.. راوياً أنَّ رافي دخلَ منذ سنتين مُشاجرة عنيفة دفاعاً عن ياسر، وأنقذهُ من علقة ساخنة أكيدة من شباب كانوا يلاحقون أختهُ.

علَّقَ رأفت:

- لن تستقيم الأمور هنا وتعود إلى طبيعتها إلا بعدَ أن تتجلي في فلسطين.

قال أبو اسحق:

- هم يأكلون الحصرم هناك، ونحن نضرس هنا ، من أين أتى جنون هؤلاء؟.. دولة يهوديَّة في فلسطين؟.. أليسَ هذا الجنون بعينهِ؟.. ثمَّ لماذا نحتاج نحن إلى دولة بالأساس؟.. كنا نعيش كالملوك هنا.. انظر ماذا يحدث الآن.. إنَّها علامات القيامة.

قال رأفت:

- اللهم اجعله خير.. هل نذهب؟..

سارا باتِّجاه شارع اسكندرون.. صادفا أمامهما أم ياسر تسير ببطء مع ابنتها ، وعندما تخطّياها سمعاها تقول:

- والله شعرتُ نفسي قدّ القملة!..

- ضَرَبْها العمى.. قليلة ذوق وأدب.

- اسكتي يا بنت.. إنَّها عشرةُ عمر يا ابنتي.. عشرة عمر.

تابع الصديقان سيرهما ، ودخلا شارع اسكندرون من خلال زقاق ضيِّق، واتَّجها يميناً.. كان الشارع عريضاً نسبياً ، قال أبو اسحق:

- الشقّة موجودة في بناية على هذا الخط، ولكن سنقطع الشارع لنسير على الجهة الثانية فتستطيع إلقاء نظْرةٍ أوضح.

تابعا سيرهما حتى وصلا إلى محل لبيع الخضروات.. قال أبو اسحق:

- كان هذا المحل ليهودي سأقُصُّ عليك قصَّتَهُ فيما بعد.. اشتراه أبو صطيف، وهو رجلٌ طيِّبٌ جداً.

ثمَّ التفت ناظراً إلى الجهة الأخرى من الشارع، وتابعَ قائلاً:

- هل ترى هذا البناء أمام دكّان الخضرجي مباشرةً؟.. ثمَّ البناء الثاني المجاور له؟.. الشقَّة في البناء الثالث، وتدخلهُ من الزقاق الفاصل بين البنايتين، الشقة في الطابق الثاني.. هل ترى نوافذها الخضراء؟..

قطعا الشارع مرَّةً ثانيةً، ودخلا في الزقاق بين البنايتين مسافةَ مترين أو ثلاثة أمتار، ودلفا البناء من مدخله.

قرعَ أبو اسحق الباب بالسقّاطة ففتحته ربيعة، كانت مُرتبكة مع أنَّ

أساريرها انفرجت بعض الشيء.. سلّما عليها، أجلستهما في غرفة الضيوف.. كان أبو اسحق ذكر لها عندما انتقلت إلى الشقة أنّها مُلكٌ لرأفت منذ سنوات، وهي مُغلقة لا يشغلها أحد.. سألها رأفت عن أحوالها، فقالت والدُّموع تترقرقُ من عينيها:

ـ لقد غمرتوني.. غمرتوني بلطفكم.. برعايتكم يا أبو أحمد.. يا أبو اسحق، ولكنّي ضائعة.. لا أعرفُ أين أنا.

أجابها رأفت بلهجة جديَّة:

ـ أنتِ في مدينة حلب.. في بيت أصدقاء لكِ يكرهون الظلم، ولا يجدون معنى لحياتهم إذا كان بامكانهم رفعه عن أحد ولا يفعلوه.

نَظَرَتْ إليه بعينٍ مُمتنَّة وقد ارتاحت لكلامه الجميل.. ثمَّ وقفت لتقول:

ـ سأعدُّ القهوة.

نظر الاثنان لبعضهما مُتأثِّرين بعاطفيَّةِ اللحظة، ثمَّ قال أبو اسحق بصوتٍ منخفض:

ـ الشقَّة ثلاث غرف وهذا الصالون.

ثمَّ أخذ يشرحُ لرأفت مآل مالكيه المغادرين، سمع صوت أقدام ربيعة فتوقَّف عن الكلام ثمَّ سألها، عندما طلت عليهما، إن كان أعجبها الصوف الذي أرسله لها، فقالت:

ـ إنَّهُ رائع.. ولكنَّ الكميَّة قليلة.

تابعت وهي تُقدِّم القهوة لكلٍّ منهما:

ـ أنا الآن مُشوَّشة قليلاً، ومع ذلك أنهيتُ قطعتين.. خلال اليومين أو الثلاثة الماضية، وحسب النموذج الذي أعطتني اياه أم اسحق.

سألها رأفت:

ـ هل أعجبتك أم اسحق؟..

ـ إنَّها ست رائعة.. في البداية..

ونظرت خجلةً باتِّجاه أبي اسحق، فقال هذا:

ـ تكلّمي.. تكلّمي، ومَدَّ يدهُ متابعاً: بساط أحمدي.

قالت ربيعة لنفسها: يا إلهي أهذا يهودي أم مسلم؟..

ـ في البداية.. في اليوم الأوَّل، في بيت أبو اسحق علمتُ ليلاً أنَّهم يهود، فانقطع قلبي من الخوف.

ضحكَ الاثنان فتابعت:

ـ نحنُ في الشام لا نعرفُ اليهود، أو على الأقلّ أنا لا أعرفهم.

ـ مع أنَّ الحيَّ اليهودي في دمشق عمرهُ مئات السنين.

ـ أمّي كانت تقول إنَّه كان عندها صديقة يهوديَّة تُحبُّها كثيراً، ولكن هذا منذ زمنٍ بعيد.. كُنتُ حينها طفلة.. وتعرفون الآن عندما نأتي على سيرة اليهود في الشام.. تنفرُ الناس بسبب مشاكل فلسطين.

ـ تنفرُ الناس في كلِّ مكان مع الأسف الشديد.. قلبي يتمزَّق يا أبو أحمد عندما أسمع هذا الكلام.

أنهى رأفت فنجان قهوته، ووقف فتبعهُ أبو اسحق.. قال لها رأفت:

ـ اليوم هو الثلاثاء.. سأرسلُ لك كلَّ ثلاثاء محمد الصانع.. سيأتي ليرى ما ينقصكِ، وقد أُرسلُ لكِ نوعاً جديداً من الصوف سيصلني قريباً.

سارا باتِّجاه الباب، ثمَّ فتحه أبو اسحق وقال فجأةً:

ـ سأنزلُ لألقي التحيَّة على ابنة عمّي في البناء المجاور.. لن أتأخَّر يا أبو أحمد.. أقلُّ من دقيقة وأكون معك.

ـ خُذ وقتك.. أنا سأتَّجهُ مباشرةً إلى المكتبة.

غادرَ أبو اسحق مستعجلاً، وهمَّ أبو أحمد باللّحاق به وإذ بها تناديه قائلةً:

ـ ألن أراكَ؟.. الثلاثاء القادم ألن أراك؟..

ثمَّ تابعت ملهوفة:

ـ أنا هنا مقطوعة يا أبو أحمد.. والله العظيم أخذتُ روح عندما رأيتكَ.

نظرَ إليها.. كانت الكدمة الزرقاء تحت عينها اليمنى قد خَفَّ

ازرقاقها وبدأت تتلاشى، أما الأخرى حول عينها اليسرى فكانت لا تزال واضحة.. قال لها:

- سنرى..

ثمَّ فجأةً سألها: هل تجيدين الطبخ؟..

نظرت إليه مندهشة.. فتابع:

- حَضِّري الغداء يوم الثلاثاء وسآتي.. أضاف وهو ينزل درجات السلُّم: صنف واحد فقط.. أنا لا آكلُ في الوجبة إلا صنفاً واحداً.

أغلقت الباب واستدارت، وفجأةً انقبضَ صدرها وبدأت تُفكِّر:

يا إلهي ماذا فعلت؟.. ماذا سيقول عنِّي؟.. شَعَرَتْ بالدِّماء تصعدُ إلى وجهها خجلاً، ثمَّ تابعت تُحدِّثُ نفسها: طول عمرك كنتِ خرقاء لا تعرفي أن تتصرَّفي.. خفيفة لا تحترمي نفسكِ.. لذلك لا أحد يحترمُكِ، لا زوج احترمَكِ، ولا أخ احترمكِ.. حتى الجيران الذين كانوا يحبُّونكِ قليلاً لم يحترموك يوماً.. يا ربِّي ماذا سيقول عنِّي؟.. أنا الذي لم يلمسني رجلٌ منذ طلاقي قبل ستِّ سنوات، من سيصدِّق ذلك بمثل تصرُّفاتي الخرقاء هذه؟... وظلَّت طوال الأسبوع تجلِدُ نفسها وتؤنِّبها.

ما إن دخلَ رأفت محلّهُ في السوق حتى جاء إليه أبو محمود مُسرعاً قائلاً إنَّهُ يجب أن يتحدَّث معه.. طلب منه رأفت الانتظار قليلاً ريثما يبدِّل ثيابه ويلبس قنبازه، انتظرهُ أبو محمود ولم يغادر المحل، كان الإلحاح بادياً عليه.. ما إن جلسا حتى قال أبو محمود:

- يبدو أنَّها فُرِجَتْ.. يبدو أنّي وجدتُ العروس المناسبة.

ابتسمَ رأفت وقال:

- يا ساتر كم أنت متعجِّل.

- قالوا لي أنَّ أربعة شهور أكثر من كافية.. آخذين بعين الاعتبار وضع البيت و الأولاد.

ابتسم رأفت مرَّةً ثانيةً وقال:

- هات يا سيدي من هي؟..

- قَدِمَتْ إلى محلّي أمس صبيَّة مع أمِّها.. أولاً هي مناسبة من ناحية العمر.. عمرها واحدٌ وعشرون عاماً.. تزوَّجت لأيام معدودة ثمَّ طُلِّقتْ بسبب عنانة زوجها!..

فوجئ رأفت، وسألَ:

- من قال لكَ ذلك؟..

- أمُّها.. اقتربت منّي ووشوشت لي ذلك في أذني.. وهي عاقلة جداً لم ترفع عينها طوال الوقت عن الأرض.. وعندما تسألها سؤالاً تُجيبُ وهي تنظرُ إلى الأرض.

ـ من أين هُم؟..

ـ أصلهم ليس من حلب، ولكن من الجوار.

ـ يا أبو محمود.. خُذ وقتكَ وادرس الموضوع جيِّداً، واذهب واسأل عنهم واستفسر وقلِّب الأمور.. أنت عندكَ أولاد.. أنتَ تختارُ لهم أمَّاً جديدة، الموضوع ليس بسيطاً.

ـ طبعاً.. طبعاً، وهل من المعقول أن أكون غافلاً عن ذلك؟..

ثمَّ ذهبَ إلى محلّهِ.. ولكن خلال عملهما وطوال الفترةِ الصباحيَّة كان ابو محمود يُطلُّ على رأفت اطلالاتٍ سريعةٍ يعاودُ فيها التكلُّم في الموضوع إيَّاه، شعرَ رأفت أنَّ تلكَ الصبيَّة جذبت صاحبه، وكان الأمرُ واضحاً لدرجة دفعتهُ إلى أن يُلحَّ عليه بالذهاب والسؤالِ عنها جيِّداً، وعندما غادرَ قبل منتصفِ النهار بقليل ناداه وطلبَ منه وعداً بأنَّهُ سيذهب ليسأل عنها، ثمَّ قال له مودِّعاً:

ـ خذ خال المرحومة معكَ.. خُذ أبو أنور معكَ.

كان يوم الثلاثاء، وكان رأفت سيذهب إلى حيِّ الجميلية.. إلى شارع اسكندرون لتناول طعام الغداء عند ربيعة كما وعدها، كان قد أرسل إليها منذ الصباح الباكر صانعه حاملاً لها بعض مستلزماتِ المطبخ، وصل إلى الحي وتوقَّفَ أمام دكَّان الخضرجي أبي صطيف مُتفحِّصاً خضاره وفاكهته الطازجة.. اشترى بعضاً منها، وسألهُ إن كان عنده في الداخل «إكي دنيا» أفضل من هذه المعروضة، فأجابهُ بأنَّهُ كان عندهُ من أفخرها، ولكنَّهم الآن في الظهيرة وأتى المشترون على الأجود من كلِّ شيء.. ولمَّا كان أبو صطيف قد عرفهُ فقد عرضَ غليه أن يرسلَ صانعه إلى دكَّانٍ آخرَ في شارعٍ آخرَ ليؤمِّن له طلبه.. أراد رأفت أن يعترض، ولكنَّ هذا كان أسرع، حملَ كرسيَّاً وضعها أمام الدكان، وقال له:

ـ لن تنهي كأس الشاي الخمير إلا ويكون الولد قد عاد.

جلسَ رأفت.. كان معهُ مزيد من الوقت قبل موعدِ الغداء.. نظر إلى

صفٌّ الأبنية أمامه.. كانت شقّةُ ربيعة في البناء الثالث إلى يساره من حيث يجلس، مرَّ من أمامه شابٌّ جميلٌ يدفعُ عربةً خشبيَّةً عليها أصنافٌ من الكعك والخبز البيضوي المقمَّر.. كان يصيح بصوتٍ عالٍ: مقمَّر يا كعك.. طازه يا كعك.. نظرَ الشاب باتِّجاه رأفت فعرفهُ، أوقف عربته وتقدَّمَ نحوه قائلاً:

- احتراماتي رأفت أفندي..

ثمَّ صافحهُ بحرارةٍ متابعاً:

- على راسي والله يا أبو أحمد.. والله أنت ما في منَّك.

بادلهُ رأفت التحيَّة، ولكنَّهُ لم يعرفهُ، فقال الشاب:

- المقهى الشعبي رأفت افندي.. محسوبك أبو علي.. أنا أراكَ هناكَ، وأستمع لكلِّ كلمةٍ تقولها.

شدَّ رأفت على يده بنفس الحرارة قائلاً له.. عرفتك، والحقيقة أنه لم يتذكَّرهُ.. قفزَ أبو علي إلى عربته، وتناولَ قطعةً من الخبز البيضوي، ثَقَبَ وجهها العلوي ذي اللون الذهبي بإبهامه، وأخذَ قليلاً من الزعتر موضوعاً في وعاء وأدخلهُ في الثقب، ثمَّ رجَّ القطعة بقوَّة وقدَّمها لرأفت.. أخذها هذا مبتسماً شاكراً، حاولَ أن يدفع له لكنَّ أبو علي رفض وعادَ إلى عربته.. دفعها ثمَّ رفع صوته: مقمَّر يا كعك، طازه يا كعك!.. كان صوته جميلاً كطلَّتهِ.. كان حقَّاً شاباً جميلاً حليق الذقن بشاربين رفيعين أنيقين وقلنسوَّة بيضاء تُغطي قسماً قليلاً من شعره.. سار بعربته قليلاً، ثمَّ ضغطَ على ذراعيها نحو الأسفل فارتفعت مقدمتها، وانحرفَ بها باتِّجاه الرصيف فأصعدها عليه وأدارها باتِّجاه الشارع، ثمَّ أخذ كرسيَّاً صغيراً من داخلها، وعاد ينادي على كعكه.

انتبه رأفت أنَّ نافذةً من نوافذ الطابق الثاني في إحدى الشقق المقابلة له قد فُتِحَتْ وأطلَّت منها امرأة.. بدت وكأنَّها تأخذ شهيقاً قويَّاً من هواء الخارج النقي، ثمَّ مالت ناظرةً إلى أبي علي الذي علا صوته على كعكه

وعلى الورد الجوري مُذ رآها.. سألته عبر الشارع:

ـ طازة ولا بايتات؟..

ـ الله وكيلك من الفرن إلى العرباية.

أشارت له بإصبعين، فحملَ كعكتين، وهرولَ صاعداً إلى بيتها.. نظرَ رأفت إلى ساعته، كان لديه مزيد من الوقت، جلسَ بجانبه أبو صطيف يُحدِّثُهُ عن عملهِ في هذا الحيّ اليهودي، وعن مدى راحتهِ في التعاملِ معهم واصفاً وداعتهم وشطارتهم في الوقت نفسه.

بعد قليل شاهدَ المرأة ذاتها تعبر الشارع باتِّجاهه.. قاصدةً دكّان أبي صطيف.. كانت امرأة في الثلاثين من عمرها أكثر أو أقل بقليل.. قطعت الشارع بخطواتٍ فيها كلُّ أنوثةِ الأرض، كان عندهُ معيارٌ خاصٌ لجمالِ المرأة.. فالمرأة برأيهِ ثلاثةُ أثلاث: ثلث للوجه، وثلث للقوام، وثلث للشعر.. قال لنفسه وهو يلقي نظرة خاطفة على ساقيها: ثلثان ونصف الثلث!.. شعرَ أنَّهُ بالغَ، وفيما هو يتلهّى بتعديل درجاتها كلما زاد اقترابها.. وصلت، حيَّت أبا صطيف قائلةً:

ـ صاحباتي اليوم عندي يا أبو صطيف، واعتمادي عليك في تأمين لوازم التبولة. .

كانت تضجُّ أنوثةً، فكَّرَ رأفت: هذه امرأة بهذه أنوثة.. لا تحتاج لكثيرٍ من الجمال، ومع ذلك فقد كانت جميلة.

ـ يسعد صباحك يا ست وداد.. أهلاً وسهلاً.. حلّت البركة.

ـ بكم البقدونس؟..

ـ تنقاية.. الثلاث باقات بفرنك وإلا خمسة..

ـ وبكم إذا يدك الحلوة الظريفة هي من انتقتها لي؟..

لا حول ولا قوَّة إلا بالله.. قالها أبو صطيف في نفسه مبتسماً، ثمَّ بدأ بانتقاء باقات البقدونس.

فكَّرَ رأفت: يستخدمون سحرهنَّ حتى مع البقدونس!..

في هذه الأثناء كان صانع أبي صطيف يعود ويقول لمعلمه انَّه دارَ على أكثر من دكّان ولم يجد ما يعجبه، عندها قام رأفت ناظراً إلى ساعته، وقال لأبي صطيف إنَّهُ سيتمشّى قليلاً ويعود لأخذ كيس الفاكهة، كان عليه أن يقطّعَ الوقت لحين موعد الغداء فانطلقَ يسير في شوارع الجميلية وأزقّتها.

ربيعة في البيت كانت في الويلات.. والسؤال: ماذا سيحصل يا ربي؟.. كان يُلحُّ عليها للمرَّةِ الألف.. كانت خائفة.. مشوَّشةُ الذهن، كانت لا تعرف أين وضعت الملح، وإذا وجدته لا تعرف إن كانت استعملته في طبختها أم لا فيزداد خوفها، تفقّدت طبختها عشرات المرَّات وهي تسأل ماذا سيحصل ياربي؟.. وإذا حصل فكيف سأتصرَّف؟.. سأصدُّهُ بمنتهى التهذيب و الاحترام.. وقد تقول له إنَّ رجلاً منذ طلاقها لم يمسُّها، ولكن ما هذا السخف؟.. كانت تقاطع نفسها، يا لها من امرأة ساذجة غبية دبَّت نفسها في دوَّامة أكبر منها.. ولكن ماذا سيحصل إذا صدَّتهُ بالفعل؟.. هل ستعود إلى دمشق؟.. لتعد.. ما المهمّ؟.. ثمَّ لم كل هذه التصوّرات السوداء، إنَّهُ رجلٌ شهمٌ كريم النفس سيعاملها بكلِّ احترام ويتناول طعامه ويغادر، ولكنَّ الرجال.. أليس كلُّ الرجال سواسية؟.. بمن فيهم المحترمون كرماءُ النفس؟.. ولكن يا ربي ـ كانت تتابع ـ ألم أكن أنا من وضعتُ نفسي بحماقتي وخفّتي في هذا الموقف.. وفيما هي تعود لتسأل ماذا سيحصل ياربي.. سمعت صوت السقاطة على الباب.

فتحت الباب فدخلَ رأفت.. حيَّاها وهو يلاحظُ امتقاع وجهها.. كانت تعقد على رقبتها منديلاً حريريّاً يغطي رأسها، ولم تكن تضع أية مساحيق على وجهها، ولما كانت شديدة البياض فقد بان لون وجهها أقرب إلى الصفار، دخلَ واتَّجهَ إلى الأريكة في غرفة الجلوس.. جلس عليها، ثمَّ نظرَ إليها وقال:

ـ تعمَّدتُ أن أصل في موعد الغداء حتى لا ألهيكِ عن طبختكِ.

أجابتهُ بصوتٍ خافت:

- كل شيء جاهز.

كانت غرفةُ الجلوسِ تكشفُ للجالس فيها المائدة الموجودة في غرفة الطعام من خلال بابٍ مفتوحٍ بدرفتيه.. راقبها وهي تسحب غطاء المائدة المُطرَّز متناولةً بيدها الأخرى فازاً أنيقاً من الزجاج كان موضوعاً عليها. لكنها أسقطته وتشظّى على الأرض، فزاد اضطرابها وأخذت تستغفر ربها، جمعت القطع المكسورة ثمَّ توجَّهت إلى المطبخ.. بعد قليل سُمِعَ صوتُ تكسُّرِ صحونٍ أو كؤوس.. كان الصوت عالياً تبعهُ صوتها وهي تستغفر وتلعن الشيطان، ثمَّ بدأت بنقل الطعام بخُطى بطيئة متأنية جداً مخافةَ أن ترتكب هفوة ما، ثمَّ قالت له:

- أرجو أن تكون جائعاً، وأرجو أن تعجبكَ طبختي.

قامَ وغسلَ يديه في مغسلةٍ مثبتة على طرف الموزِّع، جلسَ إلى مائدة الطعام وانتظرها.. كان على مائدة الطعام رز بالشعيرية وبامية باللحمة مع صحن كبير من السلطة وصحونٍ صغيرة فيها مقبلات بعضها من المطبخ الشامي.

عادت من المطبخ حاملةً في صينية صحنين صغيرين ولكن عميقين فيهما حساء الفاصولياء اليابسة « حب الفاصولياء »، وضعت أحدهما على صحنه الفارغ.. علّقَ قائلاً:

- لماذا أتعبتِ نفسكِ.. قُلتُ لكِ أنّي لا آكلُ إلا صنفاً واحداً.

- هو صنف واحد.. رز وبامية.. الحساء لا يحسب.

أعجبه الحساء كثيراً فأثنى عليه.. وأعجبه الرز والبامية إلا أنَّهُ قال:

- الرز قليل الملح ربما.

فشهقت.. لا بدَّ أنّها لم تضع حبَّة ملح للرز أثناء إعدادها له.

إلا أنَّهُ تابع مبتسماً:

- البامية كثيرة الملح فيعدّلان بعضهما!..

شهقت مرَّة ثانية.. لا بدَّ أنَّها وضعت الملح مرتين أثناء إعدادها للبامية.. لكنَّهُ طمأنها قائلاً:

ـ الطعام ليس جيداً.. إنَّهُ جيد جداً.

سألها عن يومها، وكيف تقضيه.. سألها عن شغل الصوف.. سألها عن كل شيء تقريباً، كانت تجيبهُ وأعصابها تسترخي شيئاً فشيئاً، إلى أن سألها عن الجيران وإن تعرَّفت على بعضهم فأجابتهُ:

ـ تعرَّفتُ إلى وداد، بيتها هو الأقرب إلى بيتي، وهي إنسانة لطيفة.

ثمَّ تابعت بحماس:

ـ هل تعرف إنَّهم لا يختلفون عنَّا بشيء.. لم أكن أتصوَّر أنَّ اليهود قريبون منا إلى هذا الحد.. إنَّهم يتكلَّمون مثلنا ـ نفس لغتنا ـ يفكِّرون مثلنا، يأكلون ذات أطباقنا، يسمعون ذات أغانينا.. شيء لا يصدَّق..

ـ أين الغرابة؟.. نحنُ وهم نعيش منذ مئات السنين سويَّة.

ـ تصوَّر.. اختلفت مع وداد على أمرٍ واحدٍ فقط: أنا وهي نعشق أم كلثوم واسمهان، ولكن أنا أفضّل فريد الأطرش وهي تفضّل عبد الوهَّاب.. وهناك أمر آخر مشترك بيننا..

وأطرقت وقد احمرَّ وجهها.. ثمَّ تابعت:

ـ إنَّها لا تنجب، ولكنَّ زوجها راق ويحبها كثيراً.

قام رأفت وتوجَّه إلى المغسلة وهو يقول:

ـ يبدو أنَّكما ستصبحان صديقتين حميمتين.

ثمَّ تابع وهو يجفِّف يديه بالمنشفة:

ـ أنا آخذ قيلولة قصيرة بعد الطعام.

فجمدت على كرسيِّها!.. وتابع وهو عائدٌ إلى غرفة الجلوس:

ـ هل عندك مانع؟.. سأستلقي على الكنبة هنا.

نظرت إليه وهي لاتزال جالسة في مكانها وقالت:

ـ لا.. تفضَّل.

نزعَ حذاءه، واستلقى على الكنبة، وما هي إلا لحظات حتى سمعت أنفاسه المنتظمة.. لقد غفا، قامت بهدوء.. تركت الصحون وأدوات الطعام على المائدة مخافة أن تُصدر أصواتاً توقظه، ثمَّ اقتربت منه لتتأكّد أكثر من إغفاءته والدهشةُ وأنفاسُها المحبوسة تكادُ تخنقها.. ثمَّ سارت على رؤوس أصابعها إلى غرفة النوم، عادت حاملةً غطاءً خفيفاً وضعتهُ عليه بهدوء.. ذهبت لتجلسَ في المطبخ من دون ان تفكّر القيام بأيّ عمل.

بعد أقلّ من ساعة بقليل.. سمعت حركته فوضعت ركوة القهوة على النار وأسرعت إلى غرفة الجلوس فوجدته يعقدُ أربطةَ حذائه.. قال لها:

ـ لقد أكثرتُ من الطعام.

ـ صحتين.. القهوة على النار.

ـ لن أستطيع يا ربيعة.. يجب أن أذهب.. هناكَ من ينتظرني في المكتبة.

نظرَ إليها ثمَّ قال:

ـ حديثكِ مُسل، وطبخكِ جيد.. قد نعيد الكرَّة يوم الثلاثاء القادم.

ودَّعها وانصرف.. أغلقت الباب وغرقت في السكون لدقائق يا لهُ من رجل.. أخذت تُفكّر.. يا لهذه الشهامة، يا لهذا النبل.. الدنيا لا تزال بخير بوجود مثل هؤلاء الرجال.. ثمَّ كم كانت سيِّئة الظن، تذكّرت: ماذا سيحصل يا ربي؟!.. فكّرت بأنَّها تستطيع الآن تنفُّس الصعداء، ولكنَّها لا تفعل، ولم تعرف السبب إلا بعد أن نظرت مصادفةً في المرآة.. وقالت:

ـ يا لخيبتك.. إنَّهُ لم يتنازل حتى ليلمس يدك!..

غادر رأفت المكتبة أبكرَ من المعتاد ذاك المساء، إذ كان وعدَ الأستاذ ضياء بمرافقته إلى المقهى الشعبي.. وكان عليه أنَّ يمرَّ ليأخذه من مقهى الأفندي.. عندما وصلَ إلى المقهى كان الرفاق وسط نقاشٍ حامٍ، وكان معهم هذه المرَّة الأستاذ عبد الفتاح، وهو محام شاب ينتمي إلى حزب البعث الصاعد.. عندما جلسَ رأفت معهم كان الأستاذ عبد الفتاح يقول:

ـ أنا لا أثق بالحكومات العربيَّة.. كلُّها بلا استثناء مُرتبطة وعميلة!..

ـ والحكومة السوريَّة؟..

سأل الأستاذ ضياء مبتسماً.

ـ والحكومة السوريَّة.. قليلاً أو كثيراً!..

ـ لا.. هناك فرقٌ بين الكثير والقليل!..

أجابه الأستاذ ضياء ضاحكاً، ثمَّ قال بلهجة جديَّة:

ـ يا أستاذ عبد الفتاح.. الجيوش العربيَّة هي الركيزة الأساس.. إذا جدَّ الجد في فلسطين فلن يحسم الموضوع إلا الجيوش.

ـ أنا رهاني على الشعوب. .

قال الأستاذ عبد الفتاح، فعلّقَ رأفت:

ـ الشعوب تناضل ولا تحارب.. من يحارب هي جيوش هذه الشعوب التي تُجهِّزها الحكومات.

نظر الأستاذ ضياء إلى رأفت.. مال نحوه وقال: أحسنت، هل نذهب؟..

كان المساء صيفيّاً حارّاً عندما وصلَ رأفت ورفيقه إلى المقهى

الشعبي، كانت جميع النوافذ مفتوحة على مصارعها.. ألقيا التحيَّة، فردَّ الجميع نصف واقفين مُرحِّبين بهما، ومُحيِّين بأيديهم على رؤوسهم وصدورهم، ثمَّ أتت النرجيلة العجمي التي طلبها رأفت لرفيقه ومعها القهوة.. كان الصمت مطبقاً، بادرهم رأفت مبتسماً:

- ما هذا الصمت يا شباب.. أراكم قاعدين عاقلين اليوم؟!..

أتاه صوت أبي جاسم:

- والله يا أبو أحمد سمعنا كلاماً يسممُّ البدن ويقبض الصدر.. كان هنا منذ قليل أبا الياس الدكّنجي.. تحدَّثَ عن اليهود، وعن قوَّتهم على مدى التاريخ، وكيف أنَّهم استلموا العالم. وأنَّهم هم من قام بالثورة الفرنسيَّة، وهم من قام بالثورة الشيوعيَّة في روسيا، وهم وراء الماسونيين، وهم وهم.. عملَ منهم بعبعاً كبيراً.. والآن بعدَ أن أمسكوا العالم أتوا إلينا.

نظرَ رأفت إلى الأستاذ ضياء، فبادرَ هذا وقال:

- هذا غير صحيح.. الآن هم أقوياء، وذوو نفوذ كبير.. فيما مضى كانوا ضعافاً في أوروبا، كانوا ضعافاً مسحوقين هناك.. استفادوا من الثورة الفرنسيَّة، هذا صحيح.. استفادوا كثيراً، فقد حاربت الثورة رجال الدِّين وهذا أراح اليهود كثيراً، كما شاركَ كثير من مُثقَّفيهم بالثورة الشيوعيَّة، ودخلَ قسم منهم في الماسونيَّة.. ولكن هذا كان بسبب ضعفهم وليسَ بسبب قوَّتهم.. أرادوا ركب أي موجة تُخفِّف من اضطهاد الأوروبيين لهم، ونجحوا مرَّات وفشلوا مرَّات.. أمَّا أن يكون اليهود وراء كلِّ هذه الثورات فهذا سُخفٌ بسُخف.

تدخَّلَ رأفت مُضيفاً:

- يعني إن كان صحيحاً ما قالهُ أبو الياس عنهم من قوَّة وجبروت ونفوذ طوال القرون الماضية.. فكيف نُفسِّر المذابح المُتكرِّرة التي تعرَّضوا لها؟.. ليست مذبحة واحدة ولا اثنتان، ولكن عشرات وعشرات، وليس في قرنٍ واحدٍ ولا اثنين بل خلال أكثرَ من عشرةِ قرون، لقد كانوا حقّاً - كما

قال الأستاذ ضياء ـ مسحوقين في أوروبا.

توجَّهَ الأستاذ ضياء بكلامهِ إلى رأفت قائلاً:

ـ يجب أن ننتبه إلى أنَّ من قَدِمَ إلى فلسطين من اليهود في السنوات الماضية.. قدمَ من أوروبا.. أوروبا التي تقدَّمت وقفزت قفزات هائلة في العلم والمدنية، واليهود كانوا هناك.. فتقدموا معها وقفزوا معها.. إنَّ من أتى إلى فلسطين من اليهود هم أوروبيون.. بعلمهم وبعاداتهم وتقاليدهم، وهذا هو سبب قوَّتهم، ثقافتهم أوروبيَّة.. طريقة عيشهم أوروبيَّة.. إنَّهم جزء من الحضارة الغربيَّة، وهم مختلفون عن اليهود العرب الذين ـ عندما تخلَّفنا نحن ـ تخلَّفوا معنا.

قال أحد الحاضرين:

ـ ولكن يقولون أنَّ معظمهم أتى من أوروبا الشرقيَّة الشيوعيَّة.

ـ هذا صحيح، ولكن الشيوعيَّة نفسها هي وليدة المدنية الغربية.

صمتَ الأستاذ ضياء للحظات، ثمَّ قال:

ـ على كلِّ حال.. لا الأوروبيين استطاعوا فرض شيءٍ علينا، وإن شاء الله لن يستطيع يهود أوروبا فعلَ ذلك.. قصَّة البعبع ألغوها من أذهانكم.

سمعَ رأفت صوت أبي علي بائع الكعك المقمَّر يقول:

ـ نحن لا نخاف لا من بعبع ولا من عشرة ولا من مئة.. هاتوا سلاحاً وتفرَّجوا علينا.

ابتسم رأفت لأبي علي وكأنَّهُ يحيِّيه، بينما كان يسمع أبو محمد يقول:

ـ يا سيِّدي الحكومة السوريَّة الوطنيَّة أوَّل شيء ستفعله هو إعداد جيش وطني يكون جاهزاً لتأديبهم في فلسطين، ونحنُ كلُّنا معها.

فردَّ عليه أبو علي:

ـ يا رجل الأمر لا يحتاج إلى جيش ولا هم يحزنون، يفتحو باب التطوُّع.. وبضع مئات من المتطوِّعين من كل مدينة سورية يكفي لإنهاء الموضوع.. هم

لا يملكون جيشاً يا رجل.. هم عصابات لا أكثر ولا أقل.

قال رأفت:

ـ سمعتُ أنَّ هناك لوائين من الجنود المتطوِّعين اليهود قاتلا مع القوَّات البريطانيَّة في شمال افريقيا.. وهم الآن في فلسطين.

ـ قاتلوا ضدَّ رومل؟..

قال أحدهم غير مُصدِّق.. فتابع رأفت:

ـ على ما يبدو.. وسمعتُ أنَّ لواءً منهما شاركَ القوَّات البريطانيَّة في الهجوم على سوريا ولبنان مع قوَّات فرنسا الحرَّة التَّابعة للجنرال ديغول، وسمعتُ أنَّ أحدَ الضبَّاط اليهود فقدَ عينه في إحدى المناوشات مع قوَّات فيشي، وهو يضع الآن عصبة سوداء عليها مثل القراصنة، وأصبح مشهوراً بها.

قال أحدهم:

ـ واليهود عندنا في حلب يفركون أيديهم فرحين منتظرين.

ـ يهودُ حلب قلقين مرتعبين.

ـ لاحظتُ يا أبو أحمد أنَّ هناك فرقاً بين شبابهم وكهولهم.. شبابهم مُتحمِّس مُتحدّ.

ـ ليس كلّ شبابهم كذلك، وليس كلُّ كهولهم عُقَّال..

ـ إذا استمرَّت الأمور على ما هي عليه.. عامل جذبٍ من الخارج، وعامل دفعٍ من هنا.. ستخلوا حلب قريباً من الاثنين: الشباب والكهول.

ـ مع ألف صرماية عتيقة..

علَّقَ أحدهم.

ـ هذا بالضبط ما تريده الوكالة اليهوديَّة.. حتى الآن هي لا تستطيع الإدِّعاء أنَّ يهود العالم العربي مُضطهدون كيهود أوروبا، لأنَّهُ ببساطة.. الأمر ليس كذلك، فإن ضيَّقنا نحنُ عليهم فإنَّ هذا سيسرُّ الوكالة بلا ريب.

ـ عندي إحساس بأنَّهُ حتى لو لم يحصل أي تضييق على اليهود في عالمنا العربي فستقوم الوكالة اليهوديَّة بهذه المُهمَّة، وقد تجنح إلى أكثر من ذلك.

ـ مثل ماذا يا رأفت أفندي؟..

ـ تفجيرات هنا وهناك في أحيائهم ومحّالهم.. ولكن لا أعتقد أنَّ هذا سيحصل هنا في حلب.. قد يحصل في بغداد أو الاسكندريَّة مثلاً.

ـ ألهذه الدرجة؟..

ـ إنّهم مصمّمون.. مُصمّمون جداً.

ثمَّ تابع رأفت ضاحكاً:

ـ شبعنا يا جماعة كلام عن الموضوع حتى طلع من مناخيرنا..

توجَّهَ إلى أحد الجالسين بعيداً وقال:

ـ هل صحيح يا أبو مراد أنَّك تزوَّجتَ الثالثة؟..

بانت الابتسامة على الجميع.. أجاب أبو مراد:

ـ بعدَ الاستخارة يا أبو أحمد.. بعدَ الاستخارة!..

ـ أليس هناك استخارة رابعة؟..

ضحِكَ الجميع وتغيَّرَ الجو.. وبدأت أحاديث جانبية.. نظرَ رأفت باتِّجاه الأستاذ ضياء، نهضَ الاثنان فحيَّيا الجميع وانصرفا.

استيقظت زينب مُبكّرةً في هذا الصباح كما عوّدت نفسها.. كانت أختها خديجة عادت مع عائلتها إلى منزلها منذ بعض الوقت.. وفاةُ والدتها والصدمةوالحزن الشديد.. كل ذلك صنع منها فتاةً جديدةً، كانت تبدأ أوّل ما تبدأ باعداد الفطور لأبيها وأخويها محمود ونبيل.. كانت سريعة منهجيّة.. ترتّب خطوات عملها في ذهنها قبل أن تبدأ.. كان أوّل المغادرين والدها، ترافقه حتى الباب وتودّعه بكل حنان الابنة المسؤولة عنه، وكانت ترافق نبيل أيضاً إلى الباب مع توصيات متلاحقة له بالاهتمام بمدرسته والانتباه إلى أساتذته فكان يجيبها بعض المرّات ضاحكاً: أمركِ يامو.. أما محمود الذي يكبرها بعام ونصف فكانت تتركه يغادر من دون أن ترافقه، في نحو العاشرة صباحاً تكون أنهت ترتيب البيت كله وكأنّ امرأتين قويّتين ساعدتاها في ذلك.. ثمّ تذهب إلى المطبخ فتمكث هناك الساعات المتبقية، ما أن تضع طبختها على النار حتى كانت تجلس وتبدأ بالقراءة.. كانت الرواية التي بين يديها الآن قد أرهقتها، ظنّت أنّ تولستوي سيمتعها في الحرب والسلام كما فعل في أنا كارنينا، كانت الرواية أوّلاً أربعة مجلّدات.. الأمر الذي أدهشها، أرسلتها لها رفيقتها وفاء من مكتبة والدها رأفت، وكانت الرواية ثانياً مليئة بشخصيّاتٍ كثيرةٍ لم ترَ في البداية ترابط بينها، وأسماء روسية ثلاثية يصعب تذكُّرها، كادت توقِفْ قراءتها يوماً لولا وصولها إلى ناتاشا، تلك الصبية ابنة الأربعة عشر ربيعاً والتي توقّعت أن تكون بطلة الرواية، أو على الأقلّ إحدى بطلاتها.. فتابعت لأيّام قراءتها

باهتمام أكثر.. ولكن اهتمامها كان يقل في الفصول الخالية من ناتاشا..

❖❖❖

دخلَ أبو محمود إلى محلّهِ ورتّبَ بضاعته.. ثمَّ جلسَ يفكّر.. لقد أخذ قراره.. سيتزوَّج من تلك الصبيَّة.. ليلى، وهو ليس مضطراً لشرح شيءٍ لأحد، الآخرون لا يتفهَّمون إلا ما خصَّهم من الأمور.. ما خصَّهم مباشرةً منها، وهذا الأمر يخصَّهُ هو مباشرةً، الآخرون يتندَّرون بالمثل القائل: أعزب دهر ولا أرمل شهر، وهم لا يفهمون معناه إلا عندما يصحُّ عليهم، يرمون المثل أثناء أحاديثهم وهم يمازحون بعضهم.. كانت خشيته الحقيقيَّة تأتي من اثنين: من رأفت صديقه ومن زينب ابنته.. عليه مواجهتهما، وإن اضطرَّ للتحايل قليلاً فسيفعل.

وصلَ رأفت، بدأت جلستهما مُتوتِّرة.. والحقيقة أنَّ التوتُّر كان مصدره أبو محمود، بدأ بإخبار صاحبه أنَّهُ قام بالسؤال عن الفتاة وعن أهلها، وعندها قاطعه رأفت:

ـ هل أخذتَ معكَ أبو أنور؟..

ـ ما بالك يا أبو أحمد.. هل أنا فتى غرّ لا يجيدُ الحُكمَ على الناس؟..

غيَّرَ رأفت السؤال:

ـ هل ذهبت إلى دائرةِ النفوس لتتأكّدَ من قصَّةِ زواجها وطلاقها؟..

أجابهُ أبو محمود بحدَّة:

ـ أشهد أنَّ لا إله إلا الله.. هل سمعتَ في حياتكَ بتعدُّد الأزواج هذه الأيَّام؟.. إنَّها مُطلَّقة يا أبو أحمد.. مُطلّقة.. لقد رأيتُ صكَّ الطلاق.

كانَ شيئاً في الموضوع لا يعجب رأفت، لم يكن يدري ما هو، هل هو تسرُّع صاحبه؟.. هل هو شكُّهُ في صلاح هذه الصبيَّة؟.. إنَّهُ لم يكن يعرف عنها شيئاً، وكلُّ من سألهم عنها لم يكن يعرف عنها.. وهذا ما أقلقهُ أكثر.. كان واضحاً لهُ أنَّ أبا محمود قد أخذَ قراره، وهو الآن يبلّغهُ بهِ ويدَّعي النقاش بالموضوع.. قال في نفسهِ وهو ينهض مُتَّجهاً إلى مكتبهِ: اللهم

إجعلْ الخواتم سليمة.

حوار أبي محمود مع ابنته زينب كان أقصر بكثير.. فبعدَ أن شرحَ لها الموضوع.. أبلغها بقراره وانتظر نقاشها بتخوُّف.. ولكنَّها قالت لهُ بعينين كسيرتين والدموع تترقرق منهما: الذي تراه يا أبي، وغادرت إلى غرفتها.. آلمتهُ كثيراً تلكَ النظرات وعصرَتْ قلبهُ تلكَ الكلمات، ولكنَّهُ مضى في قراره.

عندما ذهبَ أبو محمود لزيارة عائلةِ خطيبته العتيدة لأوَّلِ مرَّة، لم يفاجأ بفقرها.. فقد كان يتوقَّعهُ، كان البيت صغيراً مُزدحماً بساكنيه يقع على أطراف المدينة، استقبلته الأمّ بلهفتها والابنة بخفرها، لم يمكث طويلاً، كان الأب مُتوفّى من سنين، فاتّفق مع الأم على الموعد وغادر.

بالنسبة لليلى العروس، لم تكن هذه هي المرَّة الأولى، فهي ومُذ كانت في الرابعة عشرة من عمرها لا تفعل شيئاً سوى ان تتزوَّج.. تزوَّجت مرتين وهذه هي الثالثة ولم تتعدَّ العشرين من عمرها إلا قليلاً.

عندما كانت طفلة.. كانت لا تترك الحارة إلا لتناول الطعام، قضت طفولتها في اللّعب مع الصبيان ومصارعتهم، وعندما نمت أكثر اكتشفت جسدها، اكتشفتهُ في عيون الرجال، في البداية شعرت بالأهميَّة ثمَّ بالاعتزاز وبعدهُ بالإثارة، وعندما لاحظت أنَّ نظرات الرجال تتركَّز على مكانين: صدرها ووركاها.. طلبت من أمِّها أن تجعل جلاليبها - وكانا اثنين - أضيق في المكانين، فازداد بريق العيون وازداد فخرها بجسدها، لم تَخْفَ عن أمِّها كلُّ هذه التَّحوُّلات، فراهنت على تزويجها من رجلٍ غني يفرِّج عنها ضيقها هي وأولادها الثمانية، زوَّجتها وكانت في الرابعة عشرة من عمرها من رجلٍ ظنَّت أنَّهُ غنيّ، وكان كذلك بالفعل، إلا أنَّه كان بخيلاً شحيحاً.. وكانت الأم قليلة الحيلة والذكاء.. كثيرة الطلبات.. ورَّطت ابنتها في سرقات صغيرة لا تسمن ولا تغني من جوع، وعندما اكتشف الزوج البخيل الأمر طلّقها في اليوم التالي.

كان زواج ليلى الثاني قبل أن تبلغ السابعة عشر من عمرها بقليل.. هذه المرَّة كان زوجها في الأربعينيات.. كريماً معها ومع أسرتها، وكان نبيهاً فطناً، اكتشفها سريعاً.. كان يقول لها: أنتِ مهذارة ثرثارة، أغلقي فمك الذي لا تجيدين استخدامه وافتحي فخذيكِ اللذين تجيدين فتحهما.. لا تتذاكي فأنت لستِ ذكيَّة ولا تتحايلي فأنتِ قليلةُ الحيلةِ.. السرُّ بسيطٌ: أقفلي فمكِ وافتحي فخذيك تسلمي، كانت تضحكُ ملء شدقيها عندما كان يقول لها ذلك.. كانت تظنُّهُ مديحاً.. غزلاً، لكنَّها لم تستطع يوماً أن تطبِّق النصيحة كاملةً، فدخلت في معارك تافهة مع ضُرَّتها كانت تهزم فيها جميعها، ومع ذلك فقد تحمَّلها زوجها لبراعتها في الشقِّ الثاني من النصيحة، استمرَّت الأمور على هذا النحو عاماً كاملاً.. مُشاجرات ومُشاحنات يتلوها اعتذارات من ليلى لضرَّتها بناءً على طلب الزوج، إلى أن رآها مرَّةً تهذر وتثرثر مع ابن الجيران، كان الزوج رجلاً ذا خبرة.. مزواجاً مطلاقاً.. تسحره المرأة ولكن لا تعميه، فطلَّقها..

وصل رأفت إلى المكتبة قادماً من السوق.. كان صباحاً جميلاً، جلس وراء مكتبه وطلب من عامله إحضار أوراق الإرساليات، كان معظمها من مصر وبعضها من دمشق وبعضها الآخر من بيروت، اطلع عليها وبدأ عاملان بفتح الطرود ومطابقة موجوداتها بالأوراق..تمَّ ترتيب الكتب على الرفوف كل حسب فئته.. نظر إلى ساعته وعاد ليجلس وراء المكتب، كان يوم الثلاثاء.. كان سبق وأرسل إلى ربيعة أنه قادم وقت الغداء.. تابع مراقبته لعملية ترتيب الكتب واستقبل بعض الزبائن ثم غادر باتجاه شارع اسكندرون.

وصل إلى محل الخضرجي أبي صطيف، انتقى بعض الفاكهة وحلف عليه أبو صطيف أن يتناول معه كأساً من الشاي.. فحركة البيع خفيفة عند الظهيرة، لم يشأ أن يصده فجلس ناظراً إلى الجهة اليسرى من الشارع من حيث هو جالس فرأى يدي أبي علي ترتفعان كلتيهما على رأسه بالتحية له.. فحياه مبتسماً له، كانت عربة الكعك والخبز المقمر في مكانها نفسه.. كان وهو طفل يحب قرمشة هذه القطع ذات الشكل البيضوي واللون الذهبي يلمع من على طبقتها العليا، نادى أبا علي وطلب قطعتين وأصر أن يدفع ثمنهما.. طلب من أبي صطيف وضع القطعتين في كيس صغير من الورق ثم سأله عن عاشقة البقدونس!..

ـ من؟.. وداد؟.. خفت مشترياتها هذين اليومين فزوجها مسافر في تركيا وهي وحدها.

سأله عن عمل زوجها فأجابه أنه كثير السفر خاصةً إلى تركيا وهو يعتقد أنه يتاجر بالمكسرات.. صنوبر وجوز ولوز.. دخلت إحدى النسوة فقام أبو صطيف ليخدمها، انتبه رأفت أن نافذة من نوافذ بيت وداد فتحت، وأطلت هي منها، اعتقد أنها ستطلب كعكاً من أبي علي فقد كانت تنظر باتجاهه، نظر هو إلى أبي علي فرآه ينظر بدوره في اتجاهها صامتاً.. ثم أغلقت النافذة وأسدلت الستائر.. حينها قام أبو علي ومسح جفنيه الاثنين بيديه الاثنتين بحركة سريعة نحو الخارج.. ثم وضع كرسيه داخل العربة ودفعها باتجاه محل أبي صطيف.. قال أبو علي عندما وصل:

- الله يرحم والدك يا أبو صطيف.. أنا ذاهب إلى الصلاة.

- ضع العربة بجانب المحل.. الله معك.

ركن العربة ثمَّ عاد أبو علي من نفس الاتجاه الذي قدم منه مبتسماً ابتسامة سريعة لرأفت.

شيء ما يحصل.. فكر رأفت، كان انتباهه في ذروته.. قال لنفسه: إذا كان ما خطر في بالي صحيحاً فيجب على أبي علي أن يكون أذكى من أن يدخل من الزقاق الأول.. عليه أن يستخدم الزقاق الثاني صعوداً ثم ينزل من الزقاق الأول الموازي للثاني ليصل إلى مدخل البناء المقصود. ظلت عيناه على أبي علي ورآه يدخل من الزقاق الثاني بالفعل فابتسم. من حيث هو جالس لم يكن يستطع رؤية المارة في الزقاق الأول.. كان عليه أن يتمشى أمتاراً قليلة فينكشف له الزقاق الأول حيث مدخل بناء وداد، لم يكن رأفت يوماً فضولياً.. كان يحترم خصوصيات الناس ولكنه لم يستطع أن يقاوم.. بينما كان أبو صطيف يجادل زبونته، قام رأفت وأخذ يتمشى لأمتار ذهاباً وإياباً.. كان الزقاق المعني ينكشف للحظات أثناء تمشيه، لم يلمح أبا علي في المرات الثلاث الذي انكشف له فيها الزقاق فقال لنفسه خجلاً من تصرفه: آخر مرة وكفى.. وفي هذه المرة وهو يتمشى للمرة الأخيرة باتجاه محل أبي صطيف انكشف الزقاق ورأى أبا علي يحث خطاه مسرعاً فأسرع

هو بخطوته التالية حتى لا يراه الأخير.. جلس للحظات وابتسامة ـ فيها كل معاني ما رآه وفهمه ـ ترتسم على وجهه، ثم أخذ رشفة من كأس الشاي. نهض مودعاً أبا صطيف ودخل الزقاق إياه، كان مدخل البناء حيث شقة ربيعة من على يساره ومدخل البناء حيث شقة وداد من على يمينه.

عندما فتحت ربيعة له الباب.. حياها ودخل، لاحظ أنها مختلفة عن المرة السابقة، تحيتها له مختلفة.. وجهها مختلف، حتى منديل رأسها تغير موضعه من على رأسها.. لا تزال مربكة خجولة، ولكن في كلامها وفي حركتها في البيت إنسيابية ورشاقة لم يكن لهما أثر في المرة السابقة. جلس على الكنبة فقالت:

ـ سأحضر فنجاني قهوة.

ـ أفضل ألا أتناول شيئاً قبل الطعام.

ـ إنها قهوة أهلاً وسهلاً.

ـ شكراً لك.. حقيقة لا أتناول قهوة قبل الطعام.

ـ على راحتك.

وجلست قبالته على كنبة منفردة. .

ـ كيف هي أمورك؟..

ـ تمام التمام.

كان وجهها مرتاحاً وشيء من الجمال بدا وكأنه تسرب إليه حديثاً.. تابعت:

ـ إني أعمل بطاقتي القصوى.. لقد دهش أبو اسحق ومحل التلل من عدد القطع التي أرسلتها لهم. قالوا أنهم سيخزّنونها للشتاء القادم.

ـ عال.. هذا يسرني.

ـ الفضل لك يا أبو أحمد.

قالتها مبتسمة وممتنة.

ـ أنتِ تستحقين كل خير يا ربيعة.

ثم سألها مغيراً الحديث:

ـ ما أخبار جارتك.

ـ وداد؟.. نحن على وشك أن نصبح أحلى صديقتين.. إنها ودودة جداً ولكنها تعاني من الفراغ.. عندما أسألها عن أحوالها تجيب دائماً: ملل وفراغ، أنت تعرف أن لا أولاد لها وهي لا تعمل، وعندما يسافر زوجها لا تطبخ حتى، ولقد علمتها قطبة أو قطبتين على سنارة الصوف فسرت واندهشت وكأنها اكتشفت أميركا!..

ـ غريب.. فاليهودية ماهرة عادة في أشغال المنزل.. وشغل الصوف هو من أعمال المنزل.

ـ عندها مهارة جديدة عليّ.. أنا أرسم في ذهني نموذج ما أنوي حياكته.. أفصل في ذهني ثم أبدأ العمل.. هي ترسم ذلك على الورق.. بخطين أو ثلاثة خطوط وبقلم من الرصاص تعطيك شكل قميص أو جاكيت.. أنها تفعل ذلك للتسلية.. إنها مدهشة، عندما قصصت لها قصتي وكيف جئت إلى حلب قالت أنها قصة مثل الروايات وعندما وصفتك لها..

ـ كيف وصفتني؟..

أجابت وقد أحمر وجهها قليلاً:

ـ وصفتك وكفى..

ـ وبعدين؟..

ـ عندما وصفتك لها قالت إنها ربما لمحتك في الحارة أو في محل أبو صطيف وأنك تشبه ممثلاً في السينما.

ـ من هو؟..

ـ قالت لي اسمه، ولكنه اسم أجنبي لم أحفظه يمثل في فيلم قد يكون اسمه تائه في الريح أو ذاهب مع الريح.. لا أعرف.

ـ إنه فيلم ذهب مع الريح، والممثل اسمه كلارك غيبل.. هل وصفتني كذلك؟.. هل تعلمين أنّه أشهر وأوسم ممثلي العالم لابد أنك بالغت كثيراً

كثيراً في وصفي.

فاحمر وجهها من جديد، ثم غيرت الحديث وقالت:

- لقد حضرت اليوم طعاماً شامياً صرفاً.. صنف واحد.. أوزي.

نهض رأفت قائلاً:

- هيا نأكل.

طلبت منه أن ينتظر قليلاً حتى تعد المائدة.. وما هي إلا دقائق حتى جلسا إلى مائدة الطعام.. تجاذبا أطراف الحديث، أخبرته أنها تفكر في وقف شغل الصوف، فالصوف والصيف لا يتفقان، وأنها قد تشتري هي ووداد ماكينة خياطة حديثة وتجرب حظها مع رسومات وداد ومع القماش هذه المرة.

لم يعلق رأفت.. لاحظت أنه يحرك بصعوبة رقبته، فقال لها انها متصلبة بعض الشيء وتؤلمه قليلاً.. حكت له كيف كانت أمها تفعل برقبة أبيها عندما كانت تتصلب.. كانت تكويها بالمكواة من خلال منشفة سميكة ثم تفركها قليلاً فتشفى، شرح لها أنه بنقطتي زيت وتدليك قوي يمكن الوصول إلى النتيجة نفسها، فقالت له:

- أستطيع فعل ذلك.

- لا تهتمي.. الألم ليس قوياً.

أنهيا طعامهما.. وقام فغسل يديه وقال:

- سأستلقي على الكنبة.

فكرت أن تدعوه للنوم على السرير في غرفة النوم ولكنها ارتبكت ثم أحجمت.

تركت - كالمرة السابقة - كل شيء على المائدة حتى لا تزعج نومه.. لمحته وهو يحاول تغيير وضعية رأسه.. كان واضحاً عدم راحته على الكنبة.. فجأة قال لها:

- عندك مانع أن أغفو على سريرك؟..

فردت بسرعة:

ـ كنت على وشك أن أدعوك.. تفضل.

نهض وهو يضع يده على رقبته.. ودخلا غرفة النوم، كان كل شيء مرتباً نظيفاً.. قالت:

ـ أستطيع الآن غسل الصحون من دون إزعاجك.

وغادرت الغرفة وهي تسحب باب الغرفة من وراءها دون أن تغلقه.

بعد قليل ناداها.. فأسرعت إليه. قال:

ـ لقد غيرت رأيي.. هاتي قليلاً من الزيت.. الزيت الحلو.. ولنرى إن كان سيخف الألم.

ذهبت إلى المطبخ وعادت بفنجان صغير.. وضعت على راحتيها قليلاً من الزيت وبدأت بتدليك الناحية اليمنى من رقبته كما أشار لها.. نبهها إلى أنها ستتعب بعد قليل وتكل يداها، فذكرته بأنها شغالة صوف بالسنارة ويداها قويتان.

كانت تدلك بلا أية خبرة.. ولكن مع الوقت تغيرت حركة يديها فأصبحتا أكثر فعالية، فهمت أن عليها أن تطيل فأطالت.. وبدأ يشعر بالراحة وهي بالتعب.. عندما أراحت يدها اليمنى على كتفه كانت تبرك على ركبتيها من خلف ظهره.. أمسك يدها وسحبها من فوق كتفه قليلاً.. فبدأت أصابعها ترتجف وتنفسها يتسارع، فأغلق يدها وضغط بيديه الاثنتين على قبضتها فزالت الرجفة ولكن تنفسها تسارع أكثر.. نظر إلى ساعدها البضّ ومرر أصابعه عليه بنعومة وكأنه لا يلامسه.. ثم طبع عليه قبلة لامست جيدها أو كادت، أرخت رأسها إلى الأمام فارتاح جبينها على رأسه.. استدار نحوها، كانت عيناها مغمضتين وهي ترتجف بكامل جسدها، فضمها بقوة وكاد أن يعصرها، زال ارتجافها.. وما هي لحظات حتّى اشتعل وأشعلها معه.

انسلت ربيعة من السرير وكان رأفت غافياً.. ذهبت إلى غرفة الجلوس

ثم إلى المطبخ ثم إلى الحمام وهي لا تعرف ماذا تفعل، فجأة رأت وجهها في المرآة، كان كالحاً.. حدقت فيه وقالت: مبسوطة؟.. ها قد لمس يدك ولمس أكثر من يدك!.. عادت إلى المطبخ وجلست.. أطبق عليها حزنٌ كاد يبكيها.. بل أنه أبكاها بالفعل.. والآن ماذا سيقول عني؟.. أخذت تفكر.. كيف سينظر إلي؟.. هل تقول له إنه أول رجل يلمسها منذ طلاقها؟.. وما النفع من قول ذلك؟.. لا.. لن تقول شيئاً.. ستسكت نهائياً.. أو عندها كلمة تقولها؟..

عندما استيقظ رأفت.. ارتدى ثيابه وخرج إلى غرفة الجلوس فلم يرها، جلس وحده.. بعد قليل خرجت من المطبخ تحمل صينية القهوة وعليها فنجان واحد.. قدمته له وجلست.. كان واضحاً له حزنها.. همّ أن يقول شيئاً ولكنه امتنع.. كان في غزواته النسائية يستمتع بكل مراحل الغزوة.. عندما كان يرصد الهدف ـ المرأة ـ كان يستمتع بذلك، وعندما تبدأ المطاردة كان يستمتع أكثر، وعندما يقنص كان يشعر بالرضى والفخر كأي صياد أمسك بطريدته.. هذه المرة لا رضى ولا فخر.. مع ربيعة كانت المطاردة غير متكافئة.. لقد آذى مشاعرها، فكّر.. يا له من نذل.. لن يسامح نفسه، تأمل رأفت وجهها مرة ثانية وظل صامتاً.. قالت بلهجة مستكينة:

ـ هل أعمل لك كوباً من الشاي؟..

ـ لا شكراً، علي أن أذهب.

رافقته إلى الباب وقبل أن يفتحه التفت إليها وقال:

ـ لا تخافي ولا تحزني يا ربيعة.. أنت امرأة جيدة، والله أرسل لك أناساً جيدين مثلك.

قال هذا وغمرت وجهه موجة عارمة من الحنان.. فجأة زالت الغمامة.. فجأة تغير بريق عينيها.. فجأة فتحت فمها ولم تسكت:

ـ والله العظيم بعد بكير على ذهابك.. أنت قلت إنك ستبقى حتى المغرب، ولم ينقض العصر حتى.. لمَ العجلة.. لم تُنه قهوتك حتى..

ثم أمسكته من يده وهي تتابع الكلام وتتلعثم به وعادا سوية إلى الكنبة إياها، ومالبثت ضحكاتهما أن علت وكأن جواً آخر قد حل فجأة عليهما.

عندما غادر رأفت وأصبحت وحيدة.. عاودها حزنها الأول.. كانت حزينة ثم أصبحت سعيدة وها هي تعود الآن حزينة.. استلقت على سريرها وسمرت نظرها على سقف الغرفة، ثم فكرت: لم تصل إلى ذروتها؟.. لم تشعر بالرعشة؟.. لكن متى شعرت بها؟.. مرة مرتين في حياتها؟!.. فيما مضى من أيام.. في أيام زواجها التعيس كان يأتي عنترة.. كم كانت تحبه.. وكم تمنت أن يكون اسمها عبلة، كان يأتيها عنترة على فرسه وينتشلها من بؤسها ويحررها من زوجها وينطلق بها إلى صحراء لا حدود لها.. ولكن الغريب أنه لم يحاول مرة ملامستها.. هل لأنه كان عبداً مقموعاً؟..

في هذه الأثناء.. وفي الجهة المقابلة من الزقاق.. كانت وداد في بيتها جالسة تتمرن على شغل السنارة وهي تسمع اسمهان.. هذا الشجن في صوت اسمهان كان يسحرها.. والحقيقة أنها كانت مسحورة منذ بعض الوقت.. منذ دخل حياتها هذا الشاب الجميل.. أبو علي.. فتغيَّرَ كل شيء، تغير صباحها وتغير مساؤها.. أحبته وأحبت نفسها أكثر.. بل أحبت زوجها أكثر وكل الناس، كانت تعيش في فراغ كبير، خاصة بعد أن ابتعد عنها زوجها في الآونة الأخيرة وكثرت أسفاره وأحاديثه المهمومة عن اليهود ومستقبلهم.. وعن مشروعهم الكبير في فلسطين، لم تكن تشاركه شغفه بهذه المواضيع وإن كانت حماسته بدأت تلفت انتباهها وتقلقها.. دخل هذا الشاب حياتها في لحظة ترقب، وكان تأثيره عليها لا يصدق.. تأثيره على أحاسيسها على رغباتها.. على جسدها.. كان تأثيراً لا يمكن وصفه، كانت تشعر بالبلل عندما كانت تسمع خطاه على درجات السلم.. وكانت حلمتاها تتصبان وهي تفتح له الباب، وعندما يدخل كانت تنظر إليه بعينين زائغتين وكأنها بدأت بممارسة الجنس بالفعل، أما هو فبعد أن يدخل ويغلق الباب،

كان يقف ويتأملها.. ثم يبدأ وكأنه يغني: يا صباح الفل.. يا صباح الورد.. يا صباح الياسمين، ويدور من حولها دون أن يلمسها.. كانت تدور معه وكأنها تراقصه.. ثم تتسل باتجاه غرفة نومها وهو يتبعها.. كانت تستلقي متكئة على مسند السرير ويجلس هو على طرفه.. ثم يبدأ بالأغنية الثانية: أبوس روحك.. أبوس عيونك الدبلانة.. أبوس شفايفك.. خاصة السفلية، فتضحك هي ويتابع هو: أبوس حلماتك، فتقاطعهُ: استح يا ولد، ولكنه لم يكن يستحي، بل يستمر فلا يترك بقعة من جسدها إلا ويقبلها بالكلام فقط، أقسمت مرة لنفسها أنها بلغت الذروة من دون أن يلمس يدها. عند لحظة معينة.. عندما كان وجهها يتورد ثم يحمر وقبل أن تتفجّر الدماء منه.. فتفوتها الفرصة كما حدث لها تلك المرة، كانت تغلق فمه بفمها ويغيبا عن الوعي.

كان وقت أبي علي ضيقاً.. كان يعمل في الصباح في فرن عمه للحلويات، ثم في فترة قبل الظهيرة كان يعمل على عربة الكعك وكانت هذه عادة عنده منذ كان طفلاً لم يشأ أن يتركها، وفي المساء وحتى الساعة التاسعة كان يعمل في المقهى الشعبي.

كان سعيداً ودخله جيداً وهمه الأول والأخير عائلته.. زوجته وولديه علي وجميلة، ثم أتتهُ هذه الحورية الساحرة فجعلته يطير في الهواء ولا يسير على الأرض، كان قد بدأ يشعر أنها امرأة متطلبة، ولكن وقته كان دائماً ضيقاً.. فحاول أن يعطيها في أقصر وقت أقصى ما يستطيعه من حب..

سمعت وداد صوت جارتها ربيعة تناديها، فأطلت من الشرفة وقالت لها: القهوة عندي أو عندك؟.. فأجابتها ربيعة أن قهوتها جاهزة وهي بانتظارها.

جلست الرفيقتان ترتشفان القهوة في بيت ربيعة.. ثم لمعت عينا وداد وقالت:

ـ لقد رأيته اليوم.. رأيت كلارك غيبل وهو يغادر بيتك.

نظرت إليها ربيعة نظرة بلا معنى ثم انفجرت بالبكاء.. فوجئت وداد

فاندفعت إليها تضمها وتحضنها وتمسح لها دموعها إلى أن هدأت قليلاً فسألتها:

- ما الأمر؟..

تمخطت ربيعة وأخذت نفساً عميقاً ثم قالت:

- إنها المرة الثالثة التي يدخل فيها هذا البيت، والثانية التي أعد له الطعام ونكون وحدنا.. تصوري ولا مرة.. ولا مرة تنازل وفكر أن يلمس لي يدي!.. هذا لا يعني أني أريده أن يلمسني.. لا أبداً، ولكنه يبقى بعيداً عني وكأني وباء.. إنه شعور مؤلم يا وداد.

قالت ذلك ثم عادت إلى البكاء ولكن بصمت هذه المرة.. كانت ربيعة مذهولة من قدرتها ومهارتها في الكذب وبطريقة ارتجالية فاجأتها.. تابعت ذرف دموعها بصمت بينما كانت وداد تقول مواسية:

- أنت امرأة جميلة يا ربيعة.. قريبة من القلب، نحن لا نعرف نوع هذا الرجل، قد يكون مغرماً بزوجته، سمعت أنه يكتفي بزوجة واحدة.. لا شك أنه متعلق بها، ويقولون أن مكتبته وتجارته تأخذان كل وقته، وهو معروف جداً ومحبوب جداً.. انظري كيف تعامل معك؟..

جففت ربيعة دموعها والدهشة لم تفارقها بعد من كذبها المتقن، نظرت إليها وداد ولما رأت أن كلماتها قد أراحتها.. رفعت يديها متباعدتين إلى الأعلى ثم ضمتهما إلى صدرها وقالت:

- هل تعلمين يا ربيعة بماذا أحلم؟.. أحلم برجلٍ يدخل حياتي.. فيغير صباحي ويغير مسائي.. يجعلني أحبه، فأحب نفسي أكثر، وأحب زوجي أكثر وأحبك أنت أكثر. .

ثم ضحكت ضحكة عالية، نظرت ربيعة في عيني صديقتها.. وأمعنت النظر، فجأة قالت لنفسها: إنها تكذب.. يا لها من كاذبة.. إنها تعيشه.. ما تقول إنَّها تحلم به قد تحقَّق وتمَّ.. إنها تعيشه وترويه لي الآن.. لا يوجد في عينيها حسرة الحلم الذي لم يتحقق.. حسرة الحلم الضائع، يوجد رضى

وإحساس جميل وسعادة.. يا لها من كاذبة.. لقد تفوقت علي!..

سيستمر هذا التكاذب بين الصديقتين زمناً.. فالمرأة العربية الشرقية، المحافظة والمخاتلة في كل واحدة منهما.. ستمنعهما من تبادل أي سر من أسرارهما، ولكن هذا لن يطول كثيراً.

تزوج أبو محمود من ليلى بعد انقضاء أربعة شهور على وفاة زوجته.. بلا عرس ولا حفل، سافر معها إلى قرية قريبة من حلب كان لجدّه بيت فيها لا تزال عمته عائشة تقيم فيه.. دخل عليها في هذا البيت، ومكثا ليومين ثم عادا إلى حلب.

عندما وصلا إلى البيت، كان الأولاد الثلاثة في انتظارهما.. محمود وزينب ونبيل، كانت زينب قد قامت بواجبها - واجب والدها - كما قالت، فجهزت مائدة الطعام بأصناف متعددة.. تعبت يومين طويلين في تحضيرها، حيّت ليلى بتحفظ وتفحص، وبعد أن جلس الجميع قليلاً في غرفة الجلوس.. انتقلوا إلى مائدة الطعام، كانت ليلى جائعة.. راقبتها زينب وهي تتناول طعامها.. راقبت كل حركة.. كل تفصيل.. طريقة تناولها للقمتها.. حجم اللقمة التي تمضغها.. كيف تمضغها، وكانت بداية مراقبة وفحص استمرت لأيام وفي نهاية اليوم الثالث.. خرجت زينب بفكرة أولية عن الساكنة الجديدة.. إنها مسكينة.. خفيفة.. خفيفة في كل شيء.. بعقلها وبكلامها وبحضورها وبطريقة توددها لها ولأخويها.. تركتها تعد الطبخ مرة واحدة ولم تكررها، فقد كان طبيخها كارثة حقيقية، اكتشفت أنها تحبُّ شطف أرض الدار بالماء وكأنها تلعب به.. واكتشفت قوة ساعديها بالغسيل، فرتبت وتوزعت معها العمل في البيت.. كانت خفيفة صحيح.. ولكنها كانت سهلة الانقياد.

بالنسبة لليلى كان هذا هو زواجها الثالث.. كانت المرة الثالثة

وأرادتها أن تكون ثابتة، حاولت بكل ما أوتيت من ذاكرة ـ وكانت ضعيفة ـ وكل ما أوتيت من عقل ـ وكان خفيفاً ـ أن تتلافى أخطاءها في الزواجين السابقين وأن تأخذ العبر منهما.. فلم توفق إلا قليلاً، جالت منذ اليوم الأول في البيت.. كان بيتاً عربياً تقليدياً، صحن الدار ونافورة الماء في وسطه وأصص النباتات والورود في كل زاوية من الصحن وقرب جدرانه.. غرفة المعيشة والمطبخ والخدمات في الطابق الأرضي ودرج السلم الخارجي يوصل إلى الطابق الثاني حيث غرف النوم، من الباب الرئيس للدار كان الرواق الذي يضفي إلى صحن الدار ضيقاً، بعد الولوج مباشرة من الباب الرئيس كان هناك باب صغير يقع على اليمين يفضي إلى غرفة مظلمة يدخلها نور ضعيف من كوة صغيرة، سألت فقيل لها إنها كانت فيما مضى اسطبلاً صغيراً بابه خارجي يطل على الزقاق وعندما انتفت الحاجة إلى الاسطبل، سُدَّ الباب الخارجي بالحجر.. وفتح هذا الباب الصغير على الرواق، فكرت أن تستخدم هذه الغرفة كقن تربي فيه الدجاج، وكان لها الأمر طالما أن التنظيف وشطف صحن الدار كان من مهامها.

انقضى الشهر الأول والثاني والأمور تسير على ما يرام حتى أن أبا محمود تفاجأ بالسلاسة التي كانت تحكم العلاقات بين ساكني الدار.. وعندما نقل ذلك إلى صديقه رأفت علق الأخير بأن نيَّة أبي محمود الحسنة وحظّ أولاده وراء ذلك، وعندما قال له أبو محمود أن زوجته سلمت قيادتها بالكامل لزينب.. علّق مبتسماً، بينه وبين نفسه هذه المرة: هذا هو السبب الحقيقي وليس غيره!..

في صباح أحد الأيام وكان في آخر شهر من أشهر الصيف.. كانت ليلى في المطبخ وزينب تدور في البيت كالنحلة العاملة، وإذ بالباب يقرع فهرعت زينب، فتحت الباب وإذ بشاب يحمل كيسين من الخضار يمدهما قائلاً أنهما من العم أبي محمود الذي أوصى عليهما منذ الصباح، ثم يحدق بوجه زينب بجرأة ويقول:

- اللهم صلّ على النبي.

أخذت زينب الكيسين وأغلقت الباب وقد علقت في ذهنها نظرات هذا الشاب الوقحة.. كان جديداً.. قد يكون أحد أقرباء أبي جاسم الخضرجي، لم تسأل عن الصبي القديم ولم تفكر بالأمر، في اليوم الثاني تكرر قدوم ذاك الشاب.. كيسان ورقيان يحملهما بيده اليسرى وعندما نظرت زينب إليه مستغربة تأخره في إعطائها الكيسين وضع يده اليمنى على قلبه وتأوه قائلاً:

- آخ.. لا تنظري إلى بهاتين العينين الجارحتين.. ارحميني الله يخليك!..

خطفت الكيسين منه واستدارت مغلقة الباب وشبح ابتسامة ترتسم على وجهها.. كان فتى من عمرها تقريباً.. طويلاً ذا بنية قوية، شارباه كادا يلحظان.. في المرة الثالثة كان واقفاً وجسده ونظره بالكامل باتجاه الزقاق ويده اليمنى تمتد نحوها حاملة الكيس دون أن ينظر إليها.. قال لها وهي تتناول الكيس:

- لم أعد أجرؤ على النظر إليك.. لا أريد أن أموت!..

كان غزله سخيفاً، ومع ذلك لاحظ بطرف عينه نصف ابتسامة كان الباب وهو يغلق يحجب النصف الآخر.. فكرت أنَّ عليها وضع حد له وإلا تمادى.. لن تكون فظة كثيراً ولكن: اخرس يا ولد.. استح على شرفك، كلمات قد تفي بالغرض.

في الصباح التالي عندما قرع الباب أسرعت إليه.. لمحت في طريقها ليلى منكبة على طشت الغسيل وهي تغني.. قالت لها: إنها الكوسا، ثمَّ عبست راسمة على وجهها تعابير صارمة وفتحت الباب، قال لها:

- أعطي نصف عمري لأمسك يدك.

وأمسكها بالفعل من المعصم.. شدت يدها محاولة سحبها وإذ بها تسحبه إلى الداخل.. ترك كيس الكوسا يسقط على الأرض وأمسكها بيديه الاثنتين، نظرت مرتعبة إليه وقد شلّتها المفاجأة.. لاحظ باباً على يمينه

نصف مفتوح، فدخل منه ساحباً زينب معه وكأنه يسحب ريشة، كانا قد أصبحا في الاسطبل القديم.. بيت الدجاج، اسندها إلى الجدار، واستند هو بكامل جسده عليها، حاول أن يقبلها من شفتيها فأدارت وجهها.. انقض على عنقها ومرغ شفتيه على جانبه الأيسر ثم انتقل إلى الجانب الآخر وغمره بقبلات محمومة.. أرادت أن تصرخ فلم يخرج صوتها، مد يده وأمسك بنهدها فشدت بيدها يده واسقطتها، أمسك فخذها بنفس اليد فالتقطت معصمه بيدها وأمسكته بقوة، حاول بيده الأخرى على فخذها الآخر فكررت ما فعلته وأمسكت معصمه الآخر.. لم يبق أمامه إلا عنقها.. فجأة أحست بخدر غريب يزحف في جسدها فبدأت تتمتم: دخيلك اتركني.. دخيلك أفلتني.. ثم تذكرت أنها هي من تمسك به فسكتت، انتبهت أنه يحمل في جيب قنبازه مفتاحاً كبيراً كان يضغط بقوة على فخذها مرة وعلى بطنها مرات.. فكرت أن تدخل يدها في جيبه وتتناول مفتاح الحديد هذا وتفج به رأسه، فيما بعد.. شكرت حظها لأنها لم تفعل وإلا لكانت فضيحة!.. كان الخدر يزداد.. ويكاد يعم جسدها كله، بل أنه وصل إلى بعض عقلها.. فدب الرعب فيها.. كل شيء إلا عقلها.. علمت أن مصيبة كبرى ستحدث لها إن هي فقدته للحظات.. مصيبة كبرى ستحل بها وبيتها وبعائلتها بل بحلب كلها، ثم فجأة تذكرت.. أخذت نفساً وأفلتت يده فانزلقت هذه إلى فخذها فلم تهتم، أمسكت بيدها شعره من الأمام وبحركة قوية واحدة شدته إلى الخلف صارخة بلا صوت: يا محمد العربي، انفك الشاب عنها متفاجئاً متألماً وإذ بها تضربه بركبتها أسفل بطنه بكل قوتها.. ولم تعرف إلا لاحقاً أين أصابته، لذلك لم تفهم كيف سقط على الأرض يتلوى مقطوع النفس.. ولم تفهم سعاله ثم استدارته نحو الأرض محاولاً التقيؤ، انحنت فوقه ونعرته في رأسه قائلة:

ـ قم وانقلع من هنا أيها الحيوان.

كان يحاول جاهداً أن يأخذ نفساً عميقاً فلم يستطع، واكتفى

بأنفاس متقطعة.. نعرته مرة ثانية فبدأ يزحف باتجاه الباب على ركبتيه ويديه.. توقف قليلاً ثم أخذ نفساً كفاه ليقول لها:

- أيتها المتوحشة.. كدت تقتلينني.

- أسرع وانقلع من هنا وإلا قتلتك بالفعل.

ثم دفعته نحو باب الدار وقذفته خارجاً ولمحته يتقيأ بالفعل قبل أن تغلق الباب.

سارت زينب بهدوء وصعدت إلى غرفتها.. تمددت على سريرها، كانت منهكة مأخوذة بما حصل.. سمعت صوت ليلى تقول عالياً:

- لكن أين كيس الكوسا وبقية الخضار؟..

تذكرت أن الكيس بقي على الأرض بجانب باب الدار.. أسرعت هابطة درجات السلم وحملته إلى المطبخ.. لمحت ليلى وجهها.. لاحظت شحوبه ولاحظت حركتها السريعة.. لم تكن على طبيعتها.. فكرت ليلى: ثم لماذا بقي كيس الكوسا عند باب الدار؟.. هناك شيء يحصل أو هو حصل.. حدثت قصة.. قصَّة قد تكون من نوع القصص الأحب على قلبها!.. إنها تشم رائحتها في الهواء.. رأتها مرتسمة على وجه زينب.. فهل ترى آثارها قرب باب الدار؟.. على الأرض.. على الجدران؟.. جففت يديها واتجهت نحو باب الدار.. رأت على الأرض آثار أقدام دعستْ حديثاً على زرق الدجاج.. دفعت باب بيت الدجاج فمنعها الظلام من رؤية شيء.. ذهبت إلى المطبخ وعادت بالقنديل.. دخلت هذه المرة وبيدها القنديل.. أنارت الجدار الأول وابتسمت.

كان الغبار المتراكم على الجدار يسجل حركات الجسد المستند عليه منذ قليل.. قالت لنفسها وقد كبرت ابتسامتها: يا عيني يا عيني.. الحب لا يعرف خوفاً ولا غباراً ولا زرق دجاج!..

حين نام الجميع ليلاً.. كانت زينب مستلقية على سريرها.. ودموعها تسيل من دون بكاء، كانت تفكر: لقد خانها جسدها للحظات.. لماذا؟.. وماذا كان سيحصل لو أنه خانها لأكثر من لحظات؟.. وما هو هذا الخدر

الذي دب في جسدها وشلّها لبعض الوقت؟.. ثم انتبهت إلى أن اثنين أنقذاها: عقلها ومحمد الأكرم.. يا إلهي سأبقى إلى آخر يوم في حياتي وفية للاثنين.. قالت لنفسها.

ظلت تبكي.. عاد إليها الخوف.. كانت تريد أن تسأل ولكن من تسأل؟.. لم تشعر بالحاجة لأمها كما اليوم.. بكت ثم بكت.. ثم قالت لنفسها: لا أريد أمي لأسألها شيئاً.. لن أسألها أي شيء.. سأرتمي فقط في حضنها وأدعها تعانقني.. تمسح على شعري.. يا ربي مرة واحدة فقط ثم أعدها إليك، قالتها بحرقة وصدق.

نامت نوماً مضطرباً.. كانت تغفو وتصحو.. صحت في إحدى المرات فزعة، فقد كان الفتى إياه في منامها يقبل عنقها بجنون وجسدها يجن معه.. نهضت بسرعة وبللت المنشفة بقليل من الماء وأخذت تمسح عنقها بشدة، كانت نظفته من آثار القبلات الصباحية.. وهي الآن تنظفه من تلك الليلية.

عندما دخل أبو اسحق برفقة زوجته إلى بيت الخواجه رفول، الثري اليهودي المعروف، لم يكن قد وصل أحد من المدعويين بعد.. كان الاتفاق أن يدعو أبو اسحق الشباب للاجتماع في بيت الخواجه رفول.. ومع أنه لم يكن هناك تضييق سياسي على اليهود.. فقد وجدوا أنه من الأفضل إسباغ صفة «العزومة» على هذا الاجتماع، لذلك فمعظم القادمين كانوا مع زوجاتهم. عندما دخل فؤاد مع زوجته وداد رحب رفول بهما وأشار لوداد إلى الصالون الآخر حيث تجلس النساء.. نقرت وداد على الباب المفتوح وقالت مبتسمة: هنا الحرملك؟!..

كان المنزل فخماً رحباً، خفَّفَ من فخامته تصفيحه بأبواب من الحديد أضيفت على أبوابه الخارجية الخشبية الجميلة، حتى تلك المطلّة على «الترّاس» الكبير أضيف لها أبواب من الحديد الأصم القبيح.. فالأغنياء أول من يشعر برياح التغيرات.

كانت زوجة رفول من أسرة يهودية غنية وراقية.. وككل العائلات الراقية، مسلمة كانت أم مسيحية أم يهودية، درست في المدارس الفرنسية، لذلك كانت تطعمّ جملها بكلمات فرنسية تثير حنق ضيفاتها.. الحانقات أصلاً من ثرائها.

كان حديث النساء هو حديث الساعة بطبيعة الحال.. الدهشة والاستغراب والامتعاض من تغير الأحوال.. قالت مدام رفول:

ـ أنا خوفي الأعظم على بناتي.. أيامي لم يكن يجرؤ أحد على النظر

إليّ.. تصوروا.. دنيز ابنتي البكر.. الآن يلاحقها الفتيان من باب المدرسة إلى باب البيت، إنها مصيبة كبرى.

قالت وداد مبتسمة:

- دنيز فتاة في «أول طلعتها» وهي صبية تأسر الألباب.. فهل تستغربين ملاحقة الفتيان لها؟.. صدقيني، الفتيان العرب لن يأكلوها إلا بعيونهم الجميلة كما في أيامنا.

- يا وداد.. إنَّ خوفي من هذه الأيام وليس من هؤلاء الفتيان.. الآن حيطنا صار واطي.

علّقت أم اسحق:

- هذا ما جنيناه ونجنيه من مشاريعهم المجنونة في فلسطين.

في الصالون المجاور كان عدد الحاضرين وصل إلى خمسة عشر.. بدأ الخواجه الحديث سائلاً فؤاد:

- ما هي أخبار المغادرين؟..

- معظمهم يصل إلى سالونيك.. اليونان، وهناك تتكفل الوكالة اليهودية بهم.. ولكن المشكلة أن قسماً منهم يهرب من الوكالة ويختار جهته الخاصة في الهجرة.

- إلى أمريكا؟..

- إلى أمريكا وغيرها..

ثم وجه فؤاد السؤال مباشرة إلى الخواجه:

- وأنت يا خواجه رفول؟..

- أنا؟.. أنا لن أغادر أبداً.

استلم الخيط أبو اسحق وقال:

- يا جماعة.. هل تعون معنى تركنا لبلدنا؟.. إنها كارثة بالنسبة لنا.. حلب بلدنا، بلد آبائنا.. بلد طفولتنا وشبابنا.. وأنا أنوي أن تكون بلد شيخوختي.

أجاب فؤاد:

ـ لم تكن يوماً بلدنا.. إنها محطة انتظار طال كثيراً لحين العودة إلى بلدنا الأصلي، أرض إسرائيل.. فلسطين، وها قد حانت ساعة العودة.

ـ ما هذا الجنون؟.. ما هذه الأساطير؟.. سكنها اليهود منذ ألفي سنة ثم تركوها والآن سيعودون؟..

ـ لم يتركوها.. أرغموا على تركها.

ـ يا سيدي أرغموا على تركها.. وسكانها الحاليون، العرب الفلسطينيون، ستطردون مليون فلسطيني لتحلُّوا مكانهم؟..

ـ في السنتين الماضيتين جرت بين بولونيا وألمانيا حركة سكان تفوق هذا العدد بكثير.

ـ و هل هذا أمر عادل وطبيعي برأيك؟..

ـ ما دخل العدل هنا؟.. إنها حركة تصحيح تاريخية.. التاريخ يصحِّح أخطاءه، ثم إن العرب عندهم أكثر من عشر دول.. ونحن نريد واحدة فقط.

ـ يا فؤاد.. نحن اليهود نعيش في هذه البلاد العربية من مراكش إلى العراق ملوكاً غير متوجين.. غنينا أغنى الأغنياء.. فقيرنا أفضل الفقراء.. علماء، أطباء، وزراء منّا في كل العهود.. وعلى مدى قرون، هل نسيت الحقبة الأندلسية؟!.. كنا في مقدمة العالم في كل شيء نحن و العرب المسلمين، في حين أن اليهود في أوروبا المسيحية، أنت تعرف.. اضطهاد وقتل وتنكيل، كان يأتي ملك كلب ابن كلب.. فيجد نفسه في مشكلة مع شعبه فيديره على اليهود بمناسبة وبدون مناسبة.. ويبدأ التنكيل والتقتيل.. أو يأتي ملك آخر في بلد آخر فيجد نفسه في حرب مع ملك جار له.. فيدفّع اليهود أكلاف حربه هذه.. ضرائب.. أو مصادرة أموال.. وإن قصرّوا برأيه قليلاً.. نكّل بهم أو طردهم خارج البلاد نهائياً..

ـ لذلك أصبحت الدولة اليهودية أكثر من هدف اسطوري كما تسميه أنت.. إنها حياة بالنسبة لنا.. الدولة اليهودية وحدها من يؤمِّن لليهود العيش

بأمان وسلام وتقدير للذات.

- أمان وسلام؟.. تطرد مليون عربي مسلم ومسيحي وتحل محلهم ثم تريد أن تعيش بأمان وسلام؟.. وهؤلاء وراءهم أكثر من خمسين مليون عربي.. وراءهم بحر بشري معتز بنفسه وبتاريخه.. هل تظنهم هنوداً حمراً؟.. ثم نحن ماذا سيحل بنا؟.. عندما طُردنا يا فؤاد أو هربنا من اسبانيا، أيام محاكم التفتيش، من حوانا وحضننا؟.. في شمال افريقيا.. في دمشق.. في حلب.. في استانبول.. عشنا بينهم لقرون معززين مكرمين ثم نكافئهم بهذه الطريقة؟..

- حركة التاريخ قاسية معظم الأحيان.

- بلا حركة تاريخ بلا سخف، ما يحصل جنون بجنون.. ولن يؤدي إلا إلى كوارث ستحيق بنا لأجيال وأجيال.

سُمع صوت هادئ يقول:

- دعهم يحاولوا يا أبو اسحق.. دعهم يحاولوا تحقيق حلم كان إلى أمد قريب ضرباً من الخيال..

نظر أبو اسحق وإذ بالمتكلم أبو داؤود.. دهش فالمتكلم صديقه وشريكه في كل آرائه.

تابع أبو داوود:

- الإنسان لا يعيش بالخبز وحده.. والعيش الرغيد لا يكفيه، والأمان والسلام من دون تحقيق الذات لا معنى لهما.. يبدو أن الأحلام والسعي إلى تحقيقها أهم. دعهم يحاولوا.. إنها فرصة تاريخية لن تتكرر في ألف سنة.. دعهم يستغلوها، قد ينجحون وقد يفشلون.. إنها مغامرة كبرى.

كان أبو داوود في الستين من عمره.. هادئاً دائماً، يميل إلى فلسفة الأمور بعض الشيء.. قال له أبو اسحق:

- أنت من تقول ذلك؟.. ومنذ متى؟..

- يا أبو اسحق.. أنا وأنت لا نزال نبحث أين الصح وأين الخطأ في كل

شأن من شؤون هذه الدنيا.. وسنموت ولن نعرف، ألا تتفق معي؟..

ـ طبعاً لا أتفق معك.. تحضّهم على المغامرة الكبرى؟.. منذ متى تغامر وتقامر يا أبا داوود؟..

هنا تدخل فؤاد قائلاً:

ـ التاريخ صنعه المغامرون يا أبو اسحق.. بالإذن منك.. نحن تلامذتك!..

قالها مبتسماً.

لم يجبه أبو اسحق بل توجه بالكلام لأبي داوود:

ـ أنت لا تغامر بثمن بيت أو بيتين أو صفقة أو صفقتين.. أنت تغامر بحياة بشر.. ناس من لحم ودم، تغامر بمصيرهم.. بمصير أولادهم وأحفادهم لأجيال وأجيال، وأنا أعني هنا مصيرنا نحن اليهود قبل أن أعني مصير الفلسطينيين.. إن من أتى من أوروبا من اليهود، أتى من قارّة مجنونة تقاتلت مع نفسها ودفعت أكثر من أربعين مليوناً من القتلى في الحرب الأخيرة.. وملايين.. ملايين من المهجرين، بالنسبة لهم تهجير مليون فلسطيني أمر تافه.. بالنسبة لهم مقتل مئة ألف أو مئتي ألف غير مهم.. هذه أرقام لا يقفون عندها.. عن أية مغامرة تتكلم؟..

كان الخواجه رفول صامتاً ولكن تعابير وجهه وهزات رأسه المؤيِّدة لأبي اسحق دفعت فؤاد للحنق، فابتسم ابتسامة صفراء قائلاً لنفسه: ياللأغنياء ويا لأنانيتهم.. جشع وطمع وحياة رغيدة ومن بعدهم الطوفان، نظر إلى صديقه شمعون الذي كان دائماً يشاركه أفكاره، وإذ بهذا ينبري قائلاً:

ـ أنا متأكد أن بعضنا على استعداد أن يبول على القضية اليهودية بسبب أنانيّته وراحة باله، أو مقابل وضع مالي يُنمّي له كرشه أكثر وأكثر.

انتفض أبو اسحق وقال بصوت عالٍ مرتجف:

ـ ماذا قلت أيها الشاب؟..

توتر الجو فجأة، فتدخل الخواجه رفول بسرعة:

- نحن لسنا مجتمعين هنا لنناقش القضية اليهودية.. نحن مجتمعون لنرى كيف نمرر هذه المرحلة الحساسة بسلام.. أوضاعنا أصبحت من صعبة إلى أصعب.. توترات.. مشاحنات ومشاجرات لم نكن نسمع بها يوماً، أعمالنا في تدهور.. أنا مثلاً لم أعد أجرؤ على إقراض المال لأحد إن لم يكن يهودياً، إلا في حالات استثنائية.

نظر فؤاد إليه والابتسامة الصفراء لا تزال على وجهه وقال في نفسه: هذا كل ما يهمك أيها اليهودي الجشع، لكنَّه ظلَّ صامتاً.

سُمع أحدهم يقول:

- اليهود لم يعيشوا كل أيامهم بسلام مع العرب.. كانت تمرُّ أيام شدَّة.

أجاب أبو داوود دون أن ينظر إلى المتحدث:

- أيام الشدة كانت قليلة وكانت تصيب الجميع، المسلمين بطوائفهم المختلفة والمسيحيين واليهود.

ثم انهمك الجميع في مناقشة أنجع الطرق في امتصاص نقمة السكان على اليهود، باستثناء أبي داوود.. فقد غير مكان جلوسه وجعله قرب أبي اسحق، قال له بعد أن أصبح بجانبه:

- في الدولة الموعودة.. إذا استلم الحكم اليهود الشرقيون العرب، أو على الأقل شاركوا بقوة فيه، فسينجحون بإقامة علاقات جيدة مع الدول العربية وستكون الأمور أسهل.

- أنت تحلم.. لن يقبل يهود أوروبا أحداً منا في الحكم.. إنهم يحتقروننا كما كان يحتقرهم هتلر.. ولنفس السبب!..

في الصالون الآخر، كانت النساء في جوٍّ آخر تماماً.. كانت الضحكات تعلو وتخفت حسب حرارة الخبريات المتبادلة.. كانت أم برّو - وهي بحق مركز جميع تلك الخبريات - تقص عليهم ما حدث لأم محمد..

شكرية، التي كانت صديقة مقربة لبعض الحاضرات، وكيف أنها ضبطت زوجها مع امرأة نوريّة في غرفة نومها.. صرخت إحدى الحاضرات:

- نوريَّة؟..

وسألت أخرى:

- ولكن شكرية أين كانت؟..

فبدأت أم برّو:

- يا ستي.. شكرية ذهبت وجميع أولادها في زيارة أهلها لبضعة أيام في مزرعتهم بالقرية، ولكن أصابها شيء من التحسس.. شري لا أعرف ماهو، فعادت في اليوم الثاني وحدها.. وهنا كانت الواقعة.

انتظرت أم برّو قليلاً، وتأملت النسوة الصامتات المترقبات وعلى وجه كل واحدة منهنَّ ابتسامة خبيثة، وكأنهن يعرفن القصة حتى آخرها.. ثم تابعت:

- بلا طول حديث..

فقاطعتها وداد:

- الله يخلّيك.. بالتفصيل!..

- يا ستي دخلت شكرية غرفة نومها فوجدت زوجها مع امرأة في سريرها بالزلط.. مثل ما الله خلقهم.

شهقت إحدى الحاضرات:

- يا أمان!..

- فولولت.. وقفز زوجها مذعوراً وتستطعن الآن تخيل ما جرى..

- ماذا جرى؟..

- شكرية - عندما سمعت القصة منها - كانت تعبس مرة وتضحك مرات.. قالت أنها عندما رأت ثوب النورية مرمياً على الأرض ورائحته تفوح في غرفة نومها.. جُن جنونها، فأنتن تعرفنها.. إنها ست بيت من الطراز الأول و«نضايفية» حتى الموت.. هي مهووسة بالنظافة والترتيب.. صرخت بوجه

زوجها: أيها النذل تُدخل نورية وسخة في سريري؟.. فأجابها زوجها مذعوراً: والله العظيم أدخلتها الحمام أولاً!..

فانفجرت النساء بضحكة مجلجلة.. تابعت أم برّو وضحكاتها تأكل نصف كلماتها:

- عندها صرخت شكرية: أدخلتها الحمام؟.. وكم «تم خسلتا»؟..

فأجابها:

- والله ثلاثة!..

فجن جنون الحاضرات من الضحك.. أما وداد فكادت تقع مغشياً عليها من الضحك.

عندما هدأن سألت إحداهن:

- وبعدين، كيف تصرفت شكرية؟..

- أنتن تعرفنها جيداً.. إنها امرأة عاقلة، وأمها من قبلها كانت عاقلة.. خاصمته ليومين أو ثلاثة أيام.. ثم حردت عند أهلها ليومين أو ثلاثة أيام.. ثم عادت إلى بيتها.

سألت مدام رفول:

- ألا تزال جميلة؟..

- عند الرجال الجميلة هي المرأة الأخرى.. أو هي امرأة الآخر!..

فأيدتها المدام قائلة:

- الرجال حقيرون ليس لهم أمان.

قالت ذلك وغادرت لتسأل عن سبب تأخر البوظة.. الضندرما.

قالت إحدى النساء:

- الخواجه رفول لم يقصّر في هذا الأمر!..

- تقصدي إشاعة الخادمة؟..

- إنها ليست إشاعة.. استخدموا خادمة صبية.. فزاغت عيون الخواجه عليها، فطردتها المدام قبل أن ينقضي الشهر الأول عليها في البيت.

- شهر بطوله؟.. إنه كافٍ ليحدث فيه أكثر من زوغان العيون!..

ضحكن بصوت منخفض.. بينما كانت المدام تعود لتجلس في مكانها.

عادت أم برّو لحديث شكرية:

- عليكنَّ أن تسمعن شكرية وهي تصف جسم النورية.. صدر برمانتين كبيرتين، مؤخرة مستديرة عالية.. عينان سوداوان مكحلتان، أنتن تعرفن شكرية وخفة دمها.

- لم تقصّي لنا ما فعلته النورية!..

- حسب كلام شكرية.. نزلت من السرير عارية، واتجهت نحو ثوبها المرمي على الأرض منتصبة القامة مسبلة اليدين.. التقطت ثوبها وارتدته من دون أي ثياب داخلية.. ثم نظرت إلى شكرية وقالت: كم أنت جميلة!.. أما شكرية فكانت تنظر إليها مذهولة دون أن تنطق بكلمة.

قالت وداد لأم برّو:

- أدفع نصف عمري لأتعرف عليها.. على شكرية.

- حضري نفسك.. استقبال شكرية الأسبوعي يوم الاثنين.. سآخذك معي.

استيقظت زينب كعادتها باكراً.. حضرت الفطور ورافقت والدها وأخاها نبيل حتى الباب.. كان نبيل بدأ بمرافقة أبيه إلى المحل بالتناوب مع أخيه محمود.. فالأيام هي أيام العطلة المدرسية الصيفية، قامت زينب بعد مغادرة أبيها وأخيها ببعض الأعمال المنزلية وانتهت في المطبخ وكتاب ناتاشا بيدها، كما كانت تسمي رواية الحرب والسلام، كان فتى الخضرجي قد اختار السلامة بعد الدرس الذي تلقاه.. كان يقرع الباب وما أن تفتحه حتى تجد الأكياس موضوعة على عتبة الباب والشاب يسرع الخطا مبتعداً. كانت قد سألت ليلى مّرة عن مشاهدتها بالمصادفة لمشاجرة جرت بين غلامين حيث قام أحدهما بضرب الآخر بقدمه على أسفل بطن غريمه.. مما سبب له إقياء شديداً.. سألتها مستفسرة عن سبب ذلك.. وفي ذهنها فتى الخضرجي، ضحكت ليلى وأجابتها بأنه أصابه على «بيضه».. وتابعت شارحة لها كيف أن هذه الركلة كانت سلاحها السري عندما كانت تتصارع مع الفتيان.. ولكنه سلاح خطير قد يؤدي إلى الموت.. قالت بجدية، انتاب القلق زينب وظنت إن لهذه الركلة مفعولاً مستمراً قد يسبب الموت للفتى.. حتى أنها سألت مرة أبو جاسم الخضري عنه.

في ذلك اليوم حملت ليلى كومة الغسيل الكبيرة ووضعتها بجانب طشت الغسيل الكبير، ورتبت قعدتها على الطبلية الخشبية وعلكتها في فمها.. تأملتها زينب وقالت في نفسها: يا لها من امرأة سعيدة راضية عن نفسها، وتساءلت: هل الخفة والجهل يؤديان إلى السعادة؟.. حضّرت طبختها

ووضعتها على نار خفيفة وجلست تقرأ في كتابها.. شعرت بالملل فلم يكن لناتاشا وجود في الفصل الذي تقرأه، وضعت الكتاب جانباً وقررت الصعود إلى غرفتها.. مرت بجانب ليلى في صحن الدار ولاحظت أنها تغسل ثوبها البني اللون، صعدت الدرجات ودخلت غرفتها واستلقت على سريرها، بعد فترة قامت ونظرت من النافذة فرأت ليلى لا تزال تدعك الثوب ذاته، ولاحظت أمراً آخر.. كانت جلابية ليلى التي ترتديها منحسرة تماماً عن فخذيها المتباعدين، ولم يكن هذا ما رأته عندما مرت بها قبل قليل، كما أن نهدي ليلى العارمين كانا ظاهرين تقريباً من فتحة الجلابية.. فأزرار الفتحة محلولة كلها، قالت زينب في نفسها: يا لها من حمقاء غبية، فجأة تذكرت.. فصعدت الدماء إلى وجهها.. محمود في البيت، لم يغادر اليوم لسبب تجهلهُ.. نظرت باتجاه غرفة الصبيان فلم تستطع رؤية شيء إذ كانت على خط غرفتها ذاته.. عادت وركزت نظرها على ليلى.. كانت لا تزال تغسل نفس الثوب البني.. ولكن انتبهت هذه المرة إلى أنها تنظر بين الفينة والأخرى إلى الأعلى وانحسار جلابيتها عن فخذيها يزداد مع كل نظرة.. خرجت على رؤوس أصابعها ودخلت غرفة والدها التي لم تكن على استقامة واحدة مع غرفتها وغرفة أخيها ونظرت من النافذة.. يا للهول.. بدأ قلبها يخفق بشدة، لقد شاهدت وجه محمود وهو ينظر من وراء الزجاج إلى أسفل.. إلى صحن الدار، كان يمسك كتابا بيده ووجهه محتقناً، شعرت بدوار خفيف فأسندت يدها على الحائط، يا محمد العربي.. تمتمت، كانت مشاعرها مزيجاً من التقزز والرهبة والخوف.. عادت وهي ترتجف إلى غرفتها، ألقت نظرة أخرى من النافذة.. كانت ليلى تعدّل من قعدتها شيئاً فشيئاً وبشكل يصبح فخذاها المتباعدين باتجاه نافذة غرفة محمود، وبين الفينة والأخرى.. تمسح رغوة الغسيل عن يدها وتأخذ منديلاً تبلله بالماء وتمسح به صدرها ونهداها ثم رقبتها مقربة فخذاها من بعضهما قليلاً لتعاود إبعادهما من جديد.

كان جسد محمود منفصلاً بالكامل عن عقله.. كانت الدماء تغلي فيه، ولعابه جف تماماً ولسانه أصبح خشبياً.. كان يتابع حركات ليلى مركزاً نظره على فخذيها ثم يستجمع كل قواه - أو ما تبقى منها - فيشيح بنظره عنها، ولكن قوة خارقة كانت تعيد عينيه إلى الفخذين.. حاول أن يبلع لعابه ولكن لم يكن هناك أثر من لعاب يبلعه.. مد يده ليتناول كأس الماء، وإذ اخته زينب منتصبة أمامه، كان صدرها يخفق ونظرات عينيها مربكة.. همت أن تقول شيئاً ولكنها قالت شيئاً آخر: هل أجلب لك كأساً من الشاي؟.. فأجابها بصوت متحشرج: لا.. وسَعَلَ، ألحت: كأساً من الحليب؟!.. فأجاب مرة ثانية: لا، فاستدارت وغادرت غرفته.. ابتعد محمود عن النافذة وخطا خطوتين: رمى نفسه على سريره.. سمّر نظره على سقف الغرفة وأخذ يفكر: ما هذا الذي يحدث؟.. هل جُنَّ؟.. هل مسه جان؟.. ولكن هذا من المحرمات.. قال لنفسه، كان يعرف المحرمات جيداً.. ما هذا الذي يحدث ويجعله يقفز عليها؟.. هناك خلل.. هناك خطأ، أهو في المحرمات نفسها أم في أحاسيسه؟.. وما هي هذه الكوابيس المرعبة التي تنتابه ليلاً في الآونة الأخيرة؟.. وتجعله يستيقظ من نومه وقلبه يكاد ينخلع من مكانه رعباً؟.. لقد كان محمود ابن مجتمعه.. ابن أهله.. ابن دينه، ولكن يبدو أن جسده لم يكن لأحد.

عندما خرجت زينب من غرفة أخيها.. اتجهت نحو الدرج نازلة إلى صحن الدار.. تعمَّدت أن تصدر أصواتاً بقدميها.. كانت تنظر إلى موقع قدميها مطأطأةً رأسها، وعندما مرت بقرب ليلى رأتها وقد غطت فخذيها وساقيها بالكامل.. كانت تعصر ثوبها البني وتضعه جانباً، مكثت في المطبخ للحظات لم تفعل خلالها شيئاً.. ثم اتجهت صاعدة إلى غرفتها دون أن تنظر إلى تلك البائسة.. استلقت على سريرها، لقد أذهلها الأمر.. حاولت أن تستجمع أفكارها فلم تنجح.. يا للهول، يا للمصيبة الكبيرة.. يا للكارثة.. عليها أن تريح ذهنها قليلاً.. عقلها.. كان كل شيء فيه يتلاطم مع كل

شيء.. خاطر يمر بسرعة وآخريغادر بسرعة أكبر، لقد تحملتها خفيفة.. تحملتها جاهلة، تحملتها سوقية، ولكن.. فاسقة؟.. ستُكوى في نار جهنم هذه العاهرة.. فالخطيئة كبيرة والذنب أكبر ولن يرحمها رب العالمين.. فكرت زينب. وهؤلاء الصبية الحمقى وأولهم أبوها: هذا العجوز المتصابي، يريد أن يتزوج من مصيبة؟.. ها قد تزوج من مصيبة؟.. وها هي الآن منتصبة من أمامنا.. كان أشرف له أن «يحويها» كعشيقة.. «يلفي» عليها بين الحين والآخر.. كان أشرف له ولنا، يا للغباء.. يا للجنون. تذكرت محمود وكوابيسه الليلية وهرولة والده إليه.. ثم صعدت الدماء إلى وجهها من جديد، يا محمد العربي.. تمتمت، تذكرت أنه في الأسبوع الماضي غادرت المنزل مرتين صباحاً.. مرة لزيارة وفاء صديقتها ومرة لزيارة خالتها، وكان محمود في البيت في المرتين. يا للهول.. استدارت بقوة على سريرها وطمرت وجهها في الوسادة وأخذت ترتجف.

لم ترتح ويعود لها صفاء ذهنها إلا بعد أن بكت.. بكت بحرقة.. بكت طويلاً، تذكرت أمها فانتصبت قائمة وقالت لنفسها: أنا الآن الأم.. أنا ست البيت، أنا حامية هذا البيت من هؤلاء الصبية الحمقى ومن هذه العاهرة الخرقاء.. بلّت منديلها بقليل من ماء الجرة واتجهت نحو المرآة وبدأت تمسح وجهها.. وعندما انتهت، حدقت في عينيها فرأتهما صارمتين فيهما قرار.. فقالت بصوت عالٍ:

- إما أنا وإما هي!..

عندما وصل رأفت إلى محله في السوق كان الوقت ظهراً.. رأى جاره أبا محمود جالساً مع شخصين أحدهما يضع حطة وعقالاً افترضه فلسطينياً، وكان ظنه في مكانه.. انتقل إلى محل جاره وانضم إليهم بعد أن صافح الجميع، كان أبو عزَّام صاحب محل أقمشة في حيفا وقد قدم إلى حلب ليتسوق منها لمحله، أما مرافقه فكان ابن خالته الأستاذ عبد الكريم.. مدرّس للغة العربية، وقد رافقه لمتعة السفر كما وصف زيارته.

توجه أبو محمود بالحديث إلى رأفت قائلاً:

- كان أبو عزَّام يشرح لنا كيف أنه من المستحيل - عملياً - حدوث ما نتخوف منه.. أي إقامة دولة يهودية في فلسطين.

نظر رأفت باتجاه أبي عزَّام مستوضحاً فقال هذا:

- إنهم يفكرون في إقامتها.. ولكنهم لن ينجحوا.. أين سيقيمونها؟.. نحن موجودون في كل شبر من فلسطين.. ضع جانباً صحراء النقب حيث يتجول فيها البدو العرب، كل مستعمرة من مستعمراتهم المحدثة تجاورها أكثر من عشر قرى عربية.. ماذا سيفعلون؟.. هل سيطردوننا من قرانا؟.. من مدننا؟.. من بيوتنا؟.. يبيدوننا؟!.. خذ حيفا مثلاً.. إنها مدينة عربية بغالبيتها الساحقة.. صحيح أن هجرتهم إليها زادت بشكل لافت للنظر في السنوات الأخيرة، ومع ذلك لا زلنا نحن الغالبية.

لم يعلق رأفت، ولم يعط رأيه الأستاذ عبد الكريم.. فقال أبو محمود:

- يبدو أننا نبالغ في أمرهم، ونعطيهم قدراً أكثر مما يستحقون.. قلقنا

لا مبرر له.

في هذه الأثناء وصلت البضاعة التي أرسل بطلبها أبو محمود من مخزنه، ودخل مع أبي عزّام لترتيب طلبية الأخير، حينها قال الأستاذ عبد الكريم لرأفت:

ـ إنكم لا تبالغون.. قلقكم في محله!..

نظر إليه رأفت باهتمام وقال:

ـ الأوضاع سيئة أليس كذلك؟..

ـ سيئة جداً.

ـ والأسباب؟..

ـ لا يوجد سبب واحد.. هناك عشرات الأسباب، إنهم منظمون جداً.. ويتبادلون الأدوار.. منظمات متطرفة دينية.. ومنظمات أخرى علمانية، ودعم خارجي من يهود العالم منقطع النظير.. الوكالة اليهودية تعمل وكأنها دولة متنقلة.. غنية ومتنفذة جداً. أما هجرة اليهود فقد أصبحت مخيفة.. خاصة بعد أن فتحت بريطانيا لهم الباب على مصراعيه.

ـ ونحن.. أقصد أنتم؟..

ـ تعرف ولابد.. فوضى في القيادات.. فوضى في التجييش.. حماس غير منضبط.. القيادات راهنت على نتيجة الحرب العالمية.. راهنت على ألمانيا وخسرت الرهان، وهي الآن تتخبط.

ـ تصور لو ربحت الحرب ألمانيا.. كانت أنهت اليهود وأكملت بنا.. لاتنس أننا ساميون نحن أيضاً، من تقصد بالقيادات. الحاج الحسيني؟..

ـ هو وغيره.. فلسطين يا أخي تنسل من بين أيدينا.

ـ وكلّ الله يا رجل.. الموضوع مرتبط بعوامل كثيرة، هناك الدول العربية.. ولن تقف مكتوفة الأيدي، وهناك الدول الكبرى، ولا أعتقد أنها اتخذت قرارها بشكل نهائي.

ـ لا بد أنَّ اليهود يعملون بكل همة ونشاط على هذا الصعيد.. صعيد

الدول الكبرى، يبقى اعتمادنا نحن على الدول العربية.

ـ هل صحيح أنَّ الفلسطينيين يبيعون أراضيهم لليهود؟..

ـ يحصل هذا.. نعم، يوجد دائماً الجاهل أو الطمَّاع.. ولكن هذا يحصل بشكل إفرادي.

في هذه الأثناء عاد أبو محمود وأبو عزَّام ليجلس كل في مكانه.. سأل أبو محمود:

ـ هل نذهب إلى القصاب لتناول الغداء أم نطلب المشاوي إلى المحل؟..

فأجابه أبو غرام وهو يقف من جديد:

ـ الذي تراه.. نحن سنذهب في جولة في السوق.. ونصلي الظهر في الجامع الكبير.. ثم نعود..

وغادرا.

بقي رأفت جالساً مع أبي محمود.. كان ساهماً.. صامتاً، سأله أبو محمود عما يقلقه فهز رأفت رأسه ولم يجبه فقال أبو محمود:

ـ هل تعرف أن المشاكل بدأت في بيتي؟..

نظر إليه رأفت غير مهتم، فتابع أبو محمود:

ـ مشاكل لا أعرف من أين نبتت بين زينب ابنتي وزوجتي.

استأذن رأفت ودخل محله تاركاً أبا محمود ممتعضاً من عدم اكتراثه بكلامه.

ولكن بعد يومين وعندما التقاه مجدداً.. جلسا سوية وبدأ أبو محمود يشكو بجدية أثارت اهتمام رأفت.

سأل رأفت:

ـ ما الذي حدث بالضبط؟..

ـ لا أعرف.. كانتا مثل السمن والعسل وفجأة بدأت المشاكل.. مناكفات ومشاحنات على أتفه الأسباب.. زينب تلاحق زوجتي بالصغيرة والكبيرة، بالشاردة والواردة.

- ولمن تكون الغلبة عادة؟..

ـ لزينب.. فزوجتي تعرف الدخول في المناكفات.. لكنها لا تعرف الخروج منها.. فتكتفي بالردح بعد أن تحشرها زينب في الزاوية.

- ولم تستطع أن تعرف الأسباب؟..

- على الإطلاق.. بدأ كل شيء فجأة وبلا مقدمات وكأن الشيطان دخل بيتنا.

- ألست تبالغ؟.. قد يكون احتكاك بين شخصيتين.. بين امرأتين.. قد يكون خلاف على النفوذ في البيت.. قد يكون أي شيء، أنا لا أرى الأمر مقلقاً وإن كان مزعجاً.

- مزعج؟.. يا رجل جو البيت أصبح لا يطاق.. نكد بنكد.

- طوّل بالك.. دع الأمور كما هي ولا تتدخل بينهما.. قد تهدأ الأمور فجأة كما بدأت فجأة.

- هناك أمر آخر.. محمود تتنابه كوابيس في الليل.. يستيقظ مذعوراً متعرقاً..

- محمود؟.. ما دخل محمود بمشاجرات المرأتين.. هل يتدخل؟..

- لا أبداً.. آخر مشكلة حدثت عندما اتهمت زينب أخ زوجتي بسرقة ليرة ذهب منها!..

- ماذا تقول؟!..

- يا سيدي كان أخ زوجتي يتناول الطعام عندنا.. وقبل أن يغادر بقليل دخلت زينب مستنفرة قائلة أنها فقدت ليرة ذهب.. ونظرت باتهام واضح للرجل الذي أُريك.. فهجمت زينب وأدخلت يدها في جيب قنبازه وأخرجتها حاملة ليرة الذهب، الرجل أنكر أنه فعلها.. وكانت مشكلة كبيرة، زوجتي اتهمت زينب بأنها هي من وضع ليرة الذهب في جيب أخيها فحاججتها زينب وغلبتها.. بعد أن أدخلتها بتفاصيل لا أعرف من أين أتت بها.

كان رأفت يتابع باهتمام شديد.. وعندما انتهى ابو محمود من سرد

ماحدث قال له:

- سآتي غداً لتناول الطعام عندك في البيت.

في اليوم التالي.. عندما جلس أبو محمود وصديقه رأفت وابنه محمود على مائدة الطعام.. كانت زينب وليلى تحملان أطباق الطعام من المطبخ إلى المائدة.. عندما كانتا تلتقيان في الطريق بين المطبخ وغرفة الطعام.. لاحظ رأفت عينا زينب كيف كانتا تنظران شذراً إلى ليلى، أما الأخيرة فكانت تهرب منها وتتجنبها.. لاحظ أيضاً مشية ليلى الخليعة التي كانت تحاول جهدها تعديلها فلا تنجح إلا بجعلها مشية خرقاء خليعة، ولاحظ أيضاً محمود.. الذي كان يتجنب النظر في وجه أخته وفي وجه ليلى على السواء.. تذكر ما سمعه عن كوابيسه الليلية.. حاول أن يرسم صورة عما يحدث مستعيناً بهذه الملاحظات المتفرقة، فلم يوفق بعد أن منع نفسه من الشطط.

بعد أن انتهوا من تناول الطعام، قام رأفت ليغسل يديه.. كان خزان الماء فارغاً، فاسرعت زينب بجرة الماء تسكب منها على يديه، كان ينظر إلى يديه وقطعة الصابون بينهما عندما قال:

- ولكن ليرة الذهب كيف وصلت إلى جيب قنبازه؟..

تسارع تنفس زينب ولكنها تمالكت نفسها وقالت:

- عمي أبو أحمد.. هذه المرأة سيئة، سيئة جداً.. ما بتسْوا .

نظر رأفت إليها.. كانت عيناها تتكلمان أكثر من شفتيها.. أحس بقشعريرة وتذكر قمعه لشططه قبل قليل.. قال:

- وليرة الذهب؟..

- لقد كانت في قبضة يدي عندما أدخلتها في جيب قنبازه.

- هذا ما تصورته.

- عمو.. هذه المرأة..

- زينب.. لقد فهمت.

في الصباح التالي كان رأفت يحلق ذقنه أمام المرآة، كان يحلقها

بتمهُّل أكثر من المعتاد، كان يفكر بصديقه أبي محمود، هذا الصديق الصدوق الذي يعرفه منذ أكثر من ربع قرن، تذكر وقوف أبي محمود بقوة ضده عندما افتتح المكتبة وأهمل محله في السوق، تذكر كيف ظل يلاحقه ويخطّئه قائلاً له إنَّ رزقه الحقيقي هو في المحل وليس في المكتبة.. وحين طالت فترة إهماله.. تدخل أبو محمود عملياً، ولولا إشرافه على العمال في المحل وملاحقته لهم بالعمل وله كي يعود إلى السوق لانهار محله بالكامل.

عندما توجه إلى السوق قال لنفسه في الطريق: الآن سأرد الجميل لهذا الصديق الطيب القلب القليل الحيلة.. والجميل هذا هو كلمة واحدة: طلّقها!..

عندما نطقها أمام أبي محمود.. نطقها بطريقة حاسمة لا تقبل حواراً ولا جدالاً، وفهم أبو محمود ذلك جيداً.. فأطرق ولم يعلق.

تم ترتيب الأمر على الشكل التالي: يقال لليلى أنها ستغادر إلى بيت أهلها لأسبوع أو أسبوعين ريثما يتم إيجاد حل لحال «الكباش» القائم بينها وبين زينب، وفور مغادرتها ترفع دعوى الطلاق وينتهي الأمر، وهكذا تُفوّت الفرصة على ليلى لعمل حفلة ردح تلم الجيران للفرجة، تم الاتفاق أن يذهب رأفت إلى بيت صديقه ليشرف شخصياً على خروج ليلى من البيت، عارفين ما لحضوره القوي من تأثير على الجو المفترض أن يكون مشحوناً.

وصل رأفت عصراً وطلب من عربية الخيل الانتظار، عندما فتحت له الباب زينب، كانت علامات الانتصار بادية على وجهها، مع شيء من التوتر الذي يبقى عادة حتى اللحظات الأخيرة قبل حسم المعركة، أدخلته إلى غرفة الضيوف المطلة ببابها العريض على صحن الدار، وجلسا هناك صامتين مترقبين، بعد قليل شاهدا ليلى تنزل من على درجات السلم وهي تحمل بقجة على رأسها، كانت تتمتم وتبربر بعبارات تصل إلى آذانهم متقطعة، إلى أن وصلت إلى صحن الدار متجهة إلى الباب الرئيسي فسمعاها

تقول: الله رب العالمين سينتقم ممن كان السبب!.. الله رب العالمين حرّم الظلم وتوعد الظالمين المفترين، كانت تعرف أن عليها تجنب كلمات من العيار الثقيل ففي ظنها أنها عائدة خلال أسبوع، ولكنها لم تستطع أن تقاوم لسانها فقالت: ربي.. لا تدع من كان السبب يموت إلا دهساً على سكة الترامواي.. تحت عجلات الترامواي يا رب!.. التفت رأفت نحو زينب وابتسم.. ثم قال:

- ولكن هل حصل شيء جدي؟..

كان سؤاله فظاً ومستغرباً، فأجابته بعينين باردتين كالجليد:

- لا أعلم عما تتكلم عمي أبو أحمد!..

أمعن النظر بها.. ثم قال مازحاً:

- يا بلاش.. حُلّ الموضوع بليرة ذهب.

ابتسمت له وقالت:

- ليس تماماً ليرة الذهب.. الفضل لك.. كان تأثيرك على أبي كالسحر.

وتابعت وقد زادت من ابتسامها..

- ثم إن ليرة الذهب كانت مسترجعة!..

- لقد قاتلت أنت بضراوة.

- عندما تغادر عقول الرجال رؤوسهم إلى أمكنة أخرى، نبري نحن لحل المشاكل، ننجح مرات ونفشل مرات، هذه المرة نجحنا.

- للرسول الأكرم قول مشهور في هذا السياق: إياكم وخضراء الدمن.

نظرت إليه مستوضحة.. فشرح:

- خضراء الدمن هي الزهرة التي تنبت على المزابل.. يحذّر من الجميلة الحسناء ذات المنبت السيء.

تغير وجه زينب ونظرت إليه مسحورة:

- النبي محمد قال ذلك؟.. محمد العربي قال ذلك؟..

ـ نعم.
ـ يا للروعة.. يا للروعة.. أنت متأكد أنه هو من قالها؟..
ـ نعم.. ما الأمر؟..
ـ لا شيء.. لا شيء.. أشعر فقط بالفخر.. الأنبياء لا يصبحون أنبياء من فراغ.

في هذه الأثناء كانت ليلى تعود إلى الطابق العلوي.. إلى غرفتها لتأخذ غرضاً ما نسيته، كانت واضحة رغبة رأفت في اطالة الحديث مع زينب، كانت هذه هي المرة الأولى التي يتبادل معها حديثاً مباشراً، فاجأته.. كانت أكبر من عمرها، أكبر بكل شيء، بطولها، بحديثها، بعقلها، كانت بالنسبة إليه كابنته وفاء، بعمرها.. بمكانتها تماماً.. لم ينظر إليها يوماً إلا كذلك، أما الآن فإنه لا يعرف كم يعطيها من العمر، ولا في أي مكانة يضعها.. كانت مفاجأة بالنسبة إليه.. قال في نفسه: هناك أشخاص عندهم المقدرة على استلام زمام الأمور عندما تسوء، عندهم موهبة القيادة.. وزينب كانت واحدة منهم.

اضطر رأفت لقطع حبل أفكاره وحديثه مع زينب، فليلى أصبحت في العربة.

ودع زينب وخرج ثم صعد إلى العربة.

عندما انطلقت عربة الخيل.. كانت ليلى ما تزال متوترة، ولكن لم تمض دقائق قليلة حتى استرخت، فقد كان إلى جانبها رأفت أفندي.. وكان هذا كافياً برأيها حتى تشعر بأهميتها، خاصة أنها كانت تظن أنه سيرافقها حتى بيت أهلها، سألته عن موعد حفلة عبد الوهاب القادم إلى حلب.. فاجابها أنه سمع من أحدهم أنها تأجلت، أخذت تعد له أغاني عبد الوهاب واحدة واحدة.. مستعينة بترنيمات قصيرة منها!.. كانت تبدو وكأنها خارجة من فيلم سينما وليس من معمعة ستؤدي إلى طلاقها، ابتسم رأفت وهو يلاحظ ذلك.. فكّر.. هذه المرأة ستعيش مئة عام.

عندما وصلت عربة الخيل إلى باب الفرج، طلب من السائس التوقف ونزل منها مودعاً ليلى بكل لطف.. أما ليلى فقد تفاجأت بوداعه لها ولم تستطع قول شيء، فالعربة انطلقت فور هبوط رأفت منها.

❖❖❖

في اليوم التالي مساءً.. كان رأفت على وشك إنهاء مشواره اليومي، كان يسير يومياً تقريباً.. ساعة أو أكثر بقليل، كانت خطواته دائماً سريعة إلا إذا هدأت أفكاره.. حينها كانت تهدأ وتبطئ خطواته، كان يفكر ذلك المساء بما حدث بالأمس.. بصديقه أبي محمود وكيف نجا هو وأسرته من مصيبة كانت تسكن معهم، لا شك أن الفضل الأول كان لزينب وقد يكون الثاني له.. قال لنفسه، لكنه فكر وصحح الترتيب.. فكان الفضل الأول والثاني والثالث لزينب وله الرابع ربما، ابتسم وقال في نفسه: يا لها من شخصية نامية.. لا بد أن القراءة والمطالعة فعلت فعلها!.. تذكر أنه لم يكن يمضي أسبوع إلا وتطلب رواية، أو كتاب تاريخ، أو سيرة ذاتية.. من رفيقتها وفاء.. ثم منه مباشرة، محتجة بأن رواية «حرب وسلام» لا تشدها، ولكنه سأل نفسه: فقط المطالعة هي من فعل بها ذلك؟..

عندما سأل نفسه هذا السؤال كان وصل إلى باب مقهى الأفندي.. دخل وجلس مع رفاقه، راقبه الأستاذ ضياء مذ دخل وحتى جلس على كرسيه ثم قال:

- يا جماعة.. ألا تلاحظون أن رأفت أفندي لا يقصّر أبدا في الأكل.. بل إنه، عندما نتناول الطعام سوية.. يأكل أكثر من أي واحد منا بكثير، ومع ذلك فلا أثر لكرش ولو صغير عليه؟..

ابتسم أستاذ العلوم سمير وقال:

- إنه يحرق كل ما يأكله.. إنه يمشي يومياً لساعات أليس كذلك يارأفت؟..

- هذا صحيح.

- ألا تشعر بالملل وأنت تسير وحدك؟..

- أبداً.. أنا أسير مع نفسي.. وأنا أحبها كثيرا، فهي تسليني.. تضحكني، ولكنها تتعبني بعض المرات!..

- يقولون أن القراءة بلا تأمل كتناول الطعام من دون هضم، هات أمتعنا بتأملاتك هذا المساء.

- لا شيء مهم يا أستاذ ضياء.. لا شيء مهم.

- يبدو انك كنت منشغلاً في اليومين الماضيين.

- هذا صحيح.. كانت هناك مشكلة صغيرة مع أحد أصحابي وقد حلت والحمد لله.

ثم بادر هو وسأل:

- قل لي يا أستاذ ضياء، ما الذي يجعل فرداً يتميز في عائلته؟.. أخ من بين أخوين أو خمسة.. تراه مميزاً مختلفاً بالكامل عن البقية.. مع أنهم ولدوا في البيت نفسه.. تناولوا الطعام ذاته.. تلقوا التربية نفسها؟..

- هل استطيع الإجابة أنا؟.. إنها الوراثة يا عزيزي؟..

- كيف يا أستاذ سمير والجميع أولاد ذات الأب والأم؟..

- قد يكون خال أو عم أو جد.. قد أعطى لهذا الابن المميز صفة أو صفات ما، ولم يعطها لإخوته.

- ولله في خلقه شؤون، العرق دساس كما يقولون، ولكن هنا بالمعنى الايجابي.

- أنا أعتقد أن الوراثة وحدها لا تكفي.. هناك التعليم والتثقيف.

وفيما تابع الرفاق الحديث حول الموضوع.. كان رأفت يصمت ويعود إلى نقطته الثابتة إياها، زينب وشخصية زينب ونماء هذه الشخصية التي انبهر بها. وعندما كان عائداً إلى منزله أخذ يتلهى بإضافة سنين على عمرها وإنقاص سنين من عمره، فكر.. لو ولدت قبل عشر سنوات من يوم ولادتها لكان عمرها الآن ستة وعشرين عاماً.. ولو ولد هو بعد خمس

سـنوات مـن يـوم ولادتـه لـكـان.. ثـم انتبـه إلى نفـسه، فابتـسم متفاجئـاً بمـا يفكـر فيـه، معقـول؟.. هـل فقـد عقلـه؟.. مـا هـذا الـسخف؟!.. إلا أن هـذا السخف سيعود إليه وبإلحاح غداً وبعد غد، وفي الأيام القادمة.

عندما وصل فؤاد إلى منزله مساءً كان العشاء جاهزاً.. جلس مع زوجته وداد حول مائدة الطعام وقبل أن ينهيا طعامهما سألته وداد:

- كم ستبقى في تركيا هذه المرة؟..

- غداً لن أسافر إلى تركيا.. وإنما إلى بيروت.

- بيروت؟.. لماذا بيروت؟..

- الجالية هناك نشطة وتتحرك بحرية أكبر.. لن أمكث طويلاً في بيروت سأغادرها إلى..

لكنه صمت ولم يكمل.

- هل تعلم أنك تقلقني حتى الموت عندما تتكلم بهذه الطريقة؟..

- لا داعي للقلق يا وداد.. أنا تاجر.. والتجار يسافرون شمالاً وجنوباً، سأرسل لك خبراً من بيروت.. أعلمك فيه أن قدمي كُسرت وإني مضطر لإبقائها في الجبس لبعض الوقت.. هذا لتبرير مدة غيابي غير المعتادة هذه المرة.

نظرت إليه بقلق شديد وقالت:

- هل ستغيب لمدة طويلة؟..

- أسبوعين أو أكثر بقليل.

- يا إلهي.. ستذهب إلى فلسطين أليس كذلك؟..

فلم يجب.. بل قام وغسل يديه وعاد إلى كنبته المفضلة فغرق فيها ثم ضرب بيده على ركبته ضربتين خفيفتين قائلاً لها:

ـ تعالي واجلسي هنا يا أغلى الناس على قلبي.

سارت باتجاهه وعيناها مغرورقتان بالدموع.. كانت تخاف عليه.. تخاف عليه من حماسته واندفاعه، لم تكن يوماً مقتنعة بما يفعله، حاولت كثيراً ثنيه عنه فلم توفق.

في الصباح الباكر، أعدت له فطوراً سريعاً لم يأكل منه إلا القليل، تناول فنجان قهوته ودخن سيجارة وقبّلها ثم غادر.

عادت وداد إلى سريرها.. لم تكن تريد أن تنام.. ولم تنم، كانت منفعلة، عادت عيناها تمتلئان بالدموع.. يا إلهي.. ماذا يفعل فؤاد بنفسه وبي، قالت لنفسها.. كانت إنسانة وديعة.. هينة، تحب السير بهدوء وأمان وتكره المنعطفات الخطرة.. ولكن هذا الموضوع أشبعته بحثاً ونقاشاً مع فؤاد ولم تصل معه إلى نتيجة، ولن تصل إليها مع نفسها، قررت البقاء في البيت طوال النهار، بعد قليل غادرت سريرها وأخذت تتجول في البيت بلا هدى، ثم اقتربت من النافذة.. ألقت نظرة على الشارع بعد أن أزاحت الستارة قدراً لا يذكر، رأت أبا علي وراء عربته.. فتراجعت، لا تريد أن تراه اليوم بالتأكيد، وربما لن تريد أن تراه طوال الأسبوع، كانت حزينة.. ولكنها لن تبقى كذلك لمدة طويلة.

في اليوم الثاني لرحيل زوجها ذهبت إلى بيت ربيعة، كانت ربيعة تعمل على مكنة الخياطة، طلبت وداد منها أن تواصل عملها ودخلت إلى المطبخ لتعد القهوة، عندما تركت ربيعة عملها لتجلس مع صديقتها أخذت تمطُّ قدميها وهي تشكو من كثرة الجلوس وراء ماكينة الخياطة فقالت لها وداد:

ـ عليك أن تحركي رجليك.. عليك أن تحركي جسدك كله.. سآخذك بعد العصر إلى الحديقة العامة لنتريض سوية.

ـ هل هي بعيدة؟..

ـ عشر دقائق مشياً.. إنها على أطراف العزيزية وهي جميلة جداً،

هندسها الفرنسيون.

عادت ربيعة لتمط قدميها وهي جالسة.. فقالت وداد:

- هل عندك طباشير؟.. أعطني صابونة «العلامة» على القماش.

قامت وداد وأزاحت موجودات الصالون الصغير باتجاه جدرانه، بشكل أمنت فيه فسحة كبيرة.. أمسكت صابونة العلامة بيدها وبدأت تخطط على أرض الصالون.. رسمت مستطيلاً كبيراً قسّمته إلى نصفين بالطول ثم إلى أربعة أقسام بالعرض وقالت لربيعة: سأعلمك لعب الحلجة!.. طلبت منها أن تبحث عن قطعة مكسورة من بلاطة ما، أو عن قطعة حجر مستطيلة، ثم.. عندما رأت ربيعة تنظر إليها وهي لا تفهم شيئاً مما تقوله، طلبت منها إحضار لوح صابون غار غير مستعمل.

قالت وداد: راقبيني، وضعت لوح الصابون على المربع الأول في المسار الأول ووقفت على قدم واحدة رافعة الأخرى وبدأت تنط وتحجل بقدم واحدة وهي تنقر لوح الصابونة بقدمها دافعة إياه من مربع إلى مربع وهي تشرح لربيعة أن اللوح إذا وقف على أي خط بين المربعات فقد خسر اللاعب. راقبتها ربيعة بانتباه وهي مندهشة من مهارتها، خاصة عندما وصل لوح الصابون إلى المربع الأخير فقفزت وداد منعطفة في الهواء دافعة اللوح مباشرة إلى المربع المجاور في المسار الثاني ثم مرة ثانية منعطفة في الهواء إلى المربع الذي يليه هبوطاً وكل ذلك وهي تحجل على قدم واحدة.

عندما أتى الدور على ربيعة وقفت على قدم واحدة ونطّت ضاربة اللوح بقدمها كما علمتها وداد، فاختفى اللوح تحت إحدى الكنبات وبدأت حفلة الضحك. بعد محاولات متكررة تخللتها ضحكات وقهقهات.. بدت فيها ربيعة ووداد وكأنهما تلميذتان صغيرتان في المدرسة الابتدائية، بدأت ربيعة تلتقط سرَّ اللعبة وفيما هي تركّز كل انتباهها واقفة على قدم واحدة محدقة بلوح الصابون وكأنها قطة تركز على فأر إذ بها تسمع صوت سقاطة الباب.. قالت لوداد وهي تسرع نحو الباب: لابد أنه صبي أبي

صطيف.. فتحت وإذ برأفت!.. كان اليوم هو الاثنين وليس الثلاثاء.. سرّت ربيعة جداً برؤيته ولكنها خجلت من منظرها الفوضوي، ومن منظر الصالون المقلوب رأساً على عقب.. هو بدوره دهش، وعندما فهم ما يحدث لم يتسع وجهه لابتسامته، عرّفته على وداد التي كانت تبتسم بحياء.. قال محاولاً التخفيف من شعورهما بالإحراج:

- لولا الحياء لانضممت إليكما.. إنها من أمتع اللعب، ولكننا، الصبيان، تركناها بعد صف الخامس الابتدائي على أساس أنها لعبة بنّاتية.

قال ذلك وجلس فجلست ربيعة إلى جانبه، نظر إلى وداد ثم إلى ربيعة وقال:

- كنت في الجوار وفكرت بالمرور والاطمئنان عليك.

ثمَّ توجَّه إلى وداد قائلاً لها أنه تعرف على زوجها فؤاد عن طريق صديقه أبي اسحق، وسألها عنه وعن أحواله فأجابته وداد بكياسة. ثم شرحت له سبب تعليمها ربيعة لعبة الحجلة وقالت له أنها ستأخذها بعد العصر إلى الحديقة العامة.

- فكرة جيدة.. إنها حديقة واسعة وجميلة.. سمعت أن البلدية ترسل فرقتها الموسيقية لتعزف فيها يومي الجمعة والأحد.. إنها من بقايا الفرنسيين.

- لقد سمعتها الأسبوع الماضي.. إنها لا تستهوينا.. الكونشرتو نحن لا نستسيغه، الفرنسيون أغبياء وحمقى، فكّروا أنهم بذلك يثقفوننا موسيقياً.. وكأنه ينقصنا موسيقى!..

- لو اقتصرت حماقتهم على هذه الناحية لهان الأمر.. كانوا على وشك تقسيمنا إلى خمس دويلات.. فعلاً إنهم حمقى، عل كل حال المنصة الدائرية في الحديقة ذات العواميد والقبة حيث يجلس العازفون جميلة جداً.

- ضع فيها عبد الوهاب ليغنّي وسترى الآلاف يحيطون بها.

لاحظت وداد أن ربيعة لا تشارك بالحديث.. بل تنهض وتقول أنها ستعد

القهوة، فقاطعتها قائلة أنها هي ستعد القهوة وقفزت باتجاه المطبخ، بعد لحظات أطلت من باب المطبخ لتسأل عن قهوة رأفت وكيف يتناولها، فرأته ممسكاً بيد ربيعة بحنان هامساً لها بكلمات لم تسمعها.. تراجعت بسرعة وجهزت القهوة كيفما اتفق.. ثم سعلت وهي تحملها إليهم.

قال رأفت بعد أن أخذ الرشفة الأولى من قهوته:

- عودة إلى الموسيقى.. أريد أن أقول أن هناك موسيقى رائعة.. جميلة وراقية، وعندما تكون كذلك تصبح عالمية وتسمعها بشغف جميع الآذان بغض النظر عن مصدرها.. أنا مثلاً أسمع بتهوفن بين الفينة والأخرى وموزارت أيضاً.

- ابنة عمي شوشو.. راشيل، تعشق بتهوفن، ولكنها لا تُسلْطن - كما تقول - إلا عندما تسمع أم كلثوم.

هنا قالت ربيعة:

- من يسمع أسمهان لا يسمع أحداً غيرها.

- أسمهان رائعة.. إنهاتسحرني تماماً. لكن هل سمعتما فيروز الحلبية وهي تغني: يا ظلام السجن خيم.. إننانهوى الظلاما؟.. يا لصوتها.. إنها يهودية، والأغنية من أجمل الأغاني الوطنية في العشرينات و الثلاثينات وحتى الآن.

- فيروز يهودية؟..

سألت ربيعة.. فأكد رأفت ذلك وهو يأخذ الرشفة الأخيرة من قهوته ثم قام مودعاً ربيعة ووداد قائلاً للأخيرة انه سر بلقائها، ثم غادر.

عادت ربيعة ووداد الى الصالون.. جلستا متباعدتين، كان بيد وداد وسادة صغيرة، نظرت بخبث إلى ربيعة وقالت لها:

- ولكدّابه.. يبتعد عنك وكأنك وباء؟.. ولا يتنازل حتى للمس يدك؟!..

نظرت إليها ربيعة وشبح ابتسامة يتصارع مع تعابير وجهها المتفحّصة.. بدت وكأنها ضبطت بالجرم المشهود.. وإذ بوداد تقذفها بالوسادة قائلة:

- يالك من كاذبة محترفة!..

تلقت ربيعة الوسادة بكلتا يديها.. ثمّ قالت وابتسامة أخبث تطل على وجهها:

- أنا الكاذبة؟.. والأمير الذي تنتظرينه، والذي سيغير صباحك ومساءك.. ويجعلك تحبينه وتحبين نفسك، هل لازال على الطريق أم إنه وصل؟!..

نظرت إليها وداد وقد اتسعت عيناها من المفاجأة والدهشة.. وبانت على وجهها ابتسامة ربيعة ذاتها عندما شعرت وكأنها ضبطت بالجرم المشهود.. عضّت وداد شفتها السفلى وهي تبتسم ثم أخفت وجهها بكلتي يديها وأخذت تضحك بهدوء.. وعندما نظرت مجدداً نحو ربيعة رأتها تخفي وجهها خلف الوسادة وهي تضحك أيضاً.

في اليوم الثالث لرحيل زوجها.. استيقظت وداد بمزاج مختلف، كان لقضائها يوم أمس بكامله مع ربيعة تأثير كبير عليها.. ضحكتا كثيراً ولعبتا الحجلة كثيراً، وتناولتا الطعام سوية، ثم ذهبتا إلى الحديقة العامة، وكانتا على وشك المبيت سوية في بيت إحداهن لولا أن اليوم التالي كان الثلاثاء.. يوم رأفت وربيعة، أعدت وداد ركوة كاملة من القهوة وتناولت فنجانين متتاليين منها ثمّ أشعلت سيجارة وقررت الحفاظ على مزاجها الرائق لهذا اليوم، لن تفكر بما يقلق.. ولا بما يزعج.. لقد قررت رؤية أبي علي اليوم، بمجرد ذكرها لاسمه.. بدأ جسدها يسخن، أحسّت بذلك.. فابتسمت عاضة شفتها السفلى خجلة منه.. من جسدها، يا للتأثير الهائل.. يا للتأثير الطاغي.. فكرت، نهضت باتجاه النافذة، نظرت إلى الشارع فلم تجده، لمحت راشيل ورفيقة لها تشتريان من دكان أبي صطيف.. تراجعت بسرعة، عادت إلى فنجان قهوتها وأشعلت سيجارة أخرى، بعد قليل اتجهت إلى النافذة مرة أخرى، فلم تجده ولم تجد أحداً في الدكان، فتحت النافذة ومدّت جذعها إلى خارجها ونظرت إلى طول شارع اسكندرون فلمحته..

كان واقفاً بعيداً يبيع الكعك لأولاد الحارة، خفق قلبها من الفرح.. عادت وجلست.. ثم قامت ومشت خطوتين ثم عادت وجلست، همت أن تنظر عبر النافذة لترى إن وصل، فمنعت نفسها خوفاً من انتباه أحد عليها، أرغمت نفسها على الجلوس مكانها حتى سمعت صوته ينادي على كعكه، فقامت وفتحت النافذة وأطلت عليه فرآها.. تراجعت بهدوء، أغلقت النافذة وأسدلت الستائر.

بعد قليل فتحت له الباب قبل أن يضع يده على السقاطة.. دخل وأغلقت الباب بهدوء، وعندما بدأ بأغنيته رامياً صباحات الورد والفل.. أمسكت بيده وسحبته من ورائها وهي تسرع باتجاه غرفة نومها وهو يتبعها ويغني أغنيته منتشياً من لهفتها.

لم تكن هناك امرأة في العالم تمارس الجنس بمثل جديتها وإخلاصها كانت دائماً مغمضة العينين مع تقطيبة خفيفة بين حاجبيها تدلُّ على مدى انهماكها باللحظة.. مدى إخلاصها لها.

لم تكن لتسمح له ـ قبل وبعد ـ أن يتلفظ بكلمة بذيئة واحدة، أما بينهما فتسكت.. سامعة كل حرف يقوله دون رد أو مشاركة أو تعليق، ولم تكن لتسمح له أن يراها عارية ـ قبل وبعد ـ أما بينهما فهي له كما يشاء يقلبها كما يقلب الصحيفة، لم تكن تنسى ولا مرة أن تعضده وتدعمه بلمسة من يدها في لحظة ذروته، تضعها على كتفه أو على ساعده أو تحضنه، ولم تكن تنسى أبداً معانقته بيدها الرقيقة عندما يهمد، كانت ترتاح بعدها لدقيقة أو دقيقتين، ثم تغطي جسدها كله وتمنعه من النظر إليه أو التلفظ بأية بذاءات.. كانت تعتبر اللحظة الجنسية لحظة مقدَّسة.. لحظة نعمة كما كانت تسميها، عليها احترامها جداً وكانت تحترمها بالفعل. لم يرها مرة تأكل ففمها مخلوق لغير الطعام، ولم يشاهدها مرة تدخل الحمام أو تخرج منه.. هكذا كانت تريد أن يراها.. وكانت مصرة على ذلك.

ذلك اليوم كان الشوق في ذروته فلم تتركه يرتاح إلا قليلاً.. وكانت إشاراتها مقتضبة، قبلة سريعة وخبيثة من على فمه، أو حركة سريعة من يدها على مكان معين.. فينتفض الشاب ملبياً النداء.. كان يقلّبها بلطف بيديه القويتين ويضعها تارة على ظهرها وأخرى على بطنها وثالثة على جنبها، وكان يقفز من مكان إلى آخر وكأنه فارس عربي أو مغولي يمتطي مهرتين أو ثلاث مهرات دفعة واحدة.

أشعلت وداد سيجارتها الثالثة في محطتها الثالثة.. كانت تغطي جسدها حتى أسفل كتفيها.. التفتت إليه وقالت:

- قل لي يا أبو علي.. هل تنام كل يوم مع زوجتك؟..

انتفض أبو علي ونظر إليها ممتعضاً وقال:

- ما دخل زوجتي في الموضوع؟..

- ما بالك؟..

سألته مبتسمة مستفهمة..

- يا وداد.. لا تأتي على سيرة زوجتي.. زوجتي حرمتي، لا تأتي على ذكرها.

ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت في نفسها: يا للرجال ويالسخفهم!..

- طيب يا سيدي.. لن نأتي على ذكرها.. ولكن يا لبختها عليك!..

تغيرت تعابيره بعض الشيء وأجابها:

- ويا لبخت زوجك - هذا الحمار - عليك أيضاً.

قفزت وداد ناهضة بجذعها مغطية صدرها وهي تقول:

- ماذا قلت؟.. كيف تسمح لنفسك؟.. هذه اسمها قلة أدب.

فوجئ أبو علي ولكنه قال:

- ما لزوم هذا الكلام؟..

- ما لزوم هذا الكلام؟.. هل تعرفه؟.. هل تعرف أنت زوجي؟.. اسمعني جيداً يا أبوعلي.. أنا لا آتي على ذكر زوجتك وأنت لا تأتي على ذكر

زوجي.. هل فهمت؟..

قال مبتسماً وقد أحس بذنبه:

ـ داكّور.. أنت تأمر يا جميل!..

لم تبادله ابتسامته ولم ترد، بل أرخت رأسها على مسند السرير وصمتت عابسة مستاءة. انتظر أبو علي قليلاً ثم سألها:

ـ هل ستخاصمينني؟..

فلم تجبه.. صمت مرة ثانية ثم قال:

ـ الحق.. الحق.. إني استأهل، ولكن على الأقل قولي لي كم دقيقة ستخاصميني؟..

فلم تجبه وظلت ساكتة عابسة ومستاءة بالفعل.

عاد ليصمت ولكن لأقل من دقيقة:

ـ إذا لم تقولي لي كم دقيقة ستخاصميني.. سأرمي بنفسي من النافذة..

ثم شرع يغني تلك الأغنية المشهورة ذات اللحن البديع: ومن الشباك لارميلك حالي.

حاولت وداد أن تخفي ابتسامتها فلم تفلح، فأشّرت له بأصابعها الخمس.. فقال:

ـ خمس دقائق؟.. خمس دقائق بطولها.. إنها دهر؟.. ابكي يا دنيا عليّ.. ابكي يا دنيا على شقائي..ابكي يا سماوات على عذاباتي.. عذابات الدنيا كلها أسهل.. غستابو الألمان الذين عذبوكم ولعنوا أبا أباكم.. عذابهم أسهل.

لم تمض دقيقة من الدقائق الخمس حتى كانت وداد تمد يدها وتمسكه من شعر رأسه وتسحبه إليها.

عندما غادر أبو علي عادت وداد إلى سريرها.. لم تغادر صورته مخيلتها ولا سريرها، أخذت تفكّر.. يا لهذا الشاب الجميل القليل التعليم.. الفنان

العاشق الكبير، المحب لزوجته وصاحب الهم الكبير بتعليم أولاده، لقد اعتذر عن مواعدتها في الغد مؤكداً لها انه سيكون عندها بعد غد، أوشكت أن تغفو من التعب.. خمس مرات؟.. قالت لنفسها.. من سيصدق؟.. خمس مرات خلال ساعتين؟.. تذكرت ابنة عمها راشيل وحديثها لها عما حصل عندما عاد زوجها من سفر غاب فيه عشرة أيام.. أقسمت لوداد أنها شعرت بالرعشة الكاملة ثلاث مرات متتاليات خلال أقل من ساعة.. لم تصدقها حينها.. وهي تكاد لا تصدق نفسها الآن.

أما أبو علي.. فكان يحث الخطا مبتعداً عن شارع اسكندرون، عن حي الجميلية.. حي الجمال والحب والهيام، لقد أصبح يحبه الآن أكثر.. يحب جميع سكانه.. إنهم لطفاء قريبون من القلب.. أما ملكتهم فهي وداد.. وهي ملكته أيضاً.. ولكن شعوراً بالذنب طغى فجأة عليه.. شعوراً بالذنب تجاه زوجته.. كان يحبها ويريدها كل يوم وكان يعرف أنها تحبه أيضاً وتريده كل يوم.. لا يريد أن «يقصّر» مع زوجته.. عليه أن يجد حلاً لهذه المسألة.. عليه أن يهتم بالأمر ويسأل عنه بكل جدية..

حُلّت مشاكل بيت أبي محمود ولكن مشكلة أبي محمود لم تحل.. إنه الآن بلا زوجة.. ولقد تحمل الوضع الجديد بكل رحابة صدر.. لن يتزوج الآن.. هكذا قرر، سيؤجّل الموضوع حتى زواج زينب.. وهذا لن يطول كثيراً فخطّابُها كثر، ومع أنها فتاة صعبة متطلبة ـ كما كان يقول ـ فإنها في نهاية المطاف ستتزوج، كان أحد هؤلاء الخطاب مناسباً جداً لها، فهو ابن أحد أصدقائه، وهو شاب في العشرين من عمره يعمل مع أبيه.. عندما سمع رأفت بالأمر بذل جهداً كبيراً كي يخفي استياءه، وجهداً أقل كي «يخرّب» الفكرة، فقد كان رأيه دائماً سديداً عند أبي محمود، والحقيقة انه سيخرّب ويفشّل أكثر من مشروع خطبة لزينب والحجة الدائمة هي: إنها تستحق أفضل، هكذا كان يقول جازماً، كان قد أخذ قراره بعد طول تفكير. عانى خلاله الكثير.. حاسب نفسه كثيراً، وأنبّها كثيراً ولجمها كثيراً، ثم جادلها.. وأخيراً اقتنع وأخذ قراره، سيطلب يد زينب مطلع السنة الجديدة.. عندها سيكون عمرها قد أصبح سبعة عشر عاماً، كان قد أقنع نفسه بأن عمرها هو أكثر من ذلك بكثير.. إنها في الثلاثين من عمرها «العقلي» وربما أكثر.. كانت بالنسبة له الفتاة الذي كان عليه أن يتزوجها منذ البدء ولا يتزوج سواها، المشكلة.. كما كان يقول لنفسه، انه عندما تزوج لأول مرة لم تكن هي قد ولدت بعد!.. ومع ذلك فإنها ولدت لتكون له.هناك خطأ في توقيت الولادة لا أكثر ولا أقل، هذه الفتاة بشخصها.. بعقلها لا يمكن أن تكون لغيره، إنّها تملك أكثر ما يستهويه

ويعشقه في الدنيا، تملك أدوات المعرفة: العقل والإرادة والشغف، ثم إنها فتاة مليحة.. هذه الفتاة المليحة يجب أن تنجب عشرة أولاد.. وجميعهم منه!.. سيسعى إلى إفشال كل مشروع خطوبة لزينب وسينجح في ذلك.. وخلال هذا الوقت سيسعى إلى تزويج صديقه.. والدها، أرسل في طلب أم عبدو.. آخر الخطّابات الشهيرات، كان يراها لأول مرة، كانت في الخمسين من عمرها.. ترتدي ملاية اللف، الزي النسوي الشائع تلك الأيام، دهش من براعتها وسرعة فهمها للأمور، تدخل في جو الموضوع وكأنها كانت تعيشه من بدايته، بعد أن سألت بضعة أسئلة فهمت ما هو المطلوب، حاول رأفت أن يوجهها في اتجاهات معينة مسمياً نساء معينات، فطلبت منه أن يترك الموضوع لها وهي لن تخيّب ظنه، استمهلته بضعة أيام وعادت إليه بأسماء ثلاثة نساء كان سبق لرأفت أن سمى إحداهن.. اتفقا على أنها الأنسب، أخفى الأمر عن أبي محمود لبعض الوقت ثم فاجأه في إحدى جلساتهما بالفكرة.. فتردد أبو محمود، كان بحاجة لتشجيع لم يقصّر رأفت في تقديمه له.. بل قدَّم شيئاً آخر أيضاً.. أخذ على عاتقه الذهاب إلى زينب ومناقشة الموضوع معها مؤكداً لأبي محمود أنه بخطيبة كهذه.وبعقل زينب المعروف ستكون مهمته أكثر من سهلة.. كان مصيباً كعادته.. ما أن انقضى شهر إلا وزُفَّت أمينة لأبي محمود.. كان الشتاء في أوله ولن يطول الوقت ليدخلوا في السنة الجديدة.

عندما أصبح عمر زينب سبعة عشر عاماً ـ والحقيقة أنها لن تكملهم إلا في حزيران القادم ـ ظل عمر رأفت خمسة وأربعين!.. هكذا قرر بينه وبين نفسه مكابراً، كان يعلم أن القرار بيد زينب، ولكنه سيطلبها من أبيها.. سيبدأ معه، كان واثقاً من النتيجة ثقة عمياء، ولكنه كان مخطئاً.

عندما فاتح صديقه بالأمر كانت مفاجأة كبيرة لأبي محمود.. انتابه منذ اللحظة الأولى خليط من مشاعر الدهشة والفرح والخوف، الفرح مفهوم، أما الخوف فمن زينب.. شرح له رأفت كيفية التعاطي بالأمر مع

زينب.. شرح له العمر الحقيقي للإنسان والعمر العقلي له.. حاول تبسيط الأمر ولكنه فلسفه وعقّده!..

عندما سمعت زينب أباها يعرض عليها طلب رأفت كان تعليقها الفوري:

- لا شك أنك تمزح!..

- الموضوع جدي يا زينب.

- عمّو رأفت يريد أن يخطبني؟.. معقول؟..

لم يجب أبوها.. نظرت إليه نصف مبتسمة غير مصدقة.. أحسّت بأن وجهها بدأ يتورّد، فقامت وهي لا تزال مبتسمة وانسحبت إلى غرفتها، استلقت على سريرها وفكرت.. رأفت يخطبها؟.. لم تفكر فيه كرجل أبداً.. بلى، استذكرت، منذ سنة أو سنتين خطر على بالها.. بل ألح على بالها.. لم يكن أباً لوفاء أقرب صديقة لها، ولم يكن زوجاً لفادية أم نضال.. أمها الثانية كما كانت تدعوها، حينها تخيلته.. هو نفسه بشكله وطوله وطلّته، ولكنه كان غريباً عنهم لا يعرف من هي وفاء ولا أم نضال، حينها تمنته لنفسها.. تمنّته كثيراً، ولكنها كانت مجرد أحلام يقظة تمرُّ عابرة في مخيلة فتاة مراهقة.. قالت لنفسها، غادرت سريرها ثم عادت واستلقت عليه مرة أخرى.. كانت وحدها ومع ذلك لم تفارقها ابتسامتها الأولى التي ارتسمت على وجهها مُذ سمعت أقوال أبيها.. سترفض طلبه بالتأكيد، هذا قرار لا يحتاج لكثير من التفكير.

في المساء وبعد العشاء كانت زينب وأبوها وزوجته أمينة يتناولون الشاي عندما سأل والدها:

- هل فكرت بالموضوع يا زينب؟..

نظرت إليه بتمعن ثم قالت:

- لا!..

- لماذا؟..

ـ يا أبي هناك أمور علينا أن نفكر فيها، وهناك أمور علينا ألا نفكر فيها، هناك أمور قابلة للنقاش وهناك أمور غير قابلة للنقاش.

ـ ماذا سنقول «لأبو أحمد»؟..

ـ تقول له إنّ الأمر غير قابل للنقاش!..

ـ هكذا ببساطة؟..

ـ هو سيفهم يا أبي.. ذكّره فقط بأن زوجته أم نضال هي أمي الثانية، وان ابنته وفاء هي بمثابة أختي.. سيفهم يا أبي.. سيفهم، إنه رأفت أفندي!..

قالت ذلك وعادت تمعن النظر بأبيها.. يا إلهي ـ قالت لنفسها ـ هؤلاء الرجال لا يفهمون، أو أنهم يفهمون ولا يعبؤون، نظرت إلى أمينة زوجة أبيها، فرأت معاني أخرى في وجهها.. إنها تفهم، فابتسمت لها، وبادلتها أمينة الابتسامة.

عندما التقى أبو محمود بصاحبه في اليوم التالي في السوق نقل إليه جواب زينب.. فوجئ رأفت.. ولكن كيف فاته هذا الأمر؟!.. فكّر، فعلاً إن صاحب الحاجة أرعن، حاول أبو محمود تخفيف الأمر عليه فتلعثم، ابتسم رأفت وغيّر موضوع الحديث بسلاسة وكأن الأمر غير مهم.. بعدها بقليل غادر إلى محله واختلى بنفسه.. الأمر غير مهم؟.. سأل نفسه.. منذ ثلاثة شهور ولا أمر يفكر فيه سوى هذا الأمر، ولا أمنية يتمناها سوى تحقيق هذا الأمر.. أثارته صعوبة الموضوع واستفزته.. فغاص في مناقشته مع نفسه.. قلبه من جميع وجوهه.. وأطال، ولكنه لم يصل إلا إلى طرق مسدودة، فأسقط بيده وشعر بضيق شديد.. لم يكن يعرف ماذا يفعل.. نادى صانعه وأرسله في طلب أم عبدو.. ماذا يريد منها؟.. سأل نفسه.. إنه لا يعرف..

في اليوم التالي كان يجلس في عمق محله مع أم عبدو يحتسيان الشاي، بادرها بالقول:

ـ قولي لي يا أم عبدو، إذا نويت على الزواج.. هل سأجد صعوبة في

طلب يد فتاة.. مطلق فتاة؟..

ـ أنت؟.. صعوبة؟.. طبعاً لا.

ـ هناك من رفضتني!..

ـ مستحيل!.. اللهم إلا إذا كانت عاشقة، حتى هذه لن تجرؤ على البوح بعشقها، وستضطرّ إلى الرضوخ لأهلها.

ـ عاشقة؟.. لا اظن أنها عاشقة ولكن أسباب رفضها منطقية ومقنعة.

قصَّ عليها الموضوع بالتفصيل.. أثار انتباهها طريقة وصفه لزينب.. أثار انتباهها أكثر غوصه بالتفاصيل الصغيرة وعدم استيائه من رفضها بل إعجابه به، عندما انتهى من كلامه سألته:

ـ ما هو المطلوب مني؟.. كيف استطيع أن أخدمك؟..

نظر إليها نظرة ساهمة وابتسم قائلاً:

ـ لا أعرف.

انتبهت أم عبدو لعينيه انتباهها لجوابه.. ثم همست لنفسها، الله أكبر.. إنه يحبها.. إنه موله بها، أثارها الموضوع.. رأفت أفندي عاشق!.. زير النساء المشهور وقع في الحب!.. ليس هناك أجمل من قصص الحب هذه.. حقاً إن الحب لا يرحم.. لا كبيراً ولا خبيراً. كان عقلها يعمل بطاقته القصوى.. رأفت أفندي يطلب مساعدتها؟.. ستساعده، سترمي بكل ثقلها.. قالت له:

ـ يخطر على بالي أن أذهب لزيارة أمينة، أطمئن على أحوالها وعلى سير زواجها.وألتقي بأميرتنا زينب وقد أختلي بها.. ما رأيك؟..

ـ عليك أن تحذري.. فهي ذكية جداً.. فطنة جداً!..

ـ وأنا كذلك!..

قالتها وعلامات الجدّ واضحة على وجهها.

استقبلت زينب وأمينة أم عبدو بالأحضان.. ففضلها على الاثنتين ـ كما كانتا تقولان ـ كبير.. فأمينة سعدت بهذا البيت الوديع المحب،

وزينب اطمأنت لزوجة أبيها اللطيفة.. الرصينة، عندما همت أمينة بالذهاب لإعداد القهوة سبقتها زينب طالبة منها البقاء مع أم عبدو.. عندها سألت أم عبدو أمينة:

- كيف هي زينب؟..

- إنها سكّرة.. إنها أكبر من عمرها بكثير.. وشخصيتها قوية جداً.

- شخصيتها قوية؟.. هذه مشكلة!..

- على العكس، عندما تكونين واضحة.. صادقة، ليس عندك لف ولا دوران.. لن تكون هناك أيَّةُ مشكلة..

عندما عادت زينب حاملة صينية القهوة سمعت أم عبدو تقول أن أبا احمد - رأفت أفندي - أرسل بطلبها وعندما ذهبت إليه في السوق لم تجده!.. كانت أم عبدو تتكلم وهي تنظر إلى صينية القهوة القريبة من وجه زينب، لاحظت أن شيئاً ما عبر وجه زينب بسرعة.. لم تلتقطه جيداً فلم تلحّ، بل أدارت نظرها إلى أمينة التي سألت مستغربة:

- رأفت أفندي يبحث عن زوجة؟..

- لا أعرف.. أنا أيضاً استغربت!..

هزت رأسها أمينة قائلة:

- يا ستّي، إنهم الرجال.. يفعلون ما يحلو لهم، الشرع والقانون معهم.

فأيدتها أم عبدو قائلة:

- وعلى مر السنين والأيام.

هنا تدخلت زينب لتقول:

- أنا معكم.. القوانين ذكورية، ولكن يقال أن من وضعها ليس الذكور، بل أمهاتهم.. النساء العجائز.. الأمهات والحموات ونساء القبيلة المسنات.. وضعنها ليحمين أولادهم الذكور الحمقى من كيد النساء، وهناك أسباب أخرى تتعلق بتطور المجتمعات الزراعية.

ابتسمت أم عبدو وسألت:

ـ من قال ذلك؟..

ـ سمعته من والدة رفيقة لي ـ الآنسة بلقيس أستاذة علم الاجتماع ـ قالته ضاحكة، ولكن أعتقد أن فيه شيئاً من الصحة.

سألت أم عبدو:

ـ هل تقرأين كثيراً يا زينب، يقولون أنك كل يوم تأكلي كتاباً!..

ـ القراءة متعتي..

كانت أم عبدو سمعت في مكان ما عن كتاب جديد اسمه نساء النبي فسألتها:

ـ هل قرأت كتاب نساء النبي؟..

ـ لبنت الشاطئ؟.. نعم.. إنه فوق في غرفتي هل تريدين قراءته؟.. سأعيره لك.

ـ نعم.

كانت أم عبدو أميّة ـ لا تقرأ ولا تكتب ـ ولكن ثقتها العارمة بنفسها كانت تسمح لها دائماً المغامرة بهذا الأمر وبغيره. هنا قالت أمينة:

ـ اصعدي يا أم عبدو مع زينب لتريك كتبها.. أنا سأنهي عملي في المطبخ ولن أتأخر عليكما.

عندما دخلت زينب إلى غرفتها برفقة أم عبدو دهشت الأخيرة من حسن ترتيب الغرفة، ومن الذوق الجميل في انتقاء الألوان.. ألوان كانت تنم عن طفولة تغادر وأنوثة تحل محلها.. جلستا بعد أن أحضرت زينب كتاب بنت الشاطئ.. تصفحته أم عبدو بسرعة ثم وضعته جانباً قائلة أنها لن تتأخر بإعادته، ثم سألت زينب:

ـ يبدو أنك راضية عن زوجة أبيك..

ـ الفضل لله ولك يا أم عبدو.. كانت الزوجة السابقة كابوساً حقيقياً.

ـ لا مجال للمقارنة يا زينب.. أليس كذلك؟..

ـ معك حق.. الفرق كبير في المستوى وفي الشخصية.

ـ وأنت يا زينب.. سمعت أنك ترفضين خطّاباً كثيرين؟..

ـ ليس الأمر أني أرفض.. أنا أؤمن بالمقولة الشعبية: الزواج قسمة ونصيب.

ـ ظني أنك مختلفة.. ظني أنك قادرة على انتقاء شاب يحمل الصفات التي تريدينها.

ضحكت زينب وقالت:

ـ لو أستطيع انتقاء صفة معينة من كل شاب تقدم لي، ثم اجمعها كلها في شاب واحد لكان الأمر رائعاً!..

ـ طبعاً لا تستطيعين.. سمعت أنك رفضت رأفت أفندي!..

فوجئت زينب وامتعضت.. كانت ترى أن الأمر خاص جداً ولم يسمع به أحد، أسرعت أم عبدو بالقول:

ـ لا تمتعضي يا زينب.. أنا خزان أسرار هذا البلد.. وأنت غالية جداً عليّ، وهو أيضاً غالٍ عليّ.

ـ من قال لك؟..

ـ هو نفسه.

ـ قلتِ إنه طلبك وعندما ذهبت لم تجديه.

ـ كذبت عليك!.. على كل حال الكذبة عندما ترجعين عنها بعد خمس دقائق لا تعود كذبة.

أراح وضوح أم عبدو وصراحتها زينب فزال امتعاضها وبدأت تشرح الأمر بالتفصيل:

ـ يا أم عبدو.. أولاً رأفت أفندي عمره ستة وأربعون عاماً ولكن هذا السبب يمكن تجاوزه هذه الأيام.. بصعوبة بالنسبة لي ولكن يمكن تجاوزه، ثانياً تربطنا به علاقة قوية جداً من الصداقة قلَّ نظيرها، ثالثاً زوجته فادية.. إنها أمي الثانية يا أم عبدو، دون أية مبالغة.. أنا لست بعيدة عن جو البلد، أنا أعرف انه لا توجد فتاة ترفض رأفت أفندي ولكن أسبابي

وجيهة جداً، ألا ترين ذلك؟..

- أنا لا أرى سوى سببٍ وجيهٍ واحدٍ.. هو زوجته، التي تقولين عنها أنها أمك الثانية، بالنسبة لعمره.. ويحك يا زينب، ألا ترين شكله؟!.. قوامه، وجهه؟.. انه لا يعطي أكثر من اثنين وثلاثين أو أربعة وثلاثين عاماً من العمر.. هل تعلمين أنه لو تقدم بطلب يد أي فتاة، كانت من كانت، فلن تتردد لا هي ولا أهلها لحظة واحدة؟..

أجابت زينب مبتسمة:

- أعلم ذلك.. أعلمه من رفيقاتي.. من غمزاتهن ولمزاتهن عندما يأتين على ذكره.

- هل تعلمين انه مغرم بك؟..

تغير وجه زينب ونظرت إلى أم عبدو برهبة وقالت:

- ماذا تقولين؟.. هو قال لك ذلك؟..

- الرجال لا يقولونها.. نحن نسمعها، نسمعها واضحة جداً يازينب.

- كيف هذا؟.. أنا لا أصدق.

- بل صدقي.

صمتت زينب وصمتت معها أم عبدو.. منتظرة مترقبة، بدا وكأنَّ عيني زينب ذهبتا بعيداً، استمرَّ الصمت للحظات ثم قالت زينب:

- هذا لا يغير شيئاً من موضوعنا.. إذا صح فهمك، فالأمر مؤسف حقا.. مؤسف ومحرج، وكان الأفضل ألا يكون.

عندما قامت أم عبدو مودعة قالت لزينب:

- أنا آسفة يا زينب بأن سببت لك هذا الإزعاج.. لم يكن هذا قصدي.

- لا تهتمي.. أنت لا علاقة لك بالأمر.. الإرباك أتى من الموضوع وليس منك.

جلست أم عبدو لبعض الوقت مع أمينة ثم غادرت، في الطريق حدثت نفسها: يا لهذه الفتاة.. لا عجب أن رأفت أفندي قد أحبها.. إنها تملك عقل

عشرة رجال ورقة وأنوثة مئة امرأة.

حثت أم عبدو خطاها متوجهة إلى منزلها.. كان فكرها منشغلاً بالكامل بالموضوع.. شخّصت العقدة وكشفتها، إنها فادية زوجة رأفت أفندي.. لن تصل إلى بيتها إلا والحل بيدها.. هكذا قررت.

في هذه الأثناء كانت زينب مستلقية على سريرها وعيناها مسمرتان على سقف غرفتها والدموع تنهمر منهما.. كانت تبكي بهدوء مستسلمة مستكينة، تذكرت أمها.. هي غير موجودة ولكن أمها الثانية موجودة!.. ابتسمت بمرارة من خلال دموعها عندما تخيلت نفسها تلتجئ إلى أمها الثانية!..

رأفت من ناحيته كان ينتظر أم عبدو، ولكنها لم تأتِ ولن تأتي قبل أن ترسم خطتها.. كان مضطرباً، والحقيقة أن الاضطراب لم يفارقه في الآونة الأخيرة.. اضطراب عمَّ نفسه وانسحب على علاقاته بالجميع.. بزوجته وبربيعة وبأصدقائه.. همّ بالذهاب إلى مقهى الأفندي ولكنه غير رأيه وقرر أن يسير.. فانطلق يسير، لم تنقض دقائق على سيره حتى غير رأيه مرة أخرى فتوجه إلى مقهى الأفندي. دخل إلى المقهى وحيا الجميع.. كان النقاش يدور عبر طاولتين متجاورتين.. تابع الأستاذ ضياء حديثه بعد أن جلس رأفت بينهم:

ـ يا جماعة الدول الكبرى لا ترحم أحداً.. لا شعوب عالم ثالث ولا شعوب عالم أول، انظروا ماذا فعلت بأوروبا بعد انتهاء الحرب، انظروا إلى القسوة التي ظهرت في مؤتمر يالطا، لقد قطّعوا أوصال أوروبا الوسطى والشرقية.. خلقوا دولاً جديدة.. قسّموا دولاً قديمة..

تدخل الأستاذ سمير مضيفاً:

ـ لقد قرأت مؤخراً أن تشرتشل وستالين كانا منكبّين ـ في أحد أيام المؤتمر ـ على خارطة أوروبا.. وبعد أن اتفقا تقريباً على القسمة النهائية، اختلفا على اليونان وبلغاريا أو دولة أخرى غير بلغاريا.. لم أعد أذكر الآن، أمسك تشرتشل بقصاصة من الورق وكتب عليها: اليونان 60٪ لنا و 40٪

لكم، بلغاريا 60٪ لكم و 40٪ لنا، طبعاً هو لم يكن يقصد المساحات، ثم أعطى الورقة لستالين.. فوقع هذا موافقاً عليها، وقد ذكر كاتب المقال أن هذا سيرد بالتفصيل في مذكرات تشرتشل القادمة.

علق الحاج عبد القادر بصوته الجهوري:

ـ ونحن أقمنا الدنيا ولم نقعدها على اتفاقية سايكس ـ بيكو!..

تدخل رأفت بالحديث ناظراً بحدة باتجاه الحاج:

ـ ماذا تعتقد يا حاج؟.. هل تعتقد أن علينا تسطير قصائد المديح لاتفاقية سايكس ـ بيكو؟.. هل تعتقد أن علينا اعتبار تاريخ هذه الاتفاقية عيداً قومياً نحتفل به سنوياً؟.. هل ستفعل ذلك أوروبا بذكرى مؤتمر يالطا؟.. هل تعتقد أن ألمانيا ستستكين وتسكت على تقسيمها دولتين؟..

كان رأفت يتكلم بحدة وعدوانية فاجأت الجميع وأربكت الحاج عبد القادر الذي قال:

ـ ما بك يا رأفت أفندي؟.. كل ما قلناه أن ما فعلوه بنا فعلوه بغيرنا.. على كل حال مؤتمر يالطا كان وبالاً على شرق أوروبا ونعمة على غربها، في الشرق حلّت الدكتاتوريات، وفي الغرب الحرية والديمقراطية.

أجاب رأفت بسرعة:

ـ اتفاق يالطا غير معني بكل ذلك.. اتفاق يالطا يعني أن النفوذ السوفياتي مطلق في شرق أوروبا، والنفوذ الغربي الأميركي مطلق في غربها.. مؤتمر يالطا يعني أن الحزب الشيوعي الايطالي مثلاً ـ وهو من أكبر الأحزاب الشيوعية في العالم.. هو والفرنسي ـ لا يستطيع الوصول إلى السلطة في ايطاليا مهما بلغت قوته ومهما كان رصيده الشعبي، وستحرص المخابرات الأميركية والغربية جميعها على ذلك كل الحرص، ضاربة عرض الحائط بكل الحرية والديمقراطية التي تتحدث عنها، وكذا الحال في أوروبا الشرقية.. كل تحرك شعبي سيقمع بالحديد والنار، وممنوع على الغرب التدخل.. هذا هو مؤتمر يالطا.. تقسيم صارم للنفوذ.

صمت رأفت شاعراً ببعض الرضى والراحة، بينما انخرط الجميع في نقاش حول الدكتاتورية والديمقراطية، ومتى تصح الأولى ومتى لا تصح الثانية.. ثم أحتسى كأسين صغيرين من الشاي ولبث صامتاً مستمعاً بعض الوقت.. بعدها قام محيياً وانسحب خارجاً من المقهى وبدأ يسير.. كان قد أحس بعدوانيته ولكنه لم يهتم.. بدا وكأن مزاجه بدأ يتغير، تذكر أن اليوم هو الثلاثاء ولم يذهب للقاء ربيعة.. شعر بقليل من الذنب.. لا يهم، سيذهب الأسبوع المقبل إليها.. قال لنفسه، تابع سيره بلا هدى وفجأة وجد نفسه في حي الجميلية، كانت الساعة قرابة الثامنة مساءً والطقس باردٌ شديد البرودة.. لم يشعر كثيراً بالبرد بسبب سيره السريع، خطر له أن يمر لدقائق على بيت ربيعة فاتجه صوبه.. عندما فتحت ربيعة له الباب بادرته القول:

- هل حصل شيء؟.. هل أنت بخير؟..

كان القلق بادياً على وجهها، ابتسم رأفت ولم يجبها بل دخل إلى الصالون فوجد وداد جالسة هناك، حياها وجلس، تبعته ربيعة وعادت فسألته وهي لا تزال واقفة على قدميها:

- لم تجبني يا أبو أحمد.. هل حصل شيء؟..

فأجابها وهو يبتسم:

- كل شيء على ما يرام يا ربيعة.. كل شيء على ما يرام، وصل فجأة أصدقاء لي من دمشق وشغلوني طوال النهار.

ثم توجَّه بالحديث إلى وداد سائلاً:

- ما هي أخبارك وأخبار زوجك؟..

- بخير.. نشكر الله.

ثبّت رأفت نظره على وداد وقال:

- هل تعلمين يا وداد.. إذا استمرَّت جماعتك بالسير على الطريق ذاتها، سيأخذون أنفسهم ويأخذوننا معهم إلى أكبر كارثة تحل بالمنطقة منذ ألف

سنة.

فوجئت وداد.. وفوجئت وامتعضت ربيعة التي قالت:

ـ وما دخل وداد بالموضوع؟..

انتبه رأفت لنفسه.. قال مبتسماً:

ـ طبعاً لا دخل لها.. الحقيقة أني كنت في خضم نقاشات حادة ولا زال دمي يخفق في عروقي.. أنا آسف.

ابتسمت له وداد ابتسامة خفيفة وكأنها تقبل اعتذاره، ثم وقفت مستأذنة بالانصراف فقال لها:

ـ لا.. لا تذهبي، أنا سأتناول فنجان قهوة وأغادر.. أنا مرتبط مع الجماعة من دمشق.

نظرت إليه ربيعة متمعنة متفحصة ثم قامت لتعد القهوة، فعاد رأفت يقول لوداد:

ـ أنا فعلاً آسف إن أزعجتك!..

ـ لا أبداً.. إنك لم تفعل.. ولكن هل أنت جاد بما يخص الكارثة؟..

ـ كل الجدية.

ـ يا إلهي.. ماذا سيحل بنا؟..

ـ الكل سيتأثر.. المنطقة كلها ستموج.. ستغلي لسنوات وسنوات.

ـ إنك تخيفني حتى الموت..

ـ خائف ولكن لا تموتي!..

قالها وهو يخفف من ثقل الموضوع بضحكة عالية.. ثم تابع:

ـ الكارثة الحقيقية تحصل عندما يموت الجمال.. يموت الحب وتنتصب أمامنا الكراهية.

في هذه الأثناء كانت ربيعة تعود مع القهوة وعندما سمعت ضحكة رأفت وكلماته الأخيرة قالت:

ـ الآن اطمأنّ قلبي!..

ونظـرت مبتسمة إلى وداد الـتي أخـذت فنجـان قهوتهـا وبـدأت ترتـشفه بشيء مـن الـسرعة، ثـم استأذنت محتجـة بعـذر خطـر علـى بالهـا للحظتهـا وغادرت، لقّمت ربيعة المدفأة بقطعتين مـن الحطـب الجـاف الـذي سـرعان مـا علا صوت طقطقته في النار، وسألت رأفت إن كان يرغب بمغطس من الماء الساخن لقدميه.. فنظر إليها لبرهة ثم سألها:

- هل كيس الماء الساخن في سريرك؟..

عندما غادر رأفت بعد ساعة أو أقل بقليل عادت ربيعة إلى سريرها.. سألت نفسها: ما باله؟.. هناك أمر كبير يشغله.. السرير وحده يكشف حال الرجـل، مـن كـان معهـا في الـسرير قبـل قليـل لم يكـن رأفـت الرقيـق.. اللطيف، ذو اللمسة الناعمة الرقيقة، لم يسبق له أن أمسكها من شعرها.. صحيح انه لم يؤلمها ولكنه لف شعرها على معصمه!.. وهذا يحدث لأول مـرة.. كـان خشناً عـدائياً، عنـدما انتهـى.. ارتـدى ملابسه وودعهـا وكأنـه انتهى من تناول لقمة سريعة دون أن يكون جائعاً.

في الصباح عنـدما كـان رأفت يحلق ذقنـه لاحـظ التعـب في وجهـه، لم يهتم.. اليوم لابد أن تأتيه أم عبدو بخبر ما.. سيذهب إلى السوق مباشـرة.. وإن لم تأت سيرسل في طلبها.. هكذا قرر، جلس حول مائدة الإفطار مع زوجته فادية، كانت تتأمله بهدوء وقلق.. رأفت في ضيق ويرفض أن ينـاقش الأمـر معها.. فكرت، كل مرة كانت تسأله يجيب بأنها مشاغل العمل وهمومه ولا يريد أن يحمل هموم العمل معه إلى البيت.. ولكنه كان يفعل.. قالت لنفسها، إنـه يحملها ويحمل معها هموم العالم.. لن تلحَّ، على الأقل ليس اليوم.. فوجهه متعب ولن تزيده تعباً بتدخلها.

وصل رأفت إلى السوق، ما أن ولج محله حتى قال له الصانع أن أم عبـدو اتـصلت وقالـت أنهـا تنتظـره في المكتبـة، غـادر بسرعة.. وفي طريقـه أوقف عربة خيل لتقله إلى المكتبة مع أنه كاد يصل إليها، عندما دخل إلى المكتبة رأى أم عبدو تتصفح مجلداً ضخماً..قالت له ضاحكة بعد أن تبادلا

التحية:

- يلزم رجلين لحمل هذا الكتاب وثالث ليقلب صفحاته أما الرابع فللقراءة!..

ابتسم لها مجاملاً واستعجل بطلب القهوة وما أن جلسا حتى قال لها:

- نعم يا أم عبدو!..

- اللهم صلّ على سيدنا محمد.. أولاً ما هذه الفتاة؟.. اللهم صلّ على النبي.. يخزي العين.. لم تمر علي فتاة مثلها، أنت محق بعشقك لها، يا سيدي.. الموضوع عقدته وحلّها عند أم نضال زوجتك.. إذا استطعنا أن نقنع الست فادية زوجتك بطريقة سأشرحها لك بعد قليل.. نكون نجحنا.

- نقنعها بماذا؟..

- أن تذهب إلى زينب وتطلب يدها لك!..

- ماذا تقولين؟..

قالها محبطاً.. وكان استبشر خيراً من مزاج أم عبدو.

- طوّل بالك عليّ يا رأفت أفندي.. أنت في الأربعينات من عمرك، وإلصاق تهمة «جهلة» الأربعين بك أمر سهل، مع أن الجميع يعرف أن جهلة الأربعينات مرت عليك في الثلاثينات من عمرك وفي العشرينات منه أيضاً.. ولا زالت مستمرة!..

نظر إليها بعينين باردتين ولم يعلق.. فتابعت أم عبدو:

- سيصل كلام خافت للست فادية، بأن زوجها رأفت أفندي بصدد الزواج.. ولما كانت آخر إشاعة تدور عنك، وأمسكت بإصبعين ثوبها من ناحية صدرها ثم هزته قليلاً، مفادها أنك تفكر بالزواج من امرأة يهودية شامية جلبتها إلى حلب وأسكنتها في حي الجميلية، فإننا سنعتمد هذه الإشاعة، وسنهمل الإشاعة القديمة العائدة للعام الماضي.. تلك المتعلقة بالست تماضر، وعادت تهز بإصبعيها ثوبها، وقد نستعين بالإشاعة التي تظهر وتختفي بين فترة وأخرى المتعلقة بالست أحلام.. أحلام الحلوة الثرية،

المزواجة المطلاقة.. فتاة أبيها المدللة والتي.. حسب الإشاعة، وهزت بإصبعيها ثوبها مرة ثالثة، لا تفتأ تحوم من حولك وتقول في كل الاستقبالات وبصوت عال: الله لايُمتني قبل أن أتزوجه!..

كان رأفت ينظر إليها بذات العينين الباردتين محاولاً إخفاء دهشته من معلوماتها، أما أم عبدو فكانت هي أيضاً تنظر إليه محدقة بعينيه وكأنها تقول: ماذا تظن.. عيوني؟.. لا شيء يبقى مخبأ في هذا البلد.. خاصة على أم عبدو.

صمتت أم عبدو وانتظرت أن يطلب منها المتابعة ولكنه لم يفعل فتابعت:

- إذن مختصر مفيد.. هذه الإشاعات.. هذا الجو سيصل إلى زوجتك عن طريق أختاره أنا.. وسيصلها أيضاً بأن الخبر اليقين عند جهينة، أي عندي أنا، سترسل في طلبي.. وهنا يبدأ دوري، لن أؤكد لها شيئاً ولن أنفي شيئاً.. سأخيفها بل سأرعبها، ثم سأنصحها، بعد أن أكون كسبت ودها، بأن تحل الأمر بحصافة الزوجة العاقلة الحكيمة التي عليها حماية نفسها وأسرتها وبيتها من ضرة غريبة من غير دينها أو من ضرة قوية قادرة.. أنا وشطارتي يا رأفت أفندي، أنا وشطارتي، قد أنصحها مثلاً بالبحث عن فتاة صغيرة.. بنت ناس تستطيع أن تربيها على يديها كما يقولون، فتخطبها لك وكفى الله المؤمنين شر الحب والعشق والإشاعات، وقد أساعدها أنا في البحث عن هذه الفتاة.. لا تنس أني خطّابة أعمل بالأجر، ثم ابتسمت وهي تقول: لن آخذ مالاً كثيراً من أم نضال.. ما سآخذه منها هو فقط للتمويه، المبلغ الأساسي ستدفعه أنت.. قالت ذلك وهي تغمز بعينيها ثم أضافت: لا تصدق.. إني أمزح!..

كان رأفت يفكر بسرعة.. الخطة جيدة.. ولكن لا ضمانات فيها، سأل فجأة:

- إذا افترضنا جدلاً.. أقول جدلاً.. وذهبت أم نضال لتطلب يد زينب.. هل

ستقبل زينب؟..

ـ ستقبل، بعد أخذ ورد.

ـ متأكدة؟..

ـ نعم.

ـ ما هو المطلوب مني؟.. ما هو دوري أنا؟..

ـ أن تظهر بمظهر المشغول.. التائه، وأظن أنك لن تبذل جهداً كبيراً لتظهر كذلك!..

قالتها مبتسمة.

لم تنقض أيام قليلة حتى كانت أم عبدو في زيارة أم نضال بناء على طلب الأخيرة!..

قرب نهاية الجلسة التي طالت كثيراً بينهما، كان وجه أم نضال ينم عن الانهماك الكامل بالموضوع.. قالت بصوت متعب:

ـ أنا سمعت كثيراً عن أحلام.. وصلني كثير من كلامها، وأرسلت لها كلاماً وتحديتها، أما عن المرأة الشامية اليهودية فلم أسمع.

كان القلق على وجهها شديداً لدرجة شعرت معه أم عبدو بالذنب، قالت أم نضال:

ـ لا أتصور بشكل من الأشكال أن يقبل رأفت بزينب.. إنها مثل ابنته يا أم عبدو.

ـ إنها رفيقة ابنته يا أم نضال وليست مثل ابنته.. الرجال لا يعرفون ماذا يريدون.. نحن نعلمهم بذلك!.. أنا لا أعرف هذه الفتاة جيداً.. أنت تعرفينها أكثر، تعرفت عليها من خلال زوجة أبيها الجديدة الست أمينة.. أنت تعلمين أنني أنا من رتب تلك الزيجة، وشهادة لله إنها فتاة ممتازة.. أعطني سمعك يا ست فادية: أنا سأتولى إقناع رأفت أفندي، وأنت تتولين إقناع زينب.. ما رأيك؟..

صمتت أم نضال قليلاً ثم قالت:

ـ لا أعرف.. عليك أن تبدئي أنت مع رأفت ولكن أشك في نجاحك معه!..

ـ إنه يرتاح لي، ومنذ زواج صديقه أبو محمود ودوري في هذا الزواج.. أصبح يرتاح لي أكثر، ولكني لاحظت انشغال فكره في الآونة الأخيرة!..

هزّت أم نضال رأسها موافقة والألم مرتسم على وجهها.

هرعت أم عبدو في نفس اليوم لرؤية رأفت.. ما أن جلست معه حتى قالت:

ـ يا سيدي.. عليّ الآن إقناعك أنت بزينب!..

ـ ماذا تقولين؟..

شرحت له باختصار، وحددت له النقطة التي وصلت إليها.. قال:

ـ يالك من داهية.. داهية رائعة، عال.. اذهبي إلى زوجتي وقولي لها أنك أنهيت مهمتك بنجاح و..

قاطعته أم عبدو:

ـ ما بالك يا رأفت أفندي؟.. هل أذهب أنا إلى زوجتك ثم تذهب هي إلى زينب فتقول لها الأخيرة أن رأفت أفندي سبق وطلبها ورفضت.. فننكشف!.. أمن المعقول انك لا تجيد حَبْك مؤامرة عيار ترسو.. حبكة من الدرجة الثالثة!..

فوجئ رأفت فصمت ونظر إليها منتظراً:

ـ بعد يومين أو ثلاث أو أربع أذهب أنا لرؤية زوجتك وأنقل إليها نجاحي الصعب بإقناعك.. وبناء عليه فقد طلبتها أنت من أبيها ولكن زينب رفضت.. وسنرى!..

قبل انقضاء أسبوع كانت أم نضال في زيارة بيت أبي محمود.. استقبلتها أمينة وزينب بالترحاب الشديد فقد كانت مكانتها كبيرة عندهما.. بعد أن استقرت النسوة في الصالون توجهت أم نضال بالكلام إلى أمينة:

ـ أبو أحمد وأبو محمود كانا دائماً يعتبران نفسيهما أخوين.. وعدايل أيضاً!.. مع انقطاع بسيط لبعض الوقت «إشارة لزواج أبي محمود البائس من ليلى».. وها قد عادا عدايل من جديد.. أي انك أختي يا أمينة وأنا أختك.

كانت لباقة أم نضال وطريقة توددها من مستوى رفيع كما هو معروف عنها دائماً.

ـ وأعز يا أم نضال.. والله يشهد أن هذا شرف كبير لي.

وقبل أن تنهي أم نضال قهوتها اتجهت مرة ثانية بالحديث إلى أمينة:

ـ يا أختي أمينة.. هناك أمر أريد أن أبحثه مع زينب، بالأذن منك.. سأطلب مشورتك حتماً، ولكن في المرة القادمة.

ـ ولوْ يا أم نضال.. البيت بيتك.. خذي وقتك كله.. أنا سأكون في المطبخ.

ـ أفضّل أن نذهب إلى غرفة زينب.

ـ لا والله.. ستبقيان هنا.. ولن يزعجكما أحد على الإطلاق.

عندما غادرت أمينة إلى المطبخ.. كان لعاب زينب قد جف تماماً.. كانت تنظر بكل اهتمام واحترام إلى أم نضال التي ما لبثت أن قالت:

ـ يا زينب.. أنا لست بحاجة لمقدمات معك، ولا لشرح نوع علاقتك بنا أو مكانتك عندنا أو محبّتك لنا.. لذا سأسألك مباشرةً، لماذا رفضت أبو احمد؟!..

امتقع وجه زينب ولكنها تماسكت، قالت:

ـ وهل أستطيع أن لا أرفض؟..

ـ يا زينب.. رأفت عينه على الزواج.. قد يتزوج من امرأة يهودية، وقد يتزوج من أحلام.. المرأة المزواجة المشهورة، والأولى ـ من دون أن أعرفها ـ أفضل من الثانية، ولكن ليس هذا هو المهم، الرجال أطفال كبار يا زينب.. يمرون بمرحلة خطرة.. خطرة جداً، قد تنقضي دون أية مشكلة.. وقد تؤدي إلى كارثة.. كارثة حقيقية.

لم تفهم زينب.. كان ذهنها مشوَّشاً.. وزاده تشويشاً ما تسمعه الآن.. رأفت يريد أن يتزوج؟.. هي تعرف ذلك.. ولكن ممن؟.. من امرأة يهودية؟.. من أحلام؟.. من هي أحلام؟.. كيف هذا؟.. كانت تتابع أم نضال التي استرسلت بشرح الوضع، ثم تشرد عن المتابعة لتعود فتتابع ولكنها لم تنجح بالإمساك بالموضوع، ولم يتغير من الأمر شيئ عندما غادرت أم نضال وتركتها وحدها.. هناك شيء لا تفهمه.. هناك حلقة غير مفهومة.. ضائعة، يجب أن تفهمها وستفهمها، ولكن ليس قبل انقضاء زمن طويل.

أم نضال وهي في طريقها إلى بيتها كانت تفكر.. الموضوع يتعلق بحماية الأسرة.. بالحفاظ عليها.. تذكرت كلمات أمها: المرأة يا فادية يا حبيبتي تخوض معركتين كبيرتين في حياتها.. الأولى معركة زواجها ممن ترغب، والثانية معركة الحفاظ عليه.. قد تُقدِمْ على بعض التضحيات.. لا بأس، ولكن الأساس هو الحفاظ على زواجها..

تكررت جلسات أم نضال مع زينب.. ودخلت أمينة زوجة أبي محمود في الموضوع بإيجابية لفتت أنظار الجميع.. كانت الحليفة الأهم لأم نضال، والحريصة الأكبر على مشاعر زينب وآرائها ومحاولات فهمها، ثم على شروطها عندما قبلت، عندما وافقت زينب كانت شروطها كثيرة، كان منطقها بسيطاً جداً.. الزواج في الإسلام هو عقد مكتوب بين طرفين، والعقد شريعة المتعاقدين، وهي لن تضع فيه بنداً خارجاً عن شريعة الإسلام.. كانت تريد نصاً في العقد يوضح أن العصمة بيدها.. وكانت حجتها أم نضال.. فقد تغير أم نضال رأيها أو قد تكرهها في المستقبل.. فإن حدث ذلك فلن تبق يوماً واحداً وستطلق نفسها!.. لذلك فشرطها هذا غير قابل للنقاش.

أما شرطها الثاني فهو مادي.. كانت زينب تملك مبلغاً من المال ورثته من أمها التي بدورها كانت ورثته من أهلها، هذا المبلغ ستديره هي بشكل مستقل تماماً وبالطريقة التي تريدها دون تدخل من أحد.. وكانت هناك شروط أخرى لم يسمع بها أحد، كانت تقول إنها شروط لم ترها في المنام

بل هي من روح الإسلام.. كانت تناقش وتحاجج بلا ملل ولا كلل. قبل رأفت جميع شروطها وتوقف عند الشرط الأخير.. كانت تريد أن ينص في العقد أن على رأفت اخذ موافقتها إن فكر مستقبلاً في الزواج!.. هذه كبيرة.. قال رأفت عندما سمع هذا الشرط من أبي محمود.. نظر الصديقان إلى بعضهما وابتسما ثم قال رأفت لصديقه:

ـ أظن انه آن الأوان لأحاورها أنا.. وجهاً لوجه.. ما رأيك؟..

في المساء كان أبو محمود وأمينة ينتظران رأفت في صالون منزلهما.. أما زينب فكانت تتحضر في غرفتها.. قال أبو محمود لزوجته:

ـ أظن أن ابنتنا زادتها هذه المرة..

فأجابته أمينة مبتسمة:

ـ عرف الحبيب مقامه فتدللا!..

ـ هذا ليس دلالاً.. زينب انجلقت.. شطت وتمادت.

قُرع الباب، لا بد أنه أبو احمد.. قال أبو محمود، لمح ابنه محمود يسرع لفتح الباب..

كان محمود مسروراً بهذه المصاهرة.. كان يحب رأفت ويعجب به.. استقبله باشّاً ورافقه إلى الصالون.. جلس الجميع بانتظار زينب التي لن تتأخر لأكثر من دقيقة أو دقيقتين.. دخلت عليهم.. اتجهت إلى رأفت وصافحته بكل ثقة وعفويّة وجلست بجانب أمينة، كانت ترتدي ثوباً طويلاً مقصّباً لونه سماوي وتضع على رأسها منديلاً أنيقاً عقدته إلى الخلف، بدأ الحديث أبو محمود قائلاً:

ـ لو أن دار الإفتاء توظف نساءً لأمّنا وظيفة دائمة لزينب فيها..

ابتسم الجميع بمن فيهم زينب.. قال رأفت متوجهاً بالحديث لزينب:

ـ هذا الشرط الأخير الذي طلبته.. هل هناك نص عليه؟..

ـ لا أعرف..

أجابت زينب.

ـ أنا اعرف !.. لا يوجد نص عليه لا من قريب ولا من بعيد، نعم.. على الرجل أن يبلغ زوجته.. يعلمها بنيته على الزواج، ولكن أن يطلب موافقتها!..

ـ هذه ليست غلطة الإسلام.. إنها غلطة المشائخ ورجال الدين، على كل حال.. يمكن تجاوزهم.

ـ كيف؟..

ـ أنا أفكر كما يلي.. عند وجود النص أو الفتوى.. لا خلاف، وإلا فعلينا اللجوء إلى روح الإسلام.

تدخل والدها:

ـ لا تخترعي يا زينب.. لا تخترعي.

ـ أنا لن أخترع.. بل سأفترض الآن أن الرسول الأكرم كان جالساً في مسجد المدينة المنورة واتته امرأة تشكو ـ وهذا حصل كثيراً ـ تشكو من أن زوجها ينوي الزواج من.. صمتت للحظة ثمَّ تابعت.. من خضراء الدمن أو من أختها أو من ابنة عمها!.. قالت للرسول: سيأتي زوجي بهذه المرأة السيئة، ويرميها في وجهي وفي وجه بناتي، وهن صبايا، وفي وجه أولادي، وهم شبان.. هل تقبل بذلك يا رسول الله؟.. هل يوجد أحد من الحاضرين هنا يشك لحظة في جواب الرسول الأكرم؟!..

في حين التزم والدها الصمت قال رأفت:

ـ سيجيبها الرسول الأكرم، وسيقف معها ويمنع زوجها من الزواج من هذه المرأة السيئة السمعة، ولكنه لن يعطيها حق الاعتراض.

ـ لماذا؟..

ـ لأنه ببساطة.. النصوص والقوانين في كل الدنيا لا توضع للحالات الخاصة أو الاستثنائية.

ـ كل رجل معرَّض للوقوع في هذه الحالة.. ولن تحميه منها إلا زوجة عاقلة حكيمة ومحبة.. تقول له تريد أن تتزوج؟.. ليكن.. دعني أشاركك في انتقاء الزوجة طالما أنها ستعيش معي ومع بناتي وأبنائي.

نظر إليها رأفت مبتسماً، فكّر.. لن يخوض معها في جدل.. سيتغلب عليها حتما، ولم يكن يريد ذلك، قال لها:

- أنا مقتنع تماماً أن هذا الشرط لو كان معتمداً لسبّب انهياراً كبيراً في المجتمع.. كان الطلاق - طلاق الزوجات المعترضات على زواج أزواجهن - أصبح رديفاً لكل زواج، ومع ذلك فلا مانع عندي من قبوله.. خاصة انه عندما سأفكر في الزواج مستقبلاً.. سأحرص على انتقاء امرأة لن تجدي أنت فيها عيباً واحداً وستوافقي حتماً.

وانفجر ضاحكاً وشاركه الجميع في ضحكه.

تزوج رأفت من زينب في الأول من نيسان، يوم كذبة نيسان، وستظل زينب تقول لزوجها أنها لن تصدق أبداً أنها تزوجت منه.. فزواجها قد يكون كذبة، فيجيبها أنه سيحتفل بهذه الكذبة سنوياً.. ولخمسين سنة قادمة، وسيفعل.

سافرا إلى مصر، واختارا طريق البحر ـ مع أن الطريق البري كان سالكاً عبر فلسطين ـ مكثا فيها خمسة عشر يوماً، زارا خلالها مصر من أدناها إلى أقصاها، وحضرا فيها حفلين غنائيين.. واحد لعبد الوهاب وآخر لأم كلثوم.. فسحرا بالاثنين، لكن سحر مصر ذاتها كان هو الأقوى والأبقى، ستظل ذكرى مصر وذكرى هذه الرحلة تسكنهما لسنوات وسنوات.

في أول لقاء لرأفت مع أصدقائه في مقهى الأفندي كان السؤال الأول للأستاذ ضياء:

ـ حدثنا يا رأفت.. ما هو الانطباع الأهم الذي جئت به من مصر؟..

فكر رأفت للحظات ثم قال:

ـ انطباع؟.. حسناً.. الفاطميون لا يزالون هناك!..

ـ ماذا؟!..

ـ إني أمازحكم!.. ولكن بمعنى من المعاني هذا صحيح.. معلوماتنا أنه ومنذ السلطان صلاح الدين، مذهب مصر هو المذهب السنّي.. أليس كذلك؟.. وهذا صحيح بكل تأكيد.. مصر من أولها إلى آخرها تنتمي إلى

المذهب السني الآن، ومنذ ثمانمائة عام.. ومع ذلك فإنك ترى بصمات الفاطميين في كل مكان.

ـ تقصد آثارهم.. الجامع الأزهر وبقية المساجد.. بل القاهرة نفسها..

ـ الأهم من كل ذلك.. اللغة، بصماتهم تجدها في اللغة المحكية.. في اللهجة المصرية المحببة.. تجد «وسيدي الحسين»، تجد «يا ست زينب تيجي بعينه!.. »، مفردات كثيرة وعبارات لم أحفظ سوى القليل منها.. تجدها في جملهم، في أحاديثهم.. في أسمائهم، مثلاً.. في كل البلاد العربية تجد اسم الحسين، وفي كلها أيضاً تجد اسم الحسن.. لكن فقط في مصر تجد اسم حسنين، تجد الفاطميين في ذكرى عاشوراء التي يشارك فيها الجميع.. في تسميات أحيائهم.. مساجدهم.. إنه أمر عجيب.

ـ فعلاً إنه أمر عجيب، عجيب هو قدرة المجتمعات على الحفظ.. ولأزمان تثير الدهشة.. ثمانمائة عام انقضت، فتأمل.

ـ أنا معلوماتي أن الغالبية العظمى من المصريين ظلوا على المذهب السني.. أما الأقلية الحاكمة فكانت شيعية فاطمية.

ـ يبدو أنها كانت أقلية مؤثرة.. مؤثرة جداً في الناس، تأمَّل مطلع هذه الأغنية الشعبيَّة:

ساكن في حي السيِّدة
وحبيبي ساكن في الحسين
وعشان أنال منه الرضى
يوماتي أروحلو مرتين

ـ هذا لم يحصل هنا في حلب!..

علّق رأفت.

ـ تقصد حكم الحمدانيين؟..

ـ هل الحمدانيون فاطميون شيعة؟..

سأل أبو شكري..

- إنهم علويُّون.. شيعة علي.

- سيف الدولة وأبو فراس الحمداني علويان؟..

- والمتنبي.

- هناك جدل حول هذا الأمر.

- الجدل سببه تابعية الحمدانيين السياسية للخلافة في بغداد.. ما ذكر قبل قليل هو صحيح.

- لم أكن أعرف ذلك..

قال أبو شكري ثم تساءل:

- ما هذا الذي حصل في تلك الحقبات؟!.. انشقاقات مذهبية لا تعد ولا تحصى.. لم أفهمها يوماً.

- في الغالب.. كانت تتلو أو ترافق الانشقاقات السياسية.

- عندنا في المسيحية أضعاف ما عندكم من مذاهب.

- هذا صحيح، ولكنَّ جذورها عندنا كانت دائماً في الفتنة الكبرى.

- برأيي أن الفتنة الكبرى كانت الخلفية البعيدة.. ظلوا يتكئون عليها، ولكن الصراع على السلطة كان هو الأساس.

- إذا أصررت على التفكير بهذه الطريقة يا رأفت أفندي.. فالأمر من أوله، إذن، كان صراعاً على السلطة بين الهاشميين والأمويين.

قال أبو جورج متخابثاً، فردَّ رأفت:

- في جانب واحد منه.. هذا صحيح، أما الأساس فلا.

فكّر أبو جورج.. رأفت لا يستطيع أن يبتعد عن إيمانه ولو للحظة واحدة.!..

- على كل حال، عندما يكون جسد العرب صحيحاً ومعافى.. فإنَّ كلُّ هذه المذاهب تصبح مصدر غنىً وثراء، أمَّا في حال العكس.. فإنَّها تصبح وبالاً وشرَّاً مستطيراً.

في هذه الأثناء أطل عليهم أبو اسحق.. عانق رأفت وهنأه بالزواج وبسلامة وصوله من السفر ثم جلس معهم.. كان صامتاً.. صامتاً جداً، سأله رأفت عن أحواله فقال مطلقاً زفرة قوية:

- نحمده ونشكره.

- ما الأمر يا أبو اسحق؟..

- لا شيء، الأمر بسيط.. تم السطو على ثلاث محلات في حي الجميلية بما فيها محلي!..

- ماذا؟.. متى حصل ذلك؟..

- اليوم فجراً أو قبله بقليل، لا أعرف أنا قادم لتوي من مخفر الشرطة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. فصّل يا أبو اسحق، ما الذي حصل بالضبط؟..

- كما ذكرت لكم.. تم كسر أقفال المحلات الثلاث وتم اقتحامها.. سرقوا ما سرقوه وخربوا ما خربوه واختفوا.. كل هذا حصل على ما يبدو في توقيت واحد.

- كيف كان معك رئيس المخفر؟..

- كان مسترخياً كل الاسترخاء.. ويعمل على مهله.

نظر رأفت باتجاه الأستاذ ضياء الذي قال:

- يجب أن يلقى القبض على هؤلاء اللصوص ويضربوا بيد من حديد.. هذا عمل يتعدى السرقة..

- أنا أعرف رئيس المخفر.. هيا معي يا أبو اسحق.

قال رأفت.

عندما وصل رأفت ومعه أبو اسحق استقبله مرحباً الملازم فوزي رئيس المخفر، وجدا عنده فؤاد وأخاه كميل.. كان فؤاد محتدّاً غاضباً:

- أصبح حي الجميلية حياً سائباً مكشوفاً يا حضرة الملازم، لم نعد نشعر بالأمان حتى في بيوتنا.. يجب أن تفعلوا شيئاً، هذا واجبكم.

ـ واجبنا نحن نعرفه.. ولن نأخذ دروساً منك أو من غيرك، لقد تم توقيف شابين من باب الحديد كانا على أطراف الجميلية في الصباح الباكر، ويجري التحقيق معهما.

تدخل رأفت في الحديث:

ـ الملازم فوزي من أكثر ضباط الشرطة كفاءة ولا شك أنه انتبه إلى أن الموضوع يتعدى السرقة.

ـ قد تكون سرقة، وقد تكون سرقة وتهويل وتخويف.. سنرى.

في هذه الأثناء دخل رقيب أول واقترب من الملازم وهمس في أذنه.. خرج بعدها الملازم ليغيب بعض الوقت.. ثم يعود.

ـ أبو اسحق يا حضرة الملازم صديق قريب جداً مني، وهو من خيرة الناس.

قال رأفت ذلك وهم بالاستئذان والانصراف، فرجاه الملازم أن يبقى هو وأبو اسحق، وكأنها كانت إشارة منه لفؤاد وأخيه بالانصراف.. وهذا ما فعلاه.

قام الملازم فوزي من وراء مكتبه وجلس على كرسي بجوار رأفت وأبي اسحق ثم قال:

ـ أنا أعرف صداقتكما وأنا أقدرها.. أحد الشابين الموقوفين انزلق لسانه وأقرّ بمعرفته بابن أخيك يا أبو اسحق، الذي اسمه..

ونهض ناظراً في ورقة وضعها على مكتبه عندما عاد قبل قليل..

ـ اسمه رفائيل، أريد منك يا أبو اسحق أن تفتح عينيك وأذنيك وأن تتعاون معي.. كن فطناً شكوكاً في الجميع وتعاون معي وإن شاء الله خيراً.

نظر رأفت وأبو اسحق إلى بعضهما وظلا صامتين، بعدها تبادل رأفت مع الملازم أطراف حديث آخر لم يتابعه أبو اسحق ثم استأذنا وانصرفا.

في الطريق قال رأفت لأبي اسحق:

ـ هل تفكر أنت بما أفكر فيه أنا؟..

هـزَّ رأسـه أبـو اسـحق بالإيجـاب وظـل صـامتاً ، ثـم افـترق الاثنـان وتوجـه كل منهما إلى منـزله.

في منزل رأفت كان صحن الدار يعج بالأولاد الصغار والكبار.. الأبناء المتزوجون مع زوجاتهم والبنات المتزوجات مع أزواجهن، وفاء ـ الحامل في الشهور الأولى ـ كانت مع رفيقتها زينب.. كانتا في غرفة البنات، لم تكن وفاء لتصدق أن رفيقتها زينب أصبحت زوجة أبيها، قالت لها:

ـ يا عفريتة.. ألم تشعري بالخجل في البداية؟..

ـ في مصر لا.. أما عندما عدنا إلى حلب.. فبلى!..

كانتا تثرثران وتضحكان كعادتهما بصوت عالٍ، يتخلل ذلك سؤال جدي من هنا أو من هناك، سألتها وفاء:

ـ وعلاقتك بخالتي فادية؟..

ـ لقد بدأت، ومنذ اليوم الأول، تعاملني وكأني رفيقة لها.. ندة لها، وهذا يحرجني كثيراً.. فأنا أحبها واحترمها جداً كما تعلمين.

ـ سمعت أن أبي خيرك في السكن هنا أو في بيت يخصك وحدك.

ـ تركت القرار لأم نضال، فرمته عليّ.. واخترت أنا هنا.

ـ ولكن أليس الأمر محرج هنا؟..

ـ إنه كذلك.. ولكن ما العمل؟.. أم نضال قديسة ولن أخدش علاقتي بها أبداً.

عندما وصل رأفت إلى داره كانت أصوات الأطفال وضحكاتهم وبكاؤهم تختلط مع أصوات الكبار ومناقشاتهم.. كان عدد أفراد عائلة رأفت وصل إلى تسعة عشر «كان يحسب أصهاره وزوجات أبنائه وجميع

الأحفاد» هذا قبل أن تأتي زينب.. رآها، كانت تلاعب أولاد أحمد وتشرح لهم أنه في لعبة الحجلة.. كلما صغرت المربعات زادت صعوبة اللعبة، وكلما كبرت المربعات سهلت، فتجيبها عائشة ابنة الخمسة أعوام أن المربعات يجب أن تكون صغيرة مثلهم.. وعندما يكبرون تكبر معهم..!.. كان جدلاً شيقاً، دخل فيه رأفت حال وصوله مستمتعاً بمهارة زينب مع الأطفال، أم نضال من ناحيتها، كانت تراقب الجميع، تخيلت للحظة أن من يلاعب الأطفال هي المرأة الشامية اليهودية، أو أحلام والعياذ بالله.. فأجفلت، ثم استدركت، قائلة لنفسها، أنه لو كانت أحلام لما كانت رأتها تلعب مع الأطفال.. كانت أخذته بعيداً، أخذت رأفت وسكنت مستقلة عن الجميع، حمدت ربها وشكرته وهي تنظر إلى زينب، ثم رفعت صوتها مخاطبة الأطفال أن يكفوا عن إتعاب زينب، ونادتها لتجلس بجانبها.

على مائدة الطعام التي تم وضع مائدة أخرى إلى جانبها ليتسع المكان لجلوس الجميع.. كان الضجيج.. هو هو.. ومع ذلك فإن رأفت وزوجته وجميع الأولاد والأحفاد.. وزينب، كانوا في غاية الانشراح.. هذا الطقس الأسبوعي سيتواصل لسنين وسنين معبراً عن اللحمة القوية لهذه العائلة.. نظر رأفت باتجاه ابنه أحمد.. كانت أعمال المنشأة ـ المعمل مزدهرة، والأب وابنه يفهمان على بعضهما بمجرد تبادل النظرات.. كان رأفت قد قرر شراء قطعة أرض في حي السبيل، وإقامة بناء من عدة طوابق عليها، و شراء سيارة.. بل أنه أوصى عليها، قال مخاطباً عائلته:

ـ أوصينا على سيارة أمريكية.. بويك، أكبر قياس، ومع ذلك تكاد تتسع لثلث الحاضرين هنا..!

ـ الله كريم يا أبي.. سنشتري سيارة أخرى العام القادم بإذن الله.. علّق أحمد.

قالت هدى ابنته من فادية:

ـ إنه العزُّ بعينه.. الوصول بسيارة بويك إلى المدرسة.

ـ السيارة ليست لتتفاخري بها على الآخرين، إنها وسيلة نقل، ثم أنت..
وصمت قليلاً قبل أن يقول..
ـ ألن تتركي المدرسة هذه السنة؟..
نظرت هدى إلى أبيها فزعة وقالت:
ـ أنا عمري اثنا عشر عاماً.. أمامي عامٌ آخر بكامله.
ـ دخلت في الثالثة عشر يا هدى وما طُبِّقَ على أخواتك سيطبق عليك.
ترقرقت الدموع في عيني هدى وهي تتذكر مدرستها، الجان دارك، كفت عن تناول الطعام ونظرت إلى أمها.. أطبق الصمت على الجميع، قطعته أم نضال قائلة:
ـ يا حبيبتي هذه ليست نهاية العالم.. أنت ذكية ومتعلمة وتتكلمين الفرنسية كالبلبل.
كانت زينب تتناول طعامها صامتة وقد آلت على نفسها ألا تتدخل.. لكن رأفت قال:
ـ انظري يا هدى إلى أختك وفاء وإلى زينب.. تركتا المدرسة في مثل سنك الآن.. انظري إلى شخصيتهما وفهمهما.. انظري كم هما منظومتين!..
ابتسمت زينب ناظرة إلى وفاء التي بادلتها الابتسام.. التقط رأفت ابتسامة زينب فقال:
ـ نعم يا زينب.. ما رأيك أنت؟..
ـ رأيي؟.. أنا رأيي أنه علينا احترام القوانين والأعراف التي تضعها الأسرة.. حتى ولو كانت..
ولاذت بالصمت.
ـ حتى لو كانت ماذا؟..
ابتسمت زينب مترددة.. ثم حزمت أمرها:
ـ الحقيقة.. الحقيقة.. أنا قناعتي مختلفة عن هذه الأعراف.. أنا قناعتي أن على الفتاة متابعة دراستها حتى تنال البكالوريا وتدخل الجامعة أيضاً.

- الله أكبر..

قالها رأفت مبتسماً وتابع..

- الأعراف يا زينب لا تأتي من فراغ.. إنها حصيلة تجارب وخبرات عشرات بل مئات السنين، أليس كذلك؟..

- نعم ولكنها تتبدل وتتطور مع الزمن.. أم تبقى جامدة إلى الأبد؟..

كان ما تخشاه زينب قد وقع.. لم تكن تريد الدخول في النقاش والآن لن تستطيع الخروج منه، وهي بالتأكيد لم تكن تريد مجادلة زوجها أمام أسرته ولا الدخول في مبارزة معه.

هنا تدخلت هدى مستعطفة:

- يا أبي.. هناك رفيقات لي.. أهلهم مثل أهلي.. مثلكم، ومع ذلك يتركون بناتهم يتابعن الدراسة في..

قاطعها والدها قائلاً بلهجة صارمة جدية:

- أهلهم مثل أهلك؟.. هل تريدين أن أشرح لك الفرق بيننا وبينهم؟.. بين جوِّنا وجوِّهم؟.. بين وسطنا ووسطهم؟.. حسناً.. سأفعل: كل فتاة تتابع دراستها في الجان دارك معرضة للذهاب في رحلات مختلطة.. كل فتاة تبقى في الجان دارك معرضة لحضور حفلات راقصة مع رفيقاتها ومع شبان لا يعرف أحد من أين هي قرعات آبائهم.. ألم تسمعي بالـ «بارتي»؟.. ألم تسمعي بحفلات «الدانس»؟.. هل جونا نحن يسمح بذلك؟.. هل وسطنا يقبل بذلك؟..

قال رأفت كلامه هذا ثم نظر باتجاه زينب التي هربت منه، ولكنَّه أصرَّ وظلَّ محدِّقاً بها، فقالت:

- هذا الكلام غير دقيق.. فيه شيء من الصحة، ولكنه غير دقيق!..

ساد صمت مطبق، قبل أن تتابع زينب:

- عندما تخرج الفتاة من منزلها ومعها حقيبتها وفيها كتبها وتربيتها وتوجيهات أمها.. ثم تعود وتجد حضناً دافئاً بانتظارها تلتجئ إليه شاكية

مشاكلها.. من خصومة صغيرة مع رفيقه.. إلى أكثر من ذلك.. حينها أنا لا أخشى على هذه الفتاة لا من بارتي ولا من رحلة مختلطة، مع أنني شخصياً ضدّ الاثنين.

ثم نظرت إلى رفيقتها وفاء.. التي فهمت ما يجول في خاطر زينب، فحدّقت فيها محذرة وقد شلّها الخوف.. إلا أنَّ زينب تابعت:

- كم كان عمرنا يا وفاء عندما هربنا من المدرسة ذاك اليوم؟.. إثنا عشر.. ثلاثة عشر عاماً؟..

ثم صمتت وكادت تنفجر ضاحكة بسبب الخوف الفظيع الذي ظهر على وجه وفاء.. لكنها تابعت:

- هربنا يومها من دوام بعد الظهر، وذهبنا إلى بيت رفيقتنا سعاد.. كان هناك فتيان وفتيات وموسيقى غربية.. كانت «بارتي».. ماذا حصل؟.. منذ اللحظة الأولى فهمنا أننا جئنا إلى المكان الخطأ.. لم نتناقش بالأمر ولم نتبادل كلمة.. بل تبادلنا نظرة سريعة واحدة وأمسكنا بأيدي بعضنا وانسحبنا.

كان كلامها في منتهى الجرأة.. عندما انتهت منه كانت وفاء تضع يدها على جبينها وهي تخفي وجهها.. أما رأفت فكان في قمة الانشراح.. قال:

- انسحبتما وكان ممكناً أن تبقيا!..

- حتى لو كنا بقينا.. لما كانت نهاية العالم.

تدخلت أم نضال قائلة بصوت هادئ:

- لما كانت نهاية العالم.. كانت بداية مشاكل العالم!..

نقّل رأفت نظره مرتاحاً بين أم نضال وزينب.. كان انشراحه واضحاً، قال:

- منذ متى يا زينب تحبّين الفرنساويين والمدارس الفرنسية.. أنت الوطنية العروبية؟..

ابتسمت له وقالت:

- أنا عروبية ونص.. وسأسمي ابنتي عروبة..

احمرَّ وجهها، ولكنها تابعت:

- أنا لست من عشاق المدارس الفرنسية، بل إني ممتعضة منها.. فأنا أعرف عن مجرى السين أكثر مما أعرف عن مجرى الفرات أو العاصي، وأعرف عن حروب شارلمان ونابوليون أكثر مما أعرف عن حروب خالد بن الوليد وصلاح الدين..

ثم صمتت وابتسمت لرأفت ونظرت بودّ لأم نضال و قالت:

- هناك خيار آخر.. التجهيز الأولي للبنات.. مدرسة معاوية للبنات، فيها نخبة النخبة من المدرسين والمدرسات، وهي مدرسة رسمية.. وجوها من أروع الأجواء.. لم لا تنتقل هدى من الجان دارك إلى معاوية فنرتاح من الفرنساويين وتكسب هي دراستها؟..

نظرت هدى بلهفة إلى أبيها وقالت:

- كثيرات من رفيقاتي فعلن ذلك يا أبي و..

صرخ رأفت:

- تريدين رفيقاتك أم مدرسة معاوية؟..

أجابت بسرعة:

- لا.. أريد المدرسة.

- إذن فلتنتقلي إليها.

ساد الصمت المطبق مرة ثانية.. تأخر الجميع في فهم كلمة رأفت الأخيرة، وعندما استوعبتها هدى شهقت من الفرح غير مصدقة.. بدأ التصفيق من سلمى، الأخت البكر التي لم تدخل المدرسة أبداً.. ثم عمّ بالتدريج جميع البنات..الصغيرات والكبيرات، حتى عائشة ابنة الخمس سنوات كانت تصفق.. وأم نضال وزينب أيضاً، أصبح التصفيق عالياً وحماسياً، أما الصبيان.. صغاراً وكباراً فلم يشاركوا فيه.. كانوا ينظرون

ويبتسمون.. فالنصر لم يكن نصرهم.

جميع بنات رأفت وحفيداته اللواتي سيتخرجن من الجامعات في المستقبل سيذكُرن ويحدّثن بناتهن عن يوم التصفيق الشهير هذا.

مالت سلمى إلى أخيها أحمد وهمست له أنها لا تصدق أن تلك «الفصعونة» التي كانت تلعب مع وفاء في صحن الدار لساعات وساعات هي نفسها زينب الجالسة معهم الآن، فرد عليها أخوها هامساً: كانت ذكية عفريتة من يومها.

في المساء.. كانت أم نضال وزينب جالستين جوار بعضهما ترتشفان القهوة.. قالت أم نضال:

ـ هل تعلمين أني لم أخف من زمن كما خفت اليوم.. لقد أخفتني يا زينب.. أخفتنا جميعاً.

ـ أخفتك؟.. كاد قلبي أن ينخلع من الخوف.

ترقرقت الدموع في عينيها.. وفجأة ارتمت في أحضان أم نضال وهي تبكي بصوت عالٍ.. وتقول:

ـ كدت أموت من الرعب أمام كل هذا الحشد، لولاك أنت لما..

وغصّت بدموعها، حضنتها أم نضال متفاجئة، ولولا حس الأمومة العالي عندها لما فهمت شيئاً، قالت لنفسها: يا إلهي.. هذه الفتاة القوية القادرة معظمها طفل.. الجزء الأكبر منها طفلة بحاجة إلى أم قبل أن تكون بحاجة لزوج.. المشكلة.. تابعت تقول لنفسها، أن الأم التي ترغب فيها هي ضرّتها.. فدبِّرها يا مدبِّر الأحوال!..

عندما قصت أم نضال لرأفت ما حدث علق قائلاً:

ـ المشكلة أن عقل زينب أكبر منها، إنها يافعة.. هناك عدم تناسب.. إنها مشكلة ستحلُّها الأيام، عامليها يا فادية كما يملي عليك حدسك وسيكون كل شيء على ما يرام.

أما زينب فقالت لرأفت عندما اختلت به:

ـ لماذا لاحقتني؟.. لقد هربت من النقاش.. هربت منك مرة واثنتين.. لماذا أصررت؟..

أجابها وهو يداعب خصلات شعرها :

ـ أردتهم أن يعرفوا لمَ تزوجتك!..

عندما وصل رأفت إلى المكتبة.. وجد أبا اسحق جالساً ينتظره، حياه وطلب القهوة، قال أبو اسحق:

ـ موضوع السرقة حلّ.. عُرف السارقون وأعيدت البضاعة المسروقة كلها!..

حدّق رأفت به وقال:

ـ عال.. ولماذا لا أراك مسروراً؟..

ـ السارقون هم ابن أخي رفائيل وكميل أخ فؤاد وثلاثة شبان آخرون من حي الجميلية!.. إنها فضيحة كبرى.

ظلَّ رأفت يحدق به للحظات.. ثم قال:

ـ والشابان من باب الحديد وقد ألقي القبض عليهما؟..

ـ كانوا ثلاثة شبان، الثالث هرب.. كانت مهمة الثلاثة نقل قسم من البضاعة المسروقة إلى خارج الحي على ثلاث عربات خشبية بصناديق داخلية كبيرة.. يبدو أن رفائيل ورفاقه تأخروا بعض الشيء وبزغ الفجر، فخافوا وارتبكوا فقرروا نقل البضاعة كلها إلى شقة مهجورة معهم مفتاحها، ولم يُعلموا الشباب المكلّفين بنقل المسروقات بذلك، فانتظر هؤلاء أكثر مما يجب مما تسبب باعتقال اثنين منهم.

ـ وكيف عرفت كل ذلك؟..

ـ الملازم فوزي وأنا.. تعاونا جيداً طوال الأيام الثلاثة الماضية.

ـ وهل تم توقيف الشباب اليهود؟..

ـ جمعيهم.. إنها فضيحة كبرى يا أبو أحمد.

ـ من وراء ذلك باعتقادك؟..

ـ لا أعلم.. ابن أخي رفائيل يصر على أقواله.. بأنه هو ورفاقه من قرروا القيام بالسرقة.

ـ وأنت ما هو رأيك؟..

ـ عندي إحساس.. مجرد إحساس بأن فؤاد هو وراء ذلك، يريد إخافتنا.. إخافة اليهود.

فوجئ رأفت فقال:

ـ فؤاد نفسه.. زوج وداد؟..

ـ نعم.. لا يوجد أي دليل على ذلك.. ولكن هذا ما اعتقده.

صمت أبو اسحق لبعض الوقت ثم قال:

ـ يجب ألا يصل الأمر إلى الأمن العام.. عبارة واحدة يذكرها الملازم فوزي في تقريره كمثل: السرقة لها أبعاد أخرى.. وتقع الكارثة، أما إذا اكتفى بالبعد الجنائي للسرقة فقد يُحكمون ثلاثة أو ستة أشهر سجن.

لم يعلّق رأفت فتابع أبو اسحق:

ـ قد اضطر لطلب تدخُّلك مع الملازم فوزي.

ـ هل تتوقع منّي أن أساعد هؤلاء السفلة؟..

ـ بينهم ابن أخي يا أبو أحمد.. إنه مثل ابني.

ـ لا يمكن أن أسمح لنفسي.. بل أشعر أنه من واجبي حضك على الإفصاح عن شكوكك للملازم فوزي، وإن لم تفعل.. أظن أنه من واجبي أن أفعل ذلك.. إنهم يلعبون بالنار يا أبو اسحق.. يلعبون بالنار.

ـ يا إلهي يا أبو أحمد.. قلت لك أن الأحمق رفائيل هو مثل ابني.. مثل ابني تماماً.

ـ لا تعتمد عليّ في هذا الأمر.. اذهب إلى الملازم فوزي وحاول أنت معه.. أما أنا فسأؤنب نفسي كثيراً.. بل إني بدأت بتأنيبها منذ الآن لأني

سأسكت ولن أبلّغ عما أعرفه.

قال رأفت ذلك واستغرق في التفكير.. ظل الاثنان صامتين إلى أن قال رأفت:

ـ يبدو أنهم قرروا ألا يضيعوا وقتهم.. لقد بدأ الجد يا أبو اسحق.

ـ الذي يحيِّرُني يا أبو أحمد.. أن معلوماتي الأكيدة تقول، بأن الوكالة اليهودية تركّز في المقام الأول على هجرة يهود أوروبا إلى فلسطين.. ولا تهتم إلا قليلاً بنا نحن، فما الذي يحدث؟..

ـ يبدو أن الوكالة تجد صعوبة في تأمين الأعداد الكافية من المهاجرين من أوروبا.. وهي تفضلهم على غيرهم.. أوروبا خرجت من حرب عالمية مدمرة، واليهود هناك كانوا في خضمها.. ولا شك أنهم يريدون الآن العيش بسلام وأمان.. لا أن يهاجروا إلى فلسطين حيث القتال في انتظارهم.. قتال لسنين وسنين لا أحد يعرف عددها، لذلك فالوكالة على ما يبدو.. اتجهت الآن نحو يهود العالم العربي.. يهود سوريا والعراق.. يهود اليمن وشمال أفريقيا.. هؤلاء يعيشون بأمان وسلام، فإن وجد من يقلق هذا العيش ويعبث به.. فسيهاجرون، الخطة واضحة وبسيطة.

ـ فعلاً إنَّهم يعانون من مشكلة في العدد.. سمعت أن عدد اليهود لم يصل بعد إلى نصف مليون مع أن الهجرة بدأت منذ ثلاثين سنة، وهذا عدد لا يكفي لإنشاء دولة.

ـ كل خوفي ألا يكتفوا بسرقة محلّين أو ثلاث محلات يهودية.. خوفي أن يجمحوا فيستخدموا العنف بأقسى أشكاله.. تفجيرات هنا وهناك لإخافتكم.

ـ ألست تبالغ يا أبو أحمد؟.. اليهود عانوا من الاضطهاد كثيراً فكيف تتصور أنهم قادرون على سفك الدماء بهذه السهولة؟..

ـ بالضبط لأنهم عانوا كثيراً.. هم محتقنون.. قياداتهم حاقدة، ووجدْتها فرصة تاريخية لن تتكرر، ولا وقت لديهم للتفكير الأخلاقي

أو الإنساني.. الوقت ضاق عليهم، هذه القيادة بلا روادع.. صدقني إذا حصل واضطروا لاستقدام مهاجرين نصف أو ربع يهود، من بولونيا.. من روسيا أو من بلاد الواق الواق.. فإنهم لن يترددوا، سيفعلونها.. إنهم مصممون، مصممون جداً.

ـ أنا هنا لستُ معك.. لا يمكن استقبال المهاجر إلا إذا كانت أمّهُ يهوديَّة.

ـ سيتراخون، ليس الآن.. ولكن سيتراخون، سيقبلون من هو متزوج من يهودية.. زوجة أبيه يهودية، حبيبته يهودية.. جارته يهودية، صدقني سيفعلون المستحيل ليحلوا مشكلة العدد.

نظر أبو اسحق إلى ساعته وشهق.. الوقت داهمه، قام مودعاً ولكنه تذكر أمراً فعاد وجلس وقال:

ـ سمعت أن التاجر شمعون من الشام بدأ يتعامل معك؟..

ـ هذا صحيح.

ـ كن حذراً منه.. إنّه نصّاب كبير!..

ـ غريب ما تقوله.. لقد دفع نقداً ثمن طلبيته الأخيرة.

ـ وسيدفع نقداً ثمن الطلبية الثانية.. أما الثالثة والرابعة، كن حذراً.

قالها وهو يصافح رأفت مودعاً.. بعد قليل تبعه رأفت متوجهاً إلى منزله.. كان منفعلاً، فلسطين أصحبت هاجسه.. الحديث عنها وعن اليهود يدفعه إلى الانفعال. أراد أن يمشي، إنه وقت الظهيرة والوقت غير ملائم للمشي ومع ذلك انطلق يمشي.. كان يحبهم، كان ولا يزال يحب اليهود.. انفطر قلبه من الألم عندما وصلت أخبار المحرقة، تذكّر.. كان هذا منذ سنة ونصف أو سنتين، حينها أقام اليهود مجلس عزاء في حيِّ الجميلية شارك هو فيه.. ياللهول.. يا للفظاعة، يالقسوة الإنسان.. يبيد الآخر لأنه مختلف عنه.. ياللشناعة، ولكن الأمريكان فعلوها من قبل.. أبادوا الهنود الحمر.. لم يبيدوا سود أفريقيا، إنّما سرقوهم.. سرقوهم ونقلوهم من قارة إلى قارة

واستعبدوهم يا للهول.. من يصدق؟!.. اليهود إذن آتون، عاد إلى اليهود، آتون بعذاباتهم وغضبهم.. وحقدهم على العالم، كان يتابع جميع مؤتمراتهم في الخارج.. اجتماعاتهم.. نشراتهم.. وكان يقلق، يريدون استغلال اللحظة التاريخية.. ونحن؟.. فكّر.. نحن العرب ماذا علينا أن نفعل؟.. كنا جزءاً أساسياً من الإمبراطورية العثمانية، قبل ثلاثين عاماً انهارت هذه وتفتّتت.. أصبحت على الأرض، ونحن معها على الأرض، استلمنا الأوروبيون.. بريطانيا وفرنسا.. فرّقونا إلى دول ليس لها مقومات الدول وتركونا أيضاً على الأرض.. نريد أن ننهض الآن.. قال لنفسه: ليس أسهل من ضرب الناهض عن الأرض.. ضربه و هو ينهض وإيقاعه عليها من جديد.. ليس هناك أسهل من ذلك، هذه هي اللحظة التاريخية الملائمة جداً لهم.. لا يريدون أن يفوتوها، هذا هو تفسير عجلتهم الزائدة، فإذا أضيف إلى ذلك الظرف الدولي الملائم جداً لهم.. اكتملت الصورة، لا وقت لديهم يضيعونه.. أمامهم سنتان أو ثلاث.. على الأكثر خمسة، وإلا تبخر حلمهم في إنشاء الدولة إلى الأبد.

كان أول ثلاثاء بعد عودة رأفت من مصر.. كان متوجهاً إلى حي الجميلية.. إلى بيت ربيعة، كان سعيداً.. والحقيقة أن سعادته وانشراحه وعودته إلى طبيعته، كل ذلك بدأ عندما وافقت زينب على الزواج منه.. مذ حدث ذلك ـ وقبل أن يتزوجا بشهرين أو أكثر ـ عادت علاقته بزوجته أم نضال إلى طبيعتها، بل أصبحت أفضل، وعادت علاقته بجميع أصدقائه، لقد حمل لربيعة هدية من مصر.. واحدة لها وأخرى لصديقتها وداد، كان نجح بصعوبة في امتصاص نقمتها الصامتة عندما سمعت بقراره الزواج من زينب.. تملكتها حينها كل المشاعر الأليمة في الدنيا.. شعرت بالمذلة، وشعرت بالصغر ثم بالإهمال، وأخيراً بالكآبة التي طالت كثيراً.. حاول رأفت إرضاءها بشتى الوسائل والطرق فلم يوفّق إلا قليلاً.. من نجح في ذلك.. كانت وداد.. عضدتها وواستها وكفكفت دموعها.. لن تنسى تلك الأيام المؤلمة أبداً، ولن تنسى وقفة وداد إلى جانبها مدى عمرها.

استقبلته ربيعة بسرور كبير.. كادت تحضنه لولا بعض التحفظ المتبقي من استيائها منه.. من زواجه، بعد أن جلسا وبدءا بارتشاف القهوة.. أعطاها هديتها.. كانت ثوباً قطنياً رائعاً من مصر.. تناولته منه مبتهجة قائلة:

ـ يقال أن قطنيات مصر هي الأولى في العالم.

ـ هذا صحيح، فالقطن المصري قصير التيلة وهو الأول في العالم.

أعطاها تمثال صغير لنفرتيتي هدية لصديقتها.. فطار عقلها من الفرح..

بدا أنها سرت بهديته لوداد أكثر من سرورها بهديته لها.

- يا لذوقك الرفيع يا رأفت.. يالإحساسك الجميل بالناس.. انظر إلى هذا العنق.. سيطير عقل وداد بعنق نفرتيتي.

- أريد منك أن توصلي رسالة لها.. قولي لها عن لساني أن زوجها فؤاد يلعب بالنار.. أطلبي منها أن تنقل ذلك لزوجها.

- ماذا يحدث يا رأفت؟.. لقد أخفتني.

لم يفصّل لها.. بل وضعها في الجو العام لما حدث.. ولما يعتقد أن لفؤاد ضلعاً فيه.

أمضيا ساعتين أو أقل مع بعضهما.. وهو يغادر قال لها:

- لا تنسي رسالتي لصديقتك.. انقليها حرفياً.

في الطريق فكر رأفت بوداد.. كان يحترمها، لم يفكر يوماً في مغازلتها مع أنه كان يجدها جذابة جداً وجميلة.. كان واثقاً أنها ستصده لو حاول.. ليس فقط بسبب صديقتها ربيعة، وإنما لأنها لم تكن امرأة خفيفة.. كان واثقاً من ذلك، كان يعرف علاقتها بأبي علي، ولكن هذا لم يؤثر في رأيه بها.

عندما رأت وداد رأس نفرتيتي صرخت قائلة:

- انظري يا ربيعة إلى عنقها.. يا إلهي هل كانت فعلاً بهذا الجمال؟..

انفجرت ربيعة ضاحكة وهي تقول:

- كنت أعلم.. كنت أعلم.

لم تشأ أن تُعكّرَ مزاج صديقتها فتنقل لها رسالة رأفت.. أجلّت الموضوع.. أعدَّت القهوة وبدأتا تثرثران، قالت وداد:

- هل سمعت بالحقارة التي حدثت في حيِّنا؟..

- تقصدين السرقة؟..

- تصوري فؤاد ومقدار حرجه.. هل علمت أن أخاه مشترك فيها؟.. وابن أخ أبي اسحق أيضاً.. شيء لا يصدق، أنها فضيحة الفضائح.. يا عيب الشوم.

نظرت إليها ربيعة مشفقةً وقالت:

ـ يقول رأفت أن زوجك فؤاد يلعب بالنار.. ويطلب منك أن تنقلي له هذا القول!..

امتقع وجه وداد فقالت ربيعة:

ـ لا شيء خطير يا وداد.. إنَّه احتمال.. احتمال فقط!..

ـ ما هو الاحتمال؟..

ـ أن يكون زوجك وراء هذه السرقة لإخافة اليهود.. إنه مجرد احتمال وقد لا يكون صحيحاً أبداً!..

قالت ذلك وتذكرت أن رأفت لم يستعمل هذه الكلمات أبداً.. بل طلب منها نقل الرسالة مثلما قالها حرفياً.

ظلّت وداد صامتة وظلّ وجهها ممتقعاً.. قالت ربيعة:

ـ هوني عليك يا وداد.. الأمر لا يستحق..

امتلأت عينا وداد بالدموع وبدأت تبكي.. حاولت ربيعة جهدها التخفيف عنها وأنبت نفسها بصوت عال، ثم فجأة كفكفت وداد دموعها ونهضت تريد المغادرة.. لحقتها ربيعة بتمثال نفرتيتي.. فأخذته وداد وقالت وعيونها محمرة:

ـ اشكريه يا ربيعة.. أشكريه كثيراً.

وكانت تعني شكره على الهدية وعلى التنبيه.

في البيت وعند عودة فؤاد من عمله.. أنكر بشدة أية علاقة له بالأمر، وحاول عبثاً طمأنة زوجته.. أما هي فكانت تعنفه وتلعن حظها من خلال دموعها:

ـ أنا لا أولاد عندي.. ليس عندي سواك.. وتريد أن تتركني بأفعالك المجنونة وحدي؟.. أنت إنسان لا تشعر بالمسؤولية تجاهي.. لقد جننت، كان خوفي في محله.. كان قلبي دليلي، إن صح ما سمعته فأنت مجرم بحقي

و بحق نفسك.. ما هذه الأعمال؟.. نسرق بعضنا لإثارة الخوف والهرب؟.. هذا هو الجنون بعينه!..

كانت تتكلم وتبكي.. وتبكي وتتكلّم حتى قطّعت له نياط قلبه، نجح أخيراً في تهدئتها مؤكداً لها أن القادم من الأيام سيكون مختلفاً، وعدها.. كان في كلامه شيء من الاعتراف لم تشأ أن تقف عنده بل توقفت عند وعده. والحقيقة أن تأنيباً شديداً وصل إلى فؤاد للخفة التي تمت بها عملية السرقة والتي أدت إلى إنكشافها ومرتكبيها.. وصله أن أمراً كهذا كان يجب أن يتم بحرفية وجدية لم تتوفر لا فيه ولا في جماعته، وطُلِبَ منه أن يبقى ساكناً ولا يأتي بحركة.

كفكفت وداد دموعها.. ظلت مستاءة وستبقى مستاءة لزمن طويل.. تيقنت أن هناك من يشاركها زوجها.. القضية اليهودية هي ضرتها.. وهي ضرة قوية كاسرة تدفعه بل دفعته للمغامرة والتهور، وتيقنت من أمر آخر.. عرفت أن شرخاً حدث في علاقتها بزوجها.. شرخاً لم تكن هي من سببته بالتأكيد.

وفى فؤاد بوعده.. خفف كثيراً من سفره ثم أوقفه.. ركز اهتمامه على وضع أخيه في السجن ثم محاكمته ورفاقه.. أما اهتمامه بوداد فلم يكن بحاجة إلى تركيز.. كان يعشقها كما لم يعشق أحدٌ أحداً.. إلا أنه كان يعشق قضيته أيضاً.. وهنا كانت المشكلة.

كان من عادة وداد أن تبتعد عن أبي علي عندما تكون مستاءة من زوجها أو متخاصمة معه.. كان استياؤها أو خصومتها مع زوجها يمنعانها من التفكير بالجنس.. كان هذا يحتاج عندها لكل التفرغ الذهني.. لكل الإخلاص له، ولكن الأمر اختلف هذه المرة.. قد يكون السبب اكتشافها لتلك الضرة القوية الكاسرة، عندما سألتها ربيعة بخبث عن أحوالها العاطفية أجابتها بأن فؤاد لم يغادر حلب منذ فترة طويلة، خطر لربيعة أن

تعرض عليها منزلها.. إلا أنها أحجمت في اللحظة الأخيرة.. كانت تعلم أن هذا لا يصح.. إلا أن النساء، كل نساء الأرض، لا يعدمن العثور على تبرير ما موجود في أعماق أعماقهن للتواطؤ والدخول في تلك المؤامرة الصامتة التي تتم بينهن بمغفل عن الرجال.. لذلك عندما طلبت وداد منها ذلك وافقت.

في منتصف الصيف تقريباً تم حجز صالة الشهبندر لحفلة عبد الوهاب القادم من مصر.. والحقيقة أن الصالة هي كاباريه مشهورة ولكن مساحتها، وقد ضم اليها قسم من متنزه الشهبندر الواقع مقابل فندق بارون، كانت رحبة واسعة. تم تأكيد موعد الحفلة وبيعت التذاكر واستعدّ الجميع، كان رأفت يناقش أم نضال وزينب في أيهنّ سترافقه إلى الحفل، كان رأي زينب سريعاً.. ستذهب أم نضال، ليس لأنها حضرت عبد الوهاب في مصر، ولكن لأن الأولوية لأم نضال كما قالت، علق رأفت أنه من الممكن ذهاب الاثنتين، فردّت عليه أم نضال بأن الأمر غير وارد وغير لائق.. قال رأفت:

- لماذا؟..

- لا أعرف ولكنه غير لائق.

كان يعرف ذلك من دون أن يستطيع تحديد السبب بدقة.

تدخلت زينب مبتسمة:

- قد أكون أعرف السبب!..

- ما هو؟..

- قد يكون.. أقول قد يكون السبب.. في رأي المجتمع الحقيقي بتعدد الزوجات.

- وضحي يا زينب.

- عندما يذهب الزوج إلى مكان عام مصطحباً زوجتين أو ثلاث زوجات

معه.. يشعر الجميع أن هناك شيئاً ما غير سليم.. غير طبيعي، وبالتالي غير مستحسن.. ويبدأ الغمز واللمز.. لماذا؟.. اعتقد أن السبب يكمن في أن رأي المجتمع الحقيقي ليس مع تعدد الزوجات، ولكن لمّا كان الأمر مجازاً شرعاً فلا يمكن رفضه، وإنما يمكن استهجانه في مناسبات بعينها مثل رؤية زوج مع ثلاث زوجات..

- يالك من ثرثارة متفذلكة يا زينب!.. .

قالت أم نضال وتابعت:

- تريدون الحقيقة؟.. الحقيقة أن لا رغبة لي في حضور هذه الحفلات.. فلتذهب زينب وكفى نقاشاً.

- أنا بالتأكيد لن أذهب.. أنا في شهري الرابع يا أم نضال، لندعه يذهب وحده.. ليذهب ويسمع عبد الوهاب يغني.. أحب عيشة الحرية..

قالتها بخبث وهي تضحك.

كانت وداد طلبت من زوجها شراء ثلاث تذاكر.. فهي بالتأكيد لن تنسى ربيعة.. خططت الاثنتان جيداً لثوبي الحفل.. قالت وداد لربيعة:

- هل تذكرين فيلم ذهب مع الريح؟.. «كانت أخذتها لمشاهدة الفيلم الذي كانت تشاهده هي للمرة الرابعة». هل تذكرين فيفيان لي عندما ذهبت لرؤية كلارك غيبل في السجن؟.. كانت ترتدي ثوباً بوشاح صنعته من ستائر الأبواب والنوافذ.. كانت ساحرة، سأرسم لك تصميماً لثوب ستكونين فيه ساحرة أكثر منها.. سيكون ثوباً لونه أسود طويلاً بوشاح من اللون نفسه تضعينه على رأسك ويتداخل مع الثوب بطريقة مبتكرة.. حضري أناملك وماكينة خياطتك، أمامنا أقل من أسبوع.

في يوم الحفل.. وعندما وصل فؤاد وزوجته وربيعة كانت الصالة الصيفية على وشك الامتلاء بروادها، اشرأبت الأعناق.. أعناق الرجال وأعناق النساء.. نحو المرأة المرافقة لفؤاد وزوجته، بمن فيهم رأفت الذي لم يصدق عينيه.. إنها ربيعة، قال لنفسه.. لم يعرفها من الوهلة الأولى، كانت

امرأة أخرى.. كانت تسير منتصبة بقوامها الجميل وابتسامة بريئة تطلُّ من على وجهها.. كان فستانها أخّاذاً.. أسود شديد السواد، يتداخل معه بطريقة غريبة وشاحٌ أسود يغطي قسماً من شعرها، كان التضاد بالألوان كاملاً ورائعاً، فستان أسود.. أسود كالليل، وبشرة بيضاء.. بيضاء كالثلج، وأحمر شفاه.. أحمر كالدم، لم يصدق رأفت ما يراه.. كان الجميع يتهامسون سائلين عن هذه المرأة.. لم يكن أحد يعرفها، قبل بدء الحفلة ودخول عبد الوهاب بقليل علا صوت أحدهم في الجانب المجاور لمكان جلوس رأفت:

ـ والله العظيم لا أعرف من هي!.. والله العظيم لا أعرفها ولا أعرف من أبوها ولا أخوها!.. كفوا عن سؤالي!..

همست به زوجته أن يخفض صوته فالناس بدأت تنظر إليه وتبتسم.. لكنه تابع بصوته المسموع جيداً:

ـ لينظروا.. هذا خامس شخص يسألني عنها.. والله.. والله لا أعرف من هي..

كان الرجل يتكلم بجدية ولكنه ـ عندما اكتشف استظراف الناس لكلامه وللموقف برمته ـ أخذ يبتسم مشاركاً الآخرين ابتساماتهم.

أطلَّ عبد الوهاب.. فعلا التصفيق.. كان طويلاً نحيلاً، وكان أنيقاً «مكْوياً» كما عبرت وداد، بدأ بـ«أحب عيشة الحرية»، كان الصمت مطبقاً ولكن سرعان ما دخل الناس في الجو فعلت الآهات والتأوهات وعندما انتهت الأغنية الأولى علا التصفيق واستمر لدقائق عديدة، غنى عبد الوهاب: يللي قطفت البرتقال، غنّى القمح الليلة، غنّى نصف دزينة من أغنياته التي كان يحفظها الجمهور عن ظهر قلب.. كان التفاعل بينه وبين الجمع المنتشي في ذروته عندما أنهى الحفل، فجنّ الناس.. فؤاد وراشيل ابنة عم وداد وآخرون كثر بدؤوا بالصراخ طالبين المزيد، ولكن محمد عبد الوهاب، الجنتلمان جداً، حياهم وانحنى لهم انحناءات ارستقراطية

وانسحب.

تجمع الكل في الخارج أمام الصالة.. قليلون ذهبوا إلى بيوتهم، أما من بقوا فكانوا متحلّقين في دوائر متقاربة يتحدثون ويعلقون والنشوة والسلطنة لم تغادرهم بعد.. اقترب رأفت من حلقة وداد وفؤاد وربيعة.. كانت معهم راشيل وزوجها، صافح الجميع.. كان في رأسه شيئ.. خطة خبيثة لم يستطع مقاومتها، ولا يوجد رجل في الأرض يستطيع ذلك، أما هم فكانوا يفكرون بالذهاب إلى فندق بارون حيث يقيم عبد الوهاب ليشاهدوه عن قرب وربما يصافحوه.. كان فندق بارون يبعد عنهم أمتاراً.. كان بعضهم متحمساً وبعضهم متردداً، حسم الموضوع رأفت قائلاً لهم أن لا أحد منهم يستطيع مصافحته أو حتى الاقتراب منه.. فعبد الوهاب «موسوس» لا يصافح الجمهور أبداً.. عرض عليهم أن يقلهم بسيارته الجديدة فوافقوا باستثناء راشيل، إذ أصرت على الذهاب إلى الفندق علّها ترى عبد الوهاب عن كثب، ورضخ زوجها لها.

دعا رأفت فؤاد إلى الجلوس بجانبه في السيارة وأخذت ربيعة ووداد مكانيهما في المقعد الخلفي، كانت وداد قد كذبت على زوجها عندما قالت له أن رأفت وربيعة متزوجان في السر لسبب تجهله.. كذبت عليه، لأنه ما كان ليسمح لها بمصادقة امرأة هي عشيقة لأحدهم حتى لو كان رأفت أفندي، رأفت من ناحيته لم يكن يعلم بأمر هذه الكذبة، لذلك فقد تحمّل عناء إيصالهم إلى بيوتهم ثم ودعهم وأخذ الشارع الآخر وصولا لبيت أبي اسحق.. ركن السيارة هناك وأسرع إلى بيت ربيعة.. وصل خلال دقائق، عندما فتحت له ربيعة، دخل بسرعة وأغلق الباب بسرعة أكثر وهجم عليها.. كان كالوحش الجائع وقد أمسك بفريسته.. لم يقبلها يوماً كما كان يقبلها الآن.. أسندها على أقرب حائط ومرغ شفاهها ووجهها وعنقها بقبلات محمومة وبطريقة لا يفعلها إلا المراهقون.. ثم حملها بكلتا يديه واتجه إلى غرفة النوم، هي من ناحيتها كانت شبه مخدرة، وجدت بالكاد

القوة لنزع ثوبها بينما كان هو ينزع ثيابه، تلك الليلة ستكون مؤرخة جيداً عندها.. لن يكون ما بعدها أبداً مثل ما قبلها، عندما وصلت إلى ذروتها ـ بعد شهور وشهور ـ كاد يغمى عليها.. صرخت مستغيثة.. خافت أن يعلو صوتها أكثر فغرزت أسنانها في كتفه وطوقته بذراعيها بقوة لم تعرف من أين أتت بها، عندما همدا.. احتاجت لنصف ساعة تقريباً لتلتقط أنفاسها وتستطيع التكلم، قالت حينها بغنج و دلال:

ـ ألم تستطع تأجيل الأمر للغد؟..

ـ لا.

قالها وانفجر ضاحكاً.. دون أن يعرف لماذا يضحك.

عندما غادر رأفت سارعت إلى سريرها.. كانت منهكة.. فكّرت، إنها سعيدة منهكة!.. ستغفو سريعاً الآن.. غداً ستستعيد أحداث هذا اليوم الطويل.. الطويل، ولكن وهي تغفو حام من حولها السؤال: ماذا حدث بالضبط؟.. من السبب؟.. لمن الفضل؟.. ألعبد الوهاب؟..أم لنظرات الناس؟.. أم إنه الثوب الأسود؟.. ليس مهماً.. غفت وعلى وجهها أجمل ابتسامة يمكن أن تظهر على وجه امرأة شعرت بالرضى بعد سنوات وسنوات من الخصومة مع نفسها.

في الصباح عندما استيقظت.. والحقيقة أنها استيقظت قبل منتصف النهار بقليل، جلست أمام المرآة.. صبّحت نفسها.. قالت صباح الخير، ابتسمت.. هذه أول مرة تقولها لنفسها، بدأت تسرح شعرها.. يجب أن تسرع قبل أن تداهمها وداد.. لا بد أنها ستأتي بعد أن تستيقظ بخمس دقائق ليعلّقا على حفل الأمس، ولكن قبل ذلك يجب عليها أن تقرر أمراً.. حدّثت نفسها، لن تقبل من الآن فصاعداً بيوم واحد.. الثلاثاء لن يكفي، هو عنده زوجتان وهي الثالثة، العدل يقول لكل واحدة يومان في الأسبوع فيكونوا ستة أيام وليرتاح هو في اليوم السابع، لن تتراجع.. هذا ما تريده وستطلبه، وهي متأكدة أنه سيوافق.. ولكنها كانت مخطئة.

غادر أبو علي بيت ربيعة مع هبوط الظلام، كانت هذه المرة الأولى الذي يلتقي بوداد في بيت ربيعة، كان متجهاً من شارع اسكندرون إلى باب الفرج.. مر بجانب ملعب لكرة القدم بلا أسوار يقع قرب مركز البريد.. حدث نفسه وهو يمشي، ساعتين مع وداد.. تعادل ماتش كامل في ملعب كرة القدم.. إنها رياضة كاملة، كان يعشق كرة القدم وكان يلعبها أحياناً مع أصدقاء له، قارن بين المتعتين.. وابتسم، لا مجال للمقارنة أبداً، لا شيء في الدنيا مثل وداد، نعم.. وزوجته أيضاً، تذكرها وشعر بالذنب.. قد لا يستطيع مداعبتها هذه الليلة، كان عليه أن لا يُطيل مع وداد.. كم مرة قالها وكم مرة قرر؟!.. يجب أن يسأل أهل الخبرة.. أهل المعرفة، يجب أن يدلوه على طريقة، وصل إلى المقهى فوجد رأفت جالساً وحده، لم يكن المقهى مزدحماً.. أسرع في تجهيز عدد من النراجيل واتجه حيث يجلس رأفت.. حياه واستأذنه بسؤال!.. قال له أن صديقاً مقرباً منه يعاني من مشكلة، مشكلة جدية.. فقد تزوج من امرأة ثانية وإذ به يكتشف أنه تزوج من جنية!..

ابتسم رأفت قائلاً:

ـ جنية؟!..

ـ إنها شهوانية جداً.. لا تتركه إلا بعد أن تمتصه إلى آخره، وعندما يعود إلى زوجته الأولى.. يعود إليها وكأنه ديك منتوف ريشه، فيرمي نفسه على فراشه ولا يقوى على الاقتراب منها مع أنه يحبها كثيراً.

فهم رأفت الأمر على الطاير.. وكأن أبو علي سمى الأسماء كلها، قال له:

- يبدو أن زوجة صديقك الثانية هي امرأة خارقة!..

- خارقة؟.. إنها خارقة ساحقة ماحقة.. على حد قول صديقي!..

ضحك رأفت طويلاً ثم قال:

- لا.. أنا أقصد بالخارقة شيء آخر.. الحقيقة إني لست مطلعاً على الموضوع تماماً، ولكن شرح لنا مرة أحد أصدقائنا - وهو طبيب - أن هناك نساءً ترتفع عندهن قليلاً كمية الهرمون المذكر، فيصبحن شهوانيات متطلبات فيقال عنهن.. الخارقات!..

- نساء عندهن هرمون مذكر؟..

- نعم ونحن الرجال عندنا هرمون مؤنث بكميات قليلة جداً.. كما فهمت من صديقنا الطبيب.

- سبحان الله.. هذا أمر عجيب غريب.. لا يصدق!..

في هذه الأثناء دخل إلى المقهى رمضان بائع الكتب المستعملة واتجه نحو رأفت، فسأل رأفت أبا علي بسرعة:

- هل تجيد القراءة؟..

- طبعاً.. فأنا قارئ جيد للقرآن.

- تعال غداً لملاقاتي في المكتبة عند الظهيرة.. سأعطيك شيئاً تقرؤه.

وصل رمضان وحيا رأفت وجلس معه مستفسراً عن أبي محمود، فقال له رأفت أنه لم يأت بعد، سأله رأفت عن الأخبار.. فأجابه أن لا أخبار عنده.. إلا أنه تعرف مؤخراً على عائلة «انطاكلية» من مدينة أنطاكية، من لواء اسكندرون، وهي مقيمة في حلب منذ عشر سنوات.. منذ سلخ اللواء:

- تصور يا رأفت أفندي.. قصوا علي قصصاً تدمى لها القلوب.. قصوا علي كيف أرسل الأتراك مئات من الباصات وسيارات الشحن المليئة بالأتراك إلى لواء اسكندرون يوم الاستفتاء.. الاستفتاء الذي أجرته عصبة

الأمم لتحديد هوية اللواء، حدث ذلك تحت نظر وسمع الفرنسيين.

ـ الاستفتاء كان صورياً.. كان إخراجاً لقرار اتُّخذ وانقضى أمره بسلخ اللواء عن سوريا.

ـ ولكن لماذا؟.. لماذا فعل الفرنسيون ذلك؟..

ـ الأمر غير واضح.. يقال إنه كان لاستمالة تركيا إلى جانب فرنسا وبريطانيا في المواجهة المرتقبة مع ألمانيا.. لا تنس أن اللواء سلخ قبل الحرب العالمية بسنة أو أقل.. ولكن هذا السبب غير مقنع وحده..

ـ يقال أن تركيا طالبت حينها بحلب أيضاً.

ـ وبالموصل.. ولولا النفط وطمع البريطانيين فيه والحظ، لكانت المدينة الآن ضمن الحدود التركية وليست العراقية.

ـ قد يكونون أسكتوها بلواء اسكندرون.. فقبلت وسكتت!..

قال أبو اصطيف وكان يتابع الحديث من مكانه القريب منهما:

ـ من كيس أبوهم أسكتوها.. أولاد القحبة، من كيس أمهم وأبيهم أرضوها!..

ـ الكيس كله يا أبو صطيف كان بأيديهم.. يقسّمون كما يشاءون، يرسمون الحدود كما يشاءون، يقدمون الهدايا كما يشاءون.. هدايا هي عبارة عن مدن وأراض هي الأجمل والأقدس في بلادنا.. هل نسيت وعد بلفور لليهود في فلسطين؟..

قال أبو محمد الختيار الظريف:

ـ يا أخي أنا «عثمانلي».. كنا والأتراك كلنا في دولة واحدة رائعة كبيرة، حتى دخل علينا الشياطين الإنجليز والفرنسيون.. فخربوا الدنيا!..

في هذه الأثناء وصل أبو محمود.. بعد أن حيى وجلس سأل رأفت عن عربته ومتى يقودها.. فهو لا يراها أبداً، فأجابه بأن المشي متعته ورياضته ولن يستبدلها بعربيات العالم.. جلس الجميع لبعض الوقت يتنادمون ثم انفض شملهم وذهب كل إلى منزله.

في اليوم التالي وصل رأفت إلى المكتبة متأخراً.. فكر أول ما فكر بأبي علي.. فابتسم فوراً!.. تذكر الكتب التي أهداها له صاحب دور نشر دمشقي كان صديقاً له منذ سنوات.. كتب قديمة جداً جددت طباعتها عن نسخ أشبه بالمخطوطات كما وصفها حينها صديقه، عمر بعضها مئات السنين بل إنه يذكر أن كتابين منها يعودان إلى نهاية العصر العباسي، أي إلى ألف سنة مضت أو أقل بقليل، بحث عنها وبمشقة وجدها، فهي لم تكن مؤرشفة، كانت الطباعة جديدة أما المضمون فمكتوب بلغة عربية قوية.. فيها مفردات كثيرة غير مفهومة.. بدا يتصفح بعضها، فوجئ ودهش.. كان يعرف أنها تبحث في شؤون الجنس عند العرب، لكنه لم يتوقع أبداً أن يكون البحث بهذه الجرأة والمباشرة والعفوية.. كان البعض منها ساذجاً مضحكاً، وكان البعض الآخر رصيناً حكيماً.

فجأة علت ضحكته.. كانت قوية، نظر إليه الموظفان في المكتبة وابتسما، فخجل من نفسه وقلب الصفحة.. ثم فتح أخرى قافزاً من على عشرات الصفحات، وإذ به ينفجر مرة أخرى بالضحك.. حاول التخفيف من ضحكه واضعاً كفيه الاثنين على وجهه فلم ينجح.. أما الموظفان فأخذا يضحكان بالعدوى، أخذ كتاباً آخر وفتحه.. وقبل أن يبدأ بالضحك سارع إلى إغلاقه وهو يبتسم غير مصدق، في هذه الأثناء وصل أبو علي.. كانت الساعة قرابة الواحدة بعد الظهر.. تبادلا التحية ثم طلب رأفت القهوة وقرر صرف الموظفين قبل انتهاء دوامهما بنصف ساعة.. أي بعد قليل.. لاحظ أبو علي أن وجه رأفت باش ضاحك.. والحقيقة أن رأفت لم يكف عن الضحك وإن بعيونه.. ضرب كفاً بكف وهو يقول لأبي علي:

ـ تصور، هذه الكتب عندي منذ سنوات ولولاك لما فتحت واحداً منها!..

تناولا القهوة وانتظر رأفت حتى غادر الموظفان.. فقام وأغلق باب المكتبة، و حين عاد طلب من أبو علي قراءة مقدمة الناشر لأحد الكتب

التي كان يتصفحها، عندما بدأ أبو علي القراءة، لاحظ رأفت أنه يقرأ براحة وبطريقة جيدة جداً.. فوجئ، فاستوقفه وسأله عن المرحلة التي وصل إليها في المدرسة، فأجابه أنه لم يدخل المدرسة بل الكتّاب.

دهش رأفت وقال:

- لقد فاجأتني.. عندي فكرة مختلفة تماماً عن الكتاتيب.

- كان الشيخ عبد الجليل صارماً معنا.. ومحباً ودوداً في نفس الوقت.. علّمنا القراءة والكتابة وشيئاً من الحساب.

- لقد علمك جيداً.

قال ذلك وأخذ الكتاب منه.. أخذ يقلب صفحاته بسرعة ولكنه أغلقه وقال:

- يا أبو علي.. هذه مجموعة كتب عن الجنس عند العرب، كتبت منذ مئات السنين، طبعاً المعلومات الطبية والعلمية حينها كانت قليلة، لذلك تجد في هذه الكتب معلومات بدائية ساذجة تثير الضحك، ولكني وجدت أيضاً عناوين فصول تثير الاهتمام فعلاً، لا تتفاجأ كما فوجئت أنا وسأبدأ على الفور..

فتح أحد الكتب لا على التعيين وبدأ يقرأ وبدأت عيناه تضحكان:

ـ الباب الحادي عشر: في معرفة الأدوية التي تضيّق فروج النساء وتسخّنهن وتخفف رطوبتهن.

توقف وابتسم ابتسامة عريضة ناظراً في وجه أبي علي.. أبو علي فغر فمه واتّسعت حدقتا عينيه غير مصدق ما يسمعه، لكنه لم ينطق بكلمة، فتابع رأفت:

- إعلم أن لذّة الوطء لا تحصل للرجل حتى يجتمع في فرج المرأة ثلاثة أوصاف وهي الضيق والسخونة والجفاف من الرطوبة..

وانفجر رأفت ضاحكاً.. حاول المتابعة فلم يستطع فأعطى الكتاب لأبي علي مؤشراً بإصبعه على الصفحة وهو يهتز بكامل جسمه من

الضحك.. أخذ أبو علي الكتاب.. كان يبتسم ولكنه قطّب بين حاجبيه وبدأ يقرأ بكل جدية واهتمام:

- واعلم أن الولادة وكثرة الجماع يوسعان الفرج فتذهب منه اللذة الخلقية فيجب أن يداوى بهذه الأدوية التي نحن ذاكروها:

يؤخذ البسد والبسباسة وأرز تجوش والزعتر البري وقشور الكندر والورد الأحمر وقشر الرمان والترمس.. من كل واحد مثقال، يعجن بعد سحقه بدهن البان وتتحمل منه المرأة بصوفة بالنهار وتخرجه بالليل عند النوم.

- ما هي الصوفة؟.. هل هي الصوف؟..

- يبدو أنها كذلك.. قطعة من الصوف يوضع عليها الدواء.. بديل الشاش أو الضماد الآن.

- والبسد والبسباسة؟..

- لا أعرف عنها شيئاً.

كان أبو علي يسأله بمنتهى الجدية.. ثم تابع:

- يؤخذ مسك وزعفران يضاف إليهما شراب ريحان ويغلى جيداً ويشرّب في خرقة كتّان وترفع إلى وقت الحاجة فإذا أرادت المرأة استعماله قطعت منه واحدة وتحلت بها قبل الجماع بيوم وليلة فإنه يضيّق المحل وتطيب رائحته.

- إذا كان مع المرأة رطوبة فيؤخذ وزن أربعة دراهم من بطادخي وقلب نوى مشمش مرّ، حنظلة كاملة تدق جميعاً بقشرها دقاً ناعماً..

حدق أبو علي برأفت وقال بمنتهى الجدية:

- ولكن لماذا كانوا يريدون تخفيف رطوبته.. هل كانوا يفضلونه جافاً؟!.. حينها يسبب الألم أليس كذلك؟!..

كان رأفت بحالة لا يحتاج معها إلا للمزة كي ينفجر بالضحك، وهذا ما فعله وشاركه هذه المرة أبو علي.. الذي استغرق فيه وكأنه يعوض

ما فاته منه منذ البداية، جفف رأفت دموع عينيه بمنديله ثم تناول الكتاب من أبي علي وأخذ يتصفحه من جديد.. قال فجأة.. اسمع هذه:

- ينبغي على الرجل أن يتعاهد من نفسه ثلاثاً: ينبغي أن لا يدع المشي وينبغي أن لا يدع الأكل القليل وينبغي أن لا يدع الجماع فإن البئر إذا لم تنزح ذهب ماؤها ولم تجر عينها.. هل انتبهت يا أبو علي؟.. صحيح أن علمهم كان قليلاً ووصفاتهم التي قرأناها قبل قليل ساذجة ومضحكة، إلا أنهم كانوا أيضاً حكماء.. يعطونك إرشادات تصح حتى يومنا هذا.. هل تعرف متى قيل هذا الكلام؟.. عام 625 للهجرة.. قاله ابن قيم الجوزية.. كما هو منصوص هنا - أي منذ 700 سنة تقريباً.

ثم تابع رأفت التصفح وتوقف قائلاً:

اسمع هذه: ورأيت جماعة تركوا الجماع لنوع من التقشف.. فبردت أبدانهم وعسرت حركاتهم وقل هضمهم ووقعت عليهم كآبة بلا سبب.

هنا نظر رأفت إلى ساعته وقال لأبي علي أنه سيطلب طعاماً من مطعم قريب، وسيمكثان في المكتبة ويأخذ كل منهما كتاباً يقرأ فيه.. لابد أن يجدا الفقرة أو الفصل المتعلق بحالة صديق أبي علي!.. كانا مسرورين، وشعرا بأن سراً مشتركاً أخذ يجمع بينهما.. وبالفعل اتخذ كل منها موضعاً وكتاباً في يده وبين الفينة والأخرى كان أحدهما يقول للآخر: اسمع هذه.. ويتلو عليه قولاً من هنا أو فقرة من هناك.

كان رأفت يتصفح الكتب ويكتفي بقراءة عناوين الأبواب أو الفصول كمثل: - العلامات التي يستدل بها على الشهوة وكثرتها عند النساء - في خضاب الكف وقموع الأنامل «فتش عن معنى القموع فعرف أنه طلاء الأظافر.. المانيكور» - الأدوية التي تمنع ميلان عنق الرحم إلى حد الحاجبين وتشهية وتصلبه - في الحيل على الباه - في قواعد آداب النكاح - في المحادثة والقبل والمزاح ووصايا النساء لبناتهن وغنج النساء - في تركيب الأدوية الملذة للجماع - في ذكر الأدوية المعينة على الحمل - في معرفة الأدوية

المانعة للحمل - في ذكر مزاج الأنثى.

وتحت كل عنوان كان هناك صفحات وصفحات من الشرح والإيضاح.

قاطع أبو علي قراءة رأفت قائلاً له.. اسمع هذه:

ـ قال الحجاج: لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها فتدفئ الضجيع وتروي الرضيع، وقال ابن سيرين: إن فلاناً اشترى جارية غليظة الشفتين فقال: لو اشتراها غليظة الشفرين لكان خيراً له.

فعلق رأفت:

ـ الأولى مقبولة أما الثانية فهي بذيئة.

تابع أبو علي قائلاً.. اسمع هذه إنها مقبولة:

ـ قال رجل لامرأة أريد أن أذقْك فأنظر أنت أطيب أم امرأتي؟.. فقالت سل زوجي فإنه ذاقني وذاقها.

ـ هذه دعابة لطيفة.. إنها تشبه دعاباتنا هذه الأيام.. ولكن في أي فصل تقرأ أنت؟..

قلب أبو علي بضع صفحات إلى الوراء وقال:

ـ في المجون والسخف.

ـ هكذا هو نص العنوان؟.. يا إلهي كم كانوا بارعين في تسمية الأشياء بأسمائها.

في هذه الأثناء وصل الطعام فأزاحوا كتبهم من على سطح المكتب ووضعوا الطبق الكبير عليه.. كان كباباً حلبياً مع سلطة ناعمة وحمص ومخلل.. كانا يأكلان بنهم ويتسامران ويتبادلان التعليقات.. كان ما حدث بينهما اليوم شيئاً غريباً بكل المعاني.. فقد ولدت بينهما صداقة قوية خلال ساعة أو اثنتين.. الأمر الذي أدهش رأفت أيما دهشة، بعد أن أنهيا طعامهما.. أخذا استراحة قصيرة وعادا إلى الكتب، استغرقا في القراءة لبعض الوقت ثم نظر رأفت إلى ساعته وقال.. أمامنا ساعة، بعدها علي أن

أغادر، فقال له أبو علي.. اسمع هذه:

ـ قال أهل الحذق والمعرفة والتجربة: من النساء اللزقة والقفراء والخرقاء والملتحمة والشعراء والمنحقنة والقعرة، أما المنحقنة فهي الغليظة حيطان الفرج من خارجه، السفلة الامتلاء من داخله، التي قد انحقنت فيه الشهوة لعدم الجماع، وهي لم تجد لذة الجماع إلا بالذكر الصلب الشديد ولا يعجبها سواه ولا تنزل لها شهوة بغيره، وأما القعرة فهي التي اتسع فرجها من فرط الرطوبة وبرد داخله وهذه لا تجد لذة الجماع ولا ينزل لها شهوة إلا بالسحاق!..

ـ يا ساتر..

علّق أبو علي.

أما رأفت فقال.. اسمع هذه:

ـ واعلم أن النساء الروميات أطهر أرحاماً من غيرهن، والأندلسيات أجمل صورة وأذكى روائح وأحمد عاقبة وأطيب أرحاماً، ونساء الترك إجمالاً من أقدر النساء أرحاماً وأسرع أولاداً، والنساء السود إذا وافقت منهن الحسناء فلا يوازيها شيء من الأجناس، وأبدانهن أنعم من أبدان غيرهن، والمكيات أتم حسناً وأطيب جماعاً من هذه الأجناس غير أنهن لسن بذوات ألوان كألوان غيرهن، والبصريات أشدُّ غلمةً وشبقاً إلى الجماع، والحلبيات أشد أبداناً وأصلب أرحاماً من البحريات، والشاميات أوسط النساء وأعدلهن في الاستمتاع في سائر الأوصاف، والبغدايات أجلب للشهوة من غيرهن وأحسن استمتاعاً وجمالاً، من أراد السكن وحسن العشرة وطيب المنطق فعليه بالفارسيات، والعربيات أحسن أحوالاً من جميع الأجناس التي تقدم ذكرها..

ـ انظر إلى هذا التعصب القومي يا أبو علي!..

ـ ولكن لم قال أن الروميات أطهر أرحاماً؟..

ـ ألا تعرف ضعف العربي تجاه الشقراء البيضاء أم العيون الزرقاء؟..

من أجل عيونها الزرقاء جعل الكاتب رحمها أطهر.. وهو كاتب متشدق يريدنا أن نصدق أنه جرب جميع هؤلاء النساء.

شعر رأفت بالملل، واكتشف أن ما قرأه حتى الآن يصلح للتسلية والضحك والتندر أكثر من أن يصلح لأي شيء آخر.

كان هناك أمر آخر لا علاقة له بكل هذه القراءات. إنه أمرٌ يريد رأفت أن يتأكد منه.. من أي نوع هو هذا العاشق الكبير أبو علي؟.. هل هو من نوع العشاق الأغبياء الذين يعميهم العشق.. كما يحدث مراراً وتكراراً، فيدمرون حياتهم وحياة أسرهم أم أنه.. صارح أبو علي بأفكاره، وإذ بهذا يجيبه:

- ولوْ يا أبو أحمد.. زوجتي وعائلتي بعد الله.. كل شيء يأتي.. هو من بعدهم، الحب والعشق والمرأة المنحقنة واللزقة والقفراء والشعراء وعربية الكعك!..

انفجر الاثنان يضحكان، إلا أن رأفت استوقفته الكلمة الأخيرة:

- عربية الكعك؟!.. آ آ.. إنها عدة الشغل!.. يا لك من داهية يا أبو علي.

كانت الساعة شارفت على الخامسة.. هم الاثنان بالمغادرة عندما انتبه أبو علي إلى عنوان في كتاب تصفحه للمرة الأخيرة وكان يهم أن يرميه على سطح المكتب.. قال بسرعة.. لقد وجدتها، وقرأ: في ملاحق الضرر الحادث عن الإفراط في الجماع قبل أن يعظم ويشتد.

قال له رأفت إنه يستطيع أخذ الكتاب معه وسيتناقشان بالأمر لاحقاً.

عندما كان أبو علي عائداً إلى منزله.. كان هناك شيئ يزعجه.. أمر يتعلق بوداد.. شعور بالذنب تجاهها لم يدر ما سببه.. ثم تذكر.. تذكر ملاحظة رأفت له عن العائلة والحب والعشق وجوابه هو بأن كل شيء يأتي بعد العائلة.. كل النساء والعشق والمرأة القفراء والشعراء.. لم يكن يعني وداد بالتأكيد حاشا الله.. قال لنفسه، وداد ليست منهم.. وداد في الطرف

الآخر، في الصف الآخر مع عائلته.. إنها جزء من عائلته.. عندما وصل إلى هذه النقطة في تفكيره شعر بالراحة وعاد إليه صفاء ذهنه وابتسم متذكراً من جديد القفراء والشعراء والمنحقنة!..

❖❖❖

في مقهى الأفندي كانت اللمَّة نفسها.. كانت آثار مطالعات رأفت الأخيرة لا تزال في فكره.. ليست التفاصيل.. فقد استهجنها.. بل أمور أخرى، خاطب الأستاذ ضياء:

- أليس غريباً يا أستاذ ضياء أننا نستطيع قراءة نصوص عربية قديمة عمرها أكثر من ألف عام ونفهمها تماماً ما عدا بعض المفردات هنا وهناك؟..

- أين الغرابة في ذلك؟.. تذكر القرآن الكريم ويزول استغرابك كله.

- لا تنسوا دور الشعر والشعراء في حفظ اللغة العربية.

- الفضل الأول والأخير هو للقرآن.. دوره حاسم هنا.

- تصوَّر، طلبت من أحد معارفي درس في الكتّاب.. قراءة نص قديم فقرأه بسلاسة وطلاقة أدهشتني.

- إذا كان شيخ الكتّاب - حيث درس - جيداً، فإنه يقرأ القديم أفضل مني ومنك.

- أطلب من إنجليزي خريج أوكسفورد أن يقرأ شكسبير فسيعجز.

في هذه الأثناء وصل أبو اسحق وانضم إليهم فعلق رأفت قائلاً:

- ها قد وصل ذواق من ذواقي الشعر العربي!..

- على الخفيف يا رأفت أفندي.. على الخفيف!..

- ما آخر ما قرأته منه؟..

- الحقيقة وقع بين يدي كتاب قديم جداً.. طريف وظريف عنوانه: «أصول المقاربة في فنون المفاخذة».

- الله أكبر!.. هات.. اسمعنا.

ضحك أبو اسحق وهو يقول:

- الحقيقة هو ليس كتاب شعر.. فيه من كل شيء، قصص وطرف وشعر ونصائح في الجنس..

- واضح من العنوان يا أبو اسحق.. واضح من العنوان!..

- هل تعلمون أن المفاخذة قد تكون وردت في القرآن الكريم؟..

فاجأهم أبو اسحق.. فقال رأفت:

- أنت لا شك تمزح؟..

- لا.. لست أمزح، تأول بعض المفسرين قول الله تعالى: «إلا اللمم» على المفاخذة فقال الشاعر:

فلما أبت ما زلت أضرع جاهداً
وأخبرها ما رخَّص الله في اللمم

- يا لك من داهية يا أبو اسحق.. لقد ختمت القرآن الكريم عشرات المرات ولم أنتبه إلى اللمم!..

- ولا أنا.. على كل حال، لولا كتبٌ كهذه، ومفسرون ومؤولون كهؤلاء لما انتبه أحد لمثل هذه الأمور.

علق الأستاذ ضياء.. ثم توجه بالسؤال لأبي اسحق:

- هل مرَّ معك يا أبو اسحق.. أن السموءل يهودي؟..

- أعرف.. ومن لا يعرف؟..

- تصوَّروا.. رمز الوفاء عند العرب ومنذ أكثر من 1500 سنة هو يهودي.. هكذا تعرف وتتيقن يا أبو اسحق أن لا تعصب عند العرب!..

- ماذا تقول؟.. السموءل عربي أكثر من أي عربي آخر يا أبا شكري.

- ما يقوله أبو اسحق صحيح يا أبو شكري.. والصحيح أيضاً أن رمز الكرم عند العرب، الذي هو حاتم طي، هو عربي مسيحي.

- دعونا من هذه العصبية العربية واتركوا أبو اسحق يمتعنا بأبيات من

شعر الغزل!..:

ـ الحقيقة هي أبيات تتعدى الغزل.. تتعداه بكثير.. ولكنها تناسب أمثالنا.. رجالاً في منتصف العمر، اسمعوا هذين البيتين:

ولا تــكُ في وطء الكواعب مسرفاً
فإسرافنـــا في الوطء أقوى الهدائم
وإياك إياك العجـــــوز ووطئها
فما هي إلا مثل سمٍّ الأراقـــــم

ـ هذا حض وتشجيع على الزواج من الكواعب.. الزواج الثاني على الأقل!..

ـ اسمعوا هذه الطرفة.. أضاف رجلٌ رجلاً، فدبَّ على جاريته.. وبعد أن انتهى منها لدغته عقرب، فصاح.. فقال المضيف:

وداري إذا نام سكانـــــها
أقـــام الحدود بها العقــــرب
إذا غفل النـــــاس عن دينهم
فإن عقاربهم تغضـــــــب

ـ جميل.. إلا أني أراه شعراً خفيفاً هزيلاً.. أليس كذلك؟..

ـ أعتقد أن الثقافة الجنسية عند العرب علامة فارقة في حضارتهم، كان هناك إنعتاق واضح.

ـ هناك مثلها وأكثر عند الهنود واليابانيين.

ـ هل تعلمون ان تعدد الزوجات موجود عندنا في اليهودية، ولا أعرف لماذا كفَّ رجالنا عن ممارسة هذا الامتياز!.. .

ـ سيكفُّ رجالنا أيضاً.. لن نراه في جيل أولادنا إلا فيما ندر، التحولات الاجتماعية والاقتصادية ستحد منه ثم ستوقفه.

قال رأفت ذلك ونهض واقفاً.. فوقف أبو اسحق أيضاً ، استأذنا وغادرا المقهى.. في الطريق تمشيا سوية لبعض الوقت، سأل رأفت عن مصير اللصوص وما آلت إليه محاكمتهم، فأجابه أبو اسحق أنّه تم تدبير الأمر جنائياً، وقد حُكموا بستة أشهر.

كانت زينب عائدة إلى منزلها بعد أن قضت «صبحية» قصيرة عند خالتها، كان منزل خالتها في نفس حي منزلها، لذلك لم تجد غضاضة في الذهاب والعودة لوحدها.

كانت في منتصف الطريق عندما سمعت صوتاً يقول:

- صباح الورد أيتها المتوحشة!.. يا أم العيون الدباحة!..

نظرت وقد أجفلت، فرأت فتى الخضرجي إياه.. أشاحت بوجهها ولم ترد، وأسرعت بخطاها.. تبعها الفتى عن قرب وهو يرمي بكلمات الغزل السخيفة، وقبل أن تصل على منزلها بقليل قال:

- سمعت أنك تزوجت غصباً عنك.. وسمعت أنك سألت عني!..

دخلت زينب منزلها منفعلة. كان قلبها يخفق بشدة، تذكرت.. كانت فعلاً سألت عنه في دكان الخضرجي عندما علمت من ليلى الشقية مخاطر الركلة على خصيتي الشاب، يا له من أحمق غبي.. فكرت، لو كانت شاباً لعادت إليه وأوسعته ضرباً، بعد قليل تلهت بأمور أخرى وما لبثت أن نسيت الموضوع.

في اليوم التالي.. قبل الظهيرة بقليل.. قرع باب المنزل، لم تكن المدارس فتحت أبوابها بعد، لذلك فإن جميع الأولاد كانوا في المنزل، خاطرٌ ما دفع زينب للإسراع بفتح الباب ولم يكن هذا من عادتها، رأته.. رأت الشاب إياه، كان يحمل كيساً ورقياً.. هم بالكلام فأغلقت الباب بسرعة وعادت إلى عملها وهي تسمع دقات قلبها، فكرت.. هذا الشاب غبي وأحمق.. سيسبب

لها وجعاً في الرأس هي في غنى عنه.. يجب أن تتصرف بسرعة، فكرت بالأمر وقررت، أرسلت في طلب أم عبدو الخطّابة.. فلم تتأخر الأخيرة، بعد الظهر كانت عندها، طلبت منها عندما اختلت بها للحظات أن تدعي بأنها أتت لزيارتهم وتفقد أحوالهم بمبادرة منها.. فهمت أم عبدو أن هناك أمراً تريد زينب أن يكون بينهما، بعد قليل طلبت من زينب أن تريها الصور التي التقطت خلال رحلة مصر، فقامت الاثنتان وذهبتا إلى غرفة زينب، لم تطيلا المكوث في الغرفة، وأثناء عودتهما إلى الصالون اتفقتا على اللقاء بعد يومين في بيت خالة زينب.

وبالفعل.. بعد يومين اجتمعتا في بيت الخالة.. قالت أم عبدو وهي تبتسم:

- الولد مسكين يا زينب.. تعرض إلى «ملعوب» من أحدهم!..

تابعتها زينب باهتمام فأكملت أم عبدو:

- في البداية رفض الكلام.. إلا أن «شبرية» ابن أختي كامل، سكينه الحادة، تكفّلت بحلّ عقدة لسانه.. بعد أن بال المسكين في سرواله، كنا في بيتي، الموضوع يا ستي وراءه ليلى!..

- ماذا؟.. ليلى؟.. يا محمد العربي!..

- صادفته مرة في الطريق.. قصت عليه قصة زواجك.. وادعت أنه تم بالغصب، وقد تكون أفاضت بسرد عذاباتك!.. قال لها أنك متوحشة، وأنك سبق وركلته على خصيتيه فكدت تقتلينه.. ولكنك أيضاً سألت عنه في دكان قريبه الخضرجي، فالتقطتها ليلى وشجعته شارحة له أن ضربك له ليس إلا غنجاً ودلالاً.. وكان ما كان.

كانت زينب ترتجف من الغضب.. قالت:

- يجب أن تؤدب.. ستؤدب هذه البائسة الحمقاء الفاجرة، اسمعيني يا أم عبدو، لم يخطر في بالي يوماً أني سأفعلها.. ولكني سأفعلها اليوم.

ثم أخرجت كمية من المال من حقيبتها ومدَّت يدها حاملة بها مئتا

ليرة سورية.

قالت أم عبدو مذعورة:

- هل تريدين قتلها؟..

- تأديبها يا أم عبدو.. تأديبها، علقة ساخنة.. ساخنة جداً، فقط هذه ستسكتني عنها.

ضحكت أم عبدو وهي تقول:

- ولكن هذا المبلغ يكفي لقتلها!.. سامحني الله وسامحك، انظري يا زينب.. علقة ساخنة لامرأة لا يمكن أن تكون من رجال.. هناك أصول!.. يلزم امرأتين لفعل ذلك.

- تصرفي بالطريقة التي ترينها.. ولكني أريدها علقة ساخنة تؤدبها إلى الأبد.

ومدت يدها بالمئتي ليرة فأخذتها أم عبدو.

احتاجت أم عبدو لأسبوع من الوقت لترتيب الأمر، تأمين البيت.. وكان بيت أختها التي كانت ستغادره إلى القرية قريباً هي وجميع أفراد أسرتها، تأمين طريقة لاستدراج ليلى وكانت هذه أسهل.. فقد تعمدت مصادفتها في الطريق وألمحت إلى أن هناك من يسأل عن عروس جميلة وأنها - أي أم عبدو - لم يخطر على بالها سوى ليلى، تأمين المرأتين.. لن تجد مشقة في ذلك.. فبمئتي ليرة تستطيع تأمين عشرة نساء!..

اصطحبت أم عبدو لبلى إلى بيت أختها.. كان الوقت عصراً، كانت غرفة أولاد أختها فارغة إلا من فرش ولحف ووسادات.. مطوية ومركونة على الحائط.. وكان سبق لأم عبدو أن مدّتها جميعها على الأرض، عندما دخلت مصطحبة ليلى كانت هناك امرأتان.. واحدة طويلة والأخرى قصيرة.. جالستين على إحدى الفرش، كانت تعليمات أم عبدو للمرأتين واضحة.. العلقة الساخنة تشمل الضرب بالأيدي وشد الشعر لا أكثر ولا اقل، والأمر كما قالت لهن لن يحتاج لأكثر من خمسة دقائق.. كانت فكرت في

الخروج وإغلاق الباب وراءها ثم العودة بعد خمسة دقائق.. ولكن الأمور أخذت منحى آخر تماماً، عندما نهضت المرأتان واقفتين محدقتين بليلى بنظرات باردة، التفتت هذه إلى أم عبدو وقالت:

ـ ما هذا؟.. ما الذي يحدث؟..

ـ لا شيء مهم يا ليلى.. أنت قرعت باب زينب وهي ستعطيك الجواب الآن!..

تقدمت المرأة الطويلة من ليلى ورفعت يدها وإذ بلكمة قوية تصيبها بأنفها.. كانت قبضة ليلى.. تراجعت المرأة مذعورة وهي تقول بصوت مرتجف:

ـ القحبة كسرت لي أنفي!..

سال الدم من أنف المرأة الطويلة.. كانت تضع يدها على أنفها وهي تتراجع، فتعثرت وسقطت على الأرض.. على الفرش، جن جنون المرأة القصيرة، كانت نشطة سريعة الحركة.. قذفت بنفسها على ليلى فسقطت الاثنتان على الأرض وبدأت المعركة، تراجعت أم عبدو وأخذت وسادتان سميكتان وضعتهما فوق بعضهما وجلست تراقب المشهد.. كان بيدها خيزرانة قصيرة، ما هي سوى لحظات حتى كانت ليلى فوق المرأة القصيرة.. كانت ركبتها اليمنى تضغط على بطن الأخيرة مُثبِّتةً قدمها اليسرى على الأرض بين فرشتين وتمسك بيديها معصمي المرأة.. وبين الفينة والفينة تضربها بسرعة البرق على وجهها لتعود وتمسك معصمها من جديد.. كانت تضرب باليمين والشمال.. وبطريقة لم تترك للمرأة فرصة واحدة لاستعمال واحدة من يديها، كانت أم عبدو تراقب مذهولة.. ليلى تقاتل وتضرب كالفتيان.. إنها خريجة الحارة.. الشارع وصراعاته بامتياز.. بدأ الدم يتدفق من فم المرأة المسكينة.. كانت المرأة الأخرى قد استوعبت الضربة الأولى.. فنظرت إلى أم عبدو التي أشارت لها برأسها، فاندفعت وأزاحت بجسدها كله ليلى من على رفيقتها.. ثم رمت بنفسها عليها، ليلى من ناحيتها غرزت

أظافرها في وجه المرأة الثقيلة الوزن، ثم بدأت تدفع نفسها بقدميها وهي على ظهرها والمرأة من فوقها باتجاه الحائط.. كانت تريد أن يكون ظهرها إلى الحائط.. حررت المرأة الطويلة وجهها من أظافر ليلى بعد أن أمسكتها من يديها.. لم تعد تجرؤ على إفلات يدي ليلى ففكرت بضربها على وجهها بجبينها.. ضربة تنهي بها العراك، وبالفعل ضربتها برأسها وإذ بليلى تزيح رأسها بسرعة خاطفة ساحبة المرأة قليلاً، فارتطم رأس هذه بالحائط وارتمت عن ليلى والأرض تدور من حولها، كانت ليلى تنظر باتجاه أم عبدو لترى إن كانت ستتدخل، والحقيقة أن أم عبدو فكرت بالتدخل.. كان يكفي ضربة واحدة من الخيزرانة على عضد ليلى الأيمن وأخرى على الأيسر لتكل يداها وينتهي الأمر، ولكن شيئاً ما في أعماقها منعها من ذلك.. خلال ذلك عادت المرأة القصيرة والتحمت بليلى من جديد.. بدأ صراخ الاثنتين ففهمت أم عبدو بأن العض بالأسنان قد بدأ، كانت الصرخات قصيرة متقطعة، فلهاث المرأتين العالي كان هو الطاغي.. كانت القصيرة أشرس من رفيقتها وأمهر، بعد لحظات عادت المرأة الطويلة إلى توازنها واندفعت تساعد رفيقتها.. تبدل سير المعركة عندما أمسكت القصيرة بقدمي ليلى وحضنتهما بيديها وصدرها، أما الطويلة فجلست على صدرليلى وأمسكت يديها التعبتين بيد واحدة من المعصمين وبدأت تضربها بيدها الأخرى، كانت ليلى - من حيث تجلس أم عبدو - غير مرئية.. انتبهت أم عبدو إلى أمر.. لم تعد تسمع صوت لهاث ليلى، فانتفضت وقامت مسرعة لترى ما يجري.. كانت المرأة الطويلة تضع راحة يدها اليسرى على فم ليلى وأنفها ضاغطة بكل قوتها كاتمة لها أنفاسها.. وبسرعة خاطفة ضربت أم عبدو بالخيزرانة يد المرأة فنزعتها تلك عن فم ليلى.. أخذت ليلى شهيقاً قوياً وحدقت فرأت ثدي المرأة الأيمن يتدلى من فوق وجهها فأطبقت عليه بأسنانها، صرخت المرأة: دخيلكم.. دخيل الله..إنها تقضم لي حلمتي!.. نظرت القصيرة تريد أن تفهم ما يجري فحررت ليلى إحدى قدميها منها

وركلتها بها فرمتها حتى الحائط المقابل، هنا قررت أم عبدو إنهاء كل شيء.. وقف كل شيء.. بعد مشقة نجحت بفك الاشتباك، فارتمت النساء الثلاث يلهثن ويئنن من التعب والألم.

كان المشهد لا يصدق.. كانت النساء الثلاث مرميات على الأرض وكأنهن خارجات للتو من معركة بالسلاح الأبيض.. وجوهن مدماة، سواعدهن وأفخاذهن معضوضة بالأسنان.. مجروحة بالأظافر، خصلات من شعرهنّ المنتوفة مبعثرة في كل مكان، كانت ليلى ممددة على الأرض مستندة بنصف ظهرها إلى الحائط.. فخذاها متباعدان و مكشوفان بالكامل.. ثيابها ممزقة، نظرت أم عبدو إلى المرأتين الأخريتين وقالت في نفسها.. لقد بطحتهما، عادت تنظر إلى ليلى وفخذيها فقالت لنفسها مرة ثانية.. بهذين الفخذين وبقليل من الذكاء تستطيع بطح مئة رجل.. ولكنها مسكينة غبية لم تبطح ولن تبطح إلا نفسها، مرت الدقائق والكل هامد ساكن.. حتى أم عبدو لم تتحرك، بعدها بقليل ساعدت أم عبدو المرأتين على النهوض وطلبت منهما الخروج من الغرفة، أغلقت الباب وعادت إلى مكان جلوسها.. أمعنت النظر بليلى.. تذكرت طفولتها، لا بد أنها لم تكن مختلفة كثيراً عن طفولة ليلى، ولولا أمها الذكية العاقلة لكان مصيرها كمصير ليلى، وضعت الخيزرانة على الأرض وأخرجت منديلها ثم اقتربت وبركت قرب ليلى.. نظرت هذه حذرة متفحصة، فبدأت أم عبدو تمسح آثار الدماء عن وجهها.. أغلقت ليلى عينيها ثم فتحتهما وإذ بهما مغرورقتان بالدموع.. تابعت أم عبدو مسح الدماء عن وجهها وساعديها ثم تمددت بجانبها وشرعت تكلمها:

- يا بنتي.. أنت جميلة وفقيرة، وليت الأمر اقتصر على ذلك، لكنك غبية أيضاً، إنها كارثة.. مصيبة!.. يا بنتي.. لو كنت فقيرة وذكية لاختلف الأمر.. لو كنت غبية وغنية لاختلف الأمرأيضاً، أما أن تكونين جميلة وفقيرة وغبية!..

وسكتت للحظات ثم تابعت:

ـ المرأة الجميلة الفقيرة ليس عندها في الدنيا غير شرفها.. لا همّ عندها في الدنيا إلا تعلم كيف تغلق فخذيها.

ـ والله العظيم لم أفتح فخذيَّ إلا لأزواجي الثلاث.. ويا ربي حتى لا أكذب، كنت أفتحهما لإثارة بعض الشباب بعض المرات، ولكن فقط للإثارة.

فوجئت أم عبدو.. كادت تضحك، ولكنها لم تفعل بل قالت:

ـ هذا أسوأ.. عندما تفتحين فخذيك لإثارة الشبان.. هذه إشارة منك على أنك امرأة خفيفة ورخيصة.. من دون أن تكوني كذلك بالفعل.

ـ كان زوجي الثاني يقول لي.. أنت لا تجيدين فتح فمك، أغلقيه وافتحي فخذيك تسلمي.

قالت ليلى مبتسمة، فابتسمت أم عبدو بدورها ابتسامة عريضة ولكزت بيدها ليلى قائلة:

ـ كان يقصد أن تفتحيهما له فقط، وليس له ولغيره!..

ضحكت ليلى ولكنها تألمت من شفتيها، فوضعت يدها عليهما وقطعت ضحكتها.

نظرت إلى وجه أم عبدو.. كان وجهاً أمومياً خالصاً.. عادت عيناها وامتلأتا بالدموع بينما كانت يد أم عبدو تمسح على شعرها.. شعرت برغبة جامحة بمعانقتها فعانقتها، وبادلتها أم عبدو العناق وهي تكاد تبكي، فكرت أم عبدو أن تعتب عليها وتؤنبها بسبب حماقتها الأخيرة مع زينب لكنها أحجمت.. بعد قليل تنحنحت وقالت بصوت جدي:

ـ ستمكثين معي.. سأتكلم مع أمك الحمقاء.. ستمكثين معي، وزوجك الرابع سأنتقيه أنا لك وسأعرضك على طبيب نسائي.. قد يكون سبب عقمك أمر تافه، والآن تذكري ما قلته لك: أنت جميلة وأنت فقيرة، وأنت غبية!.. إحدى الصفتين الأخيرتين يجب أن تختفي.

عندما أنهت أم عبدو سرد كل ما حدث وبالتفصيل لزينب.. وضعت زينب يديها على خديها وقالت:

ـ الله ستر.. رب العالمين ستر، يا إلهي كانت كارثة على وشك الوقوع أليس كذلك؟..

ـ صدقيني يا زينب.. لو لم أكن في الغرفة، أو لو خرجت قليلاً منها.. وهذا أمر كان وارداً، لكتمت المرأة أنفاس ليلى ولكانت الآن جثة هامدة.

ـ يا ساتر.. يالطيف، كانت أمي تحذرنا دائماً.. إياكم والكراهية فإنها تؤذي صاحبها أكثر من أذاها للغير.. كانت تقول إياكم والانتقام فإنه بلاء ببلاء، تصوري أي بلاء كان على وشك أن يقع.

حدثتها أم عبدو عن ليلى وعن خفتها وقلة حيلتها وكيف أنها ستأخذها على عاتقها.. آملة أن تصحح لها حياتها.. أيدتها زينب وقامت مسرعة إلى صندوقها فوجدت 500 ل.س، أعطت المال لأم عبدو وهي تقول لها أنه من أجل رعايتها لليلى وهي جاهزة دائماً لأي طلب، فقالت أم عبدو:

ـ يا لك من امرأة نبيلة يا زينب.. عيني لم تخطئك مذ رأيتك أول مرة.

ـ لي طلب واحد يا أم عبدو!.. لا أريد أن أراها طوال عمري.. هذه المخلوقة أنا لا أريد أن. ..

ـ لن تريها.. أعدكِ.

كان الخريف قد حل دون أن يغادر الصيف وحره تماماً.. خاصة في النهار، كان يوم جمعة ورأفت يحلق ذقنه صباحاً.. فكر، سيسافر إلى دمشق بعد يومين.. قد يأخذ ربيعة معه لتزور مدينتها بعد غياب طويل، ثم أيضاً ليسكتها.. فهي منذ مدة لا تني تلمح له عن اليومين في الأسبوع.. الثلاثاء ويوم آخر!.. لم يوافق ولن يوافق، كان أقنع عائلته منذ زمن بأن الثلاثاء وغداء الثلاثاء المستمر، هو مع الشلّة، هو يوم عزّابي يخرج الرجال فيه وحدهم.. مرة في الأسبوع.. فكيف يجعله يومين؟.. كانت هذه الحجة مقنعة بذاتها، أما السبب الحقيقي الذي لم يأت ولن يأتي على ذكره حتى بينه وبين نفسه، فهو وبكل بساطة يتلخص بقول واحد: إنها ليست زوجته.

كان على رأفت الذهاب إلى صلاة الجمعة.. وقد يمرُّ بأحد المقهيين أو بكليهما.. ترك زينب في غرفتها تقرأ ونزل إلى الصالون.. كان معه وقت إضافي.. جلس وأدار الراديو.. فكر بزينب وقراءاتها، لاحظ أنها لا تفعل شيئاً سوى القراءة، خاصة بعد أن منعوها من العمل في البيت بسبب حملها الذي أصبح في الشهر السادس.. كانت تقرأ سبع أو ثماني ساعات يومياً.. كانت كالإسفنجة.. فكر رأفت، إسفنجة كبيرة تمتص كل شيء.

بعد قليل انضمت زينب إليه.. أرادت أن تدردش معه قليلاً قبل أن يغادر، سألها أين وصلت في قراءاتها للتاريخ القديم، فأجابته أنها في خضم الحضارة الإغريقية.. سألها عن أي الحضارات شدتها أكثر، فأجابته أن البدايات دائماً تثير الاهتمام أكثر.. لذلك فالسومرية، أطلّت فجأة ابنته

هدى وسألت أباها:

ـ ما المقصود بعبقرية المكان؟..

ـ ماذا؟..

ـ طلبت منا مدرسة الجغرافيا تقديم بحث خلال خمسة عشر يوماً.. كدت أختار مجتمعات الاسكيمو في آلاسكا موضوعاً لي، وياليتني فعلت.. ولكني وقعت على هذا العنوان: الجغرافيا وتأثيرها على المجتمعات ـ عبقرية المكان، فأعجبني ولم أكن أعرف أني ورطت نفسي، فلقد انتقيته من دون أن تكون عندي أدنى فكرة عمّ يتوجب عليّ أن أبحث فيه.

فكر رأفت للحظات ثم طلب من ابنته الجلوس:

ـ تابعيني بدقة.. أنت في مصر منذ خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة، تريدين إقامة دولة هناك، الدولة دون مواصلات و تجارة لا تكون دولة، هناك النيل ـ الهبة الكبرى ـ والنيل وسيلة نقل رئيسية، ولكنه ينقل مراكبك في اتجاه واحد فقط.. اتجاه تياره، أي من الجنوب إلى الشمال، وهذا لا يكفي.. إنها مشكلة.. مشكلة كبيرة، هنا.. أقصد هناك، وُجدت شبه معجزة، الرياح في مصر دائماً شمالية جنوبية، أي عكس تيار النهر، فإن وضعتِ شراعاً على مركبك فستدفعه الرياح من الشمال إلى الجنوب.. عكس التيار، وهكذا يسير مركبك في الاتجاهين وتُحلُّ المشكلة، إنها شبه معجزة.. إنها عبقرية المكان، التي لولاها لما كان الفراعنة.

ـ يا لبساطة الفكرة.

ـ لو لم يحل الأمر بهذه الطريقة، لوجب عليك انتظار عبقرية الإنسان.. انتظار خمسة ـ ستة آلاف سنة لحين اختراع الآلة البخارية.

قالت زينب:

ـ خطر على بالي مدينتنا حلب ووقوعها على طريق الحرير، ولكن مثالك أقوى بكثير.

قام رأفت وهو يقول لابنته:

ـ دعيني أطلع على بحثك بعد أن تنهيه أو دعي زينب تفعل ذلك.

ثم ودعهما وغادر.

كان معه وقت قبل صلاة الجمعة.. اتجه إلى باب الفرج.. إلى المقهى الشعبي، وهناك وجد أبا علي مع قلة من الرواد.. فمعظمهم يأتي بعد الصلاة، صافحه أبو علي بحرارة وقال له أنه سينضم إليه بعد لحظات، وبالفعل أتاه بفنجان القهوة وجلس معه ثم قال:

ـ لقد وجدتها يا رأفت أفندي.. ولكن ليس في ذاك الفصل وإنما في مكان آخر.. الموضوع يا سيدي يعتمد كله على «وقت الفراغ» أو «توقيت الفراغ» والسيطرة عليه على حد قول صاحبنا الكاتب الخبير.

ابتسم له رأفت ابتسامة عريضة وطلب منه أن يشرح:

ـ عندما يكون الرجل متصلاً برفيقته.. وعندما يصبح قرب الفراغ أو يكاد..

هنا.. مال ابوعلي على اذن رافت وتابع كلامه همساً فيها..

ضحك رأفت من كل قلبه وقال لأبي علي أنه سُرَّ كثيراً لنجاحه في حلِّ هذه المشكلة العويصة!..

ثم غادر الإثنان إلى صلاة الجمعة.

عندما وصل رأفت إلى مقهى الأفندي كان رفاقه قد سبقوه إليه.. بعد أن أخذ مكانه بينهم سأل:

ـ هل ستحصل حرب أهلية في اليونان؟..

قال أبو جورج:

ـ أنا لا أفهم لم يعتبرون الحضارة الإغريقية.. حضارة غربية؟..

ـ وأين الأهمية في ذلك؟..

ـ لا شيء.. ولكن إن توخينا الدقة.. فهي شرقية.. شرقية جداً، انهم ملاصقون لنا، أنظر الى المناخ انه مثل مناخنا، والسكان قريبون جداً منا، قريبون في كل شيء.. من سحنتهم إلى مزاجهم، لاحظ التشابه والتمازج بين

تاريخنا وتاريخهم.. إنه تاريخ واحد.. خيالهم جامح شرقي تماماً، وليس غربياً بارداً.

ـ لا تنس مذهبهم الأرثوذكسي.. فهو شرقي أصيل.

ـ حتى تخلفهم الحالي هو شرقي!.. وكأننا في مركب واحد.

ـ سيتخلصون منه.. سيقفزون بسرعة إلى الأمام، ما أن ينتهوا ويرتاحوا من صراع النفوذ السوفييتي ـ الامريكي في بلادهم.. حتى يقفزوا، انهم شعب حي و عريق.

ـ ونحن أيضاً سنقفز.. ولكن إلى الوراء!.. إذا لم ننته من المشروع الصهيوني.

أنجبت زينب في بداية عام «48» في منتصف الشهر الأول منه.. أنجبت بنتاً أسمتها عروبة، كان العام «47»، العام المنصرم لتوه، مليئاً بالأحداث.. أحداثاً هامة بالنسبة لعائلة رأفت.. انتقل ولداه أحمد وخالد واستقلا في شقتيهما في حي السبيل.. وكان هذا حدثاً يحدث لأول مرة، ثم بدأ البناء على قطعة الأرض التي تملكها في ذات الحي.. أما منشأة النسيج فلقد أصبحت معملاً يدر مالاً وفيراً.. ثم تزوج رأفت من زينب بعد ترتيبات مرهقة، كان رأفت يقول لنفسه إن كل ما حدث في عام «47» كان يمهد لعام قادم كله خير له ولعائلته.. إنه العام «48»، أحبه رأفت مذ بدأ خاصة بعد ولادة زينب بالسلامة.. اعتبره وانتظره عاماً للاستقرار والطمأنينة بلا خضّات ولا مشاريع جديدة تشدُّ الأعصاب وترهقها.. إلا أن عام «48» كان غير ذلك تماماً.

كانت الأخبار تتوالى من فلسطين.. الإنجليز سينسحبون.. لا لن ينسحبوا، اليهود سيعلنون قيام دولتهم.. لا لن يجرؤوا، الدول العربية تستعد لإجهاض أي عمل يؤدي إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين.. لا إنها لا تفعل شيئاً من هذا، على العكس إنها متواطئة.. أو على الأقل بعضها متواطئ، في مقهى الأفندي.. كان الجميع منخرطاً في النقاشات:

قال أبو إحسان صديق الحاج عبد القادر:

- يا جماعة لا تجوروا على حكوماتكم العربية.. إنها حكومات دول نالت للتو استقلالها.. إنها حكومات وطنية.. ضعيفة وليست متواطئة.

ـ الضعيف يتواطأ قبل غيره يا أستاذ.. أنا أتكلم موضوعياً هنا!..

ارتفع صوت الحاج عبد القادر الجهوري قائلاً:

ـ قلت لكم السنة الماضية وسأقولها الآن.. المعلومات أكيدة.. الإنجليز سينسحبون هذا العام من فلسطين، ولكن قبل ذلك سيقيمون حكومة مختلطة يهودية عربية تستلم الأمور من بعدهم وتعلن استقلال فلسطين وطناً للقوميتين اليهودية والعربية.

قال ذلك ووقف مستأذناً ومعه أبو إحسان عندما رأيا الأستاذ إليان يفتح باب المقهى ويقف منتظراً ليذهبوا سوية إلى مكان ما.

قال الأستاذ ضياء:

ـ ما هذه التفاهات التي نسمعها من الحاج عبد القادر.. أمن المعقول أن يكون هو نفسه مقتنعاً بها؟.. وقرار التقسيم ألم يسمع به؟!..

علّق أبو جورج قائلاً:

ـ ألا تلاحظون معي أن هناك دائماً في بلادنا من يحاول الدفاع عن الغرب والتخفيف من بشاعاته والابتعاد عن إلقاء أي تهمة عليه؟!.. موقف بريطانيا ووعد بلفور واضح وضوح الشمس.. تواطؤها مع الوكالة اليهودية يعرفه الجميع، ومع ذلك نجدهم يعمون أبصارهم ويلقون علينا الحكم!..

ـ هل تعرف ما هو السبب؟.. الإنجليز حلفاء «معلّمي» الحاج.. أولئك الموجودون في العراق.. نوري السعيد وجماعته.. وعن طريق التسلسل يشعر أنهم حلفاء له أيضاً، وإن أنكر ذلك بشدة.

ـ هذا صحيح تماماً.. هواه ونَفَسه معهم بحكم طبيعة الولاءات.. وعندما تظهر حقيقة الإنجليز وينكشف الأمر، يقول لك إنها مصالح الدول الامبراطورية، ثم يسألك متذاكياً: هل تستطيع أنت مجابهتها؟!..

ـ المعلومات الصحيحة التي ترد من فلسطين تقول أن اليهود هناك يعملون كخلية النحل.. والأمر لن يطول.. قد يفعلونها الشهر القادم أو في آذار وبالتنسيق مع بريطانيا وبقية الدول الكبرى.

ـ هل هم ضامنون اعتراف بقية الدول الكبرى بدولتهم؟..

ـ هل تعلمون؟.. أنا لا أصدق حتى الآن أنهم سيمتلكون الجرأة على إعلان دولة لهم!.. أين ستكون؟..

ـ من الشريط الساحلي نحو الداخل.. إلى النقطة التي يستطيع مسلحوهم الوصول إليها.. كانسين من أمامهم الفلسطينيين، قد يبقى جيب هنا وجيب هناك.. قرية هنا وقرية هناك.

ـ يا للهول.. أمر لا يصدق، ستكون كارثة، ستكون نكبة حقيقية.

ـ إن حدث هذا لن يسكت العرب.. ستقوم الدنيا ولن تقعد.

ـ إن حدث هذا ونجح ـ لا قدر الله ـ فإن المنطقة كلها ستموج لسنين طويلة.. ستكون بداية حرب المئة عام.

ـ كل شيء سيتأثر، إن نجحوا.. كل عربي في كل مدينة، في كل قرية، في كل دولة.. نحن وأولادنا وأولاد أولادنا سنعيش انعكاسات وارتدادات هذا الحدث لعشرات السنين.

ـ لا تبالغوا يا جماعة.. جسد الأمة قوي، جسد العرب قوي.. سيطوق هذه الشوكة ويحاصرها ثم ينبذها.

قال رأفت:

ـ إنها أكثر من شوكة يا أستاذ ضياء.. إنها حربة قوية، وأنا لست متفائلاً أبداً.

مرَّ شهر شباط القصير ولم يحدث شيئ.. كان الجميع يشعر بأن حدثاً جللاً على وشك الوقوع.. الناس كانت بدأت تتحرك وحدها.. أتت أخبار من حماه بأن الناس هناك تتطوع بالمئات تحت قيادة ضابط اسمه فوزي القاوقجي.. وأن هذا الضابط شكل جيشاً من المتطوعين أسماه جيش الإنقاذ.. وهو يعمل في فلسطين منذ العام الماضي.. عام سبع وأربعين، وتبين فيما بعد أن أمر المتطوعين جدي كل الجدية، وأنهم من جميع أنحاء سورية، ومن بلدان عربية أخرى.. وبينهم ضباط كثر من الجيش التحقوا به

وكأن الحكومة تشجع أو تغض النظر عن ذلك.

كان رأفت يمشي باتجاه المقهى الشعبي وهو يفكر بالأمر.. هل هذا الجهد مجد؟.. الموضوع أكبر من ذلك بكثير.. الموضوع يحتاج إلى جهد حكومات ودول وجيوش، هل هناك حكومة عربية أو دولة عربية أو جيش عربي جاهز؟.. ولكن من جهة أخرى.. هذا الجهد الشعبي أليس محموداً مشكوراً؟.. كثّر الله خير الناس.. فكّر، فيهم البركة والله، ثم إن هذا الجهد الأهلي يحرك المشاعر والعواطف والتضامن مع الفلسطينيين فلا يشعرون أنهم تركوا وحدهم.. فترتفع معنوياتهم ومعنوياتنا، ولكن على الصعيد العملي الميداني.. عندما وصل إلى هذه النقطة وجد نفسه على سدخل المقهى الشعبي.. كان الجميع يتحدثون عن فلسطين.. ما أن أخذ مكانه حتى أتاه صوت أبي علي:

ـ بالله عليك يا أبو أحمد منذ متى كانوا «الحمويّه».. أهالي حماه، أرجل من الحلبيّه؟!..

ـ الحمويّه طول عمرهم رجال.. والحلبيّه أيضاً.

ـ هل من المعقول أن المتطوعين في جيش الإنقاذ من الحمويه أكثر من الحلبيه؟..

ـ تطوعوا إذن.. من يمنعكم؟..

ـ لا نعرف أين سنتطوع.. هل توجد مراكز للتطوع؟..

ـ أنا سأستعلم.. وسآتيكم بالمعلومات.

قال رأفت ذلك وانخرط مع الجميع في نقاشات حامية غاضبة من اليهود متوعدة لهم.. خاصة بعد أن قص عليهم أحد الحضور ما سمعه مؤخراً من أن اليهود هاجموا إحدى القرى الواقعة على الساحل الغربي لبحيرة طبريا ليلاً وقتلوا الناس وهي نائمة بالسلاح الأبيض، قتلوا الرجال والنساء والأطفال بهدف إخافة القرى الأخرى، فكرّ رأفت.. لا أعتقد أنهم فعلوها..

الجو العام غير مناسب الآن.. سيفعلونها، سيفعلونها حتماً.. ولكن ليس الآن. إلاّ أنه كان مخطئاً، فالخبر كان صحيحاً.. ولن تنقضي أسابيع قليلة حتى يسمع العالم بقرية اسمها دير ياسين وبالمجزرة التي ارتكبت فيها.

حددت مراكز التطوع واندفع الشباب المتحمس إليها.. كان رأفت ورمضان والأستاذ ضياء وأبو جورج والأستاذ إحسان يتلاقون يومياً تقريباً في هذه المراكز.. في أحد الأيام وكان نيسان على الأبواب.. إذ بأبي علي ينتصب أمام رأفت في المكتبة.. كانت ابتسامته عريضة، حياه وقال:

ـ جئت لأودعك!..

ـ تودعني؟.. إلى أين أنت مسافر؟..

ـ لقد تطوعت!.. سأذهب للقتال في فلسطين.

نظر إليه رأفت متفاجئاً ولم ينطق بكلمة.. كانت دهشته كبيرة لدرجة دفعت معها أبو علي للشرح:

ـ انظر يا أبو أحمد.. لم يتملكني هذا الشعور بالرضى في حياتي.. اللهم إلا مرة واحدة.. يوم ولد ابني علي، مرت فترة كنت لا أنام فيها.. وما أن قررت وتطوعت حتى جاءتني السكينة، أنا الآن أنام ملء جفوني.

ظل رأفت صامتاً.. ما عساه يقول؟.. فكر.. أمامه شاب في الثلاثين من عمره، عنده زوجه يحبها، وولدان يعبدهما، وحسناء تعبده.. ويذهب إلى فلسطين ليقاتل؟.. وقد لا يعود!.. شعر بالخجل من نفسه.. يا للقوة.. يا للشجاعة.. فكر، وقف من وراء مكتبه وعيناه تلمعان بالإعجاب والدموع، ثم التف من وراء المكتب وتحرك باتجاه أبي علي وحضنه بقوة معانقاً له.. فبادله أبو علي العناق وهو يشعر بالاعتزاز بنفسه وبإعجاب أبي أحمد به.. ثم جلسا بعد أن طلب رأفت فنجاني قهوة، كان آخر ما قاله رأفت لأبي علي:

ـ لا تضرب على «الفاضي» أبداً يا أبو علي، اضرب دائماً على المليان

أو لا تضرب!..

تعانقا من جديد واستدار أبو علي مغادراً.. عندما وصل إلى الباب ناداه رأفت سائلاً عن اسمه الكامل.. فأجابه أبو علي:

ـ أنا عبد الوهاب سواق.. من الكلاسة.. المشارقة.

كان النقاش يدور هادئاً بين وداد وزوجها فؤاد.. طال، ولكنه ظل هادئاً.. كان يرجوها أن تسمعه، كان يستعطفها أن تفهمه.. كان يقول لها:

ـ هل سمعت في حياتك بشعب لا دولة له؟.. في كل بلاد الدنيا وسكان هذه المعمورة.. هل سمعت بشعب محروم من دولة تخصه؟.. ممنوعة عليه منذ ألفي سنة حتى الآن؟..

كانت وداد من نوع النساء اللواتي لا يهتممن كثيراً بالسياسة.. يعتبرنها من همّ الرجال.. كان يهمها زوجها، وتهمها مدينتها حلب، وتهمها يهوديتها وكفى، لكنها وجدت نفسها تقول:

ـ ولكن ما لزوم الدولة؟.. يهود فرنسا هم فرنسيون، يهود إيطاليا إيطاليون، ونحن هنا في حلب حلبيون سوريون.. ما هو لزوم الدولة؟..

ـ لأن هذه هي طبيعة الأمور.. طبيعة الأشياء.. الشعوب لا تهدأ ولا تستكين حتى تصنع دولها.. الدنيا مصنوعة هكذا.. الحياة هي هكذا!..

ـ دولة.. تصنع؟.. هكذا ببساطة ؟!..

ـ يا وداد.. لأول مرة منذ ألفي سنة وُجدت الفرصة، أوروبا الآن تشعر بالذنب تجاهنا.. بعد أن فظّعت بنا وعملت ما عملته، تريد الآن أن تعوّض.. إنها إلى جانبنا، والعرب الآن ضعاف.. لم يكونوا ضعيفين كما هم الآن، وهناك حركة صهيونية نشطة جداً، متحمسة جداً وغنية جداً، إنها فرصة العمر لإقامة دولة يهودية صغيرة متواضعة غير مؤذية، تضم يهود العالم..

يعيشون فيها بكرامة وسلام.. هل حرام علينا ذلك؟..

كان يتكلم بإخلاص قوّى من حججه أمامها وأضعفها تجاهه.. فقالت:

ـ ولكن لماذا لا تقيموا دولة في مكان آخر خالٍ من السكان، أرض الله واسعة، ماذا سيحدث للفلسطينيين؟.. ماذا ستفعلون بهم؟..

ـ أولاً فلسطين هي أرض إسرائيل.. هكذا يقول تاريخنا كله، ثانياً الفلسطينيون عرب يا وداد، والجوار كله عرب بعرب.. شرق الأردن، سوريا، لبنان، العراق، كل هذه الدول هي عربية، هل تعلمين كم عدد سكان سوريا حالياً؟.. إنهم ثلاثة ملايين نسمة.. هل تعلمين كم كان عدد سكانها في الزمن القديم؟.. أربعون مليون نسمة، شرق الأردن.. هذه الإمارة عبارة عن أرض شبه خالية، فيها مدينتان أو ثلاثة مدن أشبه بالقرى الكبيرة، تسكنها قبيلتان عربيتان أو ثلاثة، تستطيع هي وسوريا استيعاب الملايين، هذه المنطقة كلها كانت ولا تزال تسمى بلاد الشام.. سوريا الكبرى، والفلسطينيون لن تحل بهم كارثة إذا هاجروا إلى الجوار.. إلى أهلهم، إلى محيط عربي مثلهم، يتكلم لغتهم نفسها.. يدين ديانتهم نفسها، منذ مئات السنين كان يحصل ذلك، كانوا يهاجرون ويتزاوجون ويتصاهرون، إنهم شعب واحد.. أين الكارثة إن نزحوا.. تحركوا قليلاً باتجاه محيطهم.. باتجاه أهلهم، خاصة إذا كان هذا يؤدي إلى حل أكبر مشكلة في التاريخ: المسألة اليهودية.

ـ إنك تسهل الأمر كثيراً.. أليس كذلك؟..

ـ يا وداد.. كيف سأشرحها لك؟!.. تصوري ولاية أمريكية، فلوريدا مثلاً.. اضطر سكانها لتركها لأسباب مناخية أو لأسباب مرضية.. وباء أو اعصار مدمر أو ما شابه، أو طالب بها الهنود الحمر مثلا.. قالت لهم حكومتهم أنها ستعطي كل عائلة من خمسين إلى مئة ألف دولار كي يغادروا إلى ولايات أخرى ويبدؤوا حياة جديدة فيها.. ما همهم؟.. ما همّهم إن

هجـروا ولايـتهم وسـكنوا في نيويـورك مـثلاً أو في كنـساس أو في كاليفورنيا؟.. طبعاً سيجدون صعوبات في البداية، ولكـن المال يحل جميع المشاكل.. نحن أغنياء سنعوض للفلسطينيين، وستأتينا مساعدات من جميع أنحـاء العـالم، وسـندفّع ألمانيـا الحقيـرة تعويضات لها أول ولـيس لهـا آخـر.. سنعطي قسماً منها للفلسطينيين فيسكتون.

كانت وداد تتـابع زوجهـا وتراقـب إخلاصـه لقناعاتـه بينمـا اسـتمر هـو بالكلام:

ـ أمر آخـر يـا وداد.. اليهـود القـادمون مـن أوروبـا هـم مـن الـصف الأول.. أوروبيـون متعلمـون عـصريون.. سـيجعلون مـن فلـسطين جنـة.. بـل إن علمهـم وخبـرتهم، خاصـة الزراعيـة، ستفيض علـى الجـوار.. أنظـري إلى المـساحات الزراعيـة الـشاسعة والمهملـة في سـوريا.. كلـها سـتتحول إلى جنـات بفـضل مساعدة اليهود القادمين.. ثم لا تنـسي البترول، غنـى عـرب البترول وعبقريـة اليهود ستحقق المعجزات.

كانت وداد تتابعه باهتمام.. كانت تريد أن تتعاطف معه وإن اضطرت إلى محاباته قليلاً.. حججه وطريقة كلامه أثرا بها ولكنهـا كانـت خائفـة، شعر بذلك فأراد التقاط اللحظة فقال:

ـ لا تخـافي يـا وداد علـيّ.. أنـا لـست مقـاتلاً، أنـا لا أحـارب.. إن نـشاطي مـدني صـرف، عطّلته في الـشهور الماضية مـن أجلـك.. من أجـل عيونـك، أنـا أعمل مع الوكالة اليهودية، لا خطر ولا خوف عليّ بتاتاً.

ـ أنـا لـن أذهـب أبـداً وأسـكن في بيـت فلسطيني تركـه صـاحبه هـرباً وخوفاً.. لن أذهب إلى فلسطين ـ إن ذهبت ـ إلا إلى بيت جديد نبنيه نحن.

نظر فؤاد في وجهها، ثم أخذ نفساً عميقاً وقال:

ـ لك ذلك مني.. إنه وعد يا وداد.

لم تمـض أيـام قليلـة حتـى سـافر فـؤاد.. كـان اقنـع وداد بأنـه لـن يغيـب طويلاً، حاولت هي ألا تؤنب نفسها.. فقد كان بقاؤه ساكناً هادئاً في حلب

يحرقه حرقاً كما عبّر.

❖❖❖

كان أبو علي يرتدي ثيابه بينما كانت وداد تتأمله وهي مستلقية على سريرها.. كانت كعادتها تغطي جسدها بالكامل حتى أسفل الكتفين، بعد أن انتهى من ارتداء ملابسه جلس على طرف سريرها وأخذ ينظر بعينيها نظرات حب ووجد.. نظرات فيها معاني جديدة تراها وداد لأول مرة.. قالت له وقد أحست بأن هناك أمراً ما:

- ماذا هناك يا أبو علي؟..

تابع نظراته ثم قال:

- سأودعك الآن يا وداد.. لن أراك لبعض الوقت، أنا ذاهب إلى فلسطين!..

قفزت وداد وهي تغطي صدرها ونظرات الرعب تشع من عينيها:

- هل جننت؟.. ماذا دهاك؟.. أم أني لم أسمعك جيداً؟..

- لم أجن يا وداد ولقد سمعتني جيداً.

- يا إلهي.. يا للهول، لماذا؟.. لماذا تذهب؟..

- لقد تطوعت في جيش الإنقاذ!..

- إنقاذ؟.. إنقاذ من ماذا؟!..

لم تكن وداد سمعت بجيش الإنقاذ.. والحقيقة أن ذهنها تشوش وقدرتها على الفهم انعدمت.

- سنذهب أنا ورفاق لي لمساعدة إخواننا في فلسطين.. إنهم يتعرضون لظلم كبير.. وقد يتعرضون لظلم أكبر في القادم من الأيام.

- أنت تذهب لتحارب في فلسطين؟.. هل هناك حرب الآن؟!..

- هناك يومياً إغارة على قرية عربية أو حي عربي، والإنجليز سينسحبون قريباً وستقوم الدنيا ولن تقعد.

- يا إلهي يا أبو علي.. أنت شاب يافع عندك عائلة.. عندك أولاد، ألم

تفكر؟.. كيف اتخذت قرارك؟.. أنت لست جاداً أليس كذلك؟..

- لم أكن في حياتي جاداً كما اليوم.. ولم أكن يوماً مرتاحاً لقرار كما اليوم.

عندما فهمت وداد الموقف، وضعت كفي يديها على خديها وقد أطبق الحزن الشديد عليها، بدأت عيناها تمتلئان بالدموع.. ثم انفجرت:

- يا لكم من حمقى مجانين.. كلكم مجانين.. تذهبون لتتقاتلوا على ماذا؟.. على أراض؟.. الدنيا مليئة بالأراضي الفارغة.. أراضي مساحاتها بالآلاف.. غير مسكونة.. يا لكم من مجانين.. ألا تفكرون بنا؟.. بأنفسكم.. بأولادكم.. بأحبائكم، بحبيباتكم؟..

قالت ذلك وأجهشت بالبكاء.. اقترب منها أبو علي وضمها إلى صدره، أخذ يهدهدها من دون أن ينطق بكلمة.. تمرت بالبكاء مطلقة بين الفينة والفينة اللعنات على الجميع.. بعد دقائق هدأت.. فطوقته بذراعيها وأخذت تهمس له: لا تذهب.. لا تذهب.. من أجلي لا تذهب، لم يرد عليها وظل يضمها ويهدهدها.. ثم بدأ يقبلها.. قبلها من عنقها.. من تحت أذنها ثم من خدها.. فتحركت وأطبقت على شفتيه بقبلة.. سرعان ماتحولت الى قبلة محمومة طالت حتى أعادتهما إلى البداية.. ولكنها لم تكن كالبداية.. كان الأمر وكأنها تريد إخفاءه داخلها والقفل عليه، ولكنها لم تنجح.. نجحت فقط بأن أطارت صوابه وصوابها.

عندما كان يرتدي ثيابه للمرة الثانية قال لها:

- لن نمضي وقتنا هناك كله في القتال!.. سمعت أن يهوديات أوروبا القادمات إلى فلسطين كلهن شقراوات.. بعيون زرقاء كلون البحر والسماء.

ابتسمت وداد.. كانت تعرف أن نساء بولونيا هن أجمل نساء العالم، ولكنها قالت له:

- إنهن شقراوات برصاوات.. لونهن أبيض شاحب كلون الأموات!..

- يا ساتر!.. لكن لابد أن أجد حنطية جميلة تشبهك هناك!..

ـ أنا حنطية؟.. بشرتي أكثر بياضاً من بشرتك!.. تعال إلى هنا.

سحبته من يده ثم وضعت ساعدها بجانب ساعده وطلبت منه أن ينظر من الأكثر بياضاً!..

ابتسم أبو علي ورفع كم قنبازه حتى الكتف فبان عضده الذي لا يتعرض للشمس، فإذ به أكثر بياضاً من عضدها!.. أنزلت بسرعة كم قنبازه قائلة إنها تأخذ حمام شمس يومياً، بينما عضده لم ير الشمس من سنوات!..

عندما ودعها فوجئت وداد بأن قبلته الأخيرة كانت على جبينها فقالت له:

ـ يا أبو علي.. من أجلي كن حذراً.. من أجلي لا تجن وتلعب دور «أبو علي»!..

ابتسم وقال:

ـ سأعود.. سأعود من أجلكم.

كان يقصدها مع عائلته.. وفهمت هي قصده جيداً.

كان الربيع في منتصفه وكانت وداد تتمشى يومياً مع ربيعة.. إما حول الحديقة العامة وإما في داخلها.. ذلك اليوم التقتا برأفت.. كان يمشي بسرعة.. وعندما توقف لتحيتهما كانت حبات صغيرة من العرق تلمع من على جبينه، ارتبكت ربيعة وخفق قلبها كفتاة يافعة رأت حبيبها بلا موعد.. ثم تماسكت وقالت له:

ـ وداد وحدها، لقد سافر زوجها.. هل نتركها لوحدها؟..

ابتسم رأفت وفكر أن سهرة قصيرة مع الاثنتين لا بأس بها.. قال:

ـ سآتي مساءً، لا تحضري شيئاً.. سنأكل ثلاثتنا طعاماً صحياً هذا المساء.. جبنة وخيار وخبز.. فقط لا غير.

عندما وصل مساء حاملاً كيس الخيار والجبنة البيضاء، كانت وداد وربيعة تتناقشان لأول مرة في السياسة، والموضوع.. اليهود والعرب وفلسطين، لم يكن هناك خلاف بينهما، كان النقاش وكأنه تبادل أخبار وتعليقات لا أكثر ولا أقل، عندما استقر رأفت في مكانه بادرته ربيعة قائلة:

ـ كانت وداد تقول أنه من الجنون التقاتل من أجل بقعة من الأرض وهناك آلاف البقع الفارغة عندنا وفي العالم، هي ترى أنه من الممكن إسكات هذا الهوس اليهودي بفلسطين بشيء من الكرم منا.

ـ لن يقبلوا بأي كرم.. لن يقبلوا بأقل من طرد الفلسطينيين.

ـ معقول؟..

ـ الموضوع بسيط جداً.. اليهود يقولون أنهم كانوا يسكنون هذه الأرض، أرض فلسطين.. ويسمونها أرض إسرائيل، منذ أكثر من ألفي سنة، وقد طردوا منها وهم الآن عائدون إليها.. عائدون إلى ديارهم!.. المشكلة أن هذه الأرض لم يتركوها فارغة تلعب فيها الرياح عندما طردوا منها.. وهي الآن تنتظر عودتهم، كان فيها سكان آخرون.. بقوا فيها وانضم إليهم آخرون، والكل فيها منذ ذاك الزمن البعيد.. اليهود يقولون انهم في الأساس تملكوا هذه الأرض بوعد من الله، لذلك يسمونها الأرض الموعودة، حينها طلب الله منهم أن يطردوا السكان الأصليين أو يقتلوهم فتصبح لهم ولذريتهم إلى الأبد!.. ولكن عندما أتى الدور على اليهود وطردوا من هذه الأرض منذ ألفي عام.. تملكهم الهوس ـ الذي تتكلمين عنه ـ بالعودة إليها.. ماذا يفعلون بسكانها؟.. يطردونهم أويقتلونهم كما في المرة الأولى..هكذا بكل بساطة!..

قالت ربيعة:

ـ أنا عندي الحل ليأت اليهود ويسكنوا مع الفلسطينيين أهلاً وسهلاً بهم، الأرض تتسع للجميع، وتحل بذلك عقدتهم وهوسهم.

ـ الأرض قد تتسع لجميع الناس يا ربيعة.. لكنها لا تتسع لجميع الأحلام، هم يريدون إقامة دولة يهودية صرفة.. لليهود تحديداً، وهذا الأمر لا يتم إلا بطرد العرب الفلسطينيين.

ـ إي لا.. تخنّوها!..

قالت وداد:

ـ هم يقولون إن الدول العربية المجاورة تتسع لملايين الملايين من السكان، والفلسطينيون عرب مثل سكان هذه الدول.. فيستطيعون تغيير مكان إقامتهم والانتقال..

ـ تغيير مكان إقامتهم؟.. ما رأيك أن «ينتقل» أهل حلب كلهم إلى دمشق؟!.. يا وداد هذا غش بالكلام لا أظنك تقبلينه.

كانت وداد تشعر أن عليها تبني موقف زوجها فقالت:

ـ كل شعوب الدنيا لها دول وأوطان إلا اليهود!..

ـ والحل هو سرقة وطن من شعب آخر وإعطاؤه لليهود؟!.. هذا ما تريدين أن يحصل؟.. ثم إن اليهود الحاليين المنتشرين في العالم ليسوا شعباً!.. إنهم ديانة.. لا يوجد في الدنيا شعب حافظ على نقائه العرقي ألفي سنة.. نحن العرب أنفسنا خليط عرقي غريب عجيب.. انتماؤنا لبعضنا هو انتماء لثقافة واحدة.. لغة واحدة، تاريخ مشترك واحد.

ـ واليهود ينتمون إلى ثقافة واحدة.

ـ ليس صحيحاً، إنهم ينتمون إلى أكثر من عشرين أو ثلاثين ثقافة.. أين الثقافة المشتركة بينك وبين يهوديةٌ من أوكرانيا أو من بولونيا؟.. ما الذي يجمعك بها؟.. المطبخ؟.. الموسيقى؟.. منظومة القيم.. أقصد الأعراف والتقاليد؟.. يجمعك معها الدين فقط لا غير.. تماماً كما يجمعني أنا الدين الإسلامي مع الإندونيسي.. ياوداد، ما حدث أو سيحدث هو سرقة.. هناك من يسرق سيارة.. هناك من يسرق مصرفاً.. هؤلاء يسرقون بلداً.. وطناً كاملاً بقضه وقضيضه طاردين سكانه خارجاً بحجة أنهم كانوا فيه منذ ألفي سنة.. الأمر أخلاقياً مرفوض.. إنسانياً مرفوض، هل تعلمين معنى أن يُسرق من الإنسان وطنه؟.. تصوري أن حلب سُرقت وأن أهاليها طردوا منها.. وأتى غيرهم ليسكن في بيوتهم، كيف سيشعرون؟.. سيشعرون بأن بيوتهم سرقت منهم؟.. لا.. سيشعرون بأن حياتهم كلها سرقت منهم.. طفولتهم، مراهقتهم، ملاعب أطفالهم، مقاهي رجالهم.. كل هذا سيشعرون أنه سرق منهم، ستشعر الحلبية، وأنت حلبية، بأن النافذة التي منها نظرتْ أول نظرة حب.. سرقت منها، زاوية الزقاق التي التقت فيها لأول مرة بالحبيب.. سرقت منها، عتبة الدار.. حيث جلست وهي طفلة وترنّمت لأول مرة إيقاع أغنية كانت غنتها لها جدتها.. سرقت منها، هذا بالضبط ما سيسرق من الفلسطينية والفلسطيني.. سيجن جنونهم كما جن جنون اليهود منذ ألفين

وخمسمئة عام عندما سُبوا إلى بابل.

كانت الدموع تترقرق في عيون ربيعة ووداد ولكنه تابع:

- هل تحفظين يا وداد تلك الأنشودة اليهودية المؤثرة التي قالها اليهود في بابل أيام السبي والقهر؟..

- انها من المزامير أليس كذلك؟.. أعرفها ولكني لا أحفظ إلا القليل منها.

- سأرى إن كانت تسعفني الذاكرة.

قال رأفت هذا وأخذ ينشد بصوت مؤثر:

على أنهار بابل هناك جلسنا

بكينا عندما تذكرنا صهيون

على الصفصاف في وسطها علّقنا أعوادنا

هناك سألنا الذين سبوْنا كلام ترنيمة.

كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة؟..

أخذ رأفت نفساً عميقاً وإذ بوداد تُكمل:

إن نسيتك يا أورشليم تنسى يميني

ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك يا أورشليم.. إن لم أفضلك على أعظم أفراحي.

اذكر يا رب لبني أدوم يوم أورشليم القائلين

هدّوا هدّوا حتى إلى أساسها.

كانت دمعة تسقط من عيني ربيعة و من عيني وداد أيضاً، فأكمل رأفت:

يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا

طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة.

عندما لاحظ رأفت دموع المرأتين لم يرحمهما بل قال:

- ألم تنتبها إلى الكلام المرعب في آخر الأنشودة: طوبى لمن يمسك

أطفالك يا بابل ويضرب بهم الصخرة؟.. هل سيقولها الفلسطينيون يوماً بحق أطفال اليهود؟!..

ـ سيقول الفلسطينيون آلاف القصائد مثل ما سمعنا وأكثر..

ـ على كل حال يستطيع اليهود القول: رب ضارة نافعة.. فهم في السبي عاشوا في بلادٍ هي مهد الحضارات الإنسانية بلا منازع، العراق حالياً، هناك تبلورت معارفهم بقصة الخلق.. بسفينة نوح.. بالوصايا، تعرفوا على قوانين حمورابي، فتبلورت قوانينهم أيضاً، العين بالعين والسن بالسن، وعندما كسر الفرس بابل وأجازوا لليهود العودة إلى فلسطين، عادوا إليها يهوداً جدداً.. بنصوص دينية مجددة، وإلهاً جديداً.

قالت ربيعة:

ـ هل هناك إله قديم وإله جديد؟!.. استغفر الله العظيم.. هناك إله واحد أحد.. ما بالنا؟..

ـ معك حق يا ربيعة.. هناك إله واحد أحد.

ـ ولكن بعد أن عاد اليهود إلى فلسطين ماذا حدث؟..

ـ حدث تشتيت آخر يا ربيعة، طرد آخر.. قام به الرومان هذه المرة.

ـ يا لطيف.. ما بال اليهود؟!.. يبدو أن «صوفتهم حمرا»!..

قالت ذلك وهي تنظر إلى وداد مبتسمة، فضحكت تلك ولم تعلق.

في الأول من أيار وصل فؤاد من السفر.. وصل قبل المغرب بقليل.. كانت ربيعة عند وداد ساعة دخل المنزل.. عانق زوجته بحرارة وقبلها ثم حيا ربيعة بحرارة أيضاً، كانت معه حقيبتان.. حملهما إلى غرفة النوم، وعندما عاد استأذنت ربيعة وغادرت.. كان سعيداً.. لاحظت وداد، متوتراً بعض الشيء.. ولكن سعيداً، أعدت له طعاماً بسرعة من «حواضر البيت»، تناول طعامه بنهم.. كان يأكل وينظر إلى زوجته ويبتسم، قبل أن ينهي طعامه قال لها:

ـ لقد قضي الأمر.. قبل نهاية شهر أيار سنعلن قيام الدولة.

ـ وأنت ستمكث هنا بلا أي حركة حتى تهدأ الأمور وتمر العاصفة أليس كذلك؟..

فكّر.. لن يذكر لها الآن شيئاً عن الخطة.. خطة اصطحابه لها خلال يومين مع جميع أفراد عائلته إلى بيروت ومنها إلى قبرص، بل قال لها:

ـ يا وداد أنا عملي في الخارج.. هدوء الأمور أو عدمه لا يعنيني ولا يعني عملي.. قلت لك لا تخافي عليّ.. ثقي بما قلته لك.

كان يتكلم بثقة عارمة.. كان يتكلم كالطالب الذي حضر لامتحانه جيداً وهو الآن واثق من النجاح، كان يتكلم كرجل مهم ومسؤول، والحقيقة أنه في الفترة الأخيرة أصبح أو كاد يصبح كذلك، كان عمله بين حلب وبيروت وقبرص، وكان المسؤول في الوكالة راضياً كل الرضى عن نشاطه وحماسه.. كان هذا مكلفاً بالسفر إلى

تشيكوسلوفاكيا لمتابعة موضوع يتعلق بسلاح تم شراؤه.. أُرسل قسماً منه وتأخر وصول القسم الآخر.. وكان ينوي اصطحاب فؤاد معه إلى هناك، إلا أن فؤاد طلب إعفاءه من ذلك لأن عليه تأمين زوجته وعائلته ونقل الجميع خارج سوريا إلى قبرص ومنها إلى فلسطين.

أنهى فؤاد طعامه ونهض متوجهاً إلى أريكته المفضلة.. تبعته وداد وقد التقطت مزاجه، كان لا يزال متوتراً، ولكن توتره كان من النوع المفيد الذي يبقيه يقظ الذهن فطناً يعرف ما يفعله ويعرف ما يريده، الآن.. في هذه اللحظة كان يريدها هي.. فهمت وداد وارتمت في حضنه، كان ينظر إليها وابتسامةٌ رائعة وغريبة تشعُّ من وجهه.. إنها ابتسامة الرضى والإعجاب بنفسه وبها.. بدأ بحل أزرار قميصها، ثم دس يده في صدرها، أمسكت يده بيدها وأشرت بالأخرى باتجاه غرفة النوم، فلم يعبأ بإشارتها وتابع.. حل جميع أزرار قميصها، وحل حمالة صدرها وشرع يقبلها من صدرها بطريقة لم يفعلها إلا مرة أو اثنتين في أيام خطوبتهما.. أثارتها رغبته فاستسلمت ليديه.. عرّاها من جميع ثيابها وهو يداعب بأنامله كل بقعة من جسدها تاركاً للآخر فخذيها.. وعندما وصل إلى هناك شهقت، نهض وهو يحملها بيديه ثم وضعها مكانه على الأريكة، وقف أمامها ثم أنزل بنطاله وبدا وكأنه يريد منها ممارسة الجنس الفموي.. لم تصدق، لم يفعلها قبل الآن ولا مرة.. نظرت في عينيه مستفسرة، فرأت فيهما تصميماً، أشاحت بوجهها مبعدة فمها.. ولكنه ألح، أشاحت بوجهها الى الجهة الأخرى.. ولكنه ألح وألح، كان مصمماً.. وكانت هي مصممة، فأمسكها من شعرها وثبت رأسها.. فرضخت، لم تكن بارعة في فعل ذلك.. أحس بالأمر فكفّ عنه وحملها مرة ثانية، عاد ليجلس على الأريكة ووضعها في حضنه.. ثم غابا عن الوعي أو كادا.

وصل الاثنان إلى ذروتهما معاً.. لم يحصل هذا منذ أمد بعيد، ظلا هامدين لدقائق طويلة، ثم قالت له وهي لا تزال في حضنه ورأسها ولعابها

على كتفه:

- ما بك؟.. أنت لست أنت.. ما هذه الحركات الجديدة؟..

لم يجب، بل سحب نفسه ببطء منها وأجلسها مكانه ثم طبع قبلة كبيرة على خدها أحدثت صوتاً وذهب إلى الحمام، في الحمام فكر.. سيذهب بعد قليل للقاء أصدقائه وفي المساء سيمر إلى بيت أبويه ويعلمهم بقرار الرحيل ثم يعود إلى البيت ويشرح لوداد كل شيء.

خرج فؤاد من البيت دون أن يودع زوجته.. قال لها فقط، وهو يفتح الباب مغادراً، أنه لن يتأخر.

وداد كانت سعيدة.. سعيدة بعودة زوجها.. كانت تحبه، لطالما أحبته.. ولكن ما هذه القوة والعنجهية التي وجدتها اليوم فيه؟.. سألت نفسها، كان منذ سنوات قوياً.. ولكنه ضعف في الفترة الأخيرة.. في السنتين الأخيرتين، مشاكل اليهود مع المحيط أضعفته وقصة السرقة وسجن أخيه كميل أضعفاه أكثر، ثم خطر على بالها أبو علي!.. سألت نفسها.. ما باله أبو علي؟.. لماذا أتى كالخيال الجميل الآن؟!.. أعجبتها الكلمة.. نعم إنه خيال جميل لا أكثر ولا أقل، أما الحقيقة الحقيقية فهي فؤاد.. هو حبها الوحيد، ولكن.. تابعت تفكر، لم خفق قلبها عندما أتى الخيال؟.. هل يمكن للمرأة أن تحب اثنين؟.. ابتسمت.. ثم كبرت ابتسامتها عندما قررت سؤال ربيعة عن الأمر.. ستقول لها ربيعة حتماً أن المرأة تستطيع أن تحب اثنين وثلاثة.. عندها ستنفجران بالضحك، وستتهم كل واحدة الأخرى بالفسق!..

نادت ربيعة عبر الشرفة ودعتها فلم تتأخر.. عندما وصلت هذه، سألتها عن أحوال زوجها فقالت وداد:

- كان اليوم فحلاً وكأنه امتلك القدس، ولكن قولي لي يا ربيعة أممكن للمرأة أن تحب اثنين؟..

- لمن توجهين هذا السؤال يا وداد؟.. يا حسرة.. أنا لم أحب في حياتي إلا رجلاً واحداً، ولا أعرف إن كان يحبني أم لا.. ولكن بإحساسي أستطيع أن

أقول نعم.. المرأة تستطيع أن تحب اثنين وثلاثة وأربعة.. بالضبط كما يستطيع الرجل التزوج مثنى وثلاث ورباع!..

وانفجرت الاثنتان بالضحك!.. بعدها بقليل قالت ربيعة لوداد:

ـ أنت لا تحبين إلا زوجك فؤاد.. صدقيني، الآخر تستلطفينه فقط، وتريدينه من أجل..

ثم ابتسمت وابتعدت عن وداد بسرعة وهي تقول من أجل «هديك الشغلة»!.. هاجمتها وداد وهي تصرخ.. وقذفتها بكل وسادات البيت حتى أغرقتها بها وبضحكها..

استمر قذف الوسائد لفترة.. أما الضحك فطال أكثر، عندما كفتا عنه، قالت وداد وهي تتنهد: الله يسترنا من عواقب هذا الضحك.. بعد كل ضحكة بكوة!.. عندها قرع الباب.. فتحته وداد وإذ برجلين يظهران أمامها.. سأل أحدهما:

ـ هل هذا بيت فؤاد عازار؟..

ـ نعم.

ـ نريد أن نكلمه.. نحن من الأمن العام.

شحب لون وجه وداد على الفور.. أصبح أصفر كلون الشمع.. قالت بصوت مخنوق:

ـ إنه ليس هنا.

دخل الرجلان بدون استئذان، فوجدا أمامهما ربيعة التي أسرعت بتناول منديلها وهي تتمتم خائفة: بسم الله الرحمن الرحيم، فتوقف الرجلان وأشاحا بنظرهما.. سأل أحدهما ربيعة:

ـ من أين أنت يا أختي؟..

نظرت ربيعة اليهما ولم تجب.. فكرّر الرجل سؤاله.

ـ أنا من حي الإسماعيلية!..

ـ ماذا تفعلين هنا؟..

- أنا في زيارة صديقتي.

- وزوجها.. أين هو؟..

- خرج منذ قليل.

عاد الرجل ليحدق بوداد.. فقالت هذه:

- سيعود.. لن يطول غيابه، ماذا هناك.. هل حدث شيء؟..

- قولي له أن يمر على المركز.. مركز الأمن العام، هو يعرفه.

استدار الرجل وغادر مع رفيقه.. جلست وداد على أقرب كرسي.. كانت ترتجف.. بقي باب الدار مفتوحاً، فخرجت منه ربيعة وأطلت من علٍ عبر بيت الدرج، فرأت الرجلين يغادران البناء بعد أن تركا عنصراً على بابه، دخلت وأغلقت الباب واتجهت إلى النافذة، أزاحت الستارة ونظرت باتجاه الشارع.. رأت عنصراً آخر يجلس على كرسي أمام دكان الخضرجي أبو صطيف، قالت لوداد:

- تركوا عناصر لمراقبة البيت.

كانت وداد تتمتم: يا ربي.. يا ربي، دخيلك يا ربي..

ثم نهضت فجأة بعد أن استوعبت ما قالته ربيعة واتجهت نحوها.. أمسكتها من كتفيها وقالت وهي تنظر في أعماق عينيها:

- يجب أن نحذره يا ربيعة.. دخيلك، إذا خرجت أنا سيلاحقونني.

- لعْيونك!.. أين يجب أن أذهب؟..

- اذهبي إلى أبو اسحق وهو سيتصرف.

- سأمشي على الفور.

غادرت ربيعة بعد أن وضعت منديلها على رأسها.. اتجهت صعوداً في الزقاق باتجاه حي الإسماعيلية ثم انحرفت فجأة إلى زقاق آخر باتجاه محل أبي اسحق فوصلته خلال دقائق.. رآها أبو اسحق وهي تدخل ولاحظ شحوب وجهها فخفق قلبه.. بادرته على الفور بما عندها.. شارحة باقتضاب وهدوء ووضوح ما حدث، علمت منه أن فؤاد كان عنده منذ قليل.. مكث طويلاً

ثم غادر، قال لها أبو اسحق أنه سيتصرف بسرعة، وطلب منها العودة إلى بيتها فقالت:

- لن أذهب إلى أي مكان قبل أن أتأكد بنفسي أن التحذير وصله.

حدق أبو اسحق في وجهها للحظات ثم نظر إلى زوجته التي كان الخوف قد شلّها.. خرج مصطحباً معه ربيعة، توجها إلى منزلين اثنين يعرف أبو اسحق أن فؤاد يتردد عليهما، فلم يجداه.. وجداه في المنزل الثالث، ارتاحت ربيعة عندما رأته.. قصت عليه ما حدث فتغير لون وجهه إلا أنه ظل متماسكاً.. أخذ ربيعة إلى طرف الغرفة وقال لها أنه سيتوارى عن الأنظار لبعض الوقت ثم يغادر إلى الخارج، همس لها أن هناك مبلغاً كبيراً من المال في الحقيبة الصغيرة، يجب على وداد أن تخفيه لأنهم حتماً سيفتشون البيت بدقة غداً، قالت له إنها لا تستطيع العودة لإبلاغ وداد بذلك وإلا شك رجال الأمن بها، بعد أن زعمت أنها من حي الإسماعيلية، فكر فؤاد بسرعة.. الأفضل أن تذهب ربيعة إلى بيت راشيل ابنة عم وداد وتطلب منها تمضية الليلة عند وداد، وهي ستنقل لها الرسالة.. ثم تستطيع ربيعة العودة إلى بيت أبي اسحق لتبيت عنده، أعاد بسرعة، مع ربيعة، ترتيب الخطوات التي رسمها مركزاً على مبلغ المال، ودّع الجميع وفتح الباب واختفى.

عندما دخل أبو اسحق إلى منزله مصطحباً ربيعة بعد أن مرّا على بيت راشيل، ارتمت ربيعة على أقرب كرسي.. كانت منهكة.. قلقة جداً على صديقتها وداد مع أن راشيل وعدتها أن تذهب إلى هناك على الفور.. بعد قليل انتفضت وقالت لأبي اسحق:

- يجب أن نعلم أبو أحمد بالأمر.

- الوقت متأخر يا ربيعة.. سنعلمه غداً.

- الآن يا أبو اسحق.. دخيلك.

اتصل أبو اسحق برأفت هاتفياً وبعد نصف ساعة وصل رأفت.

بعد أن سمع تفاصيل ما جرى، ظهر الاستياء واضحاً على وجهه..

استاء من الموضوع برمته، استاء من إقحام ربيعة نفسها في الموضوع وبشكل مباشر وفعّال.. لزم الصمت وهو عابس الوجه، قالت ربيعة:

- هل أخطأت أنا بتصرفي يا أبو أحمد؟..

لم يرد أبو أحمد وظل صامتاً..

- إذن لقد أخطأت.. أليس كذلك؟..

تنهد رأفت ثم قال باقتضاب:

- وداد صديقتك، والصديق وقت الضيق.

قال أبو اسحق:

- طلع الشعر على ألسنتنا ونحن نقول له أن يكفَّ عن اللعب بالنار.

- هذا أصبح حديثاً قديماً يا أبو اسحق.. اللعب بالنار أصبح لعبة الجميع.

كان أبو اسحق.. خلال زيارة فؤاد له اليوم، عرف أموراً كثيرة للمرة الأولى.. سمع تفاصيل تفجير اليهود لفندق الملك داوود، وكان حينها مقراً للادارة البريطانية، سمع لأول مرة بشامير وبيغن.. وكانا مطلوبين للعدالة من قبل السلطات البريطانية، فالمنظمات الصهيونية.بعد أن أمّنت ماتريده من الانجليز، اصطدمت بهم و استعجلت خروجهم من فلسطين، فشنت عليهم حملة قتل وترويع، وبالغت..لدرجة أنها خطفت في أحد الأيام جنديين بريطانيين وشنقتهما، ثم تركتهما معلقين أياماً في أحد البساتين.

قال أبو اسحق:

- هل سمعت يا أبو أحمد بتفجير فندق الملك داوود؟..

- هذا نبأ قديم يا أبو اسحق، هذا لا شيء مقابل ما سيفعلونه!..

- وشامير ورفاقه؟..

- هذا نبأ أقدم.. رأيت صورته في الصحف مطلوباً كإرهابي.

- يا إلهي ماذا سيحصل يا أبو أحمد؟..

- الحرب.. هذا ما سيحصل.

ـ ونحن ماذا سيحل بنا؟..

ـ لا شيء.. سنمر كلنا بفترة عصيبة متشنجة، مشكلة هنا و مشكلة هناك بانتظار النتيجة.

ـ أنا متشائم جداً وأنت؟..

ـ الحقيقة لا أعرف.. ولكني قلق.. قلق جداً.

بعد قليل سُمع قرع الباب وعلا صوت أم اسحق وهي تستقبل ضيوفاً.. فقال أبو اسحق:

ـ لا شك أنهم الجيران.. جاؤوا ليتحدثوا بما جرى.. سأستقبلهم في الغرفة الأخرى.

عندما أضحت ربيعة بمفردها مع رأفت قالت له:

ـ هل أنت مستاء مني؟..

ـ لا.

ـ إذا عادت عقارب الساعة إلى الوراء، أو تكرَّرت نفس القصة ماذا علي أن أفعل؟..

ـ تفعلين ما فعلته في المرة الأولى.

ـ وأنت؟..

ـ سأستاء جداً كما في المرة الأولى، ثم أقول لك: الصديق وقت الضيق!..

ـ غريب!..

ـ لا شيء غريب في العلاقات الإنسانية، أنت ساعدت فؤاد.. وقد أضحى عدواً منذ بعض الوقت، أليس كذلك؟.. وستعودين لمساعدته مرة أخرى.. لماذا؟.. إنها العلاقات الإنسانية.

ـ فؤاد عدو؟..

ـ انه يعمل معهم.. وإذا ذهب إلى فلسطين، وسيذهب، فسيقاتل الفلسطينيين، إذن هو عدو.

- ووداد؟..

- وداد صديقتك إذا بقيت هنا في حلب، أما إذا ذهبت إلى هناك فهي عدوتك، لأنها ستشارك حينها أوتدعم السطو المسلح الجاري الآن لفلسطين.

- وداد عدوة؟.. يا للهول!.. لا أستطيع تصور ذلك، ولن أتصوره.

كان يوم جمعة.. كانت عائلة رأفت كلها مجتمعة على مائدة الطعام.. وكان أحمد ابن رأفت وصل في اليوم السابق من دمشق، حيث سلّم لمكتب الإنقاذ هناك ثلاثمئة بطانية وأقمشة بلون «الخاكي»، لم تكن هذه أول مهمة له فقد سبق أن أمّن لهم مئتي بندقية «مارتينة ـ نموذج ست وثلاثون» اشتراها من العشائر في الجزيرة بأموال التبرعات، دفع حينها ثمن مئة بندقية وأهدت العشائر المئة الأخرى مجاناً لجيش الإنقاذ، كان الحديث بطبيعة الحال يدور كله حول فلسطين و اليهود والحرب القادمة خلال أسابيع.. لم يشارك رأفت به، ظل صامتاً معظم الوقت، لم يكن مرتاحاً.. لاحظ الجميع ذلك، عندما أنهى طعامه انسحب إلى غرفته، ثم طلب أن يحملوا له ابنته عروبة ذات الأربعة شهور من العمر.

عندما دخلت زينب إلى غرفتها.. رأت رأفت مستلقياً على السرير وهو يمسك بطفلته.. كان يحدثها.. يحدث الطفلة، كان يقول لها: عروبة.. عروبة، الجميع ينظر الآن إليك يا عروبة.. الكل يعتمد الآن عليك.. فهل ستخذلينهم؟!.. كان يبتسم وهو يحدثها ثم يضمها ويقبلها ليعود وينظر إليها ويحدثها من جديد.. قالت له زينب:

ـ أنت لست مرتاحاً بالمرة.

ـ أنا قلق جداً يا زينب.

ـ ألست تبالغ كثيراً بالخلط بين حياتك الخاصة والأوضاع السياسية؟..

ـ أنت تقولين هذا؟!.. ما يحدث أو سيحدث في فلسطين سيؤثر بشكل

مباشر على حياتنا الخاصة جميعاً.. وعلى حياة أولادنا وأحفادنا لأجيال وأجيال.. صدقيني أنا لا أبالغ أبداً، إنه حدث تاريخي كبير.. لم يحصل مثله في منطقتنا منذ ألف سنة.

- أنا أفهم قلقك ولكن إلى هذا الحد؟..

- الوضع مقلق جداً.. تصوري، ستكون المعركة بين جيش يهودي حارب كثير من ضباطه وجنوده في الحرب العالمية الأخيرة.. هو أوروبي بالعقلية والتجهيزات، وبالتدريب والتنظيم، وبين أشباه جيوش عربية متفرقة تابعة لدول عربية نالت للتو استقلالها.. إنها ليست دولاً، باستثناء مصر، إنها ولايات صغيرة.. أشبه بمحافظات اقتطعت وصنعت منها دولاً على عجل، تصوري يا زينب.. حتى الاستقلال الذي نتحدث عنه هو ليس كاملاً.. في مصر هناك قاعدة عسكرية كبيرة جداً هي قاعدة السويس، فيها جيش بريطاني، في العراق.. الأمر نفسه.. قاعدة الحبانية فيها جيش بريطاني.. الأردن، قائد الجيش فيه هو الجنرال غلوب وهو بريطاني.. نحن في سوريا جيشنا وليد، غض.. ضعيف التدريب، قليل التجهيزات والتسليح، والأمر نفسه في لبنان، كل الجنود والضباط وطنيون.. لكن هذا لن يكفي.

- أنت لا تستطيع أن تتنبأ.. التاريخ كلُّه يقول ذلك.. هناك أمور تحدث أثناء المعركة.. روح معنويَّة عالية مثلاً، متغيرات.. مفاجآت، تحصل وتغير كل شيء ولا أحد يستطيع التنبؤ بها.

- ربما.. ربما يصدق اليهود أن جيوشاً عربية جرارة ستهاجمهم، فيدب الذعر فيهم.. قد يحصل.. لا أحد يعلم.

صمت قليلاً ثم قال:

- أنا مشْيزق يا زينب.. أشعر بنزق شديد.. يجب أن أخرج، سأذهب إلى المقهى.

- يجب أن تمكث قليلاً مع الشباب والصبايا.

- سأمكث.. سأمكث.

عندما وصل رأفت إلى مقهى الأفندي.. سمع صوت الحاج عبد القادر يقول:

ـ مجرد إعلان الدولة اليهودية ستدخل الجيوش العربية الحرب وستنتهي الموضوع خلال أيام قليلة.. والجيشان العراقي والأردني سيحاربان على نفس الجبهة.

سال أبو جورج:

ـ بقيادة الجنرال غلوب باشا؟!..

انتفض الحاج وهدر صوته:

ـ الجنرال غلوب باشا قائد الفيلق العربي، وهو الآن أقوى جيش عربي، الجنرال ضابط محترف يتلقى أوامره من الدولة الأردنية.. ما بالنا؟.. هل بدأنا نشكك ونخوّن ونحن على أعتاب حرب؟!..

كان صوته وحضوره طاغيين فلم يرد أحد عليه، بعد قليل قال الأستاذ ضياء:

ـ أنا لا أتصور دولة عربية واحدة، أو حكماً عربياً واحداً لا يرى المصلحة العربية العليا أين هي، ويسعى إليها.

فعلّق رأفت قائلاً:

ـ أنا معك.. المصلحة العليا لكل الدول العربية هي محاربة المشروع الصهيوني، ولكن أين تكمن المشكلة؟.. المشكلة أن لكل دولة عربية مصالح.. لكل حكم مصالح خاصة به وباستمراريته، قد لا تتوافق مع هذه المصلحة العليا.. هنا تقع الكارثة!.. وهذا ينطبق على كل الدول العربية أو على معظمها.

في الرابع عشر من أيار أعلن بن غوريون قيام الدولة اليهودية وأسماها إسرائيل، وبعد عشر دقائق اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بها، تلاها الاتحاد السوفييتي.

دخلت الجيوش العربية الحرب على الفور، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى تبدى الموقف.. إنه نصر واضح وصريح لليهود.. فوجئ الجميع، حتى الولايات المتحدة فوجئت، كان اعترافها بإسرائيل من قبيل رفع العتب ولأسباب تتعلق بسياستها الداخلية.. كانت تعتقد أن اليهود لن يصمدوا أمام البحر العربي الجارف.. إلا أن حيوية اليهود ونجاحهم المفاجئ والمنقطع النظير أبهرها، حتى قيل حينها بأن أمريكا ستراهن وتعتمد في القادم من الأيام على هذه القوة الجديدة الناشئة في قلب العالم العربي.

قلة قليلة لم تفاجأ، كان منهم رأفت.. لم ينتظر الهدنة الأولى ثم تجدد القتال، ولا الهدنة الثانية وتوقف القتال نهائياً، حتى يفهم ما كان واضحاً منذ البدء، منذ الأيام الأولى بان له ما كان متخوِّفاً منه، ومع ذلك فقد كان حزنه وألمه لا يوصفان، لزم الصمت لأسابيع ولم يدخل في أي نقاشات، كان يجلس مع أصدقائه في مقهى الأفندي ولا يشارك ولو بكلمة.. بكل التحليلات والتفسيرات والتعليلات التي كانت تنهمر كالمطر.

دخلت زينب في أحد الأيام إلى غرفتها فوجدته مع ابنته عروبة.. كانت عروبة تبكي وهو أيضاً.. سمعته يحدِّث ابنته، كان يقول لها:

ـ لا تبكي يا عروبة.. لا تبكي يا حبيبتي، أنت لم تخذلينا.. نحن خذلنا أنفسنا، ثم يصمت قليلاً ويتابع.. الله كريم يا ابنتي، الوقت معنا.. ستنجبين لنا بطلاً يوحدنا.. قد تنجبينه قريباً!.. نحن في أرض المعجزات، ألم تحبل امرأة من عندنا دون أن يمسسها بشر؟..

حينها أخذت زينب طفلتهما منه فكفت عن البكاء، في حين نظر رأفت إليها وقال:

ـ هل تعلمين يا زينب.. عندما كنت طفلاً صغيراً، وعندما كانت تحدث لنا مشكلة أو مصيبة كانت أمي تقول: لابد أننا ارتكبنا ذنباً ما وإلا لما عاقبنا الله بهذا الشكل.. ثم كانت تغوص في التنقيب والبحث عما ارتكبته هي أو أحد أفراد عائلتها، أنا أسأل الآن.. ما هو الذنب الذي ارتكبه العرب؟..

بعد مضي أيام من ذلك.. فكر رأفت بالذهاب إلى المقهى الشعبي، تردد طويلاً.. ثم حزم أمره وذهب. كان الشباب لا يزالون في حالة هياج سيستمرطويلا.. عندما وصل، انهالت عليه الأسئلة والتحليلات الساذجة والتي لا تخلو من بعض الصحة.. وعندما انتبهوا إلى أنه لا يريد المشاركة، تركوه لشأنه وتابعوا نقاشاتهم، كان أحدهم يشرح كيف أن الجنرال غلوب قائد الجيش الأردني كان يخون جنده الأبطال ويرسل لليهود تحركاتهم أولاً بأول!.. ومع ذلك ـ يتابع ـ أبلى هؤلاء الأبطال بلاء رائعاً، وكبدوا اليهود خسائر لا يعلم إلا الله مدى جسامتها.

وكان آخر يتحدث عن الأسلحة الفاسدة التي كانت بحوزة الجيش المصري.. وكيف أن قنابل المدافع كانت تنفجر داخل المدفع قبل أن تنطلق، فتقتل العشرات من الجنود المصريين الأبطال، وكان ثالث يشرح خيانة القيادات العربية، وكيف أن الجيش العراقي، عندما وصل إلى فلسطين، انتظر وصول الأوامر للدخول في القتال ولكن.. «ماكو أوامر»، لم تصله الأوامر، أو تأخرت حتى فاتت الفرصة.

همّ رأفت بالنهوض والانصراف.. فصمت الجميع ونظروا إليه فغير رأيه.. عاد واستقر في مكانه ثم قال:

- هل تعلمون السبب في ما حصل؟.. السبب أننا دخلنا الحرب بسبع جيوش وكان علينا الدخول فيها بجيش واحد، دخلنا الحرب بسبع حكومات بدل الحكومة الواحدة.. بسبع قيادات عسكرية بدل القيادة العسكرية الواحدة، الحل الوحيد الأوحد يكمن في الوحدة.. أقولها قولاً واحداً: الوحدة.. والسلام عليكم.

عندما أصبح رأفت في الطريق شعر بالراحة لأول مرة.. كان ما ذكره للشباب قبل قليل سبق ورردده لنفسه عشرات المرات، ولكن قوله لهم وبصوتٍ عالٍ أراحه بعض الشيء، شعر وكأن الوحدة وضعت على السكة لتوها!.. تمشّى قليلاً، لم يكن يفكر بالذهاب إلى مقهى الأفندي ولكنه توجه إلى هناك، عندما وصل إلى المقهى نظر اليه أصدقاؤه مستوضحين، كانت عدة أيام مضت لم يره أحد منهم.. قال لهم أنه كان متوعكاً، بعد أن أخذ مكانه سمع أحد الحاضرين الجالسين في الجهة الأخرى من المقهى يسأل عن اسم الكاتب الذي انتحر بعد سماعه نبأ الهزيمة.. كان الجميع سمع بالنبأ، ولكن لم يجبه أحد.

واصل الحاج عبد القادر كلامه.. لم يعد صوته هادراً عالياً.. كان يتكلم بصوت هادئ حزين:

- تصوروا يا ناس.. سبعمائة ألف يهودي يتجابهون مع أربعين مليون عربي ويهزمونهم.. من يصدق؟!..

- هذا لا يحدث لأول مرة يا حاج.. كل الغزوات الاستعمارية كانت تقوم بها بارجتان مسلحتان جيداً أو ثلاث بوارج، على متنها بضع مئات من الجنود المدربين.. التاريخ الاستعماري للخمسمائة سنة الماضية مليء بالشواهد.

- هذا كان يحدث في أماكن سكانها بدائيون.. هل نحن كذلك؟..

أنا أعتقد أن اليهود سيفيقون من غرورهم وصلفهم.. وسيكتشفون أننا أمة عريقة لها تاريخ، وفيها حركات سياسية وفكرية ستؤدي إلى ما سيدهشهم.. الأمر لن يكون هيناً عليهم.. والأيام ستحكم بيننا. .

قال أبو جورج:

ـ أنا لست مع كل هذه التحليلات.. أولاً لم يتجابه سبعمائة ألف يهودي مع أربعين مليون عربي، بل لم يتجابهوا حتى مع مئة ألف عربي، المعلومات التي بدأت تتأكد الآن، أن هؤلاء السبعمائة ألف يهودي جندوا وحشدوا عدداً من الجنود أكثر مما جند وحشد الأربعون مليون عربي.. من يصدق؟.. تصوروا.. حتى بالعدد كانوا أكثر، لذلك دعك من حديث البارجتين أو الثلاث بوارج، هذا ناهيك عن الأسلحة والتدريب والتنظيم.. وكل ذلك تحت قيادة سياسية واحدة، وقيادة عسكرية واحدة، مع أن الغالبية الساحقة من ضباطهم جاؤوا من دول متباينة في كل شيء خاصة بالعقيدة العسكرية، قال لي أحد ضباط الأركان السوريين أن الضباط اليهود كانوا يفتقدون القدرة على التواصل مع بعضهم حتى باللغة، فالأوكراني لا يعرف إلا لغته، والبولوني كذلك، وقلة قليلة منهم تتكلم الإنجليزية، أما من يعرف العبرية منهم فكان يتكلمها بالعامية، وهي خليط من عبرية عجيبة غريبة وعامية ألمانية.

ـ عندما تكون القيادة واحدة.. يتم التفاهم ولو بالإشارة، أما عندما تكون قيادات متفرقة.. فالتفاهم معدوم ولو تكلم الجميع بفصاحة الجاحظ!..

ـ هل عدد اللاجئين كبير؟..

ـ إنهم بمئات الألوف.. قسم منهم نزح إلى أماكن أخرى في فلسطين، أي أنهم بقوا فيها، وقسم كبير آخر لجأ إلى الجوار.. سوريا والأردن ولبنان.

ـ والأقسام من فلسطين التي بقيت بيد العرب؟..

ـ يقال إن شريط غزة سيوضع تحت الإدارة المصرية، والباقي ـ أو ما

بدؤوا يسمونه الآن بالضفة الغربية ـ سيُضم إلى الأردن، وتصبح الإمارة مملكة.

ـ هي مملكة منذ عام 46.

ـ لن يقبل اليهود بهذا النصر.. لن يقبلوا بالوضع الحالي، المسافة بين الضفة الغربية والبحر لا تتجاوز الستة عشر كيلو متراً.. لن يقبلوا بهذا، الآن سيهدؤون ولكن عند أول فرصة تسنح لهم.. سينقضون على الباقي.. على الضفة الغربية.

ـ قد يعتمدون خلال ذلك أسلوب دير ياسين.

ـ هذا تصرف منتظر من كل حركة استيطانية.. ارتكاب المجازر لإخافة السكان ودفعهم إلى الهرب.

ـ قال لي ضابط الأركان نفسه..إن اليهود، وقبل دخول الجيوش العربية الجرارة، كانوا يحاصرون القرية العربية من جهات ثلاث.. ثم يقتلون الرجال تاركين الجهة الرابعة مهرباً لبعض الشيوخ والنساء ليحدّثوا بما شاهدوه.

ـ النذالة ليست منهم فقط، ولكن من الدول الكبرى الداعمة لهم.

ـ لقد شاهدت بأم عيني في إحدى الصحف صورة لعلبة سجائر أمريكية مكتوب عليها بالحرف: ادفع دولاراً تقتل عربياً، وصورة للطرف الآخر من العلبة، تظهر كاريكاتوراً يمثل خريطة فلسطين يجثم عليها قط متحفز تحيط به سبع فئران تمثل الجيوش العربية.

ـ لعنة الله عليهم.. الأمريكان كانوا يسلخون فروة رأس الهندي الأحمر بعد قتله ويقبضون من دولتهم ثمنها عدداً من البنسات.. كان ذلك تشجيعاً للقاتلين على القتل والإبادة.

ـ اليهود لا يستطيعون فعل ذلك الآن.. نحن في منتصف القرن العشرين، لن يستطيعوا إبادة الفلسطينيين، سيبيدونهم بطريقة أخرى.. سيرفضون وجودهم.. سينكرونه، سيعتبرونهم عرباً عليهم النزوح إلى الجوار

ولن يسموهم فلسطينيين أبداً، سينعتونهم بمئة اسم واسم، بدو رحل.. مخربين أوباش، وكل هؤلاء عرب وليسوا عرباً فلسطينيين، ألم يوهموا العالم أنهم جاؤوا إلى أرض بلا شعب؟!..

ـ انهم لا يهتمون بأحد.. انهم مستفشرون، لقد قتلوا الكونت برنادوت.. المبعوث الدولي، ولم يرف لهم جفن واحد.

ـ يا جماعة، نحن نمر بظرف بالغ الدقة والخطورة، لقد اصطدم المشروعان.. المشروع النهضوي العربي والمشروع الصهيوني، إنها سنون حاسمة، إن تغلّب المشروع الأول على الثاني نكون في حال، وإن جرى العكس فالويل لنا.. سننتكس ونبقى مكاننا نراوح لأجيال وأجيال.

ـ لا يوجد في الدنيا أصعب وأمر من الهزيمة.. الرجل المهزوم ينفجر وقد يموت من الغضب والقهر..

ـ أما الشعوب فتنفجر ولكنها لا تموت، وهذا ما سيحصل عندنا.. بعكس النصر، فهو يحيي العظام وهي رميم، استغفر الله العظيم.

ـ من رأى منكم أبو اسحق بعد نصر اليهود؟.. لقد رأيته أنا، ضبطّته، كانت ابتسامته من الأذن إلى الأذن.. شعر بالخجل مني وحاول تغيير تعابير وجهه، فلم يوفق.

كان هذا صحيحاً.. كان رأفت التقط الفرح الخجول لأبي اسحق بعد انتهاء الحرب، استاء حينها كثيراً.. حاول أن يعذره فلم يستطع.. حاول أن يتفهم مشاعره وتفهمها بعض الشيء، إلا أنه ظل مستاء منه. وقف رأفت فنظر الجميع نحوه.. فعاد وجلس مكانه، ثم نطق لأول مرة:

ـ يا إخوان.. كم عدد الحروب التي سنخسرها مع هذه الدولة اليهودية؟.. إنها بالضبط عدد الحروب التي سنخوضها ضدها، إلا.. إلا إذا نجحنا بإقامة الوحدة.. الأمر واضح وضوح الشمس، والحل واضح وضوح الشمس وهو كلمة واحدة: الوحدة، أقولها قولاً واحداً.. والسلام عليكم!..

بعد أن غادر رأفت تنهد الحاج عبد القادر وقال:

- يا له من حالم كبير.. قد يسمحون لنا بامتلاك القنبلة الذريّة، ولن يسمحوا لنا بالوحدة.

نظر أبو جورج بإعجاب نحو الحاج وقال لنفسه: عندما يريد الحاج، لا أحد يفهم في السياسة مثله، ومع ذلك فقد أجابه قائلاً:

- في السعي إلى الوحدة يا حاج.. سنخوض معركة كبرى، قد نربحها وقد نخسرها، الأمر ليس كله بيدهم يا حاج.. هو في أيدينا أيضاً.

في هذه الأثناء كان رأفت يتمشى حزيناً.. وجد نفسه يتجه إلى الجميلية.. وبالتحديد إلى محل أبي اسحق، رحب به صديقه، كان شيء ما.. ظلّ ما.. شاب علاقتهما بعد الحرب، قال رأفت:

- ما هي الأخبار؟..

- الحقيقة لا أخبار عندي يا أبو أحمد.

- ألم تسمع بمجزرة دير ياسين؟..

- سمعت.. يا للفظاعة.

- هل رأيت يا أبو اسحق صور اليهود في معسكرات الاعتقال النازية؟.. هل رأيت صور صدورهم العارية وأضلاعهم البارزة من الجوع والذل؟.. أنا رأيتها، صدقني.. لم أستطع النظر لأكثر من ثانية، أولاد هؤلاء أو أخوتهم هم من ارتكب مجزرة دير ياسين.

كان رأفت بارعاً بحشر أبي اسحق ودفعه إلى الشعور بالذنب.. كان حقاً بارعاً.

عندما وصل النبأ كان رأفت في المكتبة.. يقرأ الصحف، رودس.. واحتمالات اختيارها مكاناً لمفاوضات الهدنة، كانت عناوين جميع الصحف.. لم يقرأ رأفت إلا العناوين، كان قد كره المقالات والتحليلات كلها.. كان يقول إنها تسبب له القرف، عندما وصل رمضان إلى المكتبة ومعه النبأ لم يستوعبه رأفت جيداً، لذلك سأل:

- من الذي قُتل؟..

- أبو علي.

- من أبو علي؟..

- أبو علي.

حدق رأفت بعيني رمضان الدامعتين وفهم، لم ينطق بكلمة.. لم يجدها، لزم الاثنان الصمت.. كانا ينظران مرة في عيون بعضهما ثم يغضّان النظر ليعودا وينظرا من جديد.. ظلا على هذه الحالة دقائق.. قطع الصمت رمضان قائلاً:

- ألن نذهب؟..

- إلى أين؟..

- إلى المقهى ثم إلى العزاء؟..

عندما وصل الاثنان إلى المقهى الشعبي كبّر أحدهم بصوت عالٍ.. جلسا صامتين، كان الترحم على الشهيد يتكرر حال وصول أحد الأشخاص.. بعد قليل غادر الجميع باتجاه حي الكلاسة.. إلى منزل أبي

علي.

كان المكان ضيقاً، ما دفع الجيران لفتح منازلهم لاستقبال الناس.. قام محمد، الأخ الأصغر لأبي علي، من مكانه ليجلس رأفت، كانت أصوات النساء وبكاؤهن تصلهم من المنزل المجاور، بعد قليل لاحظ رأفت وجود شاب يعلّق يده اليمنى برباط حول عنقه.. كان الشاش يغطّي معظمها، علموا أنه هو من حمل النبأ، سأله أحد الحاضرين إن كان موجوداً عند وقوع الواقعة، فهز رأسه بالإيجاب، قال آخر من الحاضرين أن هذا الشاب ـ واسمه عمر ـ تطوع والتحق في نفس اليوم مع أبي علي في جيش الإنقاذ، عندها سأل أبو صطيف الشاب عما حدث.. قال:

ـ كنا عائدين سيراً على الأقدام، بعد إعلان الهدنة بيومين، كنا تجاوزنا جسر بنات يعقوب بكثير، كان أبو علي يغني: بلاد العرب أوطاني.. اعتقدنا أن هذه الهدنة مثل الهدنة الأولى لن يلبث القتال أن يتجدد بعدها.

بلع الشاب لعابه ولزم الصمت.

حفزه أبو صطيف قائلاً:

ـ وبعدين؟..

ـ حلقت فوقنا طائرة.. قال قائد الفصيل أنها «سبتفاير» بريطانية الصنع، حامت فوقنا مرتين، فشرعنا «نبلّع» للطيار اليهودي.. نضرب له بسواعدنا وبأرجلنا، صرخ به أبو علي قائلاً أننا ذاهبون في إجازة وسنعود إليكم يا أخوات الـ.. بعدها ارتفع الطيار وابتعد بطائرته.. ظننا أنه غادر، فعدنا إلى الغناء مع أبي علي، فجأة انقضت الطائرة علينا وفتحت النار من رشاشاتها.. كنا عشرين، قُتل على الفور ثمانية منا كان من بينهم أبو علي.. رحمة الله عليهم.

كان رأفت يتابع كل كلمة.. كل حرف.. عندما أنهى الشاب كلامه، شعر أن من قتل هو ابنه أحمد، كان أبو علي وأحمد في سن

واحدة تقريباً، كان ضيقه شديداً.. كان الموقف غريباً، ابنه قُتل وهو جالس في العزاء كالضيف.. لا يستطيع أن يصرخ، ولا يستطيع أن يبكي.. تململ، يجب أن يذهب إلى البيت.. إلى غرفته، وقف فجأة وقال:

- سنقيم العزاء في المقهى الشعبي.. عزاء الرجال في المقهى.

ثم أشّر لمحمد أخ أبي علي الذي لحق به وهو يغادر.. سأله إن كان يعرف مدى القرب الذي كان عليه أبو علي منه، فأجابه بالإيجاب، فقال له أن أبا علي ترك معه مبلغاً من المال قبل أن يسافر، ثم أعطاه خمسمئة ليرة سورية ليقوموا بالواجب.. واجبهم تجاه الشهيد، ثم غادر.

وصل رأفت إلى منزله عندما كانوا يعدون مائدة الطعام.. لم يكن يستطيع تناول شيء منه، لمحته أم نضال.. كان وجهه مكفهراً، سألته خائفة:

- ما الأمر؟..

- قتل «أبو علي».

- من هو «أبو علي»؟..

نظر في وجهها ولم يجبها، صعد الدرج.. دخل غرفته وأغلق بابها بالمفتاح.

أطلت زينب لتستفهم فقالت لها أم نضال: إن أبا علي قتل، وعندما سألتها من هو أبو علي، أجابتها إنها لا تعرف.

بعد قليل اقتربت الاثنتان من باب غرفة أم نضال حيث أقفل رأفت على نفسه.. تهيأ لزينب أنها سمعت صوت بكاء.. إلا أن أم نضال أكدت لها أنه صوت المذياع.

بعد أقل من ساعة خرج رأفت.. كان هادئاً، قالت له أم نضال أنهم ينتظرونه ليتناولوا الطعام سوية، فأجابها أنه لا يستطيع لأن عليه الذهاب إلى المقهى لترتيب العزاء.. المأتم.

نظر إلى زينب وقبل أن تسأله قال:

ـ أبو علي شاب أعرفه قتل في فلسطين ووصل النبأ اليوم.

ـ مسكين.. هل عنده أولاد؟..

ـ نعم عنده زوجة وأولاد.

ـ الله يصبرهم على هذه المصيبة.. رحمة الله عليه.

تمَّ ترتيب كل شيء في المقهى.. وزعت الكراسي على محيط الجدران واستقدم رأفت قارئاً للقرآن.. عند العصر اكتظ المقهى بالمعزين.. كان مضى على جلوس رأفت ساعتان تقريباً عندما طغى عليه فجأة شعورٌ غريبٌ، شعور بالحاجة للتواجد مع من كان قريباً جداً من أبي علي.. مع من هو حزين أو سيحزن جداً عليه، فالمشاركة في الحزن تخفف منه، فكر بزوجة أبي علي.. أم علي، لم يرها أبداً ولم يكن من الممكن أن يراها قبل مضي بعض الوقت، ولكنه يستطيع أن يرى وداد، يالقسوته.. فكر، ياللأنانية، عليه أن يدع وداد تسمع النبأ من غيره، ولكنه لم يدعها.. خرج من المقهى واتجه بعربته إلى حي الجميلية، ركن العربة وصعد درجات السلم ثم قرع الباب فلم تفتح ربيعة، لا بد أنها في بيت وداد.. فكر، أخرج مفتاحه وفتح باب البيت ودخل، لم يكن بداخله أحد.. اتجه إلى المطبخ وفتح باب الشرفة المطلة على الزقاق الفاصل بين البنائين.. تعمد أن يصدر الباب صريراً قوياً وهو يفتحه، ما هي إلا لحظة حتى أطلت ربيعة من النافذة المقابلة ومعها وداد.. حياهما وطلب منهما المجيء مؤشراً لهما بأصابعه.. قالت ربيعة لوداد أنه لا بد سيسألها عن أمر ما.

عندما عادت ربيعة من المطبخ حاملة الصينية وعليها فناجين القهوة، كانت وداد تجيب على استفسار رأفت عن أحوالها وعن أخبار زوجها.. كانت تقول:

ـ كل شهر أو شهرين يأتينا خبر عنه.. إنه بصحة جيدة، ولكن لا نعلم أين هو بالضبط.

ـ إنه في فلسطين يا وداد.

كانت وداد تعلم ذلك ولكنها لا تستطيع أن تقر به.. لاحظت ربيعة أن رأفت لا يتناول قهوته، فسألته عن السبب فقال:

ـ الحقيقة أني لم أتناول الطعام منذ الصباح.. كنا في عزاء أحد المعارف.

ـ سأجهز لك على الفور شيئاً تتناوله.

ـ لا يا ربيعة.. لا شهية لدي، هل لديك لبن؟..

ـ نعم سأحضر لك «زبدية» منه على الفور.

عندما عادت باللبن سألته:

ـ من هو المتوفى رحمة الله عليه؟..

ـ شاب كالحبقة، قتل في فلسطين مؤخراً.. كان تطوع في جيش الإنقاذ.

لاحظ رأفت سكون وداد.. انتظر أن تضع من يدها فنجان القهوة إلا أنها لم تفعل، تلكأ بعض الشيء علّها تضعه، إلا أنها ظلت ممسكة بالفنجان.. فتابع:

ـ قد تكونان تعرفانه.. إنه أبو علي بائع الكعك الجوال.

حاولت ربيعة أن تكتم شهقتها فقالت:

ـ أبو علي قتل؟..

ـ نعم.

جمدت عينا وداد، لم ترفا رفة واحدة.. قالت بصوت خافت:

ـ أبو علي قتل.. مات؟..

فلم يجب رأفت، بل نهض.. اتجه إلى النافذة وأدار ظهره لهما، كانت عيناه مليئتين بالدموع، انسكبت القهوة على ثياب وداد، فأسرعت ربيعة وأخذتها إلى المطبخ.. أجلستها على كرسي وجلست هي على آخر بجانبها، ظل رأفت وحده.. لم يسمع أي صوت من المطبخ ولم يحاول أن يسمع.. بعد قليل انتبه إلى خطئه، انتبه إلى الإرباك وفوضى المشاعر التي سببها، انتبه

إلى أنه يحرمها من البكاء بحرية، يا له من مغفل.. قال لنفسه، عليه أن يغادر فوراً، نادى ربيعة فأسرعت إليه قائلة: مسكينة.. أحرقت القهوة ركبتها، قال لها أنه سيأتي في يوم آخر.. أصرت عليه أن يتناول ملعقتين من اللبن ففعل ثم غادر، عندما انتقلت ربيعة ووداد إلى غرفة المعيشة ارتمت وداد على ربيعة فحضنتها هذه وأخذت تبكي معها.. بعد قليل بدأت وداد تتكلم وهي تشهق بصوت خافت ضعيف: يا حْوِينتك يا أبو علي.. يا ضيعان شبابك يا أبو علي.. ثم تصمت لتعاود الكلام بحرقة: إن الله يعاقبني يا ربيعة.. وسيعاقبني أكثر وأكثر، أنا أستاهل.. أنا أستحق.. ثم تعود لتقول: يا حْوِينت شبابك يا أبو علي.. هل تعلمين يا ربيعة أنه قبلني على جبيني قبل أن يسافر؟.. ظلت على هذا الحالة وقتاً طال حتى قالت: يا إلهي كم كان يحب ويحترم رأفت أفندي.

عندما أصبح رأفت في الشارع فوجئ بمصباح عربته الأمامي.. مكسوراً محطماً، كانت شظايا الزجاج مبعثرة بجانب العربة، نظر إلى الجهة المقابلة من الشارع فشاهد أربعة شبان، اثنان منهما يحملان عصياً.. والكل ينظر إليه متحفزاً متحدياً، كان رأفت غاضباً حانقاً مذ غادر بيت ربيعة، ومع ذلك قرر كتم غيظه وإهمال الأمر، عندما همَّ بفتح باب عربته سمع صوتاً نسائياً من إحدى الشرفات، كانت امرأة تنادي ابنها.. كان على ما يبدو أحد الشبان الأربعة.. كانت تقول:

- اصعد على الفور يا عامير.. لا تبهدلنا!..

ولكن عندما تلكأ ابنها عادت لتقول:

- يقول لك والدك: إذا لم تصعد إلى البيت الآن وعلى الفور فلن يدعك تدخله أبداً.. إنه رأفت أفندي يا مجنون.. إنه أبو أحمد.

انسحب ابنها خَجِلاً ودلف إلى مدخل البناء.. في حين سمع أحد الشبان يقول:

- لو كانت أم أحمد بذاتها فلن تنجو من علقة ساخنة!..

رنّت هذه الكلمات في أذني رأفت، فغلت الدماء في عروقه، فتح باب عربته وجلس وراء المقود.. مدّ يده إلى أسفل مقعده وتناول العصا.. كانت عصا قصيرة مستديرة المقطع، مثقوبة من إحدى نهايتيها بثقب يمر به حبل رفيع، عقد الحبل على معصمه بهدوء، أمسك بالعصا جيداً.. وغادر عربته، اتجه نحو الشبان الثلاثة بخطا واثقة سريعة.. ارتجّ على الشباب، عندما وصل إليهم بادر على الفور بضرب حامل العصا الأول على ساقه فسقط على الأرض وهو يصرخ من الألم.. تراجع الشاب الثاني والذي كان يحمل عصا أيضاً فلم تصبه ضربة رأفت الثانية بل أصابت الشاب الثالث وأيضاً على ساقه.. فسقط هو الآخر على الأرض، عندما التفت إلى الشاب الأخير رأى عصاه تهوي عليه.. على رأسه، فحما رأسه بساعده وتلقى الضربة عليه، ثم أمسك يد الشاب من معصمه وضربه بالعصا فأصابه على طرف ركبته فسقط على الأرض، لم يستغرق الأمر أكثر من ثواني معدودة.. استدار بعدها رأفت وعاد إلى عربته، كان ساعده الأيسر يؤلمه.. فكر، لابد أنه كُسر، أدار العربة وغادر، أمّا عينا ربيعة اللتان كانتا تراقبان وتشاهدان كل شيء من وراء ستارة نافذتها، فكادتا تغادران مقلتيهما.. وتذهبان معه.

في اليوم التالي كان ساعده يؤلمه ألماً شديداً.. لم يعلم عائلته، بل توجه إلى طبيبه، وبعد الصورة الشعاعية تبين وجود شعر في العظم كان هو وراء الألم الشديد.. عُملت جبيرة لساعده، وسُرّ عندما علم أنه لن يضطر إلى تعليق يده برباط حول عنقه.

عند العصر وصل الخبر إلى المقهى الشعبي ومنه إلى حي الكلاسة.. لقد قام شبان يهود من حي الجميلية بتحطيم عربة أبي أحمد، وبعد أن استفردوا به أوسعوه ضرباً وهو الآن في المستشفى!.. تجمع على الفور أكثر من خمسة عشر شاباً وتوجهوا إلى الجميلية، ما أن حل المغرب حتى أصبحوا أكثر من أربعين.. حطموا بعض واجهات المحلات في شارع اسكندرون، وقذفوا البيوت بالحجارة طالبين من الشباب اليهود النزول إلى الشارع،

عندما وصلت الشرطة لم تستطع فعل شيء، لاحظ أبو اسحق أن الشرطة لم ترسل سوى أربعة عناصر كانوا يتفرجون على المشهد أكثر مما كانوا يفعلون أي شيء آخر، كان واضحاً لأبي اسحق أن غضب الشباب لم يكن سببه فقط ما حدث لرأفت قبل يوم، بل ما حدث في فلسطين قبل شهر، فأسرع إلى الهاتف يطلب رأفت.

سُمع صوت عالٍ ينطلق من إحدى الشرفات يقول للجمْع: إن كنتم رجالاً بحق فاذهبوا وقاتلوا في فلسطين.. لقد رأينا مرجلتكم وشجاعتكم هناك!..

فجن جنون الشباب وانطلق بعضهم يحاول الدخول إلى المبنى فمنعتهم الشرطة، فجأة صرخ أحدهم: رأفت أفندي هنا!.. فلاذ الجميع بالصمت ناظرين مفتشين عن رأفت بين الحشد.. عندما رأوه يمشي بينهم بقامته المنتصبة وبوجهه الخالي من أي خدش.. فوجئوا، قال واحد منهم:

ـ لقد قالوا لنا..

ـ وهل صدقتم؟.. صدقتم أن ثلاثة فتيان يتغلبون عليّ؟.. هل نسيتم أن جدي كان من الكلاسة!..

كانت لكلماته فعل السحر.. خلال دقيقة أو دقيقتين تفرق الحشد وخلا الشارع إلا منه ومن الشرطة.. بعدها بقليل سُمع صوت أم أمير من الشرفة:

ـ تفضل اشْرب قهوة يا رأفت أفندي!..

نظر رأفت إلى الأعلى.. ابتسم وقال لها:

ـ بكل سرور.

عندما دخل إلى بيت أبي عامير استقبله الأخير معانقاً.. كان يرتجف، كانا رفيقين قديمين، قالت أم عامير لرأفت بعد أن أخذ مكانه:

ـ لا تؤاخذهم عما فعلوه بالأمس الله يرضى عليك.. إنهم شبان طائشون، ربك حميد أن ابني انسحب من بينهم أمس، وربك حميد أنك

أتيت بسرعة اليوم، فتفرَّق الشبان على الفور.

كان عامير ينظر إلى الأرض وكأنه يتهرب من المشاركة في الاعتذار.

- أنا عتبي، يا أم أمير، على أمير ورفاقه لسبب واحد فقط، كيف فكروا بالتجمع وهم أربعة ضد عجوز مثلي بمفرده؟.. أين ذهبت الفروسية؟!..

ثم تابع وهو ينظر إلى أبي عامير مبتسماً:

- هل تذكر يا أبو أمير عندما كنا فتية؟.. هل تذكر كيف نحيتموني جانباً عندما اكتشفنا أننا كنا نزيدهم بالعدد.. وتم الصراع أربعة ضد أربعة؟..

- رزق الله أيام زمان يا رأفت..

قال أبو أمير متأثراً وعيناه تلتمعان بالدموع.

- هل تذكر عندما أمسك بك حارس الآغا وهو على صهوة جواده.. كنا نسرق من شجرة تين حينها أليس كذلك؟!..

انفجر أبو أمير ضاحكاً وقد تغير مزاجه، ثم توجه إلى زوجته وأولاده يروي ما حدث:

- كانت أعمارنا حوالي عشر سنوات.. أمسكني الحارس وأنا جالس على غصن شجرة تين.. كدت أبول في سروالي من الخوف، فجأة لمحت رأفت يقترب بخفة وهدوء وبيده عصا.. حين أصبح وراء الحصان ضربه على مؤخرته ضربة أجفلته، فجمح وأسقط الحارس على الأرض.. فجن جنون الأخير، أنا قفزت من الشجرة وبدأت اركض ورأفت يركض معي، والحارس يركض من ورائنا، والحصان يركض في اتجاه آخر..

منعه ضحكه من إنهاء قصته.. فضرب كفاً بكف وهو يقول: يالذكريات الطفولة.. ما أجملها.

- كرم التين والزيتون هذا اختفى الآن أليس كذلك؟.. ابتلعه التوسع العمراني.

كان عامير يتابع مندهشاً من قدم القصة.. كان يبتسم هو وجميع أخوته محاولاً تصور أبيه ورأفت أولاد عشر سنوات.

كانوا على هذه الحال عندما قرع الباب ودخلت أخت أم عامير.. كانت امرأة جميلة جداً، أنيقة جداً، تخطت الأربعين من عمرها بقليل، حيت الجميع وحين صافحت رأفت.. صافحته وكأنها تعرفه جيداً، وهو أيضاً شعر أن عليه تحيتها بحرارة لأنه لابد يعرفها.. ولكنه أُربك تماماً، فهو لم يتذكرها!.. عندما أخذت مكانها ظلت تنظر إليه مبتسمة وهي تتلذذ بارتباكه.. يا له من زير نساء ناشط!.. حدثت نفسها.. كثرة النساء أنسته أطول قبلة في التاريخ كما اسماها هو نفسه منذ أكثر من عشرين سنة.

قطعت الصمت أختها أم عامير قائلة:

- ألم تتذكر غولدا يا ابو أحمد؟..

أخذ يفكر بسرعة.. لا يمكن أن يكون رأى امرأة بهذا الجمال ثم ينساها.. لكنه لم يتذكرها!..

أما هي فظلت تنظر إليه مبتسمة.. ثم أشعلت سيجارة ووضعت ساقاً على ساق وعادت تنظر إليه مبتسمة.

- أختي فريدة.. هل من المعقول أن تنساها؟؟..

- آه.. فريدة، يا إلهي.. أختك فريدة، المتزوجة في الشام.. غولدا!

قام بسرعة واتجه نحوها وصافحها من جديد.. بينما كانت أم عامير تقول:

- لقد أقنعت زوجها أخيراً.. وانتقلا إلى حلب وهي الآن هنا منذ أكثر من عام.

- لا تؤاخذيني يا فريدة.. الكبر عبر.. كيف حالك؟..

كانت أكثر من عشرين سنة مضت على آخر مرة رآته فيها، وعلى تلك القبلة التي كانت تقول أن طعمها ما يزال تحت ضرسها!..

ـ يخزي العين!.. بعدك شاب يا رأفت.

ـ كم ولد عندك؟..

ضحكت وهي تقول:

ـ أربعة.. صبيّان وابنتان، أقل من عدد أولادك بالتأكيد!..

ـ يا إلهي.. لم يتغير بك شيء، كيف تأخرت بـ.. يبدو أني لا زلت مشوشاً بسبب المشكلة والصخب في الشارع.

والحقيقة أن شيئاً من السمنة كان غير من شكلها العام بعض الشيء. ولكنها ظلت جميلة جداً، عندما كانت بعد فتاة.. كانت الفتاة الأجمل في حلب، وكانت أمها تحميها برموش عينيها من ملاحقة الشبان وغزلهم لها، ولم تتردد لحظة بالموافقة على زواجها عندما تقدم لخطبتها قريب ثري لها، مع أنها كانت ستبتعد عنها وتسكن في دمشق، أما الآن.. فها هي جالسة معتزة بجمالها وثرائها.. جمالها الذي نضج أكثر وأكثر، وثراء زوجها الذي ازداد أكثر وأكثر.. تلف ساقاها واحدة على الأخرى، ساقان مصبوبتان من المرمر، على حد زعم رهط الشباب الذي كان يرافقها يومياً من المدرسة إلى البيت.

كانت أم عامير تستفيض باستذكار المشاكل التي كانت تحصل بين الشبان بسبب نظرة أو ابتسامة أو إيماءة من أختها.. أما فريدة فكانت منتشية بما تسمع، وبذكرى تلك القبلة الشهيرة.. شردت مع الذكرى.. كانت في التاسعة عشرة من عمرها عندما ذهبت مع أمها إلى سوق «المْدينة»، اشترت أمها قطعتين من القماش من محل رأفت وغادرتا ناسية إحدى القطعتين، تذكرتها وكانتا في محل آخر بعيد بعض الشيء عن محل رأفت.. فأرسلتها بسرعة لتأتي بها.. وهناك في عمق المحل.. في المخزن الملحق بالمحل، التي لا تزال رائحته الرطبة تملأ خياشيمها كلما تذكرته، هناك كانت تلك القبلة، استمرت لأكثر من عشرة دقائق..عشرة دقائق هزت العالم وهزت جسدها معه،وظلت تهزه لسنوات وسنوات، عندما

غادرت المحل.. عادت مرة أخرى إليه لتأخذ قطعة القماش، فقد نسيتها مرة ثانية.. وعندما وصلت إلى حيث كانت أمها، حدقت أمها في وجهها ثم انتفضت قائلة: هل أنت مجنونة؟.. لا شك أنك مجنونة بلا عقل!.. ثم سارت مسرعة وهي تلحق بها.. وعندما أصبحتا خارج السوق بدأت أمها حفلة التأنيب والتوبيخ.. كانت أول مرة تسمع فيها بلفظة انتعاظ!.. كانت أمها تتكلم وكأنها تحدث أشخاصاً آخرين يمشون معها.. كانت تقول.. تصوروا يا ناس.. تصوروا الغباء والجهل. لعنة الله على بنات هذه الأيام، لا يعرفن شيئاً، يجهلن كل شيء.. لا يعرفن أن الشفاه تنتعظ!.. الشفة إنتعاظية أيتها الحمقاء، تبقى آثار القبلة عليها لساعة وأكثر.. خاصة إذا طالت!.. هل أنت مجنونة؟.. يا لك من حمقاء جاهلة.. كلكن جاهلات، تأتي الفتاة من قبلة طويلة، وتجلس بين الناس مبتسمة كالبلهاء، وهم ينظرون إلى شفاهها ضاحكين!.. إستمرت أمها طوال الطريق تردْح وتشرح وتفصّل.. ولم تترك النقطة إياها.. إنتعاظ الشفتين وإنتعاظ الحلمتين وإنتعاظ الــ.. ثم تقول: طيّب الصدر مغطى، والشفاه؟!.. بطبيعة الحال لم تتأخر فريدة كثيراً لتكتشف أن قليلاً من احمر الشفاه يرسم بمهارة على الشفتين، كفيل بحلِّ جزء كبير من المشكلة التي كانت تؤرق أمها.

أفاقت فريدة على صوت رأفت يودعها قائلاً:

ـ إذن أنت مقيمة الآن في حلب؟.. سنراك حتماً في الجوار.. أليس كذلك؟..

ـ إن شاء الله.

رنَّ جرس الهاتف في مكتب أحمد ابن رأفت.. كان رأفت في زيارته الإسبوعية لمعمل النسيج، رد رأفت بنفسه وإذ بأبي اسحق على الطرف الآخر من الخط يقول له:

- ألم تسمع بالنبأ؟.. لقد قتل فؤاد!..

ران الصمت للحظات قبل أن يسأل رأفت:

- متى حدث ذلك؟..

- منذ خمسة عشر يوماً.. ولكن النبأ وصل اليوم.

- هل عندك التفاصيل؟..

- نعم.. سأقصها عليك فيما بعد.

تنهد رأفت وهو يضع سماعة الهاتف، أخذ يفكر.. مسكينة وداد، فعلاً إن المصائب لا تأتي فرادى.. خلال عشرة أيام قتل الحبيب وقتل الزوج، لعنة الدولة اليهودية تركت الدنيا كلها وركزت عليها.

علم فيما بعد تفاصيل ما جرى، بعد انتهاء المعارك.. كان فؤاد في الضاحية الغربية للقدس.. فكر بزيارة القدس القديمة.. وضع على رأسه الحطّة والعقال وتسلل إلى هناك.تمشى في معظم شوارعها، ثم دفعه فضوله للدخول إلى احد المقاهي مطمئناً لزيه العربي وللغته العربية الطليقة.. غافلاً عن لهجته الحلبية التي لا تخطئها أذن، فلسطيني يضع الحطّة والعقال ويتكلم بلهجة حلبية قحة؟.. إنه يهودي مهاجر من حلب حتماً.. أتى ليتشفى بالفلسطينيين بعد الهزيمة أو ليتجسس عليهم، لم يتأخروا بكشفه.. أُطلقت

النار عليه وهو جالس في المقهى يرتشف القهوة ويتكلم مع بعض روّادها، فقتل على الفور.

بعدها بأيام جرى تبادل جثته مع جثث لقتلى عرب سقطوا في القتال الأخير، ودفن في القدس الغربية.

قرر رأفت ألاّ يذهب إلى الجميلية قبل مضي أسبوع أو أكثر.. قدَّر أنها المدة الكافية ليرى بعدها وداد ويعزّيها.

عندما انقضى الأسبوع كان يصعد درجات السلم إلى بيت ربيعة، لحقت به ربيعة.. كانت عند وداد، كانت هي نفسها ملتاعة للوعة صديقتها.. عندما أخذ رأفت مكانه في غرفة المعيشة قالت:

- ما هذا الذي يحدث يا «أبو أحمد»؟.. إنه غضب.. غضب من الله، الله يجيرنا.. أنا خائفة على وداد يا «أبو أحمد».

- كيف هي؟..

- يا إلهي أصبحت جلدة وعضمة.. إنها لا تأكل، تشرب الماء فقط، أعطيتها اليوم قليلاً من اللبن فتقيأته على الفور.

- يجب أن يراها طبيب.. قد يعطيها سوائل مغذية.

- لا احد يراها سواي.. وابنة عمّها راشيل.

- هل أستطيع أن أراها؟..

- لا أظن.. علي أن أكون بجانبها الآن يا أبو احمد.. ليس عندها أحد، فراشيل لا تأتي إلا بعد الظهر..

ثم صمتت لبرهة وقالت:

- سأسألها.. إن كانت ترغب.. ما رأيك؟..

- اذهبي إليها وكلميني من الشرفة.

ذهبت بالفعل.. وبعد قليل رآها عبر باب شرفة المطبخ تفتح نافذة في بيت وداد وتؤشر له أن يأتي.

عندما شاهد رأفت وداد.. وكانت مستلقية على سريرها، لم يصدق

عينيه.. لم يصدق أن أسبوعاً واحداً يفعل هذا الفعل في وجه إنسان.. انقبض صدره، ولكنه ابتسم لها وهو يقترب من سريرها.. أمسك بيده يدها الهزيلة وأخذ يربت بيده الأخرى عليها وهو يقول:

- أنت امرأة قوية يا وداد.. الحياة أبقى.. هي الأقوى دائماً.. لا تفعلي هذا بنفسك.

كانت وداد تنظر إليه.. حاولت أن تبتسم إلا أنها أجهشت بالبكاء، فتراجع رأفت وتقدمت منها ربيعة.. كان بكاؤها يفطر القلوب، كان بكاء يشبه بكاء طفلة فقدت أمها وأباها وأخواتها جميعاً.. كانت مفجوعة بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى، بعد قليل خَفُت صوت بكائها ثم تلاشى.. كانت ربيعة تهدهدها وهي تحضنها وما لبثت أن غفت.. غطتها ربيعة جيداً بغطاء السرير وانسحبت مع رأفت على رؤوس أصابعها إلى غرفة المعيشة.

قال رأفت:

- سأمرُّ على أبو اسحق وأطلب منه إرسال الطبيب فريد ليكشف على وداد.

- يا إلهي أبو أحمد.. كيف أرويها لك؟.. كيف أروي لك ما حصل، عندما سمعتْ النبأ.. كنت معها..

بدأت الدموع تنهمر من عيني ربيعة.. حدق رأفت في وجهها.. لقد صغر!.. صغر وجهها وفقدت بعض وزنها هي أيضاً.. كانت تقول من بين دموعها:

- الله يلعن من كان السبب، الله يجازي من كان السبب.. لقد دُمّرت حياتها.. المسكينة..

بعد قليل جففت دموعها وقالت:

- هل تعلم أنها بدأت تهذي؟.. قالت أنها ستذهب.. ستترك حلب نهائياً وتذهب إلى بلاد لا يهود ولا عرب فيها.. إلى بلاد لا أديان ولا آلهة فيها!..

استغفر الله العظيم.

- وأين هي هذه البلاد؟!..

- الصين.. قالت إنها ستذهب إلى الصين!..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- وستأخذني معها.. قالت أنها تملك مبلغاً كبيراً من المال يكفيها ويكفيني إلى آخر عمرنا!..

- وستذهبين أنت؟..

قالها مبتسماً.. فلم تجب.

بعد قليل سمعا صوت وداد فأسرعت ربيعة إليها.. ثمَّ نادت رأفت، عندما دخل قالت له وداد بصوت مكسور لا يكاد يسمع:

- أنا ممنونة.. شكراً لزيارتك.. كثّر خيرك.

- ولوْ يا وداد.. أنت غالية علينا جميعاً.

- يا إلهي كم كان يحبك ويحترمك..

وعادت إلى دموعها.

تكلم رأفت بطريقة بسيطة وجذابة.. تكلم عن قسوة الحياة ومفاجآتها.. عن قوة الإنسان وقدرته على التحمل.. تكلم عن المرأة وتفوقها على الرجل في تحمل الصدمات والمصائب، كان واضحاً تعاطفه مع مصاب وداد وكانت هي ممتنة جداً منه.. أما عن امتنانها من ربيعة فلم تكن كلمة امتنان تكفي.. لن تنسى في حياتها دموع ربيعة.. لن تنسى حضنها لها بساعديها لساعات وساعات.. هدهدتها لها.. نومها إلى جانبها في السرير ليالٍ وليال..

كان رأفت مستلقياً على سريره يستمع إلى الراديو.. أما أم نضال فكانت تنتظر انتهاء نشرة الأخبار لتتابع حلقة من حلقات أم كامل.. التمثيلية الشعبية الأكثر انتشاراً.

قام رأفت فجأة بإقفال الراديو بحركة نزقة وهو يلعن الأخبار ومن يقلل عقله بمتابعتها.. أخذ يفكر.. نحتاج إلى زعيم.. لبطل.. لرمز، ولكن أين هو؟.. هو موجود حتماً.. قد يكون شامياً، قد يكون عراقياً.. الأفضل أن يكون مصرياً، كان يفكر بصوت عالٍ وكأنه يحدث زوجته، فقالت له: الأفضل أن يكون متديناً.. يعيد لنا أمجاد العرب والإسلام، فوجئ رأفت بصوتها.. ابتسم لها ولزم الصمت.

كان اليوم هو الجمعة.. والجميع في المنزل، بعد قليل جاء نضال ابنه ليقول أن رمضان على الهاتف.. تذكر رأفت أنه طلب من رمضان وثيقة إنشاء الدولة اليهودية.. وألحَّ بطلبه، لعلَّ رمضان استحوذ عليها.. عندما كلمه عبر الهاتف علم أنها بالفعل معه، سأله رمضان إن كان سيراه في المقهى الشعبي قبل صلاة الجمعة أم بعدها، فاقترح رأفت أن يأتي إليه في البيت.. فيتناولان سوية قهوة الصباح.

عندما وصل رمضان واستقرا في غرفة الضيوف رحب به رأفت:

- أهلاً وسهلاً بك يا رمضان.

ستفاجأ بالعنوان.. عنوان الوثيقة.. إنه وثيقة استقلال دولة إسرائيل!..

- استقلال؟!.. استقلال عن من؟!..

ضحك رمضان ثم قال:

- قد يكون استقلالهم من الحكم العربي الفلسطيني الجاثم على صدورهم!.. دخلوا حرب الاستقلال ضد العرب المحتلين وربحوها ونالوا استقلالهم!..

وتابع متهكماً وهو يعطي الورقة لرأفت:

- يعني فعلوا كما يفعل أي شعب محتل.. ثاروا على المحتل العربي وطردوه، وها هي وثيقة الاستقلال، لا يمكن أن يكون قصدهم هو الاستقلال من حكم بريطانيا، لن يجرؤوا على قول هذا لأن أكثر من 90٪ من أعدادهم وصلت فلسطين بعد أن وضع الإنجليز أيديهم عليها.

سُمع صوت زينب تقول أن القهوة جاهزة فطلب منها رأفت أن تدخل.. ففعلت، قال لها وهي تقدم القهوة لرمضان:

- نصف كتبك التي تقرئينها من عندي، والنصف الآخر من عند رمضان.

- أهلاً وسهلاً بك يا أخي.

- حمل لي رمضان وثيقة إعلان الدولة اليهودية.. اجلسي واسمعي وسُمّي بدنك، وبدأ يقرأ: «نشأ الشعب اليهودي في أرض إسرائيل، وفيها اكتملت صورته الروحانية والدينية والسياسية، وفيها عاش حياة مستقلة في دولة ذات سيادة، وفيها أنتج ثرواته الثقافية والقومية والإنسانية وأورث العالم أجمع كتاب الكتب الخالد، وعندما أجلي الشعب اليهودي عن بلاده بالقوة، حافظ على عهده لها وهو في بلاد مهاجره، ولم ينقطع عن الصلاة والتعلق بأمل العودة إلى بلاده واستئناف حريته السياسية فيها. وبدافع هذه الصلة التاريخية التقليدية أقدم اليهود في كل عصر على العودة إلى وطنهم القديم والاستيطان فيه، وفي العصور الأخيرة أخذوا يعودون إلى بلادهم بآلاف مؤلفة من طلائع ولاجئين ومدافعين، فأحيوا القفار «انتبه يا رمضان.. فلسطين قفرة نفرة لا أحد فيها» وبعثوا لغتهم العبرية وشيدوا القرى والمدن

وأقاموا مجتمعاً آخذاً في النمو شيد اقتصادياته وثقافته ينشد السلام ويدافع عن دياره ويزف بركة التقدم إلى جميع سكان البلاد متطلعاً إلى الاستقلال الدولي. وفي عام 5657 حسب التقويم العبري الموافق عام 1897 ميلادية عقد المؤتمر الصهيوني تلبية لنداء صاحب فكرة الدولة اليهودية المرحوم تيودور هرتزل وأعلن حق اليهود في النهضة الوطنية في بلادهم، وتم الاعتراف بهذا الحق في تصريح بلفور في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني 1917.

قطع رأفت قراءته وقال:

- حتى الآن لم يأتوا على ذكر كلمة عن الفلسطينيين.. هل لاحظتم ذلك؟..

- ولن يأتوا على ذكرهم أبداً.

«تكون دولة إسرائيل مفتوحة الأبواب للهجرة اليهودية ولجمع الشتات، تدأب على تطوير البلاد لصالح سكانها جميعاً وتكون مستندة إلى دعائم الحرية والعدل والسلام مهتدية بنبوءات أنبياء إسرائيل. تقيم المساواة التامة في الحقوق اجتماعياً وسياسياً بين جميع رعاياها بغض النظر عن الدين والعنصر والجنس وتؤمن حرية الأديان والضمير والكلام والتعليم والثقافة وتحافظ على الأماكن المقدسة لدى كل الديانات وتكون أمينة لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة».

- يا للهول.. يا للوقاحة.. كثَّر الله خيرهم.. سيتركون لمن بقي من الفلسطينيين في بلده حرية الدين والمعتقد.. يا للعار!..

- على الأقل أتوا على ذكر سكان.. رعايا!..

- ماذا تريدهم أن يقولوا غير ذلك؟.. يقولون الحقيقة؟.. قمنا بعمل رائع.. طردنا شعباً من أرضه وأقمنا عليها دولتنا الصغيرة.. وهذه وثيقة استقلالنا؟..

علّقت زينب.

- لن نستطيع وضع حد لهذا الاستهتار.. لهذا الاستفشار إلا بالوحدة العربية.. نحتاج لبطل..لزعيم.

قالت زينب:

ـ كنت بالأمس في زيارة لأم عبد الله..أنت تعرف زوجها، إنه من الإخوان المسلمين.. يا إلهي كم هو خلوق ومهذب ومثقف.

تبادل رأفت ورمضان نظرة سريعة وهما يتابعانها:

ـ لم يكن من عادته مجالستنا ولكنه فعل هذه المرة.. كان الألم يعصره عصراً.

ـ عمّ ماذا تحدثتم؟..

ـ أنت تعرف.. الحل عندهم هو بالعودة إلى الدين الحنيف.

ـ فيريكونك وكأنك خارج الدين الحنيف.. هذه هي مشكلتهم دائماً، يركزون على نقطة واحدة.. عندما كنا نطبق الإسلام بحذافيره، كنا في العلالي، وعندما تراجعنا في تطبيقه أصبحنا في الدرك الأسفل.

قال رمضان ثم تابع:

ـ متى طبقنا الاسلام بحذافيره؟.. في أيام الأمويين أم أيام العباسيين؟.. حصل هذا، ولفترة وجيزة جداً، أيام الخلفاءالراشدين فقط.

أراد رمضان الاسترسال.. لكن نظرة صارمة من رأفت منعته، التقطت زينب ذلك، فعلقت وهي عابسة:

ـ أنا لا يهمني من كان يطبق الإسلام بحذافيره ومن كان لا يفعل.. ما أعرفه، وأنا متأكدة من ذلك، أنه لولا الإسلام لما سمع أحد بالعرب، ولما كانت تلك الحضارة الرائعة.. الحضارة العربية الإسلامية.

ـ معركتنا معهم ليست دينية يا زينب.. اليهود لم يأتوا ليغيروا لنا ديننا.. أتوا مستعمرين مستوطنين، هذه معركة كبرى، سنحتاج فيها لجميع مكوناتنا.. مسلمين ومسيحيين والجميع، الاسلام موجود، وهو قوي جداً وسيظل قوياً.. وسيدخل المعركة.. لم لا؟.. ولكننا نحتاج للجميع.. الجميع بلا استثناء، زمن الدول الدينية و الحروب الدينية ولّى يا زينب.

ـ ها هم اليهود أنفسهم أقاموا دولة دينية!.. ألم تقرأ قبل قليل، في

وثيقة إنشاء دولتهم، أنها ستكون على هدى أنبياء بني إسرائيل؟..

- لقد اتكؤوا على الدين يا زينب لإنشائها.. هرتزل وبن غوريون لا يؤمنون لا بموسى ولا بعصاه التي شقت البحر، ولا بكل أنبياء بني إسرائيل.. لقد استخدموا الدين وسينحّونه ما أن..

- ولكنهم سيقعون في مشكلة كبيرة.. تقول إنهم اتكؤوا على الدين وسيضعونه جانباً ما أن ينجحوا.. ولكن علة إنشائهم لدولتهم علة دينية.. كيف سيخرجون من ذلك؟.. مستحيل!..

- ستكون مهمتهم صعبة.. هي مشكلة بنيوية كبيرة، ولكنهم سيتحايلون.. أنت تعرفين الإنسان وقدرته على التحاذق واللعب بالأفكار وليِّها كما يشاء، سمعت أنه في أحد الاجتماعات التي عقدت مؤخراً.. أي بعد إقامة الدولة اليهودية، وقف أحد قيادييهم وقال: أنا يهودي قومياً ولكني علماني دينياً!.. تصوري.. هو أتى إلى فلسطين بعباءة دينية وعندما وصل، يريد خلعها أو تحويلها إلى عباءة قومية!.. كيف ذلك؟!.. إنه يريد تحويل اليهودية، التي هي ديانة، إلى هوية قومية.. لاحظي الإشكالية الكبيرة.. لاحظي الإرباك الكبير، يعني استخدموا بداية الدين ليأتوا إلى فلسطين.. قالوا إن الله وعدهم بهذه الأرض منذ آلاف السنين وقد سكنوها هم وأنبياؤهم، ثم طردوا منها وها هم عائدون إليها بصفتها الأرض الموعودة من الله، هذا كلام ديني.. هذا هو الدين اليهودي.. الدين الذي صاروا بسببه «شعباً» واحداً كما يدّعون هم أنفسهم.. أليس كذلك؟.. ولكن ما أن أتوا حتى بدأوا يقولون بتنحية الدين والقفز منه أو تحويله إلى قومية.. يريدون صناعة شعب.. اختراعه يعني، قد يعتمدون على بعض منظريهم الذين ادعوا النقاء العرقي لليهود، وهي كذبة كبيرة، فلا توجد مجموعة في العالم حافظت على نقائها العرقي، ولو بالحد الأدنى، مدة ألفي سنة.. ثم إن هؤلاء يقعون في الفخ النازي.. فنقاء العرق وتفوقه «شعب الله المختار» هو النازية بعينها، تصوري.. يقولون: من يريد أن يكون يهودياً متديناً فليكن،

ومن يريد أن يكون علمانياً فليكن.. ولكن متديناً كان أو علمانياً أو ملحداً.. هو يهودي بقوميته!.. هل تفهمين؟.. كيف تفهمين؟.. أنا نفسي لا أفهم نفسي!.. هذا الإرباك يا زينب سببه بسيط جداً.. هم ليسوا شعباً ويعرفون ذلك جيداً.. لكنهم يريدون فبركته.. و يفعلون ذلك بإلحاح.. يتشاطرون.. يتذاكون، ولكنهم لا يفعلون شيئاً سوى الاستخفاف بعقول الناس.

- بظني أنهم سيكفون عن التمسك بالناحية العرقية، سيركزون على الثقافة المشتركة التي تجمع يهود العالم.. وهي كذبة كبيرة أخرى.

- من أين أتتنا هذه المصيبة يا ربي؟!..

- أتتنا من القرن التاسع عشر يازينب.. أتتنا من أوروبا القرن التاسع عشر.. قرن القوميات.. تيودور هرتزل ابن أوروبا وابن القرن التاسع عشر..

قال رمضان:

- في اعتقادي.. أن البورجوازية اليهودية في شرق أوروبا أسهمت إلى حد كبير في هذه المصيبة، فالبورجوازية اليهودية الصغيرة والمتوسطة هناك، حوربت من البورجوازيات الأخرى.. خاصة البولونية والأوكرانية والهنغارية، من أجل طردها من مجالات الصناعة والتجارة.. حربهم عليها كانت حرب مصالح مستغلين بخبث العداء الهائل للسامية، هذه البورجوازية اليهودية كانت فاعلة جداً في نشوء الحركة الصهيونية، إذ رأت فيها الحل لمصيرها خارج بلادها، متكئة بطبيعة الحال على دعم الطبقة الوسطى اليهودية التي شعرت أكثر من غيرها بالاضطهاد.

- طيب.. تقول يا أبو أحمد إنهم علمانيون.. ولكن لديهم فصائل دينية متطرفة جداً، قد تتغلب على علمانيتهم.. أليس كذلك؟..

- إنهم أقلية.. وككل أقلية متطرفة دينية.. هي غبية، سيحافظون عليها كأقلية غير فاعلة.. ستفيدهم.. سيستخدمونها كلما أرادوا، ولكن سيراقبوها جيداً حتى لا تتمادى.. باختصار.. هم لا يريدونها دولة دينية،

يريدونها دولة يهودية علمانية..تركب التطرف الديني عند الطلب!..

- سيخترعون مقومات أخرى لدولتهم.. قد تكون شبيهة بمقومات دولة جنوب أفريقيا، أنا أقول منذ الآن أنها ستكون مقومات مبنية على المصلحة.. مصلحة استمرار دولتهم بأي شكل أو صفة كانت، وستكون هذه مرتبطة بمصالح الدول الكبرى من تسلط وهيمنة والإمساك بالمنطقة وثرواتها الهائلة.. وهم يهود تجار أفذاذ، حينها لن يتحدثوا عن يهوديتهم إلا في المناسبات.

- كما قلت قبل قليل، معركتنا معهم واضحة.. هي قومية، معركة قومية كبرى.

- أنا قومية يا أبو أحمد.. ولكن الشعب.. الناس العاديون شغوفون بالدين وهو سلاح قوي جداً.

- الدين سلاح خطير يا زينب.. سلاح ذو حدين ماضيين.

ران الصمت لبعض الوقت ثم قطعته زينب قائلة:

- أبو عبد الله يقول إن الإخوان المسلمين المصريين قاتلوا في فلسطين كما لم يقاتل أحد.

- قاتلوا مثل ما قاتل شباب جيش الإنقاذ، والجميع كانوا أبطالاً، وإن يكن هناك الآن لغط حول دور فوزي القاوقجي.. لغط لا أريد ولا ينبغي أن أشارك فيه.

ضحك رمضان وهو يسمع قول رأفت الأخير.. ثم قام مستأذناً فرافقه رأفت إلى الباب، عندما عاد إلى مكانه قالت زينب:

- لم أحبه!..

- من؟.. رمضان؟..

- نعم.. لم يعجبني، إنه دعي متحذلق.. لو كانت أم نضال حاضرة وسمعته لرمته «ببابوجها» ولأصابته في رأسه!..

ضحك رأفت وهو يقول:

ـ لـو كانـت أم نـضال حاضـرة لمـا جـرى هـذا الحـديث أمامهـا مـن الأساس، ولكنك تظلمينه يا زينب.. إنه شاب جيد.

ـ هو شيوعي أليس كذلك؟..

صمت رأفت لبرهة قبل أن يقول:

ـ لا.. ليس شيوعياً.

ـ لا.. لا تعتقد أو لا تعرف؟..

ـ هو نفسه لا يعرف.. ولكن أنا أعرف.. إنه ليس شيوعياً.

ـ ما معنى هذا؟..

ـ رمضان قارئ نهم جداً.. إنه جرذ قارض للكتب، سأقص عليك قصة تكشف لك رمضان وتعرفك على طريقة تفكيره.. في إحدى المرات كنا في المقهى الشعبي، وإذ بسائحين يدخلان.. علمنا أنهما من هولندا، كان أحدهما يعرف قليلاً من الفرنسية.. فتبادلت معه أطراف حديث ركيك.. فهمت منه أنه يأسف كثيراً لأنه لا يستطيع زيارة مكة والمدينة، لأن ذلك ممنوع عليه كونه مسيحياً.. بدا وكأنه يضع نقطة على الإسلام وعلى نظرته للحريات الفكرية والعقائدية، ترجمت لرمضان كلام الهولندي محاولاً كسب الوقت لأردَّ عليه، وإذ برمضان ينبري ويجيبه.. كنت أترجم للهولندي كلام رمضان وأنا مندهش.. قال: ألا توجد الآن ـ في وقتنا الحالي ـ دول تحظّر السلطة فيها أحزاباً مناوئة لها؟.. دول كثيرة تفعل ذلك، منها الولايات المتحدة الأميركية مثلاً.. التي لا يمكن أن تسمح للحزب الشيوعي بالظهور فيها.. لا الآن ولا بعد مئة سنة.. لماذا؟.. لأنه عقائدياً مناوئاً للسلطة.. ترى انه يشكل خطرا عليها، نجد هذا الحزب في كثير من الدول الأوروبية، ولكن ليس في أمريكا.. مع كل التغني بالحريات الفكرية والتغني بالديمقراطية.. أمريكا لن تسمح ـ بمئة طريقة وطريقة ـ لهذا الحزب بالنشاط في أراضيها، ما فعله الإسلام هو هذا بالضبط!.. منع أو حظّر وجود الأحزاب المناوئة في مكان بدء انطلاقته، حينها الأحزاب

المناوئة كانت الديانات الأخرى أليس كذلك؟.. المسيحية واليهودية، هم يفعلونها الآن في منتصف القرن العشرين.. هو فعلها في القرن السابع أي منذ الف وثلاثمئة عام وفي مكان محدد.. وهذا حقه فأين المشكلة؟.. كان حظراً سياسياً ـ بلغة اليوم ـ لا أكثر ولا أقل.. وجدوا أنه يخدم قضيتهم «دعوتهم» وقتها، والدليل على أنه كان حظراً سياسياً أن بلادنا العربية كلها ـ ما عدا السعودية ـ تعج بالمسيحيين وكنائسهم، ثم تابع رمضان يقول: المشكلة لا تكمن في ذاك الحظر.. المشكلة تكمن في استمراره حتى الآن بلا مبرر، ولكن لا أحد يجرؤ على الدخول في هذا التابو.. يعتبرونه من المحرمات وهو ليس كذلك أبداً، وختم رمضان كلامه قائلاً للهولندي.. الإسلام أكثر دين في العالم تقبلاً للآخر ـ فكراً وممارسة ـ ودعك من الأيام الرديئة ومن المسلمين الرديئين.. لقد كانوا وكانت تمر في دورات متباعدة وقصيرة جداً. كان يقصد يا زينب أن الاسلام هو الدين الوحيد الذي امتلك الجرأة ليقول.. وبوضوح: أنا استمرار لمن سبقني.. أنا أكمل ما جاء قبلي، وهذا هو سبب تقبله للآخر ـ فكراً ـ على الأقل.

ـ لاشك يا أبو أحمد أنه ذكي.. ولكني لا زلت لا أحبه!..

ــ رمضان شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره إلا بسنتين أوثلاث.. أفكاره وآراؤه لم يتبلور منها إلا القليل.. ولكن بهذا العقل النير.. أنا لا أخشى عليه أبداً.

ـ هل يتكلم بهذه الطريقة في المقهى الشعبي؟..

ــ لا أحد يستطيع ردع رمضان عن الكلام يا زينب.. ولكنهم يتكاثرون عليه ويغلبونه.. ثم يسكتونه.

عندما أزاحت وداد ستارة نافذتها رأت العربة.. عربة الكعك، خفق قلبها بشدة واضطربت ولم تفهم!.. ولكن عندما أمعنت النظر رأت رأس صبي يظهر من وراء العربة، لا شك أنه علي.. ابن أبي علي، كانت العطلة الإنتصافية للمدارس بدأت منذ أيام.. كان ينادي على كعكه مستعملاً كلمات أبيه نفسها.. يا للهول!.. حدثت وداد نفسها، لماذا يحصل هذا؟.. هل كان عليه أن يأتي إلى الشارع نفسه، ويركن عربته في المكان عينه، ويعيدها إلى الذكرى ذاتها؟..

كان صغير السن.. في الثامنة من عمره تقريباً، كان شتاء 1949 قارساً، يا إلهي.. عليه أن يمكث في البيت.. فكّرت وداد، بعد أن جففت دمعتين، نادته وأشّرت له بإصبعين، ارتعشت يدها وهي تفعل ذلك، تناول الصبي كعكتين وثقبهما بالتتالي بإبهامه واضعاً في كل ثقب قليلاً من الزعتر، كما كان يفعل أبوه تماماً، وقفز صاعداً إليها.. عندما فتحت له الباب أخذت الكعكتين وناولته ثمنهما، سألته عن اسمه فقال لها.. علي، لم يكن يشبه أباه.. العينان فقط كانتا مثل عيني أبيه.. بشكلهما، بلونها، بإشعاعهما.. يا للهول، شعرت برجفة خفيفة أعادتها مع كلمات علي إلى وعيها.. قال:

ـ هل تريدين شيئاً آخر؟..

فأجابته على الفور:

ـ نعم أريد، أريدك أن تحمل لي طلباتي من الخضرجي أبو صطيف

ولكن ليس اليوم!..

هكذا بدأت علاقتها بعلي.. لم يكن يمر يوم إلا وتناديه.. تطلب منه كعكاً أو أمراً ما من الخضرجي أو من غيره، طلبت من ربيعة أن تحيك له «كنزات» من الصوف ففعلت.. كانت ربيعة تراقبها وهي تتعلق رويداً رويداً بهذا الصبي.. والحقيقة أن ربيعة نفسها، وبسبب الشحنة العاطفية التي كانت تفيض عن وداد، بدأت هي الأخرى تتعلق به، إنتهت العطلة الانتصافية ولكنه استمر بالمجيء مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، أهدته وداد في إحدى المرات سلسالاً من الفضة.. كانت نجمة صغيرة من الفضة أيضاً تتدلى منه.. كانت نجمة داوود!.. عندما سمع رأفت بالأمر من ربيعة أرسل بطلب علي، وكان على اتصال دائم بعائلته بسبب الرعاية التي كان يوليها لها، تأكد من أن النجمة هي نجمة داوود، لكنه تركها مع السلسال حول رقبة الصبي، ولم يقل له شيئاً، بل قال لربيعة.. التي حاولت أن تناقشه بالأمر، شرح لها أن النجمة بالأساس هي رمز سوري يمثل الذكر والانثى وقد تداخلا، فوجئت ربيعة وسألت كيف يأخذ اليهود رمزاً سورياً، فأجابها.. قد يكون لأنهم سوريون!..

- اليهود سوريون؟!..

- إنهم قبائل سامية، تنقلوا كثيراً في سوريا ثم اتجهوا إلى جنوبها.. أي فلسطين، وهناك تقوقعوا على أنفسهم وعلى دينهم إلى أن طردوا منها.

- مادام الأمر كذلك.. فأين المشكلة في حمل هذه النجمة؟..

- ما بك يا ربيعة؟.. الرمز في الأساس سوري، ولكنه أصبح الآن شعاراً للدولة اليهودية، هل تريدين من ابن الشهيد عبد الوهاب السواق أن يضعه حول رقبته؟!.. تصرفي يا ربيعة.. تصرفي مع وداد.

وكان الأمر.. نزعت ربيعة ووداد النجمة من السلسال ووضعتا مكانها آية الكرسي، وانتهت المشكلة بهدوء.

كان علي يمرُّ أسبوعياً على المكتبة، مرتين أو ثلاث مرات.. فيجلسه

رأفت إلى جانبه ويدردش معه في كل شيء، يسأله عن رفاقه.. عن أساتذته، عن دروسه وعن أخته وأمه، كان علي يشعر أن عنده ثلاثة أسر، أسرته الحقيقية، وأسرة ثانية في حي الجميلية.. وداد وربيعة، وأسرة ثالثة هنا في مكتبة رأفت، في ذلك اليوم كان علي على وشك مغادرة المكتبة عندما وصل إليها أبو جورج.. حيا أبو جورج الصبي بحرارة وصافحه مصافحة الرجال، ثم أخذ مكانه أمام مكتب رأفت بينما كان علي يغادر.. سأل رأفت صديقه بلا مقدمات:

- ما هو موقف اليهود اذا قلت لهم أنهم سوريون؟..

- انهم ينفرون من ذلك، ولكن إذا اعتمدنا روايتهم بأنهم قدموا من العراق - من بلاد ما بين النهرين - فهم سوريون.

- القوميون السوريون يقولون إن السيد المسيح كان سورياً وليس يهودياً!..

- كان يهودياً.. وسورياً، وهم أيضاً.. ولكن هذا ليس مهماً، إن صحت تسميتهم سوريون أم لم تصح، فقد كانوا قبائل سامية.. كانوا رعاة رحّل يتنقلون من مكان إلى مكان في طول الهلال الخصيب وعرضه.. أي في سوريا الكبرى، مثلهم في ذلك مثل جميع القبائل السامية الأخرى، إلى أن استقروا في جنوبها.. أي في فلسطين.

- معظم تاريخ منطقتنا كتبه الرعاة والمزارعون.. تاريخ منطقتنا كله يختصره هؤلاء وما دار بينهم من حروب وغزوات.

- هذا صحيح ومن أيام قابيل وهابيل.. الراعي والمزارع.

- ولكن المبادرة كانت دائماً بيد الرعاة.. هم من كانوا يغزون ويغيرون.. إلى أن يصبحوا مزارعين.. فيأتي من يغزوهم.

- عندما وصل اليهود إلى فلسطين.. وصلوها كرعاة.. بدو رحل، فاشتبكوا على الفور بسكانها الحضر.. المزارعين.

- هل تعلم أن هذا يحصل حتى الآن؟.. البدو الرعاة في المحيط الشرقي

لمدينة حماه.. لازالوا حتى الآن يغيرون على الحضر.. على قرى المزارعين في ريف حماه.. خاصة في السنين العجاف.. تصور هذا يحصل حتى الآن، وإن بشكل محدود، ونحن في منتصف القرن العشرين!..

- المضحك أن اليهود الذين قدموا من أوروبا إلينا، لا يفقهون شيئاً من هذا!.. إنهم لا يمتون بصلة لهذا التاريخ، ولا لأولئك الرعاة الأوائل ولا يعرفون شيئاً عنهم ولا عن أصلهم!.. إنهم أوروبيون بعقلية أوروبية.

- أنا أتفق معك..حتى ليخيّل لي أنهم يمثلون بدقة الرجل الأوروبي الذي غزا جنوب الكرة، مدعياً حمل الرسالة الحضارية المجوجة إياها.. رسالة الرجل الأبيض.

- لا.. اليهود لم يهتموا بحمل أيَّة رسالة لأحد.. عدا رسالة طرد للفلسطيني والحلول محلّه.

وصل رأفت إلى المكتبة صباحاً.. قال له أحد الموظفين إن سيدة اسمها غولدا اتصلت بالهاتف وسألت عن رواية «تحت ظلال الزيزفون» لمصطفى لطفي المنفلوطي، وأعطت رقم هاتفها قائلة أنها صديقة قديمة، سأله رأفت إن كانت متوفرة نسخة من الرواية، فأجابه بالإيجاب، طلب فريدة على الهاتف.. فأتاه «البون جور» منها كنسمة صباحية منعشة.. قالت له إنها تعلم سلفاً انه لن يأخذ منها ثمن الرواية لذلك ستكافئه بكأس من العرق مع «مازة» فاخرة هذا المساء، حيث أن زوجها وجميع أولادها سافروا إلى دمشق لإنجاز بعض المعاملات العقارية، عندما أجابها بأنه لا يتناول مشروبات روحية مقترحاً عليها اللقاء في مكان آخر، وافقت على الفور.. كان رأفت يملك عشّاً صغيراً في حي العزيزية لم يستعمله منذ زمن.

هناك التقيا بعد المغيب بقليل.. فوجئ رأفت بجسدها، لم يصدق أنها أنجبت أربعة أولاد.. اثنان منهم تجاوزا العشرين من العمر، صحيح أن هناك بعض السمنة، لكنها سمنة أسهمت في تألق جمالها وجمال جسدها واتساق مكوناته.. كانت رائعة.. يا لها من امرأة، قال في سره.. لكن لم يفته صعوبة وصولها إلى ذروتها.. مما اضطره لانتظارها مدة أزعجته، كان ينظر إليها وهي تدخن عارية كما ولدتها أمها، كان في حركاتها والسيجارة في يدها.. شيء من السوقية، فاستغرب الأمر، إلا أن ثرثرتها، إذ كانت امرأة ثرثارة من الطراز الأول، أزالت كل استغرابه، قصت عليه كل شيء عن حياتها الزوجية، وبطريقة عفوية شيقة.. فاجأته رغبتها في كشف

أسرار حياتها الخاصة والحميمية له، قالت له إنها في السنة الأولى من زواجها لم تكن تصل إلى ذروتها أبداً إلا إذا استحضرته!.. كانت تغمض عينيها وتتذكر تلك القبلة.. وإذ بالرجل الذي فوقها هو رأفت وليس زوجها، قصت عليه مرض زوجها النفسي.. قصت عليه كيف ظلت عذراء لمدة ثلاثة أشهر بعد الزواج.. حتى اكتشفت الأمر.. حتى اكتشفت سبب عنانة زوجها.

فهم منها أن والد زوجها كان طاغية.. كان يلزم ولده على العمل معه من الصباح إلى المساء.. حتى يوم السبت كان لا يتركه يرتاح فيه.. وقد دفعه، عندما أصبح في السادسة عشر من عمره، على الذهاب إلى المحل العمومي.. حيث العاهرات بأجر مقطوع، وذلك لتفريغ شحنته كما كان يسميها والده، لم يُحب ولم يُقم أية علاقة مع أية فتاة خارج المحل العمومي، وعندما تقدم في العمر قليلاً استبدل عاهرات الشوارع والكاباريهات بالمحل العمومي.. واستمر في ذلك إلى أن تزوج.. عندها كانت المفاجأة. تأخرت هي كثيراً في إيجاد الحل.. ولكنها وجدته، لعبت دور العاهرة.. انتظرته أول مرة في أحد الشوارع، فمر بسيارته وحملها إلى البيت.. فحُلَّ الأمر، عندما نقدها أجرها.. فعل ذلك وكأنه لا يمثل دوراً، بل يقوم به حقيقة.. الأمر الذي أزعجها في البداية.. ولكنها تعودت عليه مع الأيام، بل أكثر من ذلك قررت أن ترفع من أجرها بالتدريج!.. فنجحت وجمعت ثروة حوّلت معظمها إلى ذهب، مرت السنة الأولى ثم بدأ يعاملها باحتقار، وفي إحدى المرات رمى النقود عليها قبل أن ينزع ثيابه، فغضبت وقررت الانتقام، قاطعها رأفت ليشرح لها أن زوجها لم يكن يحتقرها، وإنما كانت هذه طريقته ليشعر بالتفوق ويؤمن الانتصاب، فأجابته:

- بلا انتصاب.. بلا بطيخ، في اليوم التالي انتقمت منه!..

- ماذا فعلت؟..

- نمت مع سائقه!..

انفجر رأفت بالضحك.. يالها من امرأة مهضومة، قال رأفت لنفسه وهو

يشهق بضحكته، كانت تتكلم وهي لا تزال عارية تماماً.. تستند برأسها على مسند السرير، وتضع إحدى ساقيها على ركبة ساقها الأخرى المنثنية وسيجارة جديدة بيدها.. تابعت تقول:

ـ سائقه كان فحلاً شامياً بشاربين طول الواحد منهما شبر، كنت أعطيه، دون أن يطلب، جزءاً بسيطاً لا يذكر مما كنت آخذه من مال زوجي مقابل نفس المهمة، ولكن الغبي وقع في حبي وتعلق بي فصرفته.

السائق الثاني كان شركسياً.. طويلاً، شعره أشقر وعيونه زرقاء.. يا إلهي كم كان جميلاً، إلا أن مشكلته كانت في شركسيته، أنت تعلم أن النساء الشركسيات يعاملن رجالهن وكأنهن أمهاتهم.. يخدمونهم بطريقة نراها نحن مذلة.. يغسلونهم في الحمام أو يغسلن لهم أقدامهم، في إحدى المرات.. الحيوان طلب مني أن أغسل له قدميه، فغسلت له مؤخرته وركلته عليها وصرفته.

كانت قهقهة رأفت لا تتوقف.. أما هي فكانت تتكلم وتتحرك وكأنها ليست عارية.. تستدير تارة باتجاهه فيلامس ثدياها، وقد تدليا نحوه، ساعده أو كتفه.. أو تستدير منبطحة على بطنها فترتفع مؤخرتها نافرة كتلة رملية صغيرة ناعمة، لم يستطع أن يقاوم، دخل في جولة ثانية.. طالت كثيراً.. كثيراً، وعندما همد.. اكتشف أن هذه الجولة اختصرت معظم تجاربه الجنسية منذ بدأها وحتى الآن، أما هي فعادت إلى هوايتها المفضلة.. الثرثرة، قالت:

ـ اجتمعت مع زوجتك السرية.. ربيعة، يا لها من امرأة جميلة!..

ـ زوجتي السرية؟.. ليس عندي زوجة سرية.. وربيعة التي تتكلمين عنها هي امرأة نرعاها أنا وأبو اسحق.. أظنك تعرفينه.

ـ طلاع من ها الأبواب.. هكذا حكايا لا تنطلي عليّ!..

ـ أنت حرة.

ـ أدهشتني وأعجبتني جداً علاقتها بوداد.. وداد التي كان يرعاها ذاك

الشاب الجميل الذي قتل في حرب فلسطين!..

- عمّ تتكلمين؟.. يا لك من ثرثارة.. أنت تثرثرين بأخبار كلها خاطئة.. وداد كانت تعبد زوجها فؤاد، وقد فجعت بموته كما لم تفجع زوجة.

- ما دخل هذا بذاك؟..

- المرأة إن أحبت.. ألا تخلص؟..

- ليس دائماً، وليس بالضرورة.. ثم إن المرأة تستطيع أن تحب أكثر من واحد.. وكأنك لا تعرف يا خبيث، لا تنظر إليّ.. أنا لا أحب أحداً، ولكن المرأة قد تحب جانباً في رجل لا تجده في رجل آخر.. وفي الآخر جانباً لا تجده في الأول، فتحل المشكلة بأن تحب الاثنين!.. كل نساء العالم يفعلن ذلك، ولو بخيالهن، أو بأصابعهن!.. أما القلة، ولست متأكدة أنهن قلة، فيفعلنه عن حق وحقيق!..

كان رأفت ينظر إليها متفاجئاً.. فتابعت:

- أنتم تظنون أن المرأة الجميلة غبية أليس كذلك؟!.. أنتم مخطئون.. إنها تظهر كذلك لأنها لا تستخدم ذكاءها.. هي لا تحتاجه، جمالها يكفيها، الجمال قوي.. قوي جداً يا رأفت، أنت لا تستطيع تصور القوة التي أشعر بها عندما أدخل إلى مكان.. أي مكان، رجال كان فيه أم نساء، لو تعرف أعداد وأنواع الرجال الذين ركعوا أمامي.. رجالٌ أثرياء جداً، ضباطٌ كبارٌ، وزراء.. بل إن وزيراً أقسم لي مرة أنه مستعد لمقايضة نظرة منّي بوزارته كلها.. لقد صددتهم كلهم.. فما حاجتي إليهم؟.. عندي السائق.. يقوم بالمهمة على أكمل وجه وبأقل وجعة راس.. وهو يتبدل متى أردت، لذلك إن ذهبت إلى الشام وسألت عني هناك، سيقولون لك أني أصعب وأشرف امرأة مرت عليها!..

- هل ستهاجرون إلى فلسطين؟..

- نهاجر إلى فلسطين؟.. هل أنت مجنون؟.. نحن أغنياء جداً يا رأفت.. سنهاجر - والكلام بيننا - إلى إيطاليا.. إلى ميلانو، معظم أموالنا أصبحت

هناك.

- ولكنك سررت بنتيجة الحرب.. حرب فلسطين؟..

- طبعاً سررت.. كان سروراً أشبه بالسرور الذي كان ينتابنا أيام المدرسة عندما كنا نتفوق على مدرسة أخرى بمباراة كرة الطائرة، لقد لعبنا أحسن منكم، فربحنا.

- هل سأراك قريباً؟..

- أعتقد ذلك.. فزوجي - حتى الآن - يرفض توظيف سائق هنا في حلب.

كان رأفت والأستاذ ضياء يتمشيان باتجاه مقهى الأفندي.. كان حديث الانقلاب العسكري طاغياً على كل حديث آخر، فحسني الزعيم ـ الجنرال المعروف ـ ضرب ضربته في آخر آذار، واستلم الحكم، عند ولوجهما المقهى كان الحاضرون منغمسين بالموضوع ذاته فأخذا مكانيهما وتابعا الموضوع وكأنهما يتابعان حديثهما.. قال الحاج عبد القادر:

- يا جماعة.. الموضوع لا علاقة له بالتكتلات العربية ولا بالسفارات الأجنبية.. الموضوع يتعلق - وصدقوا أو لا تصدقوا - بتنكات السمنة.. بعبوات السمنة.

- عبوات السمنة؟.. ما قصتها؟..

ـ هيئة الإمداد والتموين في أركان الجيش، أو أحد ضباطها، اتُّهم بشراء تنكات سمنة قيل أنها من النوع الرديء.. وبأسعار عالية جداً، أثير الموضوع في الوزارة.. فجن جنون الضباط وقاموا بالانقلاب!..

- من يصدق هذا الكلام؟.. انقلاب عسكري طويل عريض.. واستلام حكم، كل هذا حدث بسبب تنكات السمنة؟!..

- لا شك أن الأسباب الحقيقية تكمن في أمكنة أخرى.. التكتلات العربية ليست بعيدة عنها ولا السفارات، عبوات السمنة سمعت أنا بقصتها.. وقد تكون حجة.. ذريعة، استغلها الضباط للدفاع عن كرامتهم المجروحة بسبب التهمة إياها.. ولا ننس أن الساسة ـ المستائين من تدخلات العسكر في شؤونهم - بالغوا في الحديث عن الفساد في الجيش، وربما لفقوا لهم هذه

التهمة.

- لا تنسوا تداعيات حرب فلسطين.

- ولا تنسوا موضوع فؤاد مردم وتحويل سفينة الأسلحة الايطالية الى اسرائيل بدلاً من توجهها الى سوريا، وقصته مع الجاسوسة الاسرائيلية.

- والمعارضة الشديدة، في مجلس النواب، لمشروع خط أنابيب النفط «التابلاين».

- يا جماعة.. لا تستغربوا شيئاً، تستطيعون أن تقولوا إن الأسباب تشمل كل ما ذكرتم، من عبوات السمنة.. إلى الصراع حول سوريا ودور شركات النفط فيه.. إلى هزيمة حرب فلسطين.

- هل سمعتم ما فعله حسني الزعيم بالأستاذ أحمد.. النائب في مجلس النواب؟..

- هل القصة صحيحة؟.. هل النبأ صحيح؟..

- يا سيدي سمعتها أنا من الأستاذ أحمد شخصياً.. كان يرتجف عندما رواها لي..

صمت الجميع فتابع الحاج عبد القادر:

- وصل لحسني الزعيم أن الأستاذ أحمد يرش كلاماً بحقه وبحق الضباط الآخرين.. فأرسل في طلبه موجوداً.. نقلته سيارة جيب عتيقة تابعة للشرطة العسكرية من حلب إلى دمشق وكان في البيجاما.. استغرقت الرحلة ثماني ساعات، وصل قرب منتصف الليل إلى قصر المهاجرين، بعدها بدقائق أدخلوه إلى مكتب رئيس الدولة.. قال له حسني الزعيم كلمتين اثنتين وطرده.. ثم أعادته سيارة الجيب ذاتها إلى حلب و بالليلة نفسها، الكلمتان كانتا.. تِلحس مؤخرتي!..

- قالها بالحرف؟..

- بالحرف.

- إنها الإشارة الأولى إلى مدى الاستفشار الذي توصل إليه السلطة

المطلقة.

ـ لن يبقى حزبٌ سياسيٌّ إلا ويقف ضده.

ـ سمعت أن هناك غزلاً بينه وبين القوميين السوريين.

ـ لا يوجد غزل لا من قريب ولا من بعيد.. استقبل زعيمهم أنطون سعادة في سوريا نكاية بالحكومة اللبنانية.. وقد يسلمه لهم إذا اصطلحت أموره معهم.

ـ قد يكون لحسني الزعيم طموحات لدولة أكبر.. تضم سوريا ولبنان، وربما الأردن، وهذا هو سبب الغزل.

ـ ربما، ولكن يالهذا الرجل.. أقصد أنطون سعادة، يا للجاذبية الشخصية التي يتمتع بها.

ـ لن تفيده في شيء جاذبيته هذه.. لقد دخل بقوة في اللعبة السياسية للمنطقة، وهو يشكل ـ بفكره السوري القومي ـ خطراً على جميع الحكومات.. جميعها بلا استثناء، السورية واللبنانية والأردنية والعراقية.. ولن تلبث هذه أن تلمّس على رأسها وقد تصفيه.

ـ تقصد تغتاله؟..

ـ نعم.. لا يمكن أن يتركوه.. جاذبيته وعناده سيكونان سبب مقتله.

ـ قد يقتله البعثيون.. فهم خصومه العقائديون.

ـ لا لن يفعلوا.. إنهم منافسون على المدى البعيد، المنافسة بين فكرهم العروبي وفكره القومي السوري منافسة طويلة الأمد.. سيصطدمون ببعضهم، ولكن ليس الآن.. خطره الملح هو على الحكومات وليس على البعث، والحكومات نَفَسُها قصير وستتصرَّف.

ـ ولكن هل ستجرؤ؟.. الحكومات تغتال؟.. يا للفظاعة!..

ـ سيجدون وسيلة.. إخراجاً ما.

ـ أنا سأعود إلى الخصومة العقائدية بين القوميين العرب والقوميين السوريين.. أليست من العبثية والسخف هذه الخصومة؟.. الاثنان يسعيان إلى

الوحدة.. القوميون السوريون يريدونها بهذا القدر «وأشر رأفت بيديه الاثنتين» والقوميون العرب يريدونها بهذا القدر «وباعد بين يديه أكثر وأكثر» أليس من الغباء أن يتنافسوا ويصطدموا ببعضهم؟.. مع أنهم متفقون على أن الخطر والعدو واحد.. إسرائيل؟..

- رأفت أفندي يريد الوحدة بأي أساس كان، وبأي شكل توفر، وبأسرع وقت ممكن.

أنت محق تماماً.. فلا وقت لدينا للمناكفات الفكرية ولا للمماحكات العقائدية!..

في هذه الأثناء أطل رمضان من خلال باب المقهى.. كان يبحث عن رأفت، وعندما لمحه دخل واتجه نحوه.. فقام هذا وحياه بحرارة وطلب له كرسياً، عندما أخذ رمضان مكانه أخرج من جيبه ورقة صغيرة أعطاها لرأفت قائلاً إنها نص البلاغ رقم «1» للانقلاب.. علق الحاج عبد القادر قائلاً:

- لقد سمعناه جميعاً عبر الراديو.. منذ اليوم الأول.

- هذا صحيح.. ولكن رأفت أفندي يقول إن النبأ المكتوب غير النبأ المسموع، فهو يجعلك تفهم أكثر.. وأنا أتفق معه.

نظر الحاج عبد القادر باهتمام إلى رمضان ثم طلب من رأفت نص البلاغ وعندما أصبح بيده بدأ يقرأ بصوت خافت ولكن مسموع:

- بلاغ رقم «1»: مدفوعين بغيرتنا الوطنية، ومتألمين لما آل إليه وضع البلد من جراء افتراءات وتعسف من يدعون أنهم حكامنا المخلصون، «عندما قرأ كلمة افتراءات نظر الحاج مبتسماً إلى رفاقه وكأنه يذكرهم بما قاله عن عبوات السمنة» لجأنا مضطرين إلى تسلم زمام الحكم مؤقتاً في البلاد التي نحرص على المحافظة على استقلالها كل الحرص، وسنقوم بكل ما يترتب علينا نحو وطننا العزيز، غير طامحين إلى استلام الحكم، بل القصد من عملنا هو تهيئة حكم ديمقراطي صحيح، يحل محل الحكم

الحالي المزيف، وإننا لنرجو من الشعب الكريم أن يلجأ إلى الهدوء والسكينة، مقدماً لنا كل المعونة و المساعدة، للسماح لنا بإتمام مهمتنا التحريرية، وإن كل محاولة تخل بالأمن، ويمكن أن تظهر من بعض العناصر الهدامة الاستعمارية تقمع فوراً دون شفقة أو رحمة. 30 آذار 1949 ـ القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة.

قال الأستاذ ضياء:

ـ قلبي يحدثني أننا سنسمع أكثر من بلاغ رقم «1» في القادم من الأيام!..

بعد أربعة أشهر وأربعة عشر يوماً جرى الانقلاب الثاني.. قام به اللواء سامي الحناوي، تم إعدام حسني الزعيم بعد إنزاله من مصفحة كانت تقله إلى المعتقل.. أعدم على قارعة الطريق، أو في حقل رماية، قيل أن من قتله كان ضابطاً قومياً سورياً.

لم يتأخر رمضان في حمل البلاغ رقم «1» مكتوباً إلى رأفت، وكان من سبعة سطور: «لقد قام جيشكم الباسل بالانقلاب يوم الثلاثين من آذار الماضي لينقذ البلاد من الحالة السيئة التي وصلت إليها، لكن زعيم ذلك الإنقلاب أخذ يتطاول هو وحاشيته على أموال الأمة، ويبذرها بالإثم والباطل، ويعبث بالقوانين وحريات الأفراد.

لذا وبعد الاعتماد على الله عزم جيشكم، الذي لا يريد إلا الخير بالبلاد، أن يخلصها من الطاغية الذي استبدَّ هو ورجال حكومته، وقد أتم الله للجيش ما أراد، فأنقذ شرف البلاد، وآلى على نفسه أن يسلم الأمر إلى الأحرار المخلصين من رجالات سوريا، وسيترك الجيش لزعماء البلاد أنفسهم قيادة البلاد وسيعود الجيش إلى ثكناته ويترك السياسة لرجالاتها». دمشق 14 آب 1949 .

عندما أنهى رأفت قراءته للبلاغ.. التفت إلى الأستاذ ضياء وسأله إن كان لاحظ مثله ابتهاج الحاج عبد القادر، فأجابه هذا بالإيجاب.. إذن،

فكر رأفت، الاستنتاج سهل وسريع، هوى الانقلاب الجديد هو عراقي بامتياز.

قال الأستاذ شكري:

- وبشر القاتل بالقتل.

- حسني الزعيم لم يقتل أنطون سعادة.. الحكومة اللبنانية قتلته.. أعدمته.

- لقد كان شريكاً لها.. مجرد تسليمه لها، والطريقة التي سُلّم بها تجعله شريكاً في القتل.

- يا إلهي.. الإعدام، إعدام سعادة، كان فضيحة.. إنه اغتيال بالمعنى الحرفي للكلمة.

- قلت لكم أنهم لن يتركوه.. لقد صفوه، كان خطراً عليهم..

- الله يرحم الاثنين.. رحلا ودخلنا الآن في مرحلة جديدة.

قال الحاج عبد القادر.. ثم عدل من جلسته وبدا وكأنه يريد إلقاء كلمة.. قال:

- نحن الآن في عهد جديد.. إنها فرصة العمر لإقامة الوحدة مع العراق.. الشباب الذين قاموا بالحركة الأخيرة واعون لمصالح سوريا.. نحن مصلحتنا هناك، مجالنا الحيوي مع العراق.. عمقنا السياسي والاقتصادي مع العراق، ثمَّ إنَّ الملكية الهاشمية في العراق راسخة، قوية ومستقرة.. سننضم نحن إلى القوة والاستقرار والأمان.

هزَّ أبو جورج رأسه ممتعضاً ثم قال:

- نحن في اتجاهنا نحو العراق.. لا نتجه نحو شعب العراق بل نحو حكامه.. نحو نوري السعيد والملكية الهاشمية.. نظام الحكم هناك تحت العباءة البريطانية.. مرجعيته استعمارية بريطانية.. يجب أن نرفض وحدة مع هكذا نظام حكم.

تدخل رأفت قائلاً:

ـ أنا مع كل كلمة قالها أبو جورج في تحليله، ولكني ضد كل حرف قاله في الاستنتاج!.. لنتوحد مع العراق.. لم لا؟.. حتى لو دخلنا تحت العباءة البريطانية، وتحت الحكم الملكي، الحكم الملكي لن يبقى إلى الأبد، والعباءة البريطانية لن تبقى إلى الأبد.. ولكن الشعب الموحد سيبقى، يا جماعة إن كنا قوميين سوريين.. يجب أن نكون مع هذه الوحدة، فسوريا والعراق يشكلان الكتلة الرئيسة للهلال الخصيب.. هدف القوميين السوريين الأكبر، وإن كنا بعثيين وقوميين عرب.. علينا أن نكون مع هذه الوحدة.. فسوريا والعراق بلدان عربيان قحّان، وإذا كنا إسلاميين من الإخوان، فالعراق وسوريا بلدان مسلمان بغالبيتهما الساحقة، كيفما كنا علينا أن نشجع وندعم هذه الوحدة.. إنها الجائزة الكبرى التي ستنجينا من كوارث ومآسي وطنية كبرى تلوح منذ الآن في الأفق الداكن.

ـ الله محييك يا أبو أحمد.. الله محييك!.. حرام ألا تكون أنت في حزبي.. حزب الشعب.

ـ أنجزوا هذه الوحدة يا حاج ثم أدعوني للدخول في أي حزب.. تقدمياً كان أم رجعياً، هاشمياً كان أم أموياً!.. لا يهم، سأدخله على الفور.

بعد أربعة أشهر أخرى وخمسة أيام أتى الانقلاب الثالث بقيادة العقيد أديب الشيشكلي وكان نص البلاغ رقم «1» من ثمانية أسطر:

ثبت لدى الجيش أن رئيس الأركان العامة اللواء سامي الحناوي وعديله السيد أسعد طلس، وبعض ممتهني السياسة في البلاد، يتآمرون على سلامة الجيش وسلامة البلاد ونظامها الجمهوري مع بعض الجهات الأجنبية.. وكان الجيش يعلم بهذا الأمر منذ البداية، وقد حاول ضباطه بشتى الطرق، بالامتناع تارة وبالتهديد الضمني تارة أخرى، أن يحولوا دون إتمام المؤامرة وأن يقنعوا المتآمرين بالرجوع عن غيهم فلم يفلحوا، فاضطر الجيش حرصاً على سلامة البلد وسلامته، وحفاظاً على النظام الجمهوري، أن يقصي هؤلاء المتآمرين وليس للجيش أي غاية أخرى، وأنه ليعلن أنه يترك

البلاد في أيدي رجالها الشرعيين ولا يتدخل إطلاقاً في القضايا السياسية، اللهم إلا إذا كانت سلامة البلاد وكيانها يستدعيان ذلك.

العقيد أديب الشيشكلي 19/ك1/1949

عندما أنهى رأفت قراءة البلاغ.. نظر الحاضرون لبعضهم بعضاً.. إلا أن أحداً منهم لم ينبس ببنت شفة.. كانت نظرة من الذهول - في عيون الجميع - تمنع ذلك.

في اليوم التالي كان رأفت في طريقه إلى المكتبة.. كان صباحاً بارداً ولكن مشمساً، أغرته الشمس بالدخول إلى الحديقة العامة.. وكان غالباً ما يفعل ذلك، في إحدى جنبات الحديقة كانت هناك فسحة مستديرة تطوقها مقاعد خشبية، كان يعلم - بسبب تكرار مروره بجانب تلك الفسحة - أن نفراً من الرجال يتراوح عددهم بين الستة والثمانية يجلسون صباح كل يوم في هذا الركن، قد يكونون متقاعدين أو ينتظرون ساعة الازدحام ليفتحوا محالهم أو مقاهيهم المتواضعة، كانت أصوات نقاشاتهم تصله عادة وهو على مسافة بعيدة عنهم، لم يكن يتوقف ليستمع إليها، ولكنه كان يبطئ في سيره قليلاً قبل أن يصل إليهم وبعد أن يتجاوزهم، كانوا يجلسون متباعدين كل واحد أو اثنين على مقعد خشبي بعيد عن الآخر.. ثم تختلط أصواتهم المرتفعة وحركات أيديهم المعبرة، ذلك الصباح سمع رأفت أحدهم يقول:

- يا رجل.. بعد هزيمة فلسطين جن جنون ضباط الجيش، إنهم غاضبون.. غاضبون وثائرون على كل شيء، على رجال السياسة، على بعضهم، على أنفسهم، إنهم لا يعلمون ما يفعلون.

- مع احترامي لك، إنهم يعلمون.. قسم منهم يقوم بانقلاب بغمزة من فرنسا، ثم يميل إلى مصر والسعودية، فيرد عليه قسم آخر بانقلاب مضاد.. و بدفشة من بريطانيا، فيجلّس الميلان ثم يميل نحو العراق.. فيرد ثالث.. وهكذا دواليك!..

كان نقاشهم نسخة مطابقة لنقاشات المقهى الشعبي.. نفس الفوضى، ونفس الوعي.. من أين يأتون بهذه المعلومات والاستنتاجات الصحيحة؟.. سأل رأفت نفسه وهو يتجاوزهم مندهشاً.

في المساء توجه إلى المقهى الشعبي.. كان أبو محمود ورمضان والجميع يسمعون الراديو ما أن أخذ مكانه حتى سأله أبو محمود:

- ثلاثة انقلابات عسكرية خلال أقل من تسعة أشهر؟.. ماذا يحدث يا أبو أحمد؟..

ابتسم له رأفت ولم يجبه، من أجابه كان رمضان:

- إنه المخاض يا صاحبي.. قد ننبعث ونولد من جديد.. وقد يتمخض الجبل فيلدُ فأراً!..

علق رأفت قائلاً:

- هناك تحرك كبير في الجيش.. تحرُّك قِوى متعددة، تصادم تيارات وأفكار ومشاريع، انتظر يا رمضان حتى يصل الضباط الصغار إلى رتب متوسطة، أو انتظر حتى تتخرج الدورات الجديدة من الكلية العسكرية.. فالضباط الصغار وهؤلاء، قسم منهم من الطبقة الوسطى، وكثيرون من الطبقات الفقيرة، عندها سيحدث التحرك الكبير، العسكر تذوقوا طعم السلطة الآن ولن يتركوها بسهولة، خاصة بعد أن اكتشفوا سهولة الانقلابات، بكوكبة من الدبابات وسرية من المشاة المحمولة.. يحتلون الإذاعة وأركان الجيش والبنك المركزي، فيمسكون بالسلطة.

- معك حق.. ولكن أرى أن الجيش أصبح مُسيساً أكثر مما يحتمله البلد.

- هذه نتيجة حتمية.. الجسد السياسي مترهل وفاشل، ولا دم جديد إلا في الجيش، أنا لست متشائماً.. إذا وجد ضابط لامع، وطني وطموح يستطيع أن يلبي طموح زملائه وطموح البلد.. قد ينجح، وليس بالضرورة أن يحدث ذلك في سوريا، ولكن في أي بلد عربي.

ـ تقصد أن عدوى الانقلابات العسكرية ستنتقل إلى البلاد العربية الأخرى؟.. هذا مستبعد يا أبو أحمد.. مستبعد جداً.

ـ لا أحد يعلم يا رمضان.. هناك خصوبة، الأرض خصبة، وهناك تململ وتحرك سياسي هائل في المنطقة العربية لا أعرف إلى أين سيؤدي، ولكني متفائل وإن بحذر.

فكر رمضان.. رأفت أفندى عينه على مصر!..

سُمع صوت أبو صطيف من بعيد يقول:

ـ ليأت ضابط طيب وقوي.. في أي بلد عربي، داكتاتور عادل يعني، يمسك البلاد والعباد بيد قوية من حديد.. ويسعى للوحدة.. ونحن والله والسموات معه.

لم يكن عام 1949 عام الانقلابات فقط، بل كان أيضاً عام الوداعات الحزينة والقرارات المفاجئة لرأفت ولغير رأفت، كان الوداع الأول هو وداع فريدة.. هتفت لرأفت في أحد الأيام لتقول إنها تريد أن تراه.. وأنها لا تملك وقتاً إلا يومها هذا أو غداً.

التقيا في عش العزيزية.. كان اللقاء الأخير، قالت له، وهي تدخن سيجارتها كعادتها، إنها ستبعث له قريباً بطاقة بريدية من إيطاليا.. لقد حددوا موعد السفر وسيهاجرون، سألها إن كانوا رتبوا جيداً طريقة آمنة للسفر، فأجابته بالإيجاب، مضيفة أن أكثر ما أعجبها من ترتيبات السفر هو نشر الغسيل بكثافة على الشرفات قبل يوم من السفر.. وذلك للخداع، قالت له ضاحكة إن الغسيل سيظل على الشرفات حتى يتسخ أو يسرق، كانت كلماتها الأخيرة له:

ـ تعال وزرني في إيطاليا.. سآخذك إلى فيرونا، مدينة روميو وجوليت.

قالت ذلك ورمت له قبلة في الهواء ثم فتحت الباب وغادرت.

كانت وداد أيضاً تتحضر للسفر ولكنّ اثنين فقط كانا يعرفان وجهتها.. رأفت وربيعة، أما عائلة زوجها ـ المفترض أن تسافر هي معهم ـ فكانت وجهتهم فلسطين، كان كميل أخ زوجها قد قام بترتيب كل شيء.. سيجتازون الحدود السورية التركية قرب باب الهوى ـ نقطة الحدود المعروفة ـ مستخدمين طريقاً وعرة لا يستخدمها إلا المهربون.. ومن تركيا إلى فلسطين.

شدد رأفت على ضرورة انفصال وداد عنهم بعد اجتيازهم للحدود بقليل، وقبل أن يتصل كميل بأحد من الوكالة اليهودية.. وإلا وجدت نفسها في اسرائيل، وعندها ستكون مغادرتها لها صعبة جداً، دخل في أدق التفاصيل.. شرح لها أنه عند وصولهم إلى أول بلدة بعد اجتيازهم للحدود، عليها أن تجد طريقة تنفصل بها عنهم.. عليها أن تفعل ذلك فجأة، وتأخذ بأسرع ما تستطيع سيارة أجرة أو أي وسيلة نقل أخرى، وتنتقل إلى بلدة ثانية مجاورة وتمكث فيها متخفية لأيام.. ربما لأسبوع حتى ييأسوا ويكفوا عن البحث عنها، لذلك فإن جميع حقائبها ستظل مع عائلة زوجها وستنساها، ستضع كل ما تملك في حقيبة يدها التي يجب أن تكون كبيرة نسبياً وضمن زنار أو أكثر تزنر به خصرها.. هذا إضافة إلى حقيبة صغيرة تشبه حقيبة المدرسة تضع فيها حاجيات قليلة لها وربما اتسعت أيضاً لمبلغ إضافي من المال، بعد انقضاء الأسبوع.. عليها أن تنتقل إلى أنقرة.. ستذهب إلى السفارة الأسترالية هناك، وستشرح لهم وضعها بصدق وأمانة، هويتها.. مقتل زوجها.. رغبتها في الهجرة إلى أوستراليا، ستقول لهم ان معها مبلغاً ضخماً من المال وستخفي عنهم مصدره بطبيعة الحال، وهذه ستكون الكذبة الوحيدة، ستقول لهم أنه بعد موت زوجها باعت كل أملاكه وأملاكها في حلب وكانت كثيرة، ولا هدف لها الآن إلا الهجرة إلى اوستراليا، سيؤمنون لها الأوراق اللازمة.. والتأشيرة.. وبعدها سيكون كل شيء أسهل.. عند سفرها بالطائرة إلى أوستراليا، تستطيع أن تؤمن رحلة عن طريق هونغ كونغ مدعية رغبتها بزيارة هذه المستعمرة البريطانية، وفي هونغ كونغ ستمكث لبعض الوقت ثم تجد طريقة للدخول إلى الصين.. هدفها النهائي.

والحقيقة أن رأفت كان بدأ يشعر بمسؤولية ما تجاه وداد بعد وفاة زوجها، وبعد قرارها القطعي بعدم الهجرة إلى فلسطين.. هذا إضافة إلى صداقتها القوية بربيعة.. ناقشها مطولاً بموضوع سفرها إلى الصين، ولكنه

استسلم في نهاية الأمر بعد أن فهم أن فكرة الصين أتتها وكأنها رؤيا أو إلهام رباني في ساعة حزن عميق، صَفَتْ فيه روحها وصفا فيه عقلها، وقد أقسمت حينها أن تحقق تلك الرؤيا.. وستحققها.

كان على رأفت تحويل المال إلى عملات أجنبية، لكنه فوجئ بضخامة المبلغ الذي تركه فؤاد في بيته في آخر زيارة له لحلب، كان أكثر من مئة ألف ليرة سورية.. كان يكفي لشراء نصف حي الجميلية.. فكر رأفت مبالغاً بعض الشيء، لا شك أنه كان مال الوكالة.. حمله معه فؤاد لأمر يتعلق بنشاطها أو لأمور أخرى لا يستطيع هو تخمينها، حوَّل قسماً كبيراً من المال إلى عملات أجنبية وقسماً آخر إلى ذهب.. ليرات ومخمسات ذهبية.. طلب من ربيعة عمل زنارين.. واحد عريض للمخمسات وآخر أقل عرضاً لليرات، نزع حمالات حقيبة اليد وصنع لها حمالات جديدة أطول وأكثر عدداً من الجلد القوي.. درزتها ربيعة على كمية أخرى من ليرات الذهب وكان على وداد تعليق هذه الحقيبة حول رقبتها طوال الوقت.

كان اليوم السابق لسفر وداد هو يوم الاستنفار الشديد لربيعة ولرأفت أيضاً، ويا للمصادفة.. كان يوم ثلاثاء، كانت دموع ربيعة لا تنقطع.. بعض الأحيان كانت تنفجر منتحبة، ولكنها تعود لتبكي بهدوء وصمت، إنما غزارة الدموع نفسها، كانت تتحرك من غرفة إلى غرفة مع دموعها وهي تتصنع الانشغال بأعمال، والحقيقة أنها لم تكن تفعل شيئاً سوى البكاء وحضن وداد بين الفينة والفينة، كان رأفت يراقبهما والتأثر باد على وجهه.. كانتا تحضنان بعضهما بعضاً وتبكيان، ثم تجفّفان دموع بعضهما لتعودا إلى البكاء.. كان المشهد مؤثراً حقاً، بعدها بقليل ذهبت وداد إلى بيتها قائلة أنها ستعود بعد دقائق، جففت ربيعة دموعها وقالت:

- تركت وداد معي مبلغاً من المال من أجل علي.. قالت إنه من أجل دراسته.

- ماذا؟.. كيف قبلت؟..

- إنه مبلغ لعلي يا أبو أحمد.. حوالي العشرين ألف ليرة، قالت أنه سيكفيه حتى إنهاء دراسته الجامعية.

- لن يأخذ علي قرشاً من هذا المال.. قرشاً واحداً لن يبقى منه هنا.

- هي توقعت هذا منك، ولكنها استحلفتني وطلبت مني أن أقول لك أنه ليس من المال الذي حمله فؤاد معه إلى هنا.. ولكنه مالها الذي كانت تدخره.

- وإن يكن.. دراسة علي مؤمنة، أنا مسؤول عنها وأنت تعرفين ذلك.

- رجائي لك.. لا تصدها..

- أنت تعرفين مودتي لها.. لكن قرشاً واحداً لن..

- هي تريد الاطمئنان على علي ومستقبله.. أخبرها بطريقتك اللطيفة أن علي ومستقبله في عهدتك وهكذا ترتاح.

- هذا يسبب لها إحراجاً أمامي.. طمئنيها أنت.. تصرفي أنت، والآن هات العشرين ألف ليرة سنضعها تحت بطانة الحقيبة المدرسية.. قولي لها أن العملة السورية قوية ومرغوبة هذه الأيام في تركيا ولكن فقط في تركيا.. عليها أن تحول المبلغ هناك.

في سريره ليلاً كان رأفت يتقلب وقد جافاه النوم.. كان قلقاً، قلقاً على وداد وعلى الخطة.. كان قلقاً عليها لأسباب كثيرة منها ضخامة المبلغ الذي تحمله معها.. كان، وقبل أن يغادر بيت ربيعة، أعطاها رسالة لأحد معارفه من التجار في مدينة إنطاكية طالباً منها أن تلجأ إليه إن واجهتها صعوبة جدية.. شدد عليها أن تحفظ العنوان جيداً. فكر وقد عاد يتقلب في سريره أنه كان يستطيع مساعدتها كثيراً على الحدود وفي تركيا أيضاً لو كانت مسافرة وحدها، أما وأن البقية معها ومهاجرون إلى فلسطين!.. غفا بصعوبة، وفي الصباح الباكر استيقظ وتوجه على الفور إلى حي الجميلية.. كان يريد الاطمئنان على الوضع.. وعلى ربيعة.

عندما وصل إلى البيت، لم يشأ أن يطرق الباب.. بل استعمل المفتاح،

عندما دخل فوجئ بربيعة جالسة في غرفة المعيشة.. شعرها منكوش، وعيناها محمرتان متورمتان تجحظان باتجاهه من دون أن يكون فيهما أي معنى.. جلس على الكرسي المقابل لها، سألها إن كانوا سافروا حسب الوقت المحدد.. فهزت رأسها بالإيجاب دون أن تفتح فمها.. سألها إن نامت.. فهزت رأسها بالنفي، فوقف وهو يقول:

- أنا أعرف مقدار خسارتك يا ربيعة و..

قاطعته بصوت غاضب فاجأه:

- لا.. إنك لا تعرف، كيف تستطيع أن تعرف؟.. أنت عندك عائلة، عندك زوجة.. بل اثنتان، عندك دزينة من الأولاد.. كيف تستطيع أن تعرف؟.. أنا ليس عندي في الدنيا إلا وداد.. وها هي قد رحلت..

قالت كلماتها الأخيرة وأجهشت في البكاء.. لكنها تابعت من خلال بكائها:

- وداد كانت عائلتي يا أبو أحمد.. كانت أمي وأختي وابنتي وصديقة عمري.. أنت لا تعرف معدن هذه المرأة.. إنها أروع وأنقى وأطيب وأكرم امرأة في الدنيا.. كانت كل ما أملك في هذه الحياة.

- عندك أنا..!..

- عندي أنت؟!.. هل أنت لي؟.. هل أستطيع أن أراك مرة ونصف المرة في الأسبوع؟.. لقد استكثرت عليّ رؤيتك مرتين.. ألا تذكر؟.. وداد كنت أراها كل يوم.. صباحاً وظهراً ومساءً، الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي لا أستطيع أن أراه سوى مرة في الأسبوع، مرتان ممنوع!.. لولاها لفقعْت من القهر.. وعلى الأغلب سأفْقَع بعد رحيلها وأرتاح وأريحك مني.

- طيب.. كم مرة تريدين رؤيتي في الأسبوع؟..

- أنا؟.. تطلب مني أنا أن أحدد كم مرة؟.. أنا أريد أن أراك كل يوم.. كل يوم حتى آخر يوم من حياتي.

- سترينني كل يوم.. سترينني كل يوم، سوف أتزوجك!..

نظرت إليه ربيعة وقد توقف تنفسها.. كان يقترب منها وفي عينيه حنان الدنيا كلها.. خافت هي من تعابير وجهها، فدفعتها كرامتها إلى إخفاء وجهها.. ارتمت عليه بسرعة معانقة عنقه بيديها وخافية وجهها في صدره.. ثم أجهشت بالبكاء.

في كنيسة كاثوليكية صغيرة تقع على أطراف مدينة نيويورك، كانت تريزا مع أختها فرناندا تحضران حفل التعميد.. تعميد آخر حفيد لفرناندا وصل إلى الدنيا، جلست بجانب تريزا صديقتها القديمة غابرييلا.. كانت الصديقتان تلتقيان غالباً في مثل هذه المناسبات، أي ثلاث أو أربع مرات في السنة.. وفي كل مرة كانتا تختلفان حول المدة التي انقضت على وجودهما في الولايات المتحدة فتعودان لتحسباها.. فتختلفان من جديد!.. كانت طريقة حساب تريزا هي هي.. تبدأ بالقول أنها أتت مع عائلتها من المكسيك في بداية حرب فيتنام، أي في الستينات، وهم الآن في العام 2001.. أي أن المدة هي أربعون عاماً، فتصحح لها غابرييلا قائلة أن حرب فيتنام بدأت في الخمسينات وليس في الستينات.. فالمدة إذن هي خمسون عاماً!.. كان خلافهما يدور دائماً حول عشر سنوات.. في ذلك اليوم وأثناء مغادرتهما للكنيسة عرضت غابرييلا على تريزا أن تقلها بعربة ابنها إلى مكان عملها.. كانت تريزا تعمل مدبرة منزل مقيمة عند عائلة ثرية جداً.

في العربة أخذت الاثنتان مكانيهما في المقعد الخلفي لتتابعا حديثهما بينما كان خوليو ابن غبرييلا يقود بهدوء.. فكر أن يقول لأمه أنَّ حرب كوريا هي التي بدأت في الخمسينات وليست حرب فيتنام إلا أنه أحجم، واكتفى بمتابعة حديث الصديقتين.

ـ كيف هي صحة مسز شو يا تريزا.. ألم تتجاوز الثمانين من عمرها؟..

ـ صحتها جيدة.. بلى لقد تجاوزت الثمانين.

ـ ولماذا تعودين إلى عملك واليوم هو الأحد؟..

ـ غداً سيأتي على العشاء أقارب لمسز شو من خارج البلاد.. وعلينا الاستعداد لذلك.

ـ من أين يأتون.. من هونغ كونغ؟..

ـ لا.. من إسرائيل.

سأل خوليو وقد أثير فضوله:

ـ هل هناك صينيون يهود؟..

ـ لا أعرف..

أجابت أمه وهي تنظر مبتسمة إلى صديقتها.

ـ أقارب من إسرائيل!.. هذا يعني أنها يهودية أليس كذلك؟..

علّق خوليو.

ـ نعم إنها يهودية.

أجابته تريزا.. كان جوابها مقتضباً وبارداً.. فامتنع خوليو عن الاسترسال في الأسئلة.

ـ هل لا تزال تحبك يا تريزا؟..

ـ هي تحبني.. وأنا أعبدها، إنها أروع امرأة في العالم.

ـ أنا حتى الآن لم أفهم كيف اعتدت على العمل عند الأثرياء.. الأثرياء جداً، إنهم متعبون، أنا أعمل في بيت محام وكلما زاد ثراؤه زاد تعبي.. مع أن ثراءه لا يقارن بثراء مسز شو.

ـ إنها مختلفة يا غبرييلا.. حنانها وعطفها على الجميع لا يمكن وصفهما.. علاقتها بإبنها جوزيف وأولاد ابنها.. علاقة تظنينها من نسج الخيال.

كانت تريزا ـ خلال ذلك ـ تؤشر لخوليو على الطريق بينما كان هو يقود مبهوراً بفخامة الحي، توقفت العربة أمام بوابة حديدية كبيرة،

وعندما تعرف البواب على تريزا فتحها على الفور، فدخلت العربة وسارت في طريق تظلّله الأشجار على جانبيه.. سار خوليو بالعربة مسافة طويلة قبل أن يصل إلى المنزل.. عندها ودعت غابرييلا صديقتها وقفلت عائدة مع ابنها.

في الطريق عاد لخوليو فضوله فسأل أمه عن قصة مسز شو:

- إنها قصة الأثرياء نفسها يا بني.. مسز شو في الأصل يهودية سافرت وهي بعد صبية شابة إلى هونغ كونغ وهناك تعرفت إلى رجل صيني أرمل عنده ولد واحد.. تزوجا وحققا هناك ثروة طائلة، ثم انتقلا إلى الولايات المتحدة منذ أربعين عاماً.. تريزا تعمل عندهم منذ ذاك الحين.

عند دخولها إلى المنزل بحثت تريزا عن المسز شو فوجدتها في المطبخ تتناقش مع الطباخيْن، كان الطباخ الأصيل غريغوري قد أخذ على عاتقه تأمين طبّاخ آخر مختص ـ على حد زعمه ـ بالمأكولات العربية.. وإذ بها تكتشف أنه لا يعرف عنها شيئاً.. معرفته تقتصر على بعض المأكولات الشرقية.. هندية وما شابه، عندما لاحظت تريزا إحباط المسز شو، اقتربت منها متعاطفة معها ثم خرجت الاثنتان من المطبخ، إجتازتا الصالة الفسيحة ثم انعطفتا إلى الغرفة الكبيرة ذات الجدار الزجاجي المطل على الحديقة فوجدتا جو ابن المسز شو هناك يقرأ صحيفته.. كان رجلاً صينياً أنيقاً جداً، وقف بأدب عندما رأى والدته تدخل، وعاد ليجلس بعد أن أخذت مكانها وبجانبها تريزا، سمع تريزا تقول:

- سنجد حلاً يا مسز شو.. معنا أكثر من 24 ساعة.

سأل جو وقد لاحظ إحباط أمه:

- ما الأمر يا أمي؟..

- أرسلوا لي طباخاً.. زعموا أنه مختص في المأكولات العربية وإذ به لم يسمع في حياته بالكبة السفرجلية ولا باللحمة بالكرز!..

نطقت اسمي الطبختين باللغة العربية.. فابتسم جو وقال:

- ومن سمع بها؟!.. على كل.. لم أنت مصرة على إتعاب نفسك وإشغال

فكرك، اصرفي الطباخ الجديد ودعي غريغوري يُعدُّ لنا أطباقه اللذيذة، سيُسرُّ بها حتماً ضيوفنا في الغد.

- يا ابني.. عندما رحلت ابنة عمي راشيل السنة الماضية كانت ابنتها تامار على الهاتف من اسرائيل تبكي بينما كنت أعزيها وأخفف عنها.. قالت لي أن أمها في اليوم السابق لوفاتها كانت وعدتها بطبق من الكبة الصينية وآخر من الكبة السفرجلية ما أن تغادر السرير.. كانت تقول لي ذلك وهي تغص بدموعها، تمار.. عندما هاجر أهلها من حلب، كانت في الثانية عشر من عمرها وهي تذكر جيداً تلك المرحلة وتحنُّ إليها.

كان جو ينظر إلى أمه مراقباً انفعالها.. بينما تابعت هي:

- أنا أردت أن تكون مائدتنا في الغد حلبية بالكامل.. وهي كانت مناسبة أيضاً لتتعرف أنت إلى هذا المطبخ الغني جداً.. المطبخ الحلبي.. ولكن ماذا أفعل يا ربي وقد خدعوني بالطباخ!..

فهم جو أن المسألة بالنسبة لأمه كانت أكثر من إعداد مائدة وأصناف طعام.

- الأمر ليس سهلاً يا أمي.. أين سنجد في الولايات المتحدة طباخاً حلبياً؟.. ولكن لحظة!.. لم لا تتصلي بالدكتور علي في كليفلند وتطلبي رأيه؟..

- يا عزيزي، الدكتور علي طبيب وزوجته كذلك.. أشك كثيراً في أن زوجته تعد له مثل هذه الأطباق أو أنها تعرف جيداً إعدادها بالأساس.

- قد لا يعرف ولا تعرف.. ولكنهما يعرفان من يعرف!.. إذا لم تتصلي به سأفعل أنا.

ابتسمت مسز شو وهي تنظر إلى تريزا.. فشجعتها الأخيرة بهزة من رأسها، كان يوم أحد، لا بد أنه في البيت.. فكرت مسز شو، فطلبته:

- آلو.. صباح الخير.. من؟.. عروبة؟.. كيف حالك يا حبيبتي؟..

- أهلاً خالة وداد.. أنا بخير، طمئنيني عنك وعن صحتك..

ـ الحمد لله.. كيف أحوال الدكتور والأولاد.

ـ علي ذهب إلى المستشفى لأمر طارئ وسيعود بعد قليل.. الأولاد بخير يقبلون أياديك.

كانت وداد تتكلم بالعربية مع عروبة ولكنها انتقلت إلى الإنجليزية عندما سألتها إن كانت تعرف مطعماً أو طباخاً حلبياً، فيرسلون في طلبه إلى نيويورك.. أجابتها عروبة أن وجود هكذا طباخ في كليفلند أمر مستبعد، قد يمكن العثور عليه في ديترويت، ولكنها ـ أردفت تقول ـ إن الأمر هو من اختصاص علي حصراً!.. وأنها ستعلمه بالأمر وسيطلبها حتماً حال عودته.

بعد أقل من ساعة رن جرس الهاتف فأسرعت مسز شو لترد.. كان عليّ:

ـ صباح الخير خالة وداد.

ـ أهلاً حبيبي.. أنا لم أرد أن أزعجك.. ولكنه جو.. أنت تعرفه.

أخذ جو سماعة الهاتف من أمه، كان جو وعلي صديقين مقربين، شرح له الأمر واهتمام أمه به، ورجاه حل هذه المشكلة ولو اقتضى الأمر نقل الطباخ ومطبخه وجميع معاونيه في طائرة خاصة إلى نيويورك.. وعده الدكتور علي أن يهتف له بعد الظهر، وهذا ما حصل بالفعل.. قال لوداد عبر الهاتف: لقد فُرجَت!.. ذكر لها أن عنده في القسم طبيب من حمص، أمه وأبوه أتيا لزيارته من سوريا، وللمصادفة السعيدة فإن أم هذا الطبيب حلبية من «فسط حلب»، لفظها وهو يضحك، قال أنها ستأخذ الطائرة بعد قليل إلى نيويورك، وفي اليوم التالي ستعد لهم ما يشاؤون من أطباق حلبية، لم تصدق وداد.. كان الحل المثالي لتلك المشكلة التي استعصت على الجميع.

لم توافق والدة الطبيب.. أم الدكتور راكان على السفر بسهولة، ولولا الإخراج الذي قام بتدبيره الدكتور علي لما سافرت بالمرة.. الإخراج

كان بسيطاً: على الدكتور علي إرسال أحد مساعديه ليتابع حالة إحدى مريضاته في نيويورك، وسترافق هذا المساعد والدته، فتكون فرصة لها لتزور مدينة نيويورك.. وبعد الفحص والمعاينة تكتشف المريضة أن أم الطبيب حلبية، وتكتشف أم الطبيب أن المريضة عاشت في حلب، فتعرض عليها إعداد طبق أو اثنين من المطبخ الحلبي.. كان إخراجاً بسيطاً ولكنه ضروري بالنسبة لأم راكان.

منذ الوهلة الأولى فوجئت وذهلت أم راكان بوداد.. ذهلت هي وابنها، ولم يكن سبب ذلك الغنى الفاحش الذي لمسته منذ أن اجتازت عتبة منزلها.. ولا سيارة الليموزين التي أقلتها مع ابنها من المطار، ولكن كان وراءه الكياسة والمودة والاحترام الكبير التي غمرتهم بها وداد، أدهشتها هذه المرأة الثمانينية.. أدهشها تواضعها.. لهجتها الحلبية القحة، القاف التي يلفظها الحلبيون آف مضخمة.. لا يستطيع أحد في الدنيا أن يضخمها في قبة الحنك مثلهم.. إلا إذا كان حلبياً أصيلاً، والجيم التي يلفظها الحلبيون بإصرار، لا يستطيع أحد أن يصرَّ عليها مثلهم إن لم يكن حلبياً بالولادة، وكانت وداد حلبية أصيلة.. وحلبية بالولادة.

عندما أبدى الدكتور راكان دهشته من لغة ولهجة مسز شو أجابته بأنها ولدت وعاشت الثلاث وثلاثين سنة الأولى من عمرها في حلب وبشكل متواصل.. وأن أحلامها خلال نومها.. تأتيها باللغة العربية باستثناء الأحلام التي تتعلق بابنها وأولاده، فتكون ناطقة بالإنجليزية!..

ثم قالت ضاحكة:

ـ أنا مدموغة بدمغة حلبية.. بختم حلبي يا دكتور، أنا أحمل حبة حلب، ولكن ليس على وجهي، ألا تحمل واحدة أنت؟..

ـ لا.. لكنها معروفة في جميع كتب الطب في العالم بهذه التسمية: حبة حلب.. تسببها الـ «لشمانيا».

أبدت دهشتها مسز شو.. لم تكن تعرف ذلك، بعدها بقليل رافقت

وداد أم راكان إلى غرفة الضيوف الرئيسية التي كانت في الحقيقة جناحاً فاخراً، بينما رافقت تريزا الدكتور راكان إلى غرفة الضيوف الثانية وكانت هي أيضاً جناحاً لا يقلُّ فخامةً عن الأول.

بعد أن استراح الدكتور راكان في غرفته بعض الوقت.. وقبل العشاء قام بفحص المسز شو وأجرى رسماً كهربائياً لقلبها.. كان كل شيء طبيعياً كما أوضح لها.. فردت أن هذا ما يؤكده لها الدكتور علي دائماً.

على مائدة العشاء تعرف الدكتور راكان ووالدته على عائلة مسز شو.. ابنها جوزف، جو.. الصيني الصافي وزوجته ماري ذات الأصل الإيرلندي وابنتهما فرانسي، أما ابنهما توماس فقد كان في جامعة كولومبيا وسيكون غداً حاضراً كما أكدت مسز شو، لاحظت أم راكان الجمال الأخاذ و الغريب من نوعه الذي تتمتع به فرانسي ابنة الأربع والعشرين ربيعاً.. حقاً أن التزاوج بين الأعراق ينتج سلالات رائعة.. فكرت أم راكان، ذكرت هذا الأمر لوداد فأيَّدتها، ثم انخرطت الاثنتان في حديث طويل حول المطابخ في العالم.. كانت أصناف الطعام على المائدة كلها لذيذة.. كانت خليطاً من المطبخ الفرنسي والإيطالي والصيني، إلا أن أم راكان أصرت على تفوق المطبخ العربي.. خاصة الحلبي.. ثم تطوعت بإعداد بعض الأطباق منه - في الغد - لهم.

عند قيامهم من مائدة العشاء طلبت أم راكان أن ترى المطبخ فرافقتها وداد.. هناك رأت أربعة أو خمسة أشخاص.. فهمت أنهم الطباخ ومساعده، ومساعدة مساعده و..

قالت لمسز شو أنها - في الغد - تريدهم جميعاً خارج المطبخ.. قد تحتاج فقط لهذه الصبية وأشَّرت عليها..

بعد ذلك انسحبت أم راكان إلى غرفتها وفعلت الشيء نفسه وداد وفرنسي حفيدتها.

استلقت وداد على سريرها وقررت أن تنام.. كان عليها الاستيقاظ باكراً في الغد.. ابتسمت و تكاد أن تغفو، كانت رائحة حلب في بيتها.. عبق حلب، حي الجميلية.. طفولتها، مراهقتها، صباها.. هذا كله كان في بيتها تلك الليلة.. غفت بالفعل، ولكن شحنتها العاطفية العارمة أيقظتها بعد أقل من نصف ساعة.. فتحت عينيها وهي تبتسم، كانت عودت نفسها ألا تقلق عندما كان النوم يجافيها.. كانت تقرأ حينها، أو تشغل التلفزيون إلى أن تذبل عيناها ويأتيها النعاس.. هذه الليلة شغلت التلفزيون.. كانت نشرة الأخبار.. بعد خبرين أو ثلاثة بدأت أخبار الانتفاضة الفلسطينية الأخيرة، فانتقلت إلى محطة أخرى على الفور.. قائلة لنفسها «لا عين تشوف ولا قلب يحزن»!.. كان هذا قراراً عندها ولم يكن مثلاً.. قراراً أخذته منذ خمسين سنة، ولا زالت تتمسك به وتطبقه حتى الآن، لم تتعرف على المحطة التي انتقلت إليها.. فلم تكترث، أسكتت الصوت وأخذت تتابع شريط الصور على الشاشة، إلا أن عقلها كان في مكان آخر.. كان مع شريط الذكريات الطويل.. الطويل جداً.

عادت إلى أيام هونغ كونغ الأولى.. عادت إلى المصرف الذي كانت أودعت فيه مالها منذ اليوم الأول لوصولها.. عادت إلى ذاك الموظف الصيني الحزين الذي كان كُلّف بتسهيل معاملة الإيداع، إنها تتذكر حتى هذه اللحظة نظرته الحزينة.. أدبه الجمّ، طول قامته.. كان طويلاً جداً.. كيف لا تتذكر وقد تزوجته بعد ذلك بثلاثة شهور!.. كان مينغ شو ـ عندما

التقته وداد - موظفاً بارزاً في ذاك المصرف.. في الأربعين من عمره أو أكثر بقليل، كان أرمل فقد زوجته قبل عام تقريباً، كان عنده ولد في الثامنة من عمره.. هو كل حياته وسيصبح أيضاً كل حياتها، بعد أن تزوجا.. ترك مستر شو عمله في المصرف وأسس شركة تجارية خاصة من مال زوجته، كان يقول إن شركته تتاجر في كل شيء، من الدبابيس الصينية إلى الترانسيستورات اليابانية.. إلى السيارات الأميركية، سجل أسهم الشركة كلها باسم زوجته، كان يقول إنه موظف.. مدير تنفيذي في شركتها هي، وكان بارعاً.. بارعاً جداً، ما هي إلا سنة أو أكثر بقليل حتى ملكا المليون الأول من الدولارات، ولكنها كانت البداية فقط، عندما انتقلوا إلى نيويورك في بداية الستينيات كانت فروع شركته تمتد من آسيا إلى أوروبا.. إلى أمريكا، أما وداد وخلال العشر سنوات التي قضتها في هونغ كونغ، فقد اكتشفت نفسها كما كانت تقول.. اكتشفت إمكاناتها، تعلمت الصينية والإنجليزية.. عانت كثيراً في تعلمهما، ولولا معلمها الصبور.. الذي لم يكن سوى ابنها.. ابن زوجها لما نجحت، كانت تلازمه لساعات وساعات يومياً لتأمين تفوقه في المدرسة، وخلال ذلك كانت تتعلم.. كان أروع معلم وأروع ابن في العالم، وكانت هي له أروع أم في الدنيا كما سيقول دائماً.

عندما رحل زوجها كان مضى على وجودها في نيويورك خمس وعشرون عاماً.. كانت خسارتها كبيرة.. أصابتها كآبة طالت لدرجة أخافت ابنها الذي أصبح حينها رجلاً في الخامسة والأربعين من عمره، وفي أحد الأيام الكئيبة تلك شكت من آلام صدرية أقلقت طبيبها.. فأرسلها إلى كليفلاند حيث كان هناك، في بداية الثمانينيات، فريقٌ طبيٌّ من ضمنه طبيبٌ سويديٌّ نجح في تطوير أساليب جديدة في توسيع أوعية القلب بواسطة بالونات صغيرة، هناك في كليفلاند.. اكتشفت كم العالم صغير.

عندما رأته يمشي مسرعاً في ممر المشفى خفق قلبها على الفور، هذه المشية تعرفها.. قالت لنفسها، عندما أدخلوها إلى غرفته.. تماسكت

بصعوبة وهي تنظر إلى وجهه، لا يمكن أن يكون حقيقياً ما تراه، لا بد أنها تحلم.. فكرت، طلب هو من مساعدته تحضير المريضة لفحص «الإيكو» وبعد الفحص قال لها إنه لم يجد شيئاً غير طبيعي، ولكن بما أن طبيبها في نيويورك يصر على إجراء القثطرة، فإنه سيجريها لها.. شرح لها أن القثطرة عملية سهلة جداً، وتابع وهو يمازحها أنه سيدخل إلى شرايين قلبها.. سيدخل إلى أعمق أعماق قلبها، هناك حيث تختبىء جميع أسرار امرأة جميلة مثلها.. ولكنه وعدها بالكتمان!.. ابتسمت وداد مع أنها كانت ترتجف.. تهيأ لها أنها لمحت بريق سلسال فضي حول عنقه.. كادت أن تلفظ اسمه، ولكنها أرادت أن تتأكد.. دليل صغير.. أصغر من صغير يكفي، قالت له:

- إحذر أيها الشاب.. أنا امرأة صعبة المراس، وأبي من قبلي كان صعب المراس.. كان بائع كعك متجول قاس!..

- حقاً؟.. وأبي أيضاً كان بائع كعك متجول.

حينها - وعلى الفور - نطقت بالعربية قائلة:

- علي.. أنا خالتك وداد.

وقف علي.. نظر في وجهها مذهولاً، وقبل أن تمتلئ عيناه بالدموع، ارتمى على يديها وبدأ يقبلهما.. كانت يداها مبللتين بدموعه عندما مدتهما وحضنته بقوة.. كانت تبكي هي أيضاً.. الممرضة المساعدة انسحبت - وقد أذهلها المشهد - إلى خارج الغرفة دون أن يطلب منها أحد ذلك.

أغمضت وداد عينيها متلذذة بالذكرى.. ذكرى لقائها بعلي، كانت لا تزال مستلقية على سريرها ساكنة لا تأتي بأقل حركة مخافة أن يهتز شريط ذكرياتها.. تابعته وهي مغمضة العينين، عندما وصلا - في اليوم التالي - هي وابنها جو إلى منزل الدكتور علي.. كان هو وزوجته عروبة في الانتظار.. قبل العشاء جلس الجميع يتحادثون ودفء اللقاء يغنيهم عن دفء الشومينيه الملتهبة نارها، كان كلام وداد قليلاً.. أما نظراتها فكانت

نهمة.. تنقلها بين علي وعروبة.. حدثت نفسها.. لم يكن يشبه أباه وهو بعد صبي.. أما الآن فيا ألله لهذا الشبه.. كانت وكأنها ترى أبا علي بشحمه ولحمه وقد أضحى في الخامسة والأربعين من عمره.. إنه أبوه خنطق منطق، قالتها بالحلبية بينها وبين نفسها.

ثم أمعنت النظر في عروبة، كانت عروبة حينها في منتصف الثلاثينات من عمرها.. لاحظت ابتسامتها الخلابة ونظرتها الواثقة، لم تكن التقت أبداً بأمها زينب.. زينب الشهيرة، زينب التي كان يلهج رأفت باسمها وبسيرتها أمام ربيعة في كل مرة كان يزورها.. الأمر الذي كان يحنقها، كانت ربيعة تقول لها.. حديث رأفت نصفين، نصف عن فلسطين، والنصف الآخر عن زينب.

علمت أن علي نال شهادة الطب من جامعة دمشق ثم سافر إلى الولايات المتحدة ونال فيها شهادة البورد بالأمراض الداخلية ثم القلبية.. قبل أن ينضم إلى فريق العمل في كليفلاند حيث لا يزال يعمل حتى الآن، أما عروبة فقد انتسبت إلى كلية الآداب - قسم علم النفس - في جامعة دمشق أيضاً وبعد أن تزوجا والتحقت بزوجها في الولايات المتحدة نالت الماجستير في علم النفس وهي الآن تعمل في مخبر كبير، وتهتم حالياً بسلوك الطفل ذي المزاج الهيجاني.

علمت - ويا للمفاجأة الكبرى - أن ربيعة تزوجت.. تزوجها رأفت، عندما ظهرت دهشتها وفرحتها - ولم تستطع إخفاءهما - ضحكت عروبة وسألتها إن كانت تعرفها.. تعرف ربيعة، فنفت وداد ذلك.. عندها قالت لها عروبة.. وهي لا تزال تبتسم بخبث، هل أنت متأكدة؟!.. حينها علمت وداد بحسها - وعلى الفور - أنها ارتكبت غلطة.. هناك أمر ما لا تعرفه ولا تستطيع أن تسأل عنه.. ولكن لن يطول الوقت حتى تعرفه.. ومن ربيعة نفسها.

فربيعة، عندما وصل الخبر إلى حلب.. وهو وصل هاتفياً في اليوم

التالي، جن جنونها ـ كما روت لها لاحقاً ـ صرخت: وداد في أمريكا؟.. وكانت في بيت علي وعروبة منذ يومين؟.. ستذهب إلى هناك.. ستسافر غداً.. أو الأسبوع القادم.. هكذا قالت لرأفت بصوت لا يقبل الجدل.. وبالفعل سافرت، ولكن ليس قبل مضيّ شهر.

فتحت وداد عينيها عندما وصلت إلى شريط ربيعة.. كان لكل ذكرى في ذهنها شريط مستقل، واحد لهونغ كونغ، وثان لتخرُّج جو من الجامعة، وثالث للّقاء الأول مع علي، ورابع لذكرى ربيعة في نيويورك، وخامس لزيارة رأفت وزينب لأميركا و.. و، كان من عادتها إعادة تشغيل الشريط الواحد لأكثر من مرة قبل أن تنتقل إلى الآخر.. ولكن ليس هذه المرة، عندما بدأ شريط ربيعة، اتسعت ابتسامتها.. رأت نفسها في المطار وهي تستقبلها، كان مضى أكثر من ثلاثين عاماً.. وكانت الاثنتان تجاوزتا الستين من عمرهما.. ارتمت الاثنتان في أحضان بعضهما، كانت الدموع والضحكات ثم التحديق إحداهما بالأخرى.. ثم الدموع والضحكات والتحديق، كان كل ذلك من المشاهد التي لا تستطيع الكلمات وصفها.. وحدها العيون والقلوب تستطيع فهمها، مكثت ربيعة في أمريكا لأكثر من شهر، قضت منه أسبوعاً كاملاً في بيت الدكتور علي.. بيت ابنتها، ابنة زينب.. عروبة.

نامت ربيعة الليلة الأولى فقط في غرفة نوم الضيوف.. أما الباقي ففي سرير وداد.. في الصباح التالي لنومها أول مرة في سرير وداد، وعندما دخلت تريزا حاملة صينية الفطور، فوجئت بوجود وداد وربيعة في سرير واحد، فانسحبت لتحمل صينية إفطار ثانية.. عندها قالت ربيعة وهي تحاول رسم تعابير الجدية والرصانة على وجهها: ستقول حتماً أننا سحاقيتان قديمتان قتلنا الشوق لبعضنا.. وانفجرت بالضحك، ومعها وداد.

كانتا تقضيان الليالي بطولها وهما تقصان القصص والأخبار لبعضهما.. كانتا تتابعان بكل جدية ورصانة الأخبار الجدية، ولكن ما أن

تـصلا إلى غيرهـا ، حتـى تعـودا إلى قفـشات وضـحـكات أيـام زمـان.. أيـام الجميليـة، عنـدما بـدأت ربيعـة بروايـة كيـف اكتـشفت زينـب سـرهـا ومـاذا فعلت وماذا لم تفعل، استوقفتها وداد وسألتها بلهفة:

- عرفوا إنك كنت في الجميلية؟..

- نعم.

- وعرفوا أنك كنت جارتي وأننا نعرف بعضاً؟..

- نعم.

- و عروبة عرفت؟..

- نعم.. ما بك؟..

- الله يسوِّد وجهك كما سوَّدت وجهي.. لقد سألتني إن كنتُ أعرفك فنفيت!..

- يا لك من جدْبة.. يا لك من مغفلة كبيرة.. نصف حديثي مع عروبة كان دائماً عنك ولسنوات.

- وكيف لي أن أعرف أيتها المتذاكية؟.. قبل أن تسألني عنك بثوان علمت بأمر زواجك من رأفت.

ـ من نظراتها كنت تستطيعين!.. من نوع وطريقة ابتسامتها كنت تستطيعين، ولكنك مغفلة.. فلم تستطيعي!..

ـ أنا مغفلة؟.. أنظري إلى وضعي وإلى عائلتي.. لقد صنعتهما من لا شيء.

- اسكتي «دخيل ألله».. لو ذهبت أنا إلى الصين بدلاً عنك، لتزوجت من ملك الصين!..

ـ كفي عن هذه الفذلكة، وقصي علي قصة زواجك بهدوء.. ومن الأول.

ـ يا ستي.. قرار رأفت بالزواج مني أخذه في يوم سفرك نفسه.. هل تصدقين؟.. بل بعد ساعات من سفرك.. وجدني في حالة ظن أني سأموت لو

تركني فيها.. وأنا نفسي ظننت ذلك، رتب الأمر ودربني جيداً على دوري.. ادّعى أني فلسطينية ترملت في حرب فلسطين.. قتل اليهود زوجي وأولادي وأبويّ، وبقيت وحدي في هذه الحياة وكأني مقطوعة من شجرة.. كان يعرف معنى ووقع هذه القصة عند عائلته.. ادّعى أنه التقى بي في مخيم اليرموك للاجئين في دمشق، فانتشلني من هناك وقرر الزواج بي، انطلت القصة على الجميع، حاولت أم نضال وزينب إيجاد حلول أخرى لوضعي لمنعه من الزواج بي، ولكنه وضعهما تحت الأمر الواقع.. عندما اصطحبني إلى منزله - وكانوا لا يزالون يسكنون في البيت العربي الكبير - كنت أرتدي ثوباً متواضعاً جداً، حسب الخطة، ولم أكن أضع شيئاً على وجهي.. وأنت تعرفين أني كنت، عندما لا أتبرج، أظهر وكأني نصف جربوعة.

- بل جربوعة كاملة!..

- هذا رأيك؟.. كثّر خيرك، المهم.. استقبلتني زينب، كانت متحفظة، أما أم نضال فلم أرها، ولم تدعني أراها لمدة من الزمن، اصطحبتني زينب إلى غرفة المرحومة أم أحمد.. الزوجة الأولى لرأفت.. لم يكن يشغلها أحد، عندما دخلنا إلى الغرفة.. قالت لي أن هذه الغرفة تستعمل لاستقبال الضيوف - ولم يكن هذا صحيحاً - وتابعت تقول أن الضيف يمكث هنا لأيام.. لأسبوع على الأكثر ثم يغادر، نظرت إليها مستنكرة ما تقول فلكزتني بكوعها وهي تبتسم وتقول أنها تمازحني!.. يا لها من امرأة يا وداد.. كانت حينها في العشرين من عمرها، ولكنها كانت محرّك كل شيء في المنزل الكبير.. تهتم وتتابع الكبيرة والصغيرة ولكن دائماً من تحت عباءة أم نضال.. كانت ذكية جداً ولا تزال.

- وبعدها؟..

- بعدها أصبحنا أصدقاء.. جميعنا أصبحنا أصدقاء.. أنت تعرفينني فأنا طيّوبة، اكتشفوا طيبتي وأحبوني، واكتشفوا أيضاً أني لا أُنجب، وعزوا ذلك إلى المأساة التي حلت بي بفقداني لأسرتي.. زوجي وأولادي في

نكبة فلسطين.. واستنتجوا أن نسلي انقطع بسببها!..

- والسر.. الحقيقة، متى اكتشفوها؟..

- اكتشفتها زينب بعد زمن طويل.. بعد أكثر من عشرين سنة، أنت تعرفين حلب.. لا شيء يبقى مخفياً - في نهاية الأمر - فيها، الجميلية بعد عشرين سنة من سفرك تغيرت، بقي فيها بعض اليهود، ولكن معظم سكانها أتوا من الأحياء والحارات الأخرى، ثم كلمة من هنا وكلمة من هناك.. وبانت الحقيقة، فاجأتني زينب ثم واجهتني فارتبكت.. ألحت حتى أوقعتني فاعترفت لها.. جن جنونها.. تحولت إلى امرأة قاسية سليطة اللسان، أنا أسقط في يدي.. كنت أبكي بحرقة عندما كنت أحدثها محاولة إصلاح مكانتي عندها، فلم أكن أوفق إلا في إثارتها أكثر.. ولكني لاحظت منذ البدء أنها تخفي الأمر عن أم نضال، يا لها من امرأة يا وداد.. يا لذكائها.. يا لعقلها، لا بد أن تجتمعي بها.. إنها هائلة.

- دعيني من عقلها.. وبعدها؟..

- ظلت على حالها شهوراً، كانت معي خلالها قاسية فظة لا ترحم.. مرة قلت لها، وأنا أقسم، أن كل حديث رأفت معي كان عنها وعن ذكائها.. فردت عليّ قائلة: يا نيّالي.. ويالفرحتي، كان يكلمك عني وعن ذكائي وهو قابع بين فخذيك!.. فتأملي قسوتها، حاولت عروبة ابنتها - وكانت مقربة جداً مني - أن تدخل على الخط فاشتبكت معها.. كانت تقول لها.. الغش والنفاق كان من والدك قبل أن يكون من تلك الخبيثة، فتقول لها عروبة أن هذا حدث من عشرين عاماً، فترد أنها عرفت به الآن، وبالنسبة إليها كأنه حدث بالأمس، ثم كانت تصرخ.. فلسطينية؟!.. يا محمد العربي.. تأملي هذا الخبث يا عروبة.. تأملي هذا الخداع والغش!.. يا ناس.. هل بقي أحد في الدنيا إلا وتاجر بقضية فلسطين أو استغلها أو استخدمها لمصلحته؟!.. ياللشناعة.. حتى أبو أحمد والدك - وفلسطين قدس الأقداس عنده - أنظري كيف استعملها.. يا للبشاعة،

يا للفظاعة.

- وكيف انتهى الموضوع؟..

- أنهاه أبو أحمد.. اختلى رأفت بابنته عروبة وطلب منها نقل رسالة إلى أمها، قال لي يومها.. غداً ستكنّ زينب.. ستكف بلاها عنك!.. وكان الأمر.. من يومها لم تفتح فمها بالموضوع.

- والرسالة ماذا كانت تقول؟..

- يا ستي.. الرسالة كانت تقول إن المرأة اليهودية، التي كانت فكرة زواج رأفت منها أرعبت أم نضال، فسارعت إلى تزويجه من زينب.. هذه اليهودية لم تكن سوى أنا، وأن الأمر كان كله تمثيلية للإيقاع بأم نضال ودفعها لطلب يد زينب له، حين عرفت زينب ذلك لزمت الصمت نهائياً، ولكن قبل ذلك علقت تعليقاً واحداً.. قالت لي إن رأفت لعب بنا نحن الثلاثة كما كان يلعب بحجر الضامة.. يقولون عنا نحن النساء إن كيدنا عظيم؟.. لقد ثبت أن كيد رأفت ومكره أعظم بكثير.

- و بعدها؟..

- استمرت بمخاصمتي لبعض الوقت ثم طوي الأمر وعادت المياه إلى مجاريها.

- وأم نضال؟..

- لم تعرف حتى اليوم شيئاً!..

كان على وداد أن تقص لربيعة قصصها أيضاً.. ولكن من أين تأتي بقصص مثل التي سمعتها من ربيعة؟!.. من هونغ كونغ أم من نيويورك؟!.. ومع ذلك حاولت.. روت لها كيف تزوجت في هونغ كونغ.. روت علاقتها بجوزف ابنها وأسهبت.. روت ظروف انتقالهم إلى نيويورك بعد عشر سنوات من زواجها.. قصت عليها وبالتفصيل أحداث يوم تخرج ابنها من الجامعة.. ثم محاولتها المتكررة مع أبيه لتشجيعه على الزواج من أمريكية من أصل صيني، وكيف فشلا في ذلك لأن جو التقى بماري في الجامعة وأحبا

بعضهما ثم تزوجا.. روت لها أحداث وفاة زوجها، ثم لقاءها الشهير بعلي في كليفلاند، عندما أنهت وداد وصفها للقائها مع علي كانت تبكي وربيعة أيضاً، بعد أن جففت دموعها قالت لها ربيعة:

- هل تريدين أن تسمعي قصة زواج دسمة؟.. إنها قصة زواج علي وعروبة.

- هل حدثت مشاكل؟..

- مشاكل؟.. أكثر من ذلك بكثير. صدقيني، يا ستي كان علي، وهو بعد في الجامعة، يتردد علينا دائماً.. كنا انتقلنا من زمن إلى حي السبيل.. كانت كل واحدة منا تسكن في شقة في البناء الذي كان شيده رأفت.. أنا معظم وقتي كنت أقضيه في شقة زينب، وبعضه في شقة أم نضال، كنت أول من لاحظ الاستلطاف بين علي وعروبة.. كان شاباً يافعاً وسيماً جداً ويدرس الطب في دمشق.. كان على أبواب التخرج ويزيدها بسبعة سنوات.. أما هي فكانت في نهاية المرحلة الثانوية من دراستها.. صبية تأسر الألباب، قوية الشخصية مثل أمها، قبل سفره إلى الولايات المتحدة للتخصص كلّم والدها بالموضوع، فنصحه بتأجيل الأمر حتى تنهي عروبة دراستها الجامعية.. كان يأتي من أمريكا كل سنة تقريباً، وعندما تخرجت عروبة من الجامعة خطبها.. وافق الجميع.. والدها ووالدتها وهي بطبيعة الحال، لكن المفاجأة أتت من أم نضال.. صرخت تقول أن هذا الزواج لن يتم وهي على قيد الحياة!.. والسبب عندها كان الاختلاف في المستوى.. فوالد علي كان بائع كعك متجول. جُرِحَ علي، لكنه أصرَّ، حاول رأفت إقناع أم نضال وحاولت زينب ولكن عبثاً.. قالوا لها إن الدنيا تغيرت، فأجابتهم إن هناك أموراً لا تتغير أبداً.. فعروبة ـ كانت تشرح أم نضال ـ إن تزوجت من هذا الشاب، لا تؤذي نفسها فقط، بل تؤذي جميع أخواتها وبنات أخواتها وتخفّف من قيمتهن.. كانت عنيدة.. عنيدة جداً، أنا حزنت كثيراً على علي.. ولكني لم أجرؤ على الاصطدام بأم نضال، في إحدى المرات دخلت أم نضال إلى شقة زينب فرأته هناك.. رأت علي، فغسَّلته

ومشّطته.. فانسحب مهاناً مذلولاً.

كانت وداد تنصت وهي في ذروة استيائها.. قالت:

- يا للعار.. ألم يوجد من كان يستطيع وقفها عند حدها؟..

- بلى.. انبرت لها عروبة وواجهتها، ولكن زينب لم تفتح فمها بكلمة.. بعد هذه الحادثة أخذ رأفت ومعه زينب القرار.. سيزوِّجونها رغم ممانعة أم نضال. في الليلة المحددة.. كانت عروبة ترتدي ثوب العرس في غرفتها، كنت أنا وزينب أمها والمزينة وجميع أخواتها معها.. فجأة انتفضت وبدأت تخلع ثوبها الأبيض، ارتدت على عجل ثوباً آخر، وحملت ثوب عرسها وصعدت إلى شقة أم نضال.. حاولت أن أتدخل فمنعتني زينب، علمنا فيما بعد أنها رمت ثوب العرس على سرير أم نضال وقالت لها إنها لن تذهب إلى حفل زواجها ولن تتزوج إذا لم تقم أم نضال نفسها بإلباسها ثوب عرسها ثمَّ مرافقتها إلى الحفل!.. وجلست صامتة، في هذه الأثناء كان رأفت وزينب غادرا إلى مكان الحفل لاستقبال المدعويين، بينما بقيت أنا وعلي وأخوات عروبة ننتظر، بعد ساعة اتصلت زينب بي من مكان الحفل تسأل.. فأجبتها أننا لا نزال ننتظر، فقالت قبل أن تقفل الخط.. إنها معركة عض أصابع وقد تطول.. مرت ساعة أخرى، وكاد الليل أن ينتصف.. ولك أن تتخيلي كيف كانت الأجواء هناك في الحفل.. فجأة سمعنا صوت خطوات الاثنتين من على درجات السلم.. أسرعنا في الخروج، كانت ابتسامة النصر تشع من على وجه عروبة.. أما أم نضال فتوقفت وقالت لعلي إن الموضوع لم يكن شخصياً، فهي تعرف معزته عند أبو أحمد وتعرف محبة عروبة له، ولكن كان عليها أن تُفهمه بأنه يتزوج الليلة من جوهرة.. جوهرة ثمينة جداً، وعسى أن يكون فهم!.. ثم قبلته من جبينه ومشت.

- يا لها من زعيمة!..

علقت وداد.

- في الحفل.. كان مقعدي إلى جانب مقعدها، عندما ذكرت لها

مقدار الرعب الذي أنتابنا قالت لي: هذا الشاب وسيم جداً وعيناه جريئتان.. كان على أحد أن ينجرّه قليلاً، فلا يوجد في الدنيا أصعب من الرجل النسونجي، ورمقتني بنظرة أطارت صوابي من الرعب.. ولكنها سرعان ما ابتسمت وغيرت الحديث.

- كانت تعلم؟.. أم نضال كانت تعلم بقصتك؟!.. يا للهول.

- لا أعرف.. ولا أحد يستطيع أن يعرف.

- هل تعلمين؟.. معها حق.. يا إلهي، علي فعلاً زير نساء، في المشفى.. عندما كنت أزوره، لاحظت ذلك.. كانت النساء ترفرف من حوله، كانت هناك طبيبة سوداء رائعة الجمال، جسدها كجسد الحوريات.. كانت عيناها تبرقان عليه طوال الوقت، أظنها كانت صديقته.

- كيف يقولها المصريون؟!.. إسح إندح إنبو.. الواد طالع لأبو!..

ولكزتها بكوعها.

- اختشي يا بنت!..

- من شابه أباه ما ظلم.. أبوه الأول أبو علي وأبوه الثاني رأفت أفندي!.. أنت أدرى بالأول وأنا بالثاني!..

أمسكت وداد وسادة صغيرة على الفور فأمسكت ربيعة بوسادة أخرى، وكادتا تبدآن، ولكنهما خجلتا أن تفعلاها فيعلو صراخهما في هذه الساعة من الليل.. فانفجرتا بالضحك. بعد قليل، قالت وداد وهي تبتسم:

- والحفيد يشابه جده أيضاً!.. لقد ضبطت مرة أبدول وفرنسي حفيدتي.. كانا يمارسان الجنس في سيارة الليموزين خاصتنا.. كانت مركونة في المرآب!..

- ماذا؟!.. من أبدول؟..

- عبد الوهاب ابن الدكتور علي، تصوري.. كانا في السادسة عشر من عمرهما!.. كانت عائلة الدكتور علي في زيارتنا هنا في نيويورك، في

الليل.. عندما نام الجميع، أنا جافاني النوم.. قمت أتجول في البيت، بعدها خرجت الى الحديقة.. سمعت صوت حركة ما تصدر من المرآب، وكان مضاء، استغربت الأمر.. عندما دخلت، رأيت سيارة الليموزين تهتز وترتج وكأن زلزالاً يحدث من أسفلها، اقتربت من نوافذها.. فلم أستطع الرؤية، فالبخار المتراكم على الزجاج من الداخل منعني، عندما بدأت أفهم، من الأصوات، ما يحدث.. هممت بالتراجع والانسحاب، وإذ بزجاج إحدى نوافذ العربة ينخفض ويظهر وجه فرانسي.. ونصف وجه أبدول، كان وجه فرانسي أحمر بلون الدم، قالت لي.. هل تحتاجين لشيء يا جدتي؟.. أجبتها متلعثمةً.. سلامتك!.. فرفعت الزجاج.. وأنا انسحبت.

- يا إلهي.. جنس كامل؟..

- لا يوجد هنا نصف أو ربع جنس يا ربيعة.. ما بك؟!.. تصوري أنا في حلب لم أذق طعم القبلة قبل بلوغي الثامنة عشرة من عمري.. فتأملّي !..

- أما أنا فقد ذقتها وكنت في العاشرة من عمري.. كانت من حيوان في الثلاثين أو الأربعين من عمره.. كان قريباً بعيداً لأمي، وأظنها كانت من أسباب كره زوجي الأول لي، فقد كنت أهرب من قبلاته من على فمي.. ولسنوات.

علمت وداد من ربيعة أن أبا اسحق والخواجة رفول بقيا في حلب لعشرين سنة أخرى بعد سفرها هي، هاجر أبو اسحق عام 1970 إلى فلسطين.. فاجأ ذلك الجميع باستثناء رأفت.. بينما هاجر الخواجة رفول إلى جامايكا، قالت لها وهي تضحك.. أن غسيل بيت الخواجة رفول ظل منشوراً لأسابيع بعد سفر العائلة.. وأنه عندما نُشر لم يكن رطباً بل كان جافاً!..

مرت الأيام الأولى بسرعة.. ثم لاحظت وداد انتباه ربيعة إلى فخامة المكان.. إلى المنزل الذي تنزل فيه.. كانت فرحتها بلقاء صديقة عمرها، والأحاديث الليلية والنهارية المتواصلة بين الاثنتين.. كل هذا كان قد أسرها.. أخذها وشغلها عن الانتباه لفخامة هذا المنزل.. شهقت تقول:

ـ يا إلهي.. هذا قصرٌ وليس منزلاً!.. يا لك من عفريته يا وداد.. نحن في حلب نعتبر من الأغنياء.. أوضاعنا جيدة جداً بل إنها في اللّوج.. نحمد الله، ولكن ما هذا؟.. من يرى هذا البيت يقول إنه بيت رئيس أمريكا بالذات.

ـ رئيس الولايات المتحدة لا يملك مثل هذا البيت.. نحن أغنى منه.

ـ هل صحيح أن رئيسكم كان ممثل سينما؟..

ـ نعم ريغان كان ممثلاً.

ـ يا لكم من حمقى!.. ألم تجدوا في طول بلادكم وعرضها إلا ممثلاً في السينما لتنتخبوه رئيساً!..

ـ نحن في أمريكا يا ربيعة، والصيني هنا قد يصبح رئيساً.

ـ صيني يصبح رئيساً لأمريكا؟!.. ألم أقل لك إنكم شعب من الحمقى.

كادت ابتسامة وداد تتحول إلى ضحكة عندما أنهت شريط ربيعة، ولكن النعاس.. الذي كان بدأ يتسرب إلى عينيها.. منع ذلك، أغفت قرابة الثالثة صباحاً بعد أن وعدت نفسها بإعادة تشغيل الشريط ذاته في الليلة التالية.

في حين كانت وداد في سريرها.. مع ذكرياتها، بقي جو وزوجته ماري والدكتور راكان في الصالة.. كانوا يتابعون وثائقياً عن رؤساء أمريكيين سابقين، ظهر على الشاشة الرئيس ريغان ومعه الملك الحسن.. ملك المغرب، كانا يمتطيان الخيل.. فعلّقت ماري:

- يا للياقة التي كان يتمتع بها.. انظر إليه، كان في الثمانين من عمره وقتئذ.. ومع ذلك فقد امتطى الحصان دون مساعدة.

- سبب لياقته هذه.. أفلام الكاوبوي التي كان يمثل فيها!..

- نحن في بلادنا نستغرب وصول شخص مثل ريغان إلى سدة الرئاسة الأولى!..

- عندما تجنح أمريكا إلى اليمين.. إلى أقصى اليمين، يظهر رؤساء من هذا النوع، انظر الآن إلى بوش الابن.

علّق جو وهو يؤشر على الشاشة.. فقد بدأت نشرة الأخبار.. وأخبار الانتفاضة الفلسطينية كانت في المقدمة.

سأل جو:

- هذه الانتفاضة الثانية لهم أليس كذلك؟..

- نعم.. كانت الأولى في النصف الثاني من عقد الثمانينات.

- هذه فيها عنف.. بعكس الأولى أليس كذلك؟..

- معك حق.. اليأس والإحباط وفقدان الأمل.. كل هذا يؤدي إلى العنف.

ـ شيء غريب.. كل مشاكل العالم حلّت إلا القضية الفلسطينية، أعتقد أننا نحن الأمريكيين نتحمل مسؤولية ما في ذلك.

قالت ماري وهي تهم بالاعتذار والانسحاب إلى غرفتها:

ـ القضية معقدة جداً.. سمعت مرة كسنجر يقول أن هذه القضية هي الوحيدة في العالم الذي يملك كلا الطرفين المتخاصمين حقاً عادلاً فيها.

ـ عندما يقول كسنجر ذلك.. فهذا يعني أن الحق كله بجانب الفلسطينيين، لقد كان منحازاً إلى الإسرائيليين على طول الخط.

علق جو بينما كان يقف وزوجته تنسحب إلى غرفتها، ثم انخرط الاثنان في حديث طويل حول القضية الفلسطينية، في نهايته. أبدى الدكتور راكان دهشته من مدى اطلاع جو على القضية وتعاطفه معها، فقال جو ضاحكاً:

ـ من يصادق الدكتور علي.. يصبح خبيراً بكل قضاياكم.

في اليوم التالي.. بعد الظهر منه، كانت أم راكان وابنها يودعان المسز شو وعائلتها.. ألحت وداد على أم راكان أن تعود إلى زيارتها قائلة أنها ستذهب هي إليها في كليفلاند إن لم تأت.. فاعتذرت أم راكان بسبب اضطرارها للعودة إلى سوريا وذلك للتحضير لعرس ابنتها هناك، قالت وداد انها علمت بعرس ابنتها هذا الصباح من الدكتور راكان ثم باركت لها مقدمة لها هدية للعروس.. كانت عبارة عن محفظة كبيرة من الجلد، أشبه ما تكون بحقيبة جلدية صغيرة، كان في داخلها طقم رائع من الألماس مع أوراق ثبوتية تشرح عنه.

لاحقاً عندما علمت أم راكان بقيمة الهدية ـ وكانت ثلاثين ألف دولار ـ أنبت نفسها على قبولها لها، فخفف الدكتور علي وزوجته عروبة من أهمية الأمر موضحين لها أن وداد، بوضعها المالي المعروف، لا تستطيع أن تقدم هدية أقل قيمة من التي قدمتها.

وصل ضيوف مسز شو قبل المساء.. استقبلتهم وداد وأسرتها بحفاوة كبيرة.. كانوا أقرباءها، كانت تمار، ابنة راشيل، امرأة وقورة في الستين من عمرها.. ومعها ابنتها سارة، أما موردخاي فكان ابن كميل أخ فؤاد زوجها الراحل الأول، كان في الثلاثينات من عمره.. ويعمل موظفاً في وزارة الزراعة.. يرافقه رجل خمسيني قدم باسم المستر ديفيد، وهو أمريكي.. علمت وداد أنه يحمل الجنسيتين الأمريكية والإسرائيلية.

كانت وداد تذكر تمار جيداً من أيام حلب.. كان اسمها هناك ليلى

وكانت فتاة نبيهة في الثانية عشرة من عمرها عندما هاجر أهلها من حلب، كانت وداد تميل إليها وتحبها.. كانت تقول لها: محبة الأولاد من محبة الأهل.. فقد كانت هي وراشيل مقربتين جداً من بضعهما بعضاً في حلب.

أما موردخاي فكانت المرة الأولى التي تراه فيها وداد، جو ابنها ـ من ناحيته ـ كان يعرف أقرباءها جميعاً فقد سبق له أن زار إسرائيل هو وزوجته والتقى بهم هناك.

على مائدة الطعام دهش الجميع من أطباق وأصناف الطعام التي وضعت جميعها على المائدة، على غير العادة المتبعة في أمريكا.. كان على المائدة كبة بالصينية وكبة سفرجلية.. ثم لحمة بالكرز ومحشي ورق العنب ومقلوبة باللحم والباذنجان وطبق من «الحلوين».

قالت وداد لضيوفها:

ـ من يصدق أن كل هذه الأصناف أعدت من قبل شخص واحد وفي نصف نهار؟!..

لم تذكر لهم أنها اكتشفت اليوم صباحاً أن أم راكان تركت غرفتها ليلاً وظلت في المطبخ حتى الساعة الثالثة صباحاً. ولم تذكر لهم أن عروبة وقبل سفر أم راكان من كليفلند بساعات أملت عليها ـ عبر الهاتف ـ مستلزمات هذه الأصناف بناء على طلب أم راكان، بل أن الأخيرة حملت معها من كليفلند كمية من البرغل وأخرى من ورق العنب.. من باب الاحتياط وكسباً للوقت كما قالت.

كانت وداد في قمة سعادتها وهي تراقب الجميع يتذوقون من هذا الطبق أو من ذاك الصنف ويعلقون مستحسنين أو مستغربين.

قالت تمار:

ـ يا إلهي.. رائحة الكبة بالصينية وطعمتها أعادتني خمسين سنة إلى الوراء.. الى أيام حلب، هل تذكرين يا خالتي يوم كنا مدعوين معكم في بيت أبو اسحق؟.. وحدثت تلك المشكلة بين أبو اسحق وزوجته؟..

ـ لا.. ذكّريني.. ولكن كيف تتذكرين أنت؟..

ـ ذاكرة الأطفال دائماً تدهش الكبار!.. يحدث ذلك لي دائماً مع أولادي، المهم حردت يومها أم اسحق لأن زوجها تحدى كل النساء الحاضرات بكبّتها، قائلاً أنه لا توجد امرأة تتفوق عليها بالكبة في كل حلب.. لكنه استثنى أم نضال، فردت عليه زوجته وتناوشا، بعدها تدخل فؤاد وتدخلت أنت..

ـ الحقيقة لا أذكر تلك الحادثة.. لكن أنت هل تذكرين أم نضال؟..

ـ كالخيال.. ولكني أذكر بناتها هدى ورجاء، فقد كانتا رفيقتيّ في الجان دارك.

ـ والعربية ألا زلت تتكلمينها؟..

فردت تمار بالعربية وبطلاقة:

ـ خالتي وداد.. في إسرائيل ظللنا عشرين سنة لا نتكلم إلا بالعربية في البيت.. ولم أتكلم أنا العبرية إلا بعد أن تزوجت.. مع أننا كنا بدأنا بتعلمها حال وصولنا إلى إسرائيل، وأحاديث أمي وأبي ومشاجراتهما كانت كلها بالعربية، وظلا كذلك حتى رحلا.

قالت تمار ذلك ثم نظرت إلى الحاضرين واعتذرت لتكلمها لغة لا يفهمونها.

قال موردخاي ممتعضاً وهو يتذوق قطعة من اللحم بالكرز:

ـ لم أسمع في حياتي أن اللحمة تؤكل محلاة!.. لحمة بالكرز؟!..

ـ أمور كثيرة لم تسمع بها في حياتك يا مودي.

علقت سارة وهي تضحك.. كانت سارة من عمر موردخاي.. متزوجة من ضابط في الجيش الإسرائيلي وهي من مواليد تل أبيب، فيها شبه واضح لجدتها راشيل ـ كما كانت تقول أمها ـ وكما لاحظت سريعاً وداد، خاطبتها قائلة:

ـ هل تعرفين يا سارة ما اسم أمك الاصلي؟..

ـ طبعاً.. ليلى.

ـ لم أفهم لمَ بدلوه.. ليلى اسم جميل.

ـ تمار اسم يهودي يا مسز شو.. يدل على الانتماء، ليلى أو ليلي أو لولو اسم موجود في كل المجتمعات.. يحمله من هب ودب!..

علق موردخاي.. فابتسمت له وداد ولم ترد.

ـ أنا أحب الاسمين.. تستطيعون مناداتي بأي منهما وسأرد على الفور!..

قالت تمار ضاحكة، ثم سألت ماري عن أهم ذكرى حملتها من إسرائيل خلال زيارتها لها مع زوجها جو.. فأجابت ماري أنها السماء.. فهي لم تر السماء قريبة وعلى حقيقتها إلا هناك، وتابعت تقول مبتسمة أنها تفهم الآن لم كل أنبياء العالم أتوا من هناك، ثم انخرط الجميع في الحديث عن مناخ المنطقة.. مناخ شرق البحر المتوسط وكيف أن الجو هناك صاف ونقي معظم أشهر السنة.. قال المستر ديفيد:

ـ يكون في ذروة نقائه وصفائه خلال شهري أيلول وتشرين.. لذلك فإنك ترى السماء أقرب إلى الأرض أكثر من أي مكان آخر في الدنيا.

ـ والبحر أيضاً يكون مختلفاً في هذين الشهرين.. تصبح مياهه ساكنة وكأنها الزيت دون تجعيدة واحدة.

ـ ولكن أليست هذه سمة من سمات الساحل السوري كله؟..

ـ لم سميته الساحل السوري يا مستر شو؟.. أنا لا أتفق معك في هذه التسمية.

ـ إنه اسم هذا الساحل يا موردخاي.. منذ ألفي عام.. بل منذ الاف السنين.

تدخلت مسز شو واقترحت على الجميع الانتقال إلى الصالة لتناول القهوة.. فانقطع الحديث، ولكن ليس لمدة طويلة.

في الصالة، ما أن استقروا حتى انخرط جو ومستر ديفيد في حديث طويل في السياسة ومعهما موردخاي، بينما اهتمت النساء بأحاديث أخرى

أخذن يتناولنها فيما بينهن، كانت وداد تصغي بقليل من الاهتمام لحديث الرجال إلا إذا تكلم ابنها.. حينها كان بصرها وسمعها يتجهان نحوه.

كان ديفيد يقول:

- يا مستر شو، عرفات رفض العام الماضي في كامب ديفيد عرضاً إسرائيلياً في غاية الكرم.. رفض 95٪ من الضفة الغربية.. كانت تضحية كبيرة من إسرائيل، ولكنه رفضها.

- وابتدأ بالعنف أو عاد إليه.. الانتفاضة الثانية!.. ظن أنه بالعنف يستطيع تحصيل أكثر!..

علق موردخاي.. فقال جو:

- لكن إسرائيل أعطته 95٪ من الضفة الغربية بعد أن اقتطعت منها ما اقتطعت، أعطته 95٪ من نصف التفاحة.. والتي نصفها مجوف!..

سأل موردخاي:

- نصفها مجوف.. كيف؟..

- كيف؟.. القدس ومحيط القدس.. القدس الكبرى، وهناك المستوطنات والكتل الكبيرة منها، على كل أنا لا أعتقد أن إسرائيل جادة في جميع مفاوضاتها.. إنها تلعب على الوقت، وهي تعرف أنها قوية وتزداد قوة مع الزمن، وخصومها ضعاف ويزدادون ضعفاً.. لا مصلحة لها في حل المشكلة الآن ولا في المستقبل القريب.. على الأقل ليس في ظل ميزان القوى الحالي.

- فيلجأ عرفات إلى القتل والتفجيرات؟..

- ماذا تريده أن يفعل؟.. إنه في وضع ضعيف جداً، إنه مزنوق.. خاصة بعد أوسلو، هو يعرف ذلك.. فهو نفسه شارك في خلق هذا الوضع.. دون أن يقصد بطبيعة الحال.

أراد المستر ديفيد تحويل مجرى الحديث فنظر مبتسماً إلى مسز شو ثم إلى جو وقال:

ـ سمعت أنكم لا تتبرعون لأي منظمة يهودية.. هل هذا صحيح؟..

ـ بلى.. نحن نتبرع سنوياً للصليب الأحمر الإسرائيلي.. وهي مؤسسة إسرائيلية أليس كذلك؟..

فقال موردوخاي:

ـ عمَّا قريب.. قريب جداً سيتغير شعار الصليب الأحمر الإسرائيلي.. ستحل النجمة محل الصليب.. لقد أُخذت الموافقة على ذلك.

تدخلت مسز شو سائلة:

ـ ولكن نجمة داوود أليست رمزاً سورياً في الأساس؟..

ـ من قال لك ذلك؟.. من قاله إما جاهل وإما غبي!..

ابتسمت له وداد ولم ترد.. لكنها سألت نفسها.. رأفت أفندي جاهل؟.. وغبي؟.. ولكن مالها ولهذه الأحاديث المتعبة.. فكَّرت، ثم أدارت وجهها باتجاه قريباتها.

كان ديفيد يسعى جاهداً لإعادة الحديث إلى موضوع التبرع، فإيباك ـ التجمع الأهم للمنظمات اليهودية في أمريكا ـ أعطته جدولاً بأسماء أغنياء يهود لا يتبرعون لها، كان من بينهم مسز شو.. ولكن موردخاي عاد إلى نقطته الأولى:

ـ من يصدق ما يفعله هؤلاء البرابرة.. يدخل الواحد منهم إلى حانة أو حافلة ركاب واضعاً حزاماً ناسفاً حول خصره، ثم يفجر نفسه ويقتل ما يقتل من أبرياء وأطفال.. يا إلهي من يصدق ذلك؟.. إنه شيء فظيع!..

ـ ولكن لماذا يفعلون ذلك؟..

ـ لأنهم متوحشون برابرة.

ـ ولماذا هم متوحشون برابرة؟..

ـ كيف لماذا!.. إنهم متخلفون جاهلون!..

ـ قرأت مؤخراً أن نسبة حملة الشهادات الجامعية عند الفلسطينيين هي من أعلى النسب العالمية.

فوجئ موردخاي بكلام جو فامتعض وقال:

- من أين أتيت بهذا الكلام؟.. حسناً.. إنهم برابرة من حملة الشهادات الجامعية.. الأمر يناسبني هكذا.. هل يناسبك أنت؟..

كان فظاً حاداً في تعليقه، وأكثر حدة في نظراته إلى جو الذي ردَّ عليه بأدب:

- ما يفعله هؤلاء بالأحزمة الناسفة شيء فظيع.. فظيع جداً، ولكنه اليأس يا عزيزي، اليأس والقهر والشعور بالمهانة.. إنها أحاسيس ومشاعر محطّمة.

قال جو هذا بتهذيب فيه كثير من المرارة.

نظرت وداد إلى وجه ابنها ثم إلى وجه موردخاي.. فشعرت بالاستياء، حاولت أن تشيح بنظرها عنهما ولكنها عادت ونظرت إلى كل منهما.. فزاد استياؤها.. كان موردخاي ينظر باستخفاف شديد إلى جو، بدأت الدماء تغلي في عروقها، فجأة قررت أمراً كانت نجحت في الهروب منه مدة خمسين عاماً.. سألت:

- قل لي يا موردخاي.. لم أتيتم بهم معكم؟..

- لم أفهم.

- لماذا أتيتم بهؤلاء البرابرة معكم؟..

- أتينا بهم؟.. نحن؟.. لم نأت نحن بأحد.. كانوا هناك عندما قدمنا.

- منذ متى.. كانوا هناك؟!..

- لا أعرف.. كانوا هناك وكفى!..

- لا يهمك يا موردخاي أن تعرف إن كانوا هناك قبل مجيئكم بسنتين أو مئتين أوألفين من السنين؟..

فوجئ الجميع بتدخل مسز شو.. فوجئوا بنبرة صوتها، خاصة أسرتها، وبالأخص ابنها جو.. لكنها تابعت:

- هؤلاء الذين كانوا هناك.. هؤلاء البرابرة الذين تتحدث أنت عنهم..

أنا ولدت بينهم، وعشت ثلاثة وثلاثين سنة معهم، أنا حلبية يا موردخاي.. ولدت في حلب، وحلب مدينة عربية مثلها مثل أي مدينة عربية في فلسطين.. وتنقلت كثيراً في حياتي، من حلب إلى هونغ كونغ إلى نيويورك.. ولكني لم أر في حياتي مثلهم.. إنهم من أطيب خلق الله، إنهم الأكثر حباً في العالم، والأكثر تقديراً للصداقة، والأكثر تذوقاً للموسيقى، والأكثر تفنناً في الطبخ.. والأكثر ظرفاً على وجه الأرض، ماذا أقول لك عنهم أيضاً؟.. إنهم الأكثر حضناً للغريب.. والأكثر عطفاً على الفقير.. هل تعرف ماذا فعلتم أنتم بهم؟.. لقد سرقتوهم!.. هكذا.. بكل بساطة.. سرقتوهم، هل تعرف ماذا سرقتم منهم؟.. أنا سأقول لك: لقد سرقتم منهم وطنهم وطردتموهم منه، وحين فعلتم ذلك.. سرقتم منهم حياتهم كلها.. سرقتم بيوتهم.. أسواقهم.. شوارعهم.. ملاعب أطفالهم.. مقاهي رجالهم.

توقفت وداد للحظة.. كانت دهشتها مما تقوله تفوق دهشة جميع الحاضرين.. كانت كلمات رأفت التي سمعتها منه منذ خمسين عاماً تعود إليها كلمة وراء كلمة.. سطراً وراء سطر..فتابعت:

ـ لقد سرقتم من الفلسطينية النافذة التي منها نظرت أول نظرة حب، سرقتم منها الزقاق التي التقت فيه لأول مرة بالحبيب.. سرقتم منها عتبة الدار، حيث جلست مرة وهي طفلة وترنمت إيقاع أول أغنية سمعتها من جدتها..

كانت الدموع بدأت تتجمع وتملأ عيني وداد.. لكن قبل أن تنهمر استطاعت أن تقول:

ـ هل أنا مع الأحزمة الناسفة؟.. من يستطيع أن يكون معها؟.. ولكني أقول لكم ـ وبكل صدق ـ إني أتفهمها.. هي تسبب لي الألم و الغضب ولكني أتفهمها.. أنتم السبب.. لقد دفعتوهم إلى الجنون وأفقدتموهم صوابهم.

للحظات ساد الصمت.. كان وجه ديفيد ممتقعاً، أما موردخاي

فكان يرتجف من الغضب، فجأة وقف وهو لا يزال يرتجف وقال:

ـ لقد حدثوني كثيراً عن اليهودي الذي يكره نفسه.. فلم أصدق، وها إني أراه أمامي.. هذا الكره للذات لا يصدر إلا عن إنسان مريض أو عجوز خرفة.

ـ حذار أيها الشاب.. وانتبه لما تقوله..

صرخ جو بصوت عالٍ وهو يقف غاضباً.

طلبت تمار من موردخاي أن يهدأ ويجلس مكانه فلم يعرها انتباهاً.. طلبت منه سارة ذلك فلم يسمعها.. فتدخل ديفيد وأعاده إلى مكانه.. في حين كان جو يتابع بحدة:

ـ إن ما نطقت به أيها الشاب في هذا البيت..

قاطعته أمه قائلة:

ـ دعه يا جو.. دعه ولا تهتم، إنه ثرثار كبير.. تافه، كان أبوه من قبله ثرثاراً كبيراً أيضاً.. عندما قبَّل كميل أول فتاة في حياته، لم يبق أحد في حلب إلا وسمع بذلك.. وباسم الفتاة التي قبَّلها، وكان غبياً أيضاً.. عندما أراد أن يخدم القضية، قام بسرقة محال اليهود بهدف إخافة أصحابها ودفعهم للهجرة.. في اليوم التالي انكشف ودخل السجن!.. دعه يا عزيزي، إنه غبي ومتعجرف.. إنه بوصفه لهم بالمتوحشين والبرابرة يحرض على قتلهم وإبادتهم جميعاً.. إنه أحمق لا يعرف ما يقول.

كانت قاسية.. قاسية جداً، شعرت بذلك.. نظرت إلى موردخاي، كان وجهه أصفر اللون تماماً، لم يكن عليها التعرض لأبيه.. فكرت، ولكنه يستحق.. قالت لنفسها، نظرت إليه مرة أخرى وهمت أن تقول له شيئاً لكنها أحجمت، ثم وقفت وهي تقول لتمار وابنتها أنها سترافقهما إلى جناحهما.

في هذه الأثناء وصل توماس ابن جو من السفر.. بدأ بالاعتذار لتأخره، ولكنه لزم الصمت عندما رأى وجوه الحاضرين.. كان الجو بحق

مكفهراً، طلب منه والده مرافقة ديفيد وموردخاي إلى الباب بعد أن صافح مودعاً ديفيد فقط.

في العربة التي كان يقودها ديفيد.. كان الصمت مطبقاً بينه وبين موردخاي، فكر ديفيد.. يا له من أحمق، لقد فوت عليّ الفرصة.. لم يكن عليّ المجيء معه، لقد خدعني بقرابته لعائلة شو.. كانت معلومات ديفيد عن مسز شو أكيدة.. إنها يهودية، وتحترم يهوديتها جداً، لكنها تكره السياسة.. كان بالإمكان العثور على طريقة ما للتأثير عليها ودفعها للتبرع.. لكن هذا الأحمق!.. سيزداد حنق ديفيد أكثر بكثير عندما يعلم أن مسز شو تتبرع سنوياً بمليوني دولار، مليوناً للصليب الأحمر الإسرائيلي، ومليوناً للهلال الأحمر الفلسطيني.

عندما عاد توماس إلى الصالة علم من أمه أن مناوشة كبيرة حدثت.. بعدما فهم أسبابها قال:

ـ لو كنت موجوداً لحُسمت المعركة حتماً لمصلحة جدتي!..

ضحكت أمه وهي تقول:

ـ لقد سحَقته يا ابني.. لقد سحقته جدتك!..

كان سبب تبجح توماس هو أطروحته الذي يعمل عليها في جامعة كولومبيا.. كان عنوانها الأولي: التطهير العرقي، كان يعمل في البداية على أحداث البوسنة والهرسك وكرواتيا، ثم وجد من نصحه بالأستاذ إدوارد سعيد الذي يدرّس في كلية الآداب في الجامعة ذاتها، فأحاله هذا إلى المؤرخين الإسرائيليين الجدد، ونصحه بتغيير عنوان أطروحته وجعله «التهجير القسري».. لأسباب سيكتشفها لاحقاً.. قال توماس لأبيه:

ـ لا تتصور يا أبي عدد القرى والبلدات الفلسطينية التي جرى تهجير سكانها.. إنها بالمئات.. عشرات وعشرات منها مُحيتْ من على سطح الأرض.. وكل هذا موثق من قبل المؤرخين الإسرائيليين الجدد.

كان الأدرنالين لايزال يجول كثيفاً في دماء جو. لذلك لم يعلق.

- لماذا طلب منك الأستاذ ادوارد سعيد تغيير عنوان الأطروحة؟..

سألت أمه.

ـ كان يتوقع هجوماً شديداً على عنوان مثل التطهير العرقي في فلسطين.. ظن أن عنواناً مثل التهجير القسري ربما يكون أخف وطأة وأقل استفزازاً لجماعة الضغط عندنا في الجامعة.. ولقد كان مخطئاً، فالضغط كان كبيراً.. ولولا مداخلات من هنا وهناك شارك بها أبي، لاضطررت إلى تغيير موضوع أطروحتي من أساسه.

- تستطيع انتقاد إسرائيل في إسرائيل متى تشاء وكيفما تشاء.. أما هنا في أمريكا فالأمر مختلف!..

علق جو هذه المرة وهو يقف قائلاً أنه سيذهب للاطمئنان على والدته.

وجدها مستلقية على سريرها.. جلس على طرف السرير وأمسك بيدها ناظراً إليها بحنان وهو يقول:

- لم يكن عليك الانفعال بتلك الطريقة.. هذا يضر بصحتك.

- ألم ترَ نظراته إليك؟.. لم أستطع تحملها.. كان يستحق صفعة قوية، ولقد تلقاها.. لكنها كانت قاسية بعض الشيء.. أليس كذلك؟..

- نعم كانت قاسية.. على كل حال لا تهتمي، السؤال المهم هو من أين أتيت بكل ذلك الكلام المؤثر؟.. لقد فاجأتني.

- أنا نفسي فوجئت.. هذا الكلام سمعته أنا من رأفت أفندي في حلب.. منذ أكثر من خمسين عاماً.. لم أعرف يوماً أني احتفظ به في ذاكرتي طوال هذا الزمن، سبحان الله، لقد ألقيته وكأنه أنشودة أو قصيدة شعر كنت أحفظها من المدرسة.

- هذا لأنه أثر فيك كثيراً عندما سمعته لأول مرة.. لقد كنت رائعة.

ـ أنت تعرّفت على رأفت أفندي عندما أتى لزيارتنا، واكتشفت بنفسك كم هو رائع.. قال لي مرة وقبل قيام دولة إسرائيل بسنة أو بسنتين.. إذا استمر جماعتك بالسير على الطريق ذاتها، سيأخذوننا ويأخذون أنفسهم

إلى أكبر كارثة تحل بالمنطقة منذ ألف سنة، وسنعاني منها لأجيال وأجيال.. انظر إلى جيل موردخاي، وانظر إلى جيل الأحزمة الناسفة.

- رأفت أفندي إنسان مميز جداً.. يلتقي المرء بمثله مرة في العمر.. هل تعلمين أنه أكمل المئة عام من عمره؟..

- لا.. ليس بعد، يقول الدكتور علي إنه سيكمل المئة عام في نهاية هذه السنة.

في الصباح استيقظت وداد باكراً.. نومها كان مضطرباً بعض الشيء، قرَّرت أن تبقى في سريرها، ثم تذكرت ما حدث بالأمس.. فطردته من ذهنها على الفور، بعد قليل سهت.. كأنها أغفت من جديد، ثم أحست بوجود جو، فتحت عينيها وابتسمت له.. كان يجلس على طرف سريرها، كان من عاداته الثابتة تقبيل أمه يومياً قبل ذهابه إلى العمل.. قال لها مبتسما وهو يغادر، إنه وبعد ما حدث بالأمس، سيكون له معها أحاديث وأحاديث!.. ابتسمت له من جديد وهي تودعه بالحركة المعتادة من يدها، بعد قليل طلبت تريزا على الهاتف الداخلي وقالت لها إنها ستتناول إفطارها في المطبخ.

عندما وصلت وداد إلى المطبخ سمعت تريزا تقول للخادمة الشابة.. إن صديقها قد يكون يسوّف معها.. يضحك عليها.. فهما يخرجان مع بعضهما منذ أكثر من سنة، ولم يفاتحها حتى الآن بالزواج، وعندما أخذت وداد مكانها على كرسي بجانب مائدة المطبخ وبدأت ترتشف قهوتها، تابعت تريزا كلامها مع الشابة:

ـ أمامك حتى آخر العام.. أنا أقول لك.. لا تستخفي بالأمر، نحن الآن، ونظرت في التقويم المعلق على الحائط.. نحن في 2001/9/11، في 2001/12/31 عليك تركه إذا لم يفاتحك بالزواج.. الأمر لا يحتاج لكثير من التفكير.

ـ لا تتدخلي يا تريزا بخصوصيات الناس.. الكسندرا شابة واعية..

انتبهت وداد إلى شاشة التلفزيون المعلق عالياً على الحائط وقالت:

ـ من منكما يتابع أفلام الأكشن المزعجة هذه؟!.. وفي أول هذا الصباح الجميل؟..

كان منظر دخان يتصاعد من بناء عالٍ.. أسرعت الكسندرا وأمسكت بجهاز التحكم ورفعت الصوت وهي تقول:

ـ إنه ليس فيلماً مسز شو.. إنه بث حي.

ثم شهقت وهي تقول: يا إلهي!..

كان المذيع يقول إن طائرة صغيرة ربما اصطدمت بالبرج الشمالي لمركز التجارة العالمي.

جمدت عينا وداد وهي تحاول التركيز على الشاشة.. البرج الشمالي؟.. هل سمعت جيداً؟..

إنه في البرج الجنوبي.. جو، ابنها، مكتبه في الجنوبي، مقر الشركة في الجنوبي، أم أنه في الشمالي؟.. يا إلهي، كانت وداد تفكر بسرعة.. إنها الوحيدة في العالم التي لا يمكن أن تخطئ في هذا الأمر.. إنه في الجنوبي، هي متأكدة من ذلك.. لقد أخذها جو لتزور مقر الشركة أكثر من مرة.. المقر في البرج الجنوبي.. في الطابق «93» منه، كان قلبها يخفق بشدة.. أخذت تريزا فنجان القهوة من يدها ووضعته على المائدة أمامها بصعوبة.. كانت يدا تريزا ترتجفان أيضاً، كان المذيع يقول إن الاصطدام حصل في الطابق الـ «93» من البرج الشمالي وأن هناك من يتساءل إن كانت طائرة صغيرة قادرة على التسبب بمثل هذا الحريق الكبير، عادت الفوضى إلى ذهن وداد.. مقر الشركة في الشمالي أو الجنوبي؟.. طلبت بصوت هامس أن يوقظوا ماري.. وطلبت هاتفها الجوال، عندما وصلت ماري.. ظلّت واقفة على قدميها، كانت يداها الاثنتان على خديها وعيناها تحدقان في التلفزيون بذهول، سألتها وداد بصوت ضعيف إن كانت مكاتب الشركة في الشمالي.. فتمتمت ماري مجيبة، ولكن صوتها لم يسمعه أحد.. مر بعض

الوقت. تذكرت تريزا هاتف مسز شو الجوال.. طلبت من الكسندرا الذهاب إلى غرفة نوم مسز شو للبحث عنه، فقدمت هذه جوالها.. حاولت ماري تركيب رقم زوجها فلم تتذكره، فقد كانت هي وأمه يطلبانه دائماً على الرقم «1» في جوال كل منهما.. هرولت الكسندرا إلى غرفة مسز شو في الطابق الثاني، كان الكل لا يزال في مكانه.. ماري واقفة على قدميها وأيضاً تريزا بينما وداد جالسة على الكرسي وعيناها مسمرتان على الشاشة.. كان تنفسها بدأ يتباطأ، سمعت تريزا تقول إن توماس خرج مع أبيه، ولكنها لا تعرف إن كان رافقه إلى مقر الشركة، تأخرت الكسندرا.. حاولت وداد ثانية أن تسأل إن كان مقر الشركة في البرج الشمالي، فخرج صوتها متقطعاً.. اقتربت منها تريزا وقالت لها بصوت واضح إنه في الجنوبي.. في الطابق «93» منه، و الطائرة ارتطمت بالطابق «93».. لكن في البرج الشمالي، في هذه الأثناء عادت ألكسندرا ومعها الجوال وما أن دخلت المطبخ ونظرت إلى شاشة التلفزيون حتى علا صوتها:

- يا إلهي.. انظروا، إنها طائرة كبيرة.

لم ترها وداد.. ولكنها رأت انفجاراً كبيراً بلا صوت وكتلة هائلة من النيران.. كان الانفجار في البرج الجنوبي، تلعثم المذيع وهو يؤكد ما شاهدوه، قال إن طائرة أخرى ارتطمت بالبرج الجنوبي.

التفتت وداد ناحية ماري.. رأتها وقد قرفصت، وساعداها يستندان على ركبتيها ويداها تعصر الواحدة منها الأخرى ورعب هائل يشع من عينيها، فأغمضت وداد عينيها.. كادت أن تُشلّ، فكرت.. قد يكون غادر، مر وقت طويل بين الانفجارين.. قد يكون غادر، نعم.. نعم لا بد أنه غادر، فهو حذر وسريع البديهة.. لقد غادر، بالتأكيد هو غادر، سمعت المذيع يقول أن ثمانية عشر دقيقة هي المدة الفاصلة بين الانفجارين.. أخذت نفساً عميقاً وطلبت بصوت مرتجف من الكسندرا أن تضغط على رقم «1» في الجوال، ففعلت الكسندرا وأعطتها الجوال.. سمعت وداد خمسة رنات

قبل أن يفتح جو الخط:

ـ أين أنت يا جو؟..

ـ في المكتب يا أمي.

ـ لا زلت هناك؟.. لماذا؟..

فلم يرد.

ـ تصرف يا جو.. غادر المكان فوراً، فوراً يا جو.. هل تومي معك؟..

ـ نعم.

ـ ماذا تفعل الآن؟..

ـ نحن نستكشف إن كان هناك ممرٌّ آمنٌ للنزول.. إن كان الحريق يعم الطابق رقم «78» كله فسنحاول الصعود إلى أعلى.. إلى السطح.

ـ جِدْ طريقة يا جو.. استجمع قواك، استجمع عقلك.. عقلك كان دائماً قوياً.. اعتمد عليه.. هو سيخرجك من هذا المكان.. أعطني تومي.

ـ تومي.. حبيبي، كيف حالك؟..

ـ أنا بخير.

ـ يجب أن تبقيا مع بعضكما في كل لحظة.. أمك تريد أن تكلمك.

أخذت ماري الجوال وهي تجلس بمساعدة تريزا على كرسي بجوار وداد:

ـ تومي.. هل أنت بخير؟..

ـ نعم وأبي أيضاً.

ـ إذا استطعتما النزول إلى أي طابق تحت الانفجار فسيكون الأمر سهلاً.. هل ستحاولان؟..

ـ نحن نعمل على ذلك.. نحن الآن في طريقنا إلى الطوابق السفلى، ومعنا بعض الموظفين.

ـ حسناً.. لن أشغلك، إهتف لي ما أن تنجحا.

تبادلت وداد وماري نظرة سريعة وعادتا تنظران إلى الشاشة.. كانت

كثافة الدخان فوق كلا البرجين قد تعاظمت.. أرتهما إحدى الكاميرات أعداداً كبيرة من رجال الإطفاء يدخلون.. لا بد أن ينجحوا في السيطرة على الحريق.. فكرت ماري، وعندها لن يكون هناك من مشكلة سوى الدخان الكثيف، ولكن جو سيتدبر الأمر هو وتومي.. إنه ماهر.. وتومي أيضاً، المهم أن يخمد الحريق.. أن تتوقف النيران.. قالت ماري لنفسها.

مرَّ بعض الوقت ثم رنَّ الجوال.. كان جو يريد أن يكلِّم زوجته:

ـ ماري.. أنا أحاول الاتصال بالكابتن مايك فلم أنجح حتى الآن.. سأحاول من جديد، حاولي أنت أيضاً.. اطلبيه واطلبي منه إرسال طائرة هليوكبتر.. سنصعد إلى الطابق الأخير.. إلى السطح، أسرعي فالوقت يداهمنا.

ـ والنزول إلى الطوابق تحت الانفجار أليس ممكناً؟..

ـ لا.. إنه ليس ممكناً.

احتاجت ماري لدقائق ـ ظنتها ساعات ـ للعثور على رقم الكابتن مايك، وعندما همت بطلبه رن جوالها.. كانت فرنسي، كانت تبكي.. قالت إنها كانت في طريقها إلى مقر الشركة عندما علمت بالخبر، حاولت الاتصال بأبيها إلا أن جواله مشغول، وأيضاً جوال تومي، طلبت أمها منها التوجه فوراً إلى المنزل بعد أن طمأنتها على وضع أبيها وأخيها، ثم طلبت ماري رقم الكابتن مايك، وهمَّت بنقل رسالة جو إليه، فقال لها أن جو اتصل به قبل قليل وهو يعمل على الأمر، وخلال وقت قصير جداً سيحلِّق مع طيار الهليوكبتر.. ذكرت ماري ذلك لوداد فبدا الارتياح على وجهها.. قالت ماري إنها ستطلب جو مجدداً، فمنعتها وداد قائلة أن عليهم عدم إشغاله، وقد يتأثر ويضعف من جراء سماعه لأصواتهم الخائفة.. وعاد الجميع يحدق في شاشة التلفزيون.. بعد قليل وصلت فرنسي، ارتمت في أحضان أمها ثم في أحضان جدتها ثم استقرت في أحضان تريزا.. كانت عيون الجميع مسمرة على الشاشة ينتظرون رؤية طائرة الهيليوكبتر.. مر بعض الوقت ثم رن جوال

ماري.. كان جو، كان صوته ضعيفاً.. قال لها إن الهيليوكبتر لن تستطيع الإقلاع لأن أوامر صدرت بإسقاط أي طائرة تحلق.. شحب وجه ماري من جديد، فأخذت وداد الجوال منها.. عندما علمت بالأمر وسمعته يقول إن الوضع سيء أجابته بقوة:

- طبعاً الوضع سيء.. كلنا نعرف أنه سيء، ولأنه سيء ستخرج منه.. إياك أن تستسلم.

- أنا أحبك يا أمي.

- ماذا؟!.. ما بك؟..

أعطت بسرعة الجوال لماري، استدارت إلى الجهة الأخرى.. وأجهشت بالبكاء، بعد لحظات قررت أن تتماسك.. فبدأت تجفف دموعها.. سمعت الكسندرا تقول إن هناك شيئاً يسقط من الطوابق العليا.. ثم تابعت وهي تشهق:

- يا إلهي.. إنهم أشخاص يرمون بأنفسهم!..

أكّد المذيع بصوت مرتجف هذا الأمر.. فدبَّ الذعر في الجميع، علا صوت بكاء فرنسي.. وتبعتها أمها ماري، فأغمضت وداد عينيها وبدأت تتمتم: ساعدنا يا إلهي.. ساعدنا.. أنت الوحيد القادر.. أنت الوحيد.. ثم فجأة تحولت إلى التمتمة بالعربية.. دخيلك يا ربي.. يا ربي دخيلك.. يا ربي لا تأخذه مني.. ارحمني يا رب، ثم عادت إلى الإنجليزية: لقد سبق وعاقبتني.. عاقبتني بشدة.. كفى الآن.. دعه يعش.. دع ابنه يعش.. إنك تستطيع إن أردت، ثم إلى العربية مرة أخرى: استغفر الله.. استغفر الله.. دخيلك يا ألله.. دخيلك يا ربي.. لاتدعه يرحل، حاولت أن تفتح عينيها عندما سمعت الكسندرا تقول إن مذيعاً آخر في المركز الرئيسي للمحطة يتحدث.. فلم تستطع فتحهما، لكنها سمعت المذيع يذكر أن تقارير من إسرائيل تقول إن منفذي الهجوم هم فلسطينيون.. وهناك تقارير مخابراتية أخرى - ومن إسرائيل أيضاً - تتهم حزب الله.

حاولت وداد أن تفتح عينيها من جديد عندما سمعت الكسندرا تقول بصوتٍ عالٍ:

- ما هذا؟..

كان ضباباً كثيفاً جداً يخرج بسرعة كبيرة متموِّجاً من البرج الجنوبي.. فتابعت:

- قد يكون رغوة رجال الإطفاء.. أظنهم قرَّروا إغراق البرج بكامله بالرغوة.. ولكن لون هذه الرغوة داكنٌ وليس أبيض!.. يا إلهي البرج ينهار.. البرج الجنوبي..

انهار البرج الجنوبي وتبعه الشمالي، ولكن وداد لم ترَ ذلك من على الشاشة.. لم تستطع فتح عينيها.

في اليوم التالي كان الدكتور علي في عربته ومعه مساعده الدكتور راكان.. كانا يسيران باتجاه نيويورك.. وكان عليهما قطع مسافة 500 كم تقريباً، كان المفروض أن ترافق الدكتور علي زوجته عروبة، ولكنها وفي آخر لحظة لم تستطع بسبب طارئ ما في عملها.. فرافقه الدكتور راكان بعد إلحاحٍ شديد من الأخير.

كانوا قد تابعوا بالأمس الكارثة لحظةً بلحظة.. وعرف الدكتور علي بوجود صديقه جو وابنه توماس في مقرِّ الشركة، فقد هتف له على الجوَّال وكلَّمه بعد ارتطام الطائرة الثانية بالبرج الجنوبي بدقائق.. وبعد انهيار البرج هتف إلى منزل آل شو.. فردَّت تريزا، كانت مضطربة جداً.. لكنها أبلغته أنَّ مسز شو الكبيرة انهارت ووضعها سيء جداً، وأنَّ سيارة الإسعاف وصلت وستنقلها فوراً إلى المشفى، أخذ حينها رقم هاتف المشفى من أحد المسعفين من دون أن ينجح بفهم أي شيء عن وضعها الصحّي.

انقضت الساعة الأولى من سفر الرفيقين دون أن يتبادلا كلمةً واحدةً.. كانا يسمعان الأخبار من الراديو، كانت تتحدث عن التوقُّعات الأولية لعدد الضحايا، منها من قدَّرها بعشرة آلاف ضحيَّة، ومنها من قدَّرها بعشرين ألف.. إلا أنَّ تقديرات رصينة حامت حول الرقم خمسة آلاف. أمَّا عن الجهة التي تقف وراء الهجوم فكانت التحليلات وحدها هي من تحاول الإجابة.. تراجع اتِّهام الفلسطينيين وحزب الله، وتقدَّم اتِّهام جهات أصولية إسلامية قد تكون القاعدة على رأسها، فجأةً أقفل الدكتور علي الراديو.. بعد قليل

نظر إليه الدكتور راكان بطرف عينه فرأى عينيه مليئتين بالدموع.. حاول الدكتور علي أن يتماسك.. فنجح، ثمَّ حاول أن يبلع ريقه بعد أن تنحنح.. فشعر بالغصة، كانت حرقة وغصَّة مقتل صديقه جو هناك.. في حلقه، بل إنَّ الكارثة كلها كانت هناك، تناول بيده عبوة بلاستيكية صغيرة من الماء وارتشف قليلاً منها.. فسال الماء من فمه إلى معدته، ولكنَّ الغصَّة بقيت في مكانها.. بعد قليل تنحنح من جديد وقال:

- كنا مقربين جداً من بعض.. يا لها من كارثة وقعت على عائلته.. وعلينا، وعلى العالم بأسره، ستقوم الدنيا ولن تقعد.. إنها بيرل هاربر جديدة بالنسبة لأمريكا.. بل أكثر.

هزَّ رأسه الدكتور راكان ولم يجب.. ظنَّ أن استرسال الدكتور علي في الحديث قد يريحه.. إلا أنَّ الأخير لزم الصمت، بعد قليل تكلَّم الدكتور راكان:

- رحمة الله عليه.. كان مطلعاً على قضايانا بطريقة مُدهشة.

- لا يوجد في الدنيا أجنبي ألمَّ بالقضيَّة الفلسطينية وتعاطف معها مثله.

- لقد لاحظت ذلك من الحديث الوحيد الذي جرى بيني وبينه.

- على كلِّ حال.. الآن فرحة اسرائيل بالتفجيرات الأخيرة لا توصف.. ستسهِّل لها الأمور كثيراً.

- يا إلهي.. أربع طائرات مليئة بالركاب، تُختطف ويُسيطر عليها وتصبح أربع صواريخ ضخمة.. من يصدِّق ذلك؟.. كيف نجحوا؟..

- نجحوا ستروبيا!..

- ورأيك بالجهة الفاعلة؟..

- إنها عملية كاميكازي.. أيام زمان كان يفعلها اليابانيون، أما الآن فلا يوجد غير المتطرفين الإسلاميين.

- يا إلهي.. أرجو ألاَّ يكونوا هم، وإلا نزلت على رؤوسنا جميعاً.

- ستنزل.. صدقني، سيشعر الأمريكيون أنَّ كارثة قوميَّة كبرى ألمَّت

بهـم.. كـارثـة وراءهـا جهـة تجـرَّأت علـى ضـربهم في عقـر دارهـم، ولكـن سـرعان ما يحوِّلوها إلى ذريعة.. إلى فرصة ذهبية كانوا يتمنون شراءها بزر طربوشهم.

ـ يـا للغبـاء.. لـو ضـربوا أهـدافاً عسـكريَّة في اسـرائيل، مطـاراً عسكرياًاسرائيلياًمثلاً أوأكثر، لاختلف الأمر.

ـ التطرف دائماً غبي.. عند الجميع وفي كلِّ زمانٍ ومكان ودين.

ـ بالنسبة لمسز شو.. هل فهمت مقدار الأذيَّة التي أصابتها؟..

كـان الـدكتور علـي نجـح بالاتـصال مسـاء أمـس بأحـد أطبائهـا في المشفى.. فهم أنَّ النـزف الـدماغي سبَّب في دخولهـا الكومـا إلا أنَّهـم لـن يستطيعوا تقدير حجم الأذية قبل مضيٍّ بعض الوقت.

ـ أرجو ألا تُصاب بالشلل.. وإن حصل، آمل ألا يظهر على وجهها.

عندما وصلا إلى نيويورك توجَّها علـى الفـور إلى المشفى.. وجـدا هنـاك فرانـسي وصـديقها وجـدَّتها لأمهـا، ارتمـت فرانـسي معانقـةً صـديق العائلـة الأوَّل.. كـان علـي مُتـأثِّراً جـداً، سـألها عـن أمهـا، فقالـت لـه إنهـا نائمـة في الغرفة المجاورة.. فقد اضطرَّ الأطباء لإعطائها أكثر من حقنة مُهدِّئة، بعد قليـل التقـى الـدكتور علـي بالطبيـب المشرف علـى وداد.. فهـم منـه أنَّ صـور الـدماغ مقلقـة جـداً، لم يـستطع رؤيـة وداد فقـد كانـت في غرفـة العنايـة الفائقة، ظلَّ في المشفى هو والدكتور راكـان حتـى وقـتٍ متـأخِّرٍ مـن الليـل، عندما قيل له ان مـاري استيقظت.. دخـل إلى غرفتهـا، كانـت مـستلقية علـى ظهرهـا.. كـان وجهها منهكـاً، وعيناهـا بـاردتين، حـدَّث نفسه.. يـا إلهـي، يجب أن تبكي.. لماذا لا تبكي؟.. لمحته.. فتغيَّرت عيناها، مدَّت كلتا يديها باتجاهه.. فأسرع إلى معانقتها ثمَّ انفجرا بالبكـاء.

كانت عروبة وزوجها علي يتابعان من على شاشة التلفاز قصف تورابورا.. قالت لزوجها:

- يقولون إنَّ القاعدة تملك أنفاقاً تحت الأرض بعمق عشرات الأمتار.. وتستخدم أيضاً المغارات الطبيعية.

- إنهم يقصفونها بقنابل زنة طن وأكثر.. خارقة للإسمنت المسلَّح، مع أني أشك بوجود هذه الانفاق أصلاً.. المساحات الشاسعة في افغانستان والجبال الوعرة الممتدَّة مئات الكيلومترات تؤمِّن لهم ملاذاً آمناً اكثر من كل أنفاق الدنيا.. هذا ناهيك عن البحر البشري الهائل على الحدود مع باكستان الذي يمكن أن يحضنهم.

- ولماذا يقصفون بهذه الطريقة؟..

- إنهم يقدِّمون لنا و للعالم عرضاً تلفزيونياً مرعباً.. وبالذخيرة الحيَّة !..

- انتهى بسرعة غزو أفغانستان.. أليس كذلك؟..

- الأمريكان قاتلوا الأفغان بالأفغان.. انتهى الموضوع وكأنَّه انقلاب عسكري بدعمٍ جويٍّ أمريكي.

- أنا قلبي على اختي امل يا علي.. الله يكون في عونها !..

لم يعلق علي.. كان يعرف قصَّة لؤي، ابن أخت زوجته جيداً.. كان هذا طالباً متفوقاً في كليَّة الهندسة في حلب، في أحد الأيام فاجأ أسرته بنيَّته على السفر إلى السعوديَّة مُدَّعياً أنَّه انضمَّ إلى مجموعةٍ من رفاقه في الجامعة عزمت على أداء العمرة هناك.. لم يمانع والده، أمَّا أُمَّهُ فقد تردَّدت..

كانت بدأت تلاحظ ـ ومنذ أكثر من عام ـ تغيُّرات في طباعه.. فتوجَّست، لكنَّها لم تستطع منعه خاصَّةً أنه أخذ موافقة أبيه.. سافر ولم يعد!.. أرسل لهم ـ عن طريق صديق ـ يعلمهم بوجوده في أفغانستان.. علموا أنَّه لم يطأ بقدميه أرض السعودية أبداً، طار صواب عائلته.. كادت أمه تُجن، وأبوه أيضاً.. حاولوا إيجاد طريقة ما لإعادته.. وألحُّوا، إلا أنَّ جهودهم باءت بالفشل.

نظر عليٌّ إلى زوجته وقرَّر عدم الخوض بموضوع لؤي.. كان هو يُحمِّل عديله ـ والد لؤي ـ المسؤولية، وكانت هي تحمِّلها للوضع العام.. للمناخ المتشنِّج السائد هذه الأيام، قال:

ـ هل تعلمين؟.. لا أعرف حتى الآن ماذا سأحمل معي لعمِّي رأفت بمناسبة عيده المئوي.

ـ لن يعتب عليك.. مُجرَّد ذهابنا إلى حلب وحضورنا هناك سيرضيه ويفرحه أكثر من اي هديَّة.

ـ أنا في شوقٍ كبيرٍ إليه.. وإلى حديثه، خاصَّةً بعدما جرى هنا!..

كان عليهما السفر مع الأولاد إلى سوريا، وكانت المناسبة كبيرة.. بلوغ رأفت المئة عام من عمره، كان لعلي وزوجته ولدان.. عبد الوهاب وقد درس الهندسة، وندى التي كانت أنهت دراستها في الأدب الانكليزي.

كان المفروض أن يسافر الجميع في عطلة أعياد الميلاد ورأس السنة.. أي بعد بضعة أسابيع، إلا أنَّ وصول النبأ أربك جميع الترتيبات.. لقد قُتلَ لؤي، قتل في أفغانستان.

عندما أغلقت عروبة خط الهاتف، كانت عيناها مليئتين بالدموع.. كانت أمُّها زينب على الخط، علمت منها أنَّهم لن يقيموا العزاء قبل وصول تأكيد لمقتل لؤي من اكثر من مصدر.. مع أنَّ مُرسل النبأ المشؤوم من باكستان كان صديقاً للؤي.. وهو من حلب أيضاً.

قرَّرا السفر خلال أيَّام.. كانت عروبة خلالها لا تكفّ عن البربرة

ورمي الشتائم بمناسبة وبدون مناسبة.. في إحدى الأمسيات وقبل سفرهما بيومين، كانت مع زوجها في غرفة المعيشة.. قالت:

ـ طبعاً.. خلت الساحة لهم، التيار القومي انكفأ.. الشيوعيون انتهوا، كل تيار فكري أو سياسي آخر كشَّ وتراجع.. فخلت الساحة لهم، وها هم الآن يحتلونها بطولها وعرضها.

ـ التيار القومي لم ينتهِ ياعروبة، تراجع.. لكنَّه لم ينتهِ، كان عدوُّه قوياً.. قويَّاً جداً، اسرائيل قوية جداً، ولا تنسي أنَّه حورب من الجميع.. مُعظم الحكومات العربية حاربته.. وبعضها أحبطته بممارساتها، التيارات الإسلامية حاربته.. أمريكا نفسها حطَّت عليه، فتراجع ولكنَّه لم يسقط.

ـ يا حسرة.. عندما أتذكَّر أبي وأحلامه.

ـ أبوك تغيَّرَ.. ألم تلاحظي؟. في السنوات الأخيرة.. عمي رأفت تغيَّر.

ـ أبي لا يتغيَّر أبداً يا علي.. صدِّقني.

ـ طيِّب.. لم يتغيَّر، ولكن خطابه تغيَّر.. مال إلى الإسلام أكثر.

ـ أبي طول عمره مُتديِّن.

ـ أعرف.. ولكن ما أعنيه شيئًا آخرَ، ألم تسمعي بنظريَّته التي وضعها مع رمضان؟..

ـ تقصد الحجاب بالقناعة أو بالجكارة؟!.. لقد ابتدعها مع رمضان للمماحكة.

ـ لا.. إنَّه مُؤمنٌ بها إيماناً مُطلقاً، ولكن أنت تعرفينه.. لم يرد أن يضغط عليكنَّ، فلم يفصِّلها أمامكن أبداً.. إنه أكبر ليبرالي في العالم، ترك بناته وبنات بناته لقناعتهن، مع أنه في السنتين الاخيرتين عاد إليهن.. ألم تحدِّثكِ أمّكِ بالأمر؟.. ألم تأتِ مؤخَّراً على ذكر الحجاب.. قناعةً أو نكايةً؟..

ـ لا.. لم تفعل.

ـ الفكرة استولت على عقله تماماً في السنتين الأخيرتين.. كانت أتته

هو ورمضان بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وتفرُّد أمريكا بالعالم.. خاصَّة عندما رأى الجيوش الأمريكية تملأ منطقتنا بعد احتلال العراق للكويت، قال حينها.. لقد قدموا، هذه المرَّة لن يكتفوا باسرائيل، وكيلهم الحصري في المنطقة.. لقد قدموا بالأصالة عن أنفسهم، قدموا بشحمهم ولحمهم.. ونحن لا حول لنا ولا قوَّة، ليس أمامنا سوى الخطّ الأخير للدفاع.. الإسلام. شبَّه حالنا بحال القنفذ، أو ذاك المخلوق المدرَّع.. عندما يشعر بالخطر الداهم يتكوَّر ويختفي تحت جلده المشوَّك.. تحت درعه، ويظلُّ هكذا إلى أن يزول الخطر، نحن علينا أن نفعل مثله.. درعنا نحن هو الإسلام، سندافع به عن أنفسنا، وعندما يزول الخطر سنخرج.. لن نخرج من الإسلام.. فلن نستطيع ذلك حتى لو أردنا، فالإسلام جلدنا ولحمنا.. سنخرج رأسنا، كما يفعل القنفذ، ويبقى درعنا ملتصقاً بنا. الإسلام الذي كان يقصده يا عروبة.. كان يسميه الإسلام الحقيقي الحضاري.. الإسلام ذا الروح النيِّرة، وليس إسلام المتشدِّدين.. متطرِّفي هذه الأيام. أنا أعرف كيف يفكر والدك يا عروبة، وأنا معه على طول الخط في تفكيره، لقد جابهناهم بالقومية.. بالناصرية، جابهناهم باليسار.. باليمين، ولم ننجح، علينا أن نتقوقع على أنفسنا الآن.. محتمين بإسلامنا، وخلال ذلك سنقاوم، وسنكتفي بدعم الفلسطينيين، لبُّ المشكلة كلها هي فلسطين، جوهر الصراع كله هو على فلسطين.

ـ ولكن أنا اعرف رأي أبي بالحجاب.. ومنذ زمن.

ـ لقد تغيَّر، منذ سنتين أو ثلاثة.. هتف لي وسألني إن كنت شاهدت على الفضائيات تلك النائبة التركية المحجَّبة، النائبة في البرلمان التركي التي طُردت منه وأُخرجت من قاعته بسبب حجابها.. كان حانقاً جداً، شتمَ كثيراً.. ثمَّ أخذ يترحَّم على أيام الدولة العثمانيَّة!.. تصوَّري هو القومي العربي!.. عندما سمع بالتضييق على المحجبات في أوروبا.. جُنَّ جنونه، قال لي.. ستتحجَّب.. ستتحجَّب قناعةً أو نكايةً!..

ـ أبي يتألَّم يا علي.. يتألَّم كثيراً.

قالت عروبة بانفعال واضح.. فأجابها زوجها:

ـ جداً.. لذلك رأى نفسه مرتمياً في الخندق الأخير.. وعن قناعة، ولا شيء يسرُّه ويريحه الآن في الدنيا سوى نجاح نظريَّته!..

ـ هل تعلم؟.. أنا معه !.. معه حق.. وأنت ما هو رأيك؟..

ـ لقد ذكرته لكِ.. أنا مع والدك على طول الخطّ.

كان انفعال عروبة في ذروته، ولكن زوجها لم يلاحظ ذلك، بدا وكأن عينيها ذهبتا بعيداً، تذكرت المشهد الذي رأته منذ أيام.. مشهد أمريكية كانت تمزق بغضب حجاب امرأة مسلمة على قارعة الطريق، فجأة قالت:

ـ أنت وهو رائعان يا علي.. يا إلهي كم أنتما رائعان!..

قالت عروبة ذلك ثمَّ وقفت وانسحبت بهدوء متَّجهةً إلى غرفتها قائلةً أنها ستعود بعد دقائق.

في هذه الأثناء كان علي يجري بعض المكالمات الهاتفيَّة.. وبينما كان على وشك إنهاء آخرها، إذ بزوجته تظهر من أمامه.. كانت عروبة مُحجَّبة.

قبل سفر علي وعروبة إلى سورية قاما بزيارة وداد في نيويورك.. كان وضعها الصحي قد وضح واستقر، لقد شلّت.. شلّت بالكامل، لكن وجهها بقي سليماً تقريباً.. فاللقوة الخفيفة التي ظهرت على جانب فمها لم تكن تغير كثيراً من ملامح وجهها، عندما رأت عليّ.. عرفته على الفور، ولم تعرف عروبة بسبب حجابها، برقت عيناها بالدموع وهي تنظر إلى عليّ.. فهم هو سريعاً معاني عينيها.. إنها آسفة، بل حزينة ومحبطة جداً لأنها بقيت على قيد الحياة.. أمسك بيدها اليمنى، كان فيها حركة.. ضغط على يدها قليلاً فردت عليه بحركة واهنة من أصابع يدها.. وابتسمت له بعينيها، فكّر.. قد تستطيع قريباً الكتابة بيدها بعد أن خسرت صوتها، شعر بحزن شديد حاول جهده إخفاءه عنها، ثم تراجع وأخذ له مكاناً على كرسي إلى جوار سريرها، فهم من ماري أنهم سينقلونها قريباً إلى المنزل، وقد تم تأمين طاقم تمريضي سيرافقها إلى هناك، مكث مع زوجته لساعات بجوارها، ثم وقبل أن يغادرا، قام عليّ بتقبيل وداد من يدها ومن على جبينها دون أن يذكر شيئاً عن سفره إلى سوريا.

في الليلة السابقة لسفرهما إلى سوريا.. علما بأن نبأ مقتل لؤي تأكد.. وأن أمه علمت بذلك لتوها، وهي في حالة يرثى لها، سافرا في اليوم التالي باكراً، في الطائرة.. كانت عروبة تفكر.. ماذا ستقول أمها عندما ترى حجابها؟!.. هل ستشهق مثلما فعلت ابنتها؟.. التي استرسلت بعدها وقصت لها ما حدث في الجامعة، قبل أيام، من جدل صاخب.. شاركت فيه هي

واحدى زميلاتها المحجبات، مع شلة من المتعصبين المتعاطفين مع اسرائيل:

ـ كانوا ينظرون يا أمي الى زميلتي المحجبة وكأنها زوجة بن لادن أو ابنته!.. انهم جهّال بكل ما يتعلق بنا.. ولولا اسرائيل لما سمعوا بنا، أما فلسطين.. فهم لا يفقهون شيئاً عنها، هم يعتقدون ان اسرائيل دولة موجودة من زمن لا يعرفون تحديده، وبجوارها مكان.. كيان ضبابي الوجود يسكنه ناس يقال لهم فلسطينيون.. هم لا يعلمون ان هذا المكان هو ما تبقى من عملية السرقة التي تمت على فلسطين.. وهو محتل أيضاً من قبل اسرائيل، أما سكانه فهم من البرابرة الذين لا همّ لهم سوى اقلاق راحة جيرانهم اليهود الوادعين المسالمين.. خطفهم أو الرمي على مستوطناتهم. حاولت توضيح الأمر بكلمات بسيطة.. فتهجم علي أحدهم وكاد يصفعني.

فكرت عروبة بأبيها.. فعندما تذكر فلسطين يطل والدها، خلال الهاتف الأخير لها مع أمها.. قالت لها أمها أن الموضوع تفاقم معه في المدة الأخيرة، ففلسطين أصبحت هوسه.. مرضه.. شغله الشاغل.

بدّلا الطائرة في باريس، ووصلا إلى حلب بعد منتصف الليل. كان جمال، الأخ الأصغر لعروبة، في انتظارهما في المطار.. عندما دخلا إلى منزل عائلة عروبة.. كان والداها ـ رأفت وزينب ـ مستيقظين في الانتظار.. لأجزاء من الثانية، تلكأ الاثنان ـ بالتتالي ـ في معانقة ابنتهما.. محدقيْن في حجابها، كانت فرحة رأفت بذلك كبيرة.. حاول أن يخفيها، فالساعة ساعة حزن، أخذ مكانه وهو يحدق بها.. كانت عيناه تبرقان وهو يزمّ ويضغط شفتيه فترتجفان.. فيهرب من ذلك سائلاً عليّ إن كان السفر قد أرهقه.. شارحاً له أن عليه هو وزوجته ضبط ساعتهما البيولوجية بسرعة، بعد انتقالهما بالطائرة من قارة إلى قارة عابرين قارة ثالثة خلال يوم واحد.

سألت عروبة أمها عن وضع أختها المفجوعة.. فأجابتها أنها ستراها غداً وسترى وقع الكارثة عليها.

كانت زينب متأثرة وحانقة جداً لمقتل حفيدها.. كانت منهكة أيضاً

بسبب اليوم الصعب والطويل جداً الذي مر بها وعائلتها وبالمسكينة ابنتها أمل، لذلك نظرت بسرعة إلى حجاب ابنتها عروبة.. ولم تعلق، بل قالت إن عليهما الخلود للراحة بعد سفرهما الطويل.. ثم وقفت قائلة إنهما يعرفان غرفتهما جيداً.. وانسحبت، فتبعها رأفت.. ولكنه توقف فجأة أمام عروبة وقال إنه سيعانقها مرة ثانية.. فتعانقا، قال لها هامساً في أذنها:

- فعلتها قناعة أم جكارة؟!..

فردت عليه هامسة أيضاً:

- هل الأمر مهمٌّ؟.. على كل حال اطمئن، لن أنزعه حتى لو أخرج القنفذ كل رأسه!..

في سريره - ولم تكن زينب قد غفت بعد - أخذ رأفت يحدث نفسه بصوت عالٍ:

— عروبة تحجبت؟!.. يا للروعة.. يا للانتصار.. رحمة الله عليك يا رمضان.. أيها الصديق الذكي والطيب.. أبشر.. أبشر.. عروبة تحجبت!.. العروبة كلها ستتحجب.. ستتحجب قناعة أو نكاية!..

لم تعلق زينب.. لن تفسح له المجال للدخول مجدداً في نقاش معها حول امتناعها عن التحجب، على الأقل ليس الآن.. ولن تسأل حتى ابنتها عن موضوع تحجبها.. فكرت بها.. يا لها من وصولية ماكرة.. إنها تشبه أباها، لكنها استدركت.. هذا ليس صحيحاً.. عروبة تشبهها هي.. الجميع كان يعرف ذلك، والجميع كان يستمتع بهذا الشبه.. خاصة عندما كانتا تشتبكان وتشاكسان بعضهما، كان رأفت يقول: زينب فيها صفات لا تعجبها.. تراها في ابنتها عروبة، فتغضب وتهجم لتشتبك معها!..

في الصباح الباكر.. وعندما استيقظت زينب، وجدت ربيعة في غرفة المعيشة!.. قالت ربيعة أنها قدمت منذ أكثر من ساعة.. سألتها عن وضع وداد الصحي وإن كان علي وعروبة زاراها قبل مغادرتهما أمريكا. أجابت بأنها لم تسألهما.. نظرت ربيعة إليها بغضب وقالت:

- لم تسأليهما؟!..

- يا ربيعة.. كانا مرهقين من السفر.. ولم أرهما إلا لدقائق، ثم إن وداد.. وداد شلّت كما تعلمين.

كانت زينب في السبعين من عمرها وربيعة في الخامسة والثمانين، كانت علاقة الاثنتين ببعضهما قوية.. وقد زادت قوة بعد رحيل أم نضال منذ عشر سنوات.

- أعرف أنها شلّت.. يا حبة قلبي هي!.. ولكني أريد أن أرى من رآها حديثاً.

في هذه الأثناء ظهر علي وأسرع لمعانقة ربيعة.. غمرته بقبلات سريعة ثم أجلسته إلى جانبها وسألته، فأجابها:

- وجهها سليم.. وعيناها تومضان.. أما البقية..

انهمرت الدموع من عيني ربيعة.. لكنها سألت:

- هل عرفتْكَ؟..

- بلى.. لقد عرفتني.

- والله.. والله العظيم لولا ألم ركبتي.. يا إلهي لو أستطيع السفر لرؤيتها..

همّت بالبكاء ثانية لكنها وقفت لمعانقة عروبة التي دخلت وتوجهت إليها، بعد أن أخذت عروبة مكانها بجانب أمها.. سألتها عن العزاء ومتى بدأ.. وعن مدته، علمت أن العزاء في بيت أختها أمل.. النساء في الصباح والرجال في المساء.. وسيستمر لثلاثة أيام، وهو الآن في اليوم الثاني، علمت أنه بعد انقضاء الأيام الثلاث.. سيستقبلون المعزين والمعزيات هنا.. في بيت أهل أمل، لكن المعزين المقربين فقط.. أو المتأخرين منهم.

كانت الساعة قاربت التاسعة صباحاً عندما قام الجميع وتوجهوا إلى بيت أم لؤي، ومعهم عليّ.

كان منزل أهل الفقيد قريباً.. في الحي نفسه، وما هي إلا دقائق حتى

كانوا في عين العاصفة.. عاصفة الحزن واللوعة والقهر.

دخلت النساء المنزل يتبعهنّ عليّ.. كان السكون مخيّماً.. مخيّماً بطريقة غريبة.. فيها رهبة وترقب، أسرع عليّ بالتوجه إلى غرفة المعيشة تاركاً النساء يدخلن إلى صالة الاستقبال الكبيرة.. هناك وجد عديله.. أبو لؤي، لاحظ على الفور الفجيعة في وجهه.. كانت ذقنه بلا حلاقة ومنذ أيام.. أما تجاعيد وجهه فقد كانت غائرة أكثر، عانقه وقبل أن يفتح فمه بكلمة عزاء.. وصلت الصيحة، كانت صرخة مدوية.. لا بد أنها من أم لؤي عندما رأت أختها عروبة.. صرخة لا تصدر إلا من أم مفجوعة بولدها.. صرخة تحمل ألم العالم كله، أخذ عليّ مكانه إلى جانب عديله دون أن يستطيع التفوه بكلمة.. بعد قليل أحس بدمعتين تسقطان من عينيه وهو يسمع صوت أم لؤي:

- لقد راح يا عروبة.. راح لؤي.. راح وحرق قلبي، الله يحرق قلب من كان السبب، الله يفجعه بولده كما فجعني بولدي.. ربي ينتقم لي منه.. دخيلك يا ربي.. دخيلك.

كان عليّ يسمع أبا لؤي من جانبه وهو يشهق بدموعه.. فمد يده وأحاط بكتفيه، فانفجر عديله بالبكاء وهو يغطي وجهه بكف يده، ظل إلى جانب عديله مدة زادت عن الساعتين.. ثم استأذن وقام متجهاً نحو باب الدار.. لمح صالة الاستقبال، كانت مكتظة بالنساء المعزيات، فتح الباب وغادر، اتجه إلى بيت عمه رأفت حيث ينزل.. أخذ من هناك حقيبة صغيرة فيها بعض الهدايا لأمه وأخته ولأولادها.. ثم توجه إلى منزل أخته جميلة.. كانت أمه تسكن معها، فهي وحيدتها بعد أن ابتعد عليّ واستقر في أمريكا، لم يجد أخته في المنزل.. كانت في العزاء، وجد أمه وأولاد أخته.. قضى معهم نصف النهار، وتناول طعام الغداء مع أمه.. ثم ودعها قائلاً أنه سيبيت هو وعروبة عندها ما أن ينتهي العزاء.

عندما وصل عليّ إلى بيت عمّه سأل عن أبي أحمد.. كان رأفت في غرفته، عندما دخل إليه، وجده جالساً يقرأ على الكمبيوتر. وقف عمه وصافحه.. كانت يده اليمنى قوية، أما اليسرى فكانت ترتجف قليلاً، لكن قامته المنتصبة.. محياه.. يقظته الواضحة، كل هذا.. كان يدفع أي إنسان يراه إلى الشك كثيراً بحقيقة عمره.. لم يكن يصدق أحد أنه على وشك إكمال مئة عام من عمره.. سأله عن صحته فأجاب:

ـ أشعر وكأني ديناصور بقي بمفرده في هذا العالم.. بعد أن رحل جميع أصحابي، جميعهم بلا استثناء، صحتي جيدة.. أجهزتي تعمل كلها بانتظام.. باستثناء جهاز واحد.. فهو لا يعمل إلا في المنام!..

قالها ضاحكاً.. فابتسم د. علي ابتسامة عريضة.

ـ يبدو أن هناك خللاً ما بدأ يحدث في دماغي.. تأتيني صور مشوشة لأحداث جرت في السنين القريبة الماضية.. صور الأحداث القديمة جداً تكون واضحة.. إلا أنها تختلط بعض المرات بالصور الحديثة المشوشة.. فيربك دماغي، وأربك أنا معه!..

ـ قد يكون هناك تصلب خفيف في الشرايين.. أنت لا تشكو من ارتفاع في الضغط.. أليس كذلك؟..

ـ بلى، هناك ارتفاع في الضغط.. ولكنهم قالوا لي إنه غير مقلق.

فكر د. علي.. ارتفاع الضغط في هذا العمر دائماً مقلق.. لكنه قال:

ـ ارتفاع الضغط في هذا العمر أمر طبيعي.. هل لا زال يشدك

الكومبيوتر؟..

- لا.. لقد مللت من التفتيش عن المواقع.. أنا احتفظ الآن على «المفضلة» بخمسة أو ستة مواقع أتفحصها يومياً.. كيف وجدت عديلك مع هذه الكارثة التي وقعت؟..

- الله يكون في عونه.. إنه منهار تماماً.. أما أم لؤي فحديث آخر.

- يا له من أحمق عديلك هذا.. لقد نبهته، ولكنه لم يشأ أن ينتبه.. في إحدى المرات خرجنا سوية من صلاة الجمعة وكان معنا ابنه المرحوم لؤي.. كنت سأتناول طعام الغداء في بيته، عندما جلسنا حول مائدة الطعام، سألت عن لؤي.. ولماذا لم يكن معنا على المائدة.. قالوا لي انه يصلي!.. وأنه سينضم إلينا سريعاً.. نبهته على طريقتي.. هل تعلم بمَ أجابني؟.. قال لي.. إنهما ركعتان فقط.. إنهما زيت على زيتون!.. يا له من مسكين.

- إنها ظاهرة غريبة.. انتشرت عند الجميع.

- إذا نحيت هؤلاء المساكين جانباً.. فهي ظاهرة طبيعية، التدين والصلاة والحجاب.. كل هذا لا يقلقني على الإطلاق.. بل إني أشجع عليه، الناس خائفة يا عليّ.. كلهم خائفون.. في كل البلاد العربية، لقد أحسوا بالخطر فتخندقوا.. تخندقوا في خندق الإسلام، أين القلق و الضرر في ذلك؟.. الخندق القومي رُدم، فأين تريدهم أن يكونوا؟.. في العراء؟!..

- ولكنك ورمضان خرجتما بنظرية الحجاب بالقناعة أو بالجكارة منذ زمن!..

- هل تظن أننا اخترعناها نحن؟.. رحمة الله عليك يا رمضان.. لقد رأيناها في عيون الناس الخائفة والمتحدية.. رأيناها في المساجد المكتظة بالمصلين وعلى الأرصفة المحيطة بالمساجد، رأيناها في الحجاب على رؤس نسائنا.. هل تظن أن نساءنا يتحجبن بسبب الدعاة؟.. هؤلاء قد يدفعون بمطربة.. أو بممثلة في السينما إلى التحجب، قد يدفعون عشرة أو مئة امرأة إلى التحجب.. المحجبات بالملايين وفي كل البلدان يا علي.. الناس أحست

بالخطر قبلنا يا رجل، إنها مثل الزواحف والطيور.. تحس بالزلزال قبل وقوعه، هذه النظرية التي تتفكهون أنتم بها.. الحجاب قناعة أو نكاية.. تعلمناها نحن من الناس.. أخذناها منهم، وهي كما ذكرت لك.. ظاهرة طبيعية جداً.

ـ لكنها أفرزت متطرفين يضربون على «العمياني».

ـ إنهم مشكلة، شوائب.. لا بد من وجود شائبة هنا وهناك.. إنهم مساكين حمقى، لقد وجدوا في كل زمان ومكان وفي كل ديانة في العالم.. لن يلبثوا أن يتراجعوا.. إنهم مثل فقاعات الصابون.. تتطاير هنا وهناك ثم تتلاشى.

ـ فقاعات؟.. هي مفرقعات وتفجيرات وضرب عشوائي.. إنهم يسببون أذى كبيراً.

ـ هذا صحيح.. إنها ضريبة لا بد منها.. تدفعها الشعوب الضعيفة المهزومة وهي تحاول لملمة قواها، ولكن الإسلام الحقيقي سيحل المشكلة.. الإسلام الحقيقي سيواجههم وسيحيدهم، لا خياراً آخر أمامنا.. بالإسلام الحقيقي الذكي سنواجه الجميع.. انظر إلى حجاب زوجتك عروبة، يا إلهي.. عندما رأيتها انتابني شعور لم ينتبني مثله إلا عام 1958.. عام إعلان الوحدة بين مصر وسوريا!..

ضحك عليّ وقال:

ـ إلى هذا الحد؟.. ولكن لم يكن هذا رأيك بالحجاب؟!..

صُغرت عينا رأفت وهو ينظر إلى عليّ محدقاً فيه:

ـ من قال لك ذلك؟.. كان هذا منذ زمن بعيد.. بعيد جداً. يا دكتور.. المتطرفون مشكلة كبيرة، كبيرة جداً.. عندما نكون متدينين مثلهم وأكثر.. نستطيع أن نواجههم.. أن نخطئهم.. على الأقل نحيدهم لأن إقناعهم من المحال!.. العلمانيون لا يستطيعون مواجهتهم.. قبل أن يدخل الاصوليون معهم بأي نقاش ـ هذا إن دخلوا ـ سيخصونهم.. هم على كل حال مخصيُّون

منذ زمن!..

ساد الصمت لبرهة.. ثم عاد رأفت ليحدق بعلي، لكن بعينين طبيعيتين هذه المرة، ثم قال:

ـ أنا خوفي ليس من أمريكا يا دكتور.. أنا خوفي من إسرائيل، هل تعلم بماذا تفكر إسرائيل الآن؟!.. في تفكيرها عرب الـ48 .. وقد تجاوز عددهم المليون، ستستغل اللحظة الآن، أقصد تفجير البرجين، ستضرب بضراوة وشراسة الانتفاضة الفلسطينية الحالية.. ثم ستطرح فكرة الدولة الفلسطينية.. دولة للفلسطينين ولكن من دون أرض!!.. هل سمعت في حياتك بدولة من دون أرض؟!.. هذا ما سيحصل!.. والغاية الوحيدة من طرح وإقامة هذه الدولة.. هم عرب الـ48، ستنقلهم إلى الدويلة الفلسطينية العتيدة.. الغير قابلة للحياة أبداً، وترتاح من أكبر هَمْ يؤرقها.

ـ ولكن كيف ينقلونهم الى دولة غير قابلة للحياة؟..

ـ ما همهم؟.. المهم بالنسبة لهم هو نقلهم خارج دولة اسرائيل، الى كيان مائع.. يعني، هي مرحلة تتلوها مراحل أخرى، وفي النهاية.. يجري تطفيش الجميع خارج الضفة.

ـ الملك حسين نجح بتعطيل فكرة الوطن البديل.. يعني في الأردن، ناور وفاوض.. وتقدم وتراجع، لكنه نجح في ذلك.

ـ أنا أتفق معك.. كان ماهراً، لكني أعتقد أنه عطّل الفكرة، ولم ينزعها نهائياً من تفكير الإسرائيليين.

ـ و لكن حالياً لا يوجد أحد يأتي على ذكر الدولة الفلسطينية.

ـ بلى، منذ فترة وشارون يلمح على الفصل.. الانفصال، هم يبدؤون هكذا..

ساد الصمت للحظات.. قطعه د.علي:

ـ منذ مدة يا عمي أريد أن أسألك عن أبو اسحق.. كيف هاجر الى اسرائيل؟..

ـ حدث ذلك بعد حرب حزيران عام 67، هذه الحرب كانت زلزالاً علينا.. وبرداً وسلاماً عليهم، شعر أبو اسحق لأول مرة بالاطمئنان لمسار الدولة اليهودية.. كان رجلاً حذراً جداً، أعتقد أنه قرر الهجرة إلى فلسطين بعد هذه الحرب.

سا د الصمت للحظات أخرى.. قطعه رأفت سائلاً:

ـ كيف تلقى الشعب الأمريكي صدمة التفجيرات في نيويورك؟..

ـ أصابه الذهول.. سربت إسرائيل.. ومنذ الساعات الأولى للتفجيرات، معلومات تشير إلى تورط حزب الله.. لكن بانت لهم الحقيقة الآن.

ـ هذه هي عادة إسرائيل دائماً.. إنها بارعة، تعلم أن ما يبقى في الذاكرة.. هي المعلومات الأولى، التي تصل إلى الذهن الخائف والمشوش، على كل حال.. لقد كانت ضربة على«الفاضي».. أذاها علينا سيكون أكثر بكثير.

في هذه الأثناء وصلتهم جلبة أصوات متداخلة تأتي من الصالة.. حدث عليّ نفسه: لابد أنها عروبة وقد اشتبكت بأمها، غادر الاثنان غرفة رأفت وانضما إلى الجميع في الصالة.. كانت هناك زينب وعروبة وربيعة وأبناء وبنات.. أخذ كل من رأفت وعليّ مكانيهما.. كانت المناوشة هدأت على ما يبدو، لأن زينب قالت:

ـ هل تعلمون يا أولاد من كان أذكى وأشطر ولد وبنت من بين جميع أولاد جدكم رأفت أفندي؟.. إنها عروبة.. هل تعلمون أن علاماتها في البكالوريا كانت تامة.. علامات تامة بالرياضيات والفيزياء والكيمياء، ومع ذلك اختارت كلية الآداب.

ابتسم عليّ قائلاً لنفسه.. هذه هي العادة، بعد كل مناكفة، يبدأ التودد والغزل بين الاثنتين!..

سألت ندى، حفيدتها من ابنها عدنان:

ـ وعمتي أمل؟..

زفرت زينب من أعماقها وقالت والألم يعصرها:

ـ نحن نتحدث ونتسلى وأمل ابنتي في الويلات..

ثم غصت بدموعها، لكنها تابعت:

ـ يا للكارثة.. يا للمصيبة، لا بد أن أحملها على المجيء إلى هنا والمبيت عندنا ما أن تنتهي الأيام الثلاث من العزاء.

هز رأفت رأسه مؤيداً.. كانت عيناه هو أيضاً مليئتين بالدموع، سألته زينب:

ـ أليس من المفروض أن تكونوا هناك.. في عزاء الرجال؟..

ـ ليس قبل الساعة السادسة.

في هذه الأثناء دخلت هدى ابنته من أم نضال، حضنت هدى أختها عروبة بشدة وتبادلتا أكثر من عشرة قُبل، قبل أن تسألها عن أحوال أولادها في أمريكا.. وإذ بزينب تجيبها:

ـ إنهم أمريكان يا ستي!.. جنسية أمريكية وثقافة أمريكية.. وربما هوى أمريكي أيضاً.!..

نظرت عروبة مبتسمة إلى أبيها.. بينما كانت أمها تتابع:

ـ وعروبة وعليّ أيضاً أمريكيان!.. نربّي ونعلم ونخرّج من الجامعات ونزوّج.. ثم تأخذهم أمريكا وتبتلعهم!..

ـ نحن عرب سوريون يا أمي.. نحمل الجنسية السورية، وسنظل نحملها دائماً، لماذا تكابرين؟.. أنت تعلمين علم اليقين أن سوريا هي من البلدان القليلة التي تسمح بالاحتفاظ بجنسيتها إلى جانب جنسية أخرى.

ـ «نيّالك».. و«نيّالنا» معك!..

تدّخل رأفت متضامناً مع ابنته:

ـ يكفيها ولاءً ووفاءً أنها تحجبت.

ـ يا «نيّالك» أنت بذلك!..

ـ طبعاً يا «نيّالي» ويا لفرحتي.. فرحتي التي لن تكتمل حتى..

قاطعته زينب.. مغيِّرة الحديث، وقد عرفت هدفه:

ـ الكومبيوتر النقال الذي حملوه لك من أمريكا.. لماذا لا تضعه في غرفتك، وتعطينا جهازك القديم؟..

استاء رأفت لأنها هربت من حديثه فقال مناكفاً:

ـ سأتركه لك.. سأتنازل لك عنه.. إنه نقّال، هكذا تستطيعين نقله معك في زياراتك العشرة الصباحية، والعشرة الأخرى المسائية!.. هل تعلمون يا أولاد أنه ـ إحصائياً ـ من كل عشر أرامل.. هناك رجلان أرملان وثمانية نساء أرامل!.. وهل تعلمون السبب؟.. إنها الثرثرة.. الثرثرة النسائية، إنها إكسير الحياة.. مطيلة الأعمار!..

نادته زينب بحدة:

ـ أبو أحمد!..

ـ ما بك؟.. أنا لا أمانع في زياراتك لرفيقاتك.. كل ما أقوله هو أنك ـ إذا تحجَّبت ـ سيكون معك وقت أكثر لزيادتها!.. تربحين الوقت المخصص لشعرك!..

صرخت زينب:

ـ أبو أحمد.. لا تخاطبني بهذه الطريقة أمام الأولاد.. لقد سبق وحذرتك!..

ـ يا ساتر.. يا للشراسة، أترين؟!.. إن تحجبت ودعمتني.. فأنا ـ وبمثل هكذا شراسة ـ أستطيع دفع نساء العالم العربي جميعهن إلى التحجب.. النساء المسلمات والمسيحيات.. جميعهن!..

ـ أنت تريد أن تحجبنا فقط من أجل إسرائيل!..

ـ وما الضير في ذلك؟..

ـ هل الحجاب سيهزم إسرائيل؟..

ـ نعم.. سيهزمها!..

ـ هل أنت متأكد؟..

ـ نعم.

ـ حسناً.. عندما أتأكد أنا مثلك.. سأتحجب!..

ـ ومتى ستتأكدين؟.. عندما يصبح عمرك مئة سنة مثلي؟..

ـ يا محمد العربي.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

قالت زينب وهي تنظر إلى العيون المشدودة إليها وإلى زوجها.. كان الجميع مستمتعاً بالاشتباك.. فقررت زينب المضي فيه إلى آخره:

ـ ألا يعجبك يا أبو أحمد الأستاذ فهمي هويدي؟..

ـ طبعاً يعجبني.. إنه من ألمع الكتاب الإسلاميين.. وأكثرهم تنوّراً.

ـ حسناً.. زوجته سافرة.

صمت رأفت لبرهة ثم سأل:

ـ هل أنت متأكدة؟..

ـ سمعتها منه.. من على شاشة التلفاز، وعندما سأله محاوره عن شعوره حيال ذلك.. كان جوابه أن الأمر ليس بيده، وأنه يتمنى أن تكون زوجته محجبة!.. ما رأيك؟..

شعر رأفت بالاستياء.. إلا أنه قال:

ـ أنا لست مهذباً خلوقاً مثله.. انظري إليه كيف يناقش على التلفاز، لا شك أن زوجته مرتاحة جداً لهذا التهذيب والخلق الرفيع!..

ـ أنت مخطىء، فأنا أتابعه.. عند الجد وإذا اقتضى الأمر، فهو يحاور بقوة.

ـ اذن.. من على شاشة التلفاز فقط!.. أما في البيت.. فالله أعلم، ليظهر شيئاً من عنفوانه لزوجته.. وسترين!..

ـ هل أنت تهددني يا رأفت أفندي؟..

بدا الغضب على رأفت.. كانت زينب تحاصره، انتفض قائلاً:

ـ أنا أهددك أيتها المرأة العنيدة المشاكسة؟..

ثم وقف وهو يرتجف:

- لن أعطيك جهاز الكومبيوتر النقال.. ولا الآخر القديم، لن أعطيك شيئاً.. هل تسمعينني؟!..

كان من عادة زينب التراجع أمامه عندما يصل غضبه إلى هذه النقطة.. وهذا ما فعلته:

- يا أبو أحمد.. أنا لم أقل يوماً إني لن أتحجب.. هل سمعتها يوماً مني؟.. طوّل بالك عليّ.. أتركني أتحجب بقناعة!..

- يا لك من ماكرة.. مخاتلة!.. هيا يا دكتور عليّ.. لنذهب إلى العزاء.. يظل الجلوس هناك مع الألم أخف وطأة من التكلم مع هذه المرأة العنيدة.

فتح باب الدار وانتظر خروج من معه من أصهار وأبناء وأحفاد.. ثم أمسك الباب من قبضته وصفقه بقوة.. وأخذ يتمتم مستاءً مستغرباً من قصة فهمي هويدي هذا، قال أحد أحفاده محاولاً التعاطف معه:

- قد تكون رواية جدتي زينب عن الأستاذ هويدي غير دقيقة.. قد تكون روتها لإرباكك.

نظر إليه رأفت مستنكراً وقال بسرعة:

- جدتك زينب لا تكذب أبداً يا ولد.. ولأي سبب في الدنيا.

بعد مغادرة الرجال المنزل.. قالت ربيعة المحجبة جداً:

- يا زينب يا حبيبتي.. لماذا لا تسايرينه؟.. ماذا ستخسرين؟..

أجابتها عروبة.. والاستياء من أمها واضح على وجهها:

- تخسر مبادئها.. قناعاتها!.. أو هكذا تظن!..

رمقتها أمها بنظرة باردة ولم تجبها.. كانت تفكر قلقة بيد زوجها اليسرى.. فقد خرج وهي ترتجف بشدة.

سألتها ندى:

- أنت قلت لنا مرة.. أن رأي جدي بالحجاب معروف ومن زمن بعيد.. وكأنك كنت تغمزين من قناعاته.. أليس كذلك؟..

لم تكن زينب تود الخوض في رأي رأفت الحقيقي والقديم بالحجاب..

كانت أكثر من نصف النساء والبنات والحفيدات الحاضرات محجبات..

حاولت أن تغير الموضوع إلا أنهن ألححن عليها فقالت:

ـ إنه يريد أن يحجبنا ويحجب جميع نساء العالم العربي من أجل إسرائيل.. إسرائيل تجنّنه.. تُطير له صوابه.

ـ ورأيه الحقيقي بالحجاب؟..

أرادت أن تهرب ثانية، ولكن نظرات ابنتها عروبة المستاءة والتي كانت تحضُّها على السكوت، استفزَّتها.. فقالت:

ـ جدكم يعتقد.. أو أنه كان يعتقد.. لا أعرف، يعتقد أن النساء في بدايات الإسلام، كان لباسهن فاضحاً جداً.. خاصة في الصيف، كانت المرأة ترتدي قميصاً طويلاً.. جلابية يعني، وكان صدرها يظهر بوضوح من خلال فتحة جلابيتها.. بل إن ثدييها عندما كانت تنحني.. أنتن تعرفن، لم يكن هناك حمالات صدر وقتها.

صمتت لبرهة ثم تابعت:

ـ المهم، أنتن تعرفن الرجال ونظراتهم الوقحة.. كانت من يومها وقحة ولازالت.. حينها كان يطلق اسم الجيب على صدر المرأة.. العبّ يعني، جدكم يقول.. أنه طُلب من النساء المسلمات أن يَحْجُبن هذا المنظر.. أن يرمين بالخمار عليه، ونص الآية الكريمة: « وليضربن بخمورهن على جيوبهن»، وحسب قوله، لا توجد أي إشارة أخرى في القرآن الكريم على الحجاب.. حجاب المرأة.

كان رمضان يقول وكان جدكم يؤيده.. إن النساء المسلمات عندما كن يذهبن إلى مسجد المدينة ليسألن النبي عن أمورهن.. كن يذهبن وهن سافرات، وكان المسجد مليئاً بالرجال، ربما كن يضعن منديلاً ما على رؤوسهن.. خماراً، مثلما كانت تفعل نساء اليهود عندما كن يدخلن إلى المعبد.. منديلاً لا أكثر، ينزعنه فيما بعد.. وقد لا ينزعنه، عندها.. كن يرمين نهايتاه الطويلتين الى الخلف.. على ظهورهن، تاركات صدورهن

مكشوفة، هنا.. طلب منهن أن يرمينه الى الأمام.. على جيوبهن.

تدخلت لبنى.. حفيدة رأفت وأم نضال:

- وكيف عرف رمضان كل هذا؟.. هل كان جالساً على باب مسجد المدينة.. فيرى النساء يضعن المناديل وهن داخلات وينزعنها وهن خارجات!..

ردت عروبة:

- يا بنات.. والدنا عمره مئة سنة، هل تتصورون ذلك؟.. مئة سنة!.. أنا أعرفه جيداً.. وأنتن تعرفنه أيضاً، والدنا مؤمن.. مؤمن بصدق وإخلاص، وهو باحث أيضاً.. يبحث ويكوّن آراء ومفاهيم، ثم يبحث.. فيكون آراء أخرى ومفاهيم أخرى، كل ما ذكرته أمي قبل قليل، هو استنتاجات وصل إليها.. الاستنتاجات تتبدل.. تتعدل، قال لي السنة الماضية.. ليس من المعقول ولا من الطبيعي أن أكون أنا وحدي مصيباً وجميع علماء المسلمين مخطئون، جميع العلماء بكافة انتماءاتهم المذهبية أقروا بالحجاب.. هناك إجماع عليه وعلى مر العصور.

- جدتي زينب تظهر الأمر.. أمر تبدل جدي، وكأن سببه سياسي.. من أجل إسرائيل!..

- هذا شأنها!..

أجابت عروبة.

- وأنت يا جدتي.. ما رأيك الحقيقي بالحجاب؟..

- طلبتم مني رأي جدكم.. وقد ذكرته لكم وكفى، ما نتحدث فيه نحن الآن هو فذلكة لا معنى لها.. يجب أن نذهب إلى بيت أمل.

- أنا قادمة لتوي من بيتها.. تركتها نائمة، وبناتي جميعهن عندها.

- وإن يكن.. من سيذهب معي؟..

ليلاً.. لم تستطع زينب النوم، كانت قلقة.. كان تنفس رأفت، وهو نائم إلى جانبها، يقلقها.. كان يتقطع، ثم ينتظم.. ليعود ويتقطع، راقبته.. راقبت وجهه من خلال الضوء الخافت، تأملت تقاطيع وجهه.. يا إلهي،

حدثت نفسها، لا يزال هو هو.. خمس وخمسون سنة مضت على زواجها منه، كان خلالها زوجاً، وحبيباً ورفيقاً وأستاذاً.. يا إلهي ماذا سأفعل إن رحل؟!..

كان وجهها قرب وجهه عندما فتح عينيه.. فأجفلتْ، ابتسم لها وقال:

- لا تخافي.. لم تحن الساعة بعد، سأشعر بها حتماً عندما تأتي.. هناك أمر او أمران علي إنجازهما.. بعدها سأرحل!..

- أسكت.. يالك من رجل قاسٍ، لا تتكلم بهذه الطريقة.. أرجوك.

طوقته بذراعها وهي تعود لتستلقي بجانبه، فأمسك يدها بكلتا يديه وضمها إلى صدره وعاد لينام.

في اليوم الثالث والأخير للعزاء.. وصلت زينب قرابة الساعة الثامنة صباحاً إلى بيت ابنتها أم لؤي.. كان برفقتها ربيعة وعدد من بناتها وحفيداتها، كان هناك من يقوم بترتيب المقاعد في صالة الاستقبال، كان من بينهم كوثر أخت الراحل لؤي، علمت أن ابنتها لا تزال في سريرها.. تركتهم في الصالة واتجهت إلى غرفة ابنتها، في طريقها لمحت صهرها أبو لؤي في غرفة المعيشة.. حيته وسألته عن زوجته، فانهمرت دموعه.. كلمته بحنان.. ثم بجدية، طلبت منه أن يتماسك.. فهو رجل مؤمن، وأنها مشيئة الله.. وعليه أن يسلّم بها، أجابها بأنه يحمد الله ويشكره كل ساعة ودقيقة.

عندما فتحت زينب باب غرفة ابنتها.. وجدتها تقرأ القرآن الكريم، نظرت أمل إلى أمها.. كانت تتمتم: يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً، لا بد أنها تقرأ الآية الكريمة التي يرد فيها هذا القول.. قول السيدة مريم العذراء عندما علمت بحملها دون دنس، أغلقت أمل الكتاب الكريم وقبلته وهي تتمتم: صدق الله العظيم، ثم نظرت من جديد إلى أمها.. قالت والدموع تتجمع بسرعة في عينيها:

- ماذا علي أن أفعل الآن يا أمي؟!.. ماذا سأفعل؟.. يا ليتني مت قبله وكنت نسياً منسياً.

حضنتها أمها وبدأت تبكي معها.. بعد برهة قالت أمل من خلال دموعها:

- في إحدى المرات يا أمي.. كنا في عزاء بيت الحاجة لطيفة، سمعتها تقول.. اللهم لا تجعلني أقف على قبر ابني واجعل ابني يقف على قبري، يا إلهي كم هذا القول صحيح.. يا إلهي كم هو مؤلم فقدان الضنا.. يا ليتني متُّ قبله وكنت نسياً منسياً.

بعد قليل وعندما انتقلنا إلى صالة العزاء لاستقبال المعزيات، طلبت أم لؤي من ابنتها كوثر تشغيل شريط التلاوة للشيخ عبد الصمد، وألحت على سورة آل عمران.

نحو الساعة العاشرة.. اكتظت صالة الاستقبال بالمعزيات.. كان البكاء في اليوم الثالث بدأ يخف بعض الشيء، إلا أن أم لؤي كانت تنفجر به ما أن تصل صديقة مقربة إليها.. أو أخرى قادمة من سفر.. فتنفجر بالنحيب ومعها القادمة وكأن النبأ وصل لتوه.

كانت زينب - في هذا اليوم الثالث - تبدل مكانها دائماً، ولكنها تعود في كل مرة إلى جانب ابنتها.. فترمي هذه برأسها على كتف أمها وتبدأ بالتمتمة وذرف الدموع، وبين الفينة و الفينة كانت ترفع يديها وتدعو على الذي كان السبب، عندما صدح القارئ الشهير عبد الصمد بصوته الرائع تالياً الآية الكريمة، وعندما وصل في تلاوته إلى: «يا ليتني مت قبل هذا».. رافقته أم لؤي بصوتها المجروح وبطريقة فطرت قلوب الجميع، طلبت زينب على الفور إيقاف الشريط فلم يكن هذا لائقاً.. ثم حضنت ابنتها وأخذت تهدهدها.. فجأة صرخت أم لؤي:

- تورابورا يا أمي؟!.. مالنا ومال تورابورا يا ربي؟.. من لنا في تورابورا يا ربي؟.. لماذا ذهبنا إلى هناك يا ربي؟.. الله يجازي من كان السبب.. الله يحرق له قلبه كما حرق لي قلبي.

كانت كلماتها تخرج من فمها مجروحة كجرح قلبها.. وكان بكاء النساء يزداد مع كل كلمة تتلفظها، قالت إحدى النساء، وكانت من أصول لوائية.. من إنطاكية:

ـ راسي مكشوف وصدري مفتوح، الله لا يوفقك يا بوش يا ابن بوش.

فردت امرأة أخرى:

ـ هذا بوشت ابن بوشت.. لعنة الله عليه.

نظرت النساء نحو المرأة، فقد كانت شتيمتها بذيئة.. شتيمة أصلها تركي، كان شباب حلب يستعملونها ـ ولا زالوا حتى الآن ـ فتابعت المرأة وقد سرت بلفتها للأنظار:

ـ روح يا بوشت يا ابن البوشت.. الله جَعْلك لا تُقتل إلا على سكة الترامواي.. دهساً تحت عجلات الترامواي يا رب.

انتبهت زينب.. نظرت بسرعة نحو المرأة، عرفتها على الفور.. يا إلهي، حدثت نفسها، إنها ليلى.. ليلى ذات الفخذين!..

خمسون عاماً.. نصف قرن مرّ ولم ترها مرة واحدة!.. يا للهول.. ماذا تفعل هنا.. سألت زينب نفسها؟.. همست إحدى النسوة، وكانت تجلس بجوارها، إن هذه المرأة فقدت ابنها في أفغانستان منذ زمن بعيد.. في الثمانينيات، كان مع المجاهدين، وهي من يومها.. إذا سمعت أن أحداً سقط هناك.. سارعت إلى المشاركة في عزائه، كانت المفاجأة ـ لزينب ـ كبيرة.. كبيرة جداً، كانت أخبار ليلى في البداية ـ البداية البعيدة جداً ـ تأتيها من الخطّابة أم عبدو.. علمت منها أنها نجحت في تزويجها من رجل عاقل بعد أن عانت كثيراً في ترويضها، بل إنها نجحت في معالجة عقمها أيضاً.. وأنها استقرت وأنجبت، ولكن هذه كانت أخباراً قديمة.. قديمة جداً، انقطعت بوفاة أم عبدو من زمن طويل.. ولم تسمع عنها شيئاً من يومها.

أمعنت زينب النظر فيها.. لكن بعيون مختلفة هذه المرة.. بعد أن علمت بمصابها بابنها، أحست ليلى بذلك.. فارتسم على وجهها شبح ابتسامة خجولة لم تلبث أن اختفت أثر نوبة بكاء جديدة.. عادت بعدها ليلى إلى شتم الأمريكان:

ـ روح.. الله لا يوفقك يا ريغان: يا واطي.. الله يبليك بالجنون كما

جنتنا، الله يبليك بالخرف.. بجاه النبي.

فكّرت زينب.. لماذا تشتم ريغان؟.. كان حينها حليفاً للمجاهدين في أفغانستان؟.. وابنها كان منهم هناك؟.. عليها أن تشتم الروس.. الشيوعيين السوفييت!.. إلا أنها استدركت محدثة نفسها: الأمريكان جسمهم «لبيّس»، تصح شتيمتهم.. خصوماً كانوا أم حلفاء.

في هذه الأثناء كانت أم لؤي تعود إلى تورا بورا.. كانت تتكلم وتنتحب وكأنها تهذي، بل كانت تهذي بالفعل:

- يا إلهي.. يقولون أنها باردة.. تورا بورا باردة يا أمي، إنها جبال باردة.. لا بد أن لؤي يشعر الآن بالبرد يا أمي!.. أنت تعرفينه.. إنه «برّيد»، طول عمره كان «برّيد» يا عيوني هو!..

حدقت بها ليلى وسألت نفسها.. هل بقي منه شيىء حتى يشعر بالبرد، قالت:

- سمعت يا بنات أنهم ضربوا تورا بورا بالقنابل المنوية!..

جمدت عيون النساء عليها.. وظهرت على وجوه الجالسات بعيداً طيف ابتسامة قمعنها بسرعة.

قالت إحدى النساء بصوت بارد:

- تقصدين قنابل نووية؟..

- نعم.. ضربوهم يا عيوني بقنبلة منوية صغيرة.. بخرّت لهم أجسامهم كلها!..

قالت المرأة نفسها:

- انتبهي يا ست.. أنت في عزاء.. في مأتم، هذا ليس وقت المسخرة.

- والله العظيم سمعت هذا..

قاطعتها زينب متوجهة بالكلام لأم عمر:

- ما بك يا أم عمر؟.. اشبْك إختي؟.. لقد أخطأت بحرف.. بدّك تلْحقيها وتحاسبيها على الحرف؟!.. قصدها معروف.. أليس كذلك؟.. لا تعملي من

الحبة قبة!..

امتعضت أم عمر.. لكنها فكرت.. العزاء عزاؤهم.. والقيمة قيمتهم!..

انتبهت ليلى إلى أن هناك من أراد تخطئتها، ولكن زينب منعته.. فابتسمت لها من جديد، علقت إحدى النسوة:

- على كل حال.. القنبلتان متشابهتان.. الانفجاران متشابهان، لا بل في بعض الأحيان.. الانفجار الثاني يسبب أذى أكبر!..

أما عروبة - التي لم تكن تعرف شيئاً عن ليلى ذات الفخذين - فقد انتقلت وجلست إلى جانبها، سألتها عن ظروف مقتل ابنها.. وسرعان ما أخذت تذرف الدموع معها.

في اليوم التالي، وبينما ذهب علي لقضاء النهار مع والدته، كانت زينب في بيتها و معها عروبة تواصلان استقبال بعض المعزيات، دخل رأفت عليهن فجأة.. كان يعرف بعضهن، فسأل عن اللواتي لا يعرفهن.. كان مرتاحاً، ألقى عليهن محاضرة سريعة عن الحجاب، وأثنى على المحجبات منهن، وغمز من قناة السافرات.. قارن ـ بخفة دم ـ بين الوجوه الجميلة المطمئنة للمحجبات وبين وجوه الأخريات!.. ثم استأذن وانسحب إلى غرفته، ابتسمت زينب لصديقاتها وشرحت لهن أن ملاحظات زوجها جميعها موجهة إليها وليس إلى غيرها.

كانت بين الحضور ليلى.. إلا أنها كانت صامتة.. صامتة جداً وكأن دروس أم عبدو القديمة تفعل فعلها.

كان حديث النساء يدور حول بن لادن، سألت زينب ابنتها عروبة، بصفتها مختصة بعلم النفس:

ـ ألا تتفقين معي يا عروبة.. أن هناك وداعة واضحة في وجهه؟.. يا إلهي كم أن وجهه وديع!..

ـ نعم لقد لاحظت ذلك.

ـ من أين تأتيه هذه الوداعة؟..

ـ من قناعاته، ومن سحنته.

قالت إحدى الحاضرات:

ـ لا تجدي هذه الوداعة في وجه الظواهري!..

ـ سحنة بن لادن هي هكذا.. بالإضافة إلى أن شخصيته هادئة، وصوته أيضاً.

علقت إحدى النسوة:

ـ هل تعلمْن؟.. أمه سورية.. من اللاذقية، أخواله جميعهم يعيشون هناك.. في اللاذقية.

ـ هل أنت متأكدة؟.. يا حبيبي، أختي متزوجة في اللاذقية.. هذا ما ينقصنا!.. ينقصنا أن تسمع أمريكا بذلك.. فتعرّج الطائرات الأمريكية على اللاذقية وهي في طريقها إلى أفغانستان، وترمي كمْ صاروخاً على أخواله هناك!..

ـ الأمريكان لا يهتمون لا به ولا بأخواله.. عيونهم على أمكنة أخرى.

علقت زينب.. بينما قالت ندى حفيدتها.. ابنة جمال:

ـ إذا أراد بن لادن أن يسمعه أحد في بلادنا.. عليه أن ينتبه إلى فلسطين وإلا..

أجابتها جدتها:

ـ فلسطين بالنسبة له كالبوسنة أو الشيشان أو أفغانستان.

ـ سينتبه إليها ولو تأخر.. سينتبه، على الأقل سينتبه إلى الناحية الإعلامية، وما تعنيه قضية فلسطين.

ـ سينتبه؟.. متى؟.. بعد أن يقيم جميع مسيحيي العالم علينا ولا يقعدهم؟.. يريد أن يحارب جميع نصارى العالم؟!.. أنا لم أسمع بمثل هذا الكلام في كل تاريخ العرب والإسلام، ولم يسمعه أحد حتى أيام حروب الفرنجة، كان يستطيع القول أنه سيحارب من يحاربه من اليهود والنصارى.. أما أن يحاربهم جميعهم وفي كل بلاد العالم؟!..

قالت زينب ذلك ونظرت إلى أم ميشيل.. كانت حاضرة بين المعزيات، ثمَّ تابعت:

ـ يعني.. لو صادف في طريقه أم ميشو لأمسك بها، ثم سمّى عليها، ثم

ذبحها من الوريد إلى الوريد!..

- إي.. يا لطيف!.. فال الله ولا فالك !..

ردت عليها أم ميشيل، وهي تتحسس عنقها بيدها.

- هل سمعتم؟.. لقد أتت المخابرات لتسأل عن أخوة لؤي وعن رفاقه الشباب، فاتصل أبو أحمد بطلاس.. أتوا مرة ثانية، ثم ذهبوا ولم يعودوا.

- ولكن لماذا أتوا؟..

- أنت تعرفين حساسية الحكومة من هؤلاء.

- الحكومة متحالفة مع حماس والجهاد وحزب الله!..

- هذه حركات تحرر..لا تخلطي، تُحالفهم لأنهم يحاربون إسرائيل.

في هذه الأثناء دخلت حنان حفيدتها.. الابنة الثانية لجمال، كانت فتاة جامعية في الثانية والعشرين من عمرها، تحب زميلاً لها في الجامعة، لم يجد والداها عيباً فيه سوى عمره المساوي لعمر ابنتهما.. الأمر الذي أقلق أمها فوقفت في وجهها.

كانت حنان طلبت الدعم من جدتها.. فكلمة زينب مسموعة.. مسموعة جداً، إلا أن جدتها تلكأت هذه المرة، سألت زينب صديقاتها:

- حفيدتي حنان تحب زميلاً لها وهو يحبها، أنا أعرفه.. إنه شاب رائع، ولكن عمر الاثنين اثنان وعشرون عاماً، ويفكران بإعلان خطوبتهما.. فما رأيكنَّ؟!..

انخرطت جميع النسوة بالنقاش، فمن قائلة أن هذا نتيجة طبيعية للتطور الحاصل، وأخرى مندّدة به، شارحة حسنات الفارق بالعمر بين الزوجين.. وثالثة موافقة، على ألا يتجاوز الفارق السنوات العشر.. وليس كما كان يحصل أيام الجدات، عندما كان يصل إلى ثلاثين عاماً أو أكثر.

كانت حنان العاشقة تسمع جميع الآراء.. لكنها لم تقتنع إلا بما كانت مقتنعة به أصلاً.. قالت لها جدتها:

- يا حنان، يا حبيبتي.. عندما تصلين بعمرك إلى الخمسين عاماً، هل تعلمين كم سيكون عمر زوجك حينها؟.. خمسون عاماً أيضاً!.. هل تعلمين معنى ذلك؟.. إنها مصيبة، إنها كارثة حقيقية بالنسبة لنا نحن النساء، صحيح أن الرجال حمقى، ولكنهم - سامحهم الله - لا يتقدمون في العمر مثلنا.. انظري إليّ وإلى جدك رأفت، بيننا ثلاثون عاماً، أنا في السبعين من عمري وهو - أطال الله عمره - وصل إلى المئة عام، انظري إلى قوامه.. إلى وجهه، صحيح أن حالته فريدة.. ولكن بشكل عام، الرجال لا يظهر عليهم العمر مثلنا.

ابتسمت حنان، لكن لم يظهر عليها أية علامة من علامات الاقتناع، فتدخلت ليلى والحماسة تكاد تشعلها:

- هل تريدين يا بنتي أن تعلمي كيف سيكون شكل جسمك عندما تصلين إلى الخمسين عاماً من عمرك؟.. أنا سأقول لك: ضعي وسادة سريرك على مؤخرتك بالعرض!.. وثبتيها هناك بشال أو بأي رباط، ثم ابحثي عن خرقتين كبيرتين مهلهلتين، وثبتي كل واحدة على نهد من نهديك.. ثم انظري إلى نفسك في المرآة!.. أغمضي عيناً وافتحي عيناً.. وسيأتي هذا اليوم، ستكتشفين حينها.. أن عيني زوجك تبرقان على مؤخرات جميع نساء العالم باستثناء مؤخرتك.. وسيشتهي نهود جميع نساء العالم إلا نهديك.. خاصة مؤخرات ونهود الفتيات الشابات.. نساء العشرين والثلاثين عاماً!.. حينها سيجن جنونك.و ستشعرين بالكره والغيرة من كل فتاة صبية ذات نهدين عامرين ومؤخرة مستديرة عالية!..

قالت ليلى ذلك وهي تؤشر بيديها الاثنتين مرة على صدرها وأخرى على مؤخرتها!..

علقت حنان، وقد أثار كلام ليلى اهتمامها:

- جميع الرجال هم هكذا؟.. وأين تذهب مشاعر الحب والألفة والوفاء؟..

ـ ستبقى.. ستبقى يا حبيبتي، ولكن العيون.. عيونهم ستذهب، ومعها «عدّتهم»!..

قالت كلمتها الأخيرة وهي تؤشر بيدها إلى ما بين فخذيها!..

علت الابتسامات على جميع الوجوه.. باستثناء زينب، فقد امتعضت.. حدثت نفسها: هذه هي ليلى ذات الفخذين لا راحت ولا إجت.. كانت فتاة خرقاء، ثم أصبحت حتماً امرأة خرقاء، وها هي الآن عجوز خرقاء.

طلبت زينب من حفيدتها لبنى أن تنتقل بعد قليل إلى جوار ليلى، وتعلمها أن هذا اليوم.. هو آخر يوم في استقبال المعزيات.

في اليوم التالي.. عصراً، كان رأفت في غرفته.. كان يتمشى فيها جيئة وذهاباً عندما شق الباب وأطل منه حفيدان له.. نجيب وصفاء، كان الاثنان في السنة الأولى من دراستهما الجامعية، كانا أولاد عمومة، أشّر لهما أن يدخلا، فدخلا.. كان الاثنان ـ على ما يبدو ـ مختلفين على أمر ما.. قالت صفاء:

ـ أليس صحيحاً يا جدي أنه بعد الانقلاب الثالث.. انقلاب الشيشيكلي جرت الوحدة بين مصر و سوريا؟..

دعاهما جدهما إلى الجلوس وأخذ مكانه معهما.. ثم أجاب:

ـ لا.. بعد الانقلاب الثالث جرى انقلاب رابع أطار حكم الشيشكلي وأقام انتخابات برلمانية.. وعاد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية، يعني.. عادت الأحزاب لتنشط من جديد.

ـ هل سمعت؟..

علّق نجيب مبتسماً.

ـ استمرت هذه المرحلة أربع سنوات.. ثم قامت الوحدة ياجدّو.

ـ كانت انتخابات حرة.؟.. ديمقراطية حقيقية؟..

ـ نعم إلى حد كبير.. ولكن أنت لا تستطيعين يا صفاء إقامة حكم ديمقراطي في جو عاصف، كانت المنطقة تعصف وتموج بعد حرب فلسطين.. سلسلة من الانقلابات العسكرية في سوريا، ظهور حلف بغداد الذي أخذ يشد من طرف.. السعودية ومصر تشد من طرف آخر.. التدخلات

في حرب الـ 67.. ذهلت الناس، لكنهم سكتوا، بل فعلوا أكثر من ذلك.. نزلوا بالملايين إلى الشوارع يطالبونه بالعودة عن استقالته.. كان له سحر لا يوصف، وجاذبية لا نظير لها، كان سائقو سيارات الأجرة على طريق بيروت - دمشق يتدهورون وتنقلب بهم سياراتهم عندما كانوا يسمعون خطبة من خطب عبد الناصر من المذياع.. كان ذا شخصية آسرة.

- أين أخطأ؟..

- في اليمن، اجتاز خطأً أحمر لم يكن عليه تجاوزه.. لم يستطع التخلي عن دوره القومي، فاجتاز الخط الأحمر.. دعم ثورة اليمن، بل أرسل جيشه ليحارب الملكيين هناك.. أقصد جماعة الإمام.. كان خطأ كبيراً، وضع قدمه في الجزيرة العربية.. اقترب من الثروات والنفط، فانتبهت أمريكا.. صدر القرار، ونُصب له فخ وقع فيه.. وكانت حرب الـ 67.

- ألم يستطيع الهروب من الفخ؟..

- انزلق.. تورط يا ابنتي.

- تورط؟!..

- ألم يحدث يا صفاء أن انزلقت يوماً في مشكلة وتورطت فيها رغماً عنك؟!.. هذا ما حدث في الـ67، مع الفرق بالتشبيه!..

- الفرق كبير في التشبيه يا جدّو.. كبير جداً، أليس كذلك؟!..

- هذا صحيح.. معك حق.

- والوحدة فشلت أيضاً!..

- الوحدة ضربوها قبل حرب اليمن.. كان الانفصال قاسياً مؤلماً يا أولاد.. كان - بالنسبة لي - كقسوة هزيمة 67 وأكثر.

- هل صحيح أن أمراء سعوديين كانوا ناصريين؟..

- كثير من الأمراء الشبان السعوديين كانوا ناصريين.. ولكن المرحوم الملك فيصل «ضبّهم» بسرعة.

- يقال أن السعودية كان لها دور رائع في حرب الـ 73.

الأجنبية في ذروتها.. أمريكا تريد أن ترث بريطانيا وفرنسا وهم بعد أحياء.. السوريون أنفسهم يتناحرون فيما بينهم.. صراع داخلي حاد، وصراع كبير في المنطقة على سوريا.

- من فاز في تلك الانتخابات؟..

- ظلت الغلبة للساسة التقليديين، للتيار التقليدي.. نجح القوميون العرب والبعثيون بالحصول على بعض المقاعد، الإخوان المسلمون حصلوا على مقعد واحد.. أخذه ابن السباعي، لكن مناخ المنطقة العام لم يكن يسمح باستمرار التجربة.. على كل حال كانت تجربة فجة لم تعمر طويلاً.. لكن الحدث الأهم في تلك الأيام كان ظهور عبد الناصر، كان ظهوراً مدوياً.. كان الزعيم العربي الذي انتظرته أنا طويلاً.. ملك قلبي وقلوب العرب جميعهم.. خاصة بعد حرب السويس عام 56.

- كان رجلاً وسيماً!..

- وسيماً؟.. أكثر من ذلك يا صفاء.. كان رجلاً ساحراً.. طويل القامة، وسيماً جداً.. عيناه سوداوان أخاذتان، أنتما لا بد تعرفان سحر الشخصية القيادية الجذابة، ولكنكما لا تعرفان أن لها بعداً آخر!..

تابعت صفاء باهتمام كلام جدها الذي أضاف قائلاً:

- المريدون الذكور يريدون التشبه به.. أما المريدات الإناث فيعشقنه!..

ضحكت صفاء.. كان رأفت يبتسم، تابع:

- تعلق الناس بعبد الناصر وحبهم له لم يكن سببه وسامته ولا عيونه السود.. كان السبب مجابهته لإسرائيل وأمريكا، عندما تجابهين يا صفاء إسرائيل وأمريكا.. تستطيعين فعل أي شيئ.. وسيسكت الناس، ضرب عبد الناصر الإخوان المسلمين.. فسكت الناس، ضرب الشيوعيين.. فسكت الناس، أكمل على السوريين القوميين في سوريا أيام الوحدة.. فسكت الناس، ضرب البعثيين فيها.. وسكت الناس، وكان - بعد حرب السويس عام 56 - أصبح الزعيم الأوحد للعرب.. لكل العرب، وعندما هزم

ـ السعودية عندما تشعر بالأمان، لا أحد يعطي مثلها.. أقصد للقضية الفلسطينية.. أما إذا فقدت الأمان فتنكمش وتبتعد.

ـ لم أفهم!..

ـ عشية حرب الـ 67، كان عبد الناصر يهدد أنظمة الجزيرة العربية كلها.. لذلك عندما هُزم في الحرب تشفوا به وشمتوا، أما في حرب 73.. فهناك إجماع بأن دور السعودية فيها كان هائلاً.. أذكر حتى الآن أن كيسنجر، بعد انتهاء الحرب، توسط السادات كي يقبل الملك فيصل استقباله!.. هل تصدقون؟.. هذه الخبرية مؤكدة.

في هذه الأثناء دخل الدكتور علي إلى الغرفة وحياهم.. كانت غرفة رأفت واسعة رحبة.. فيها ركن اتسع لطقم من الكراسي المريحة.. أخذ مكاناً له سائلاً عمه عمّ يتحدثون:

ـ كنا نتحدث عن السعودية، وعن حجم ما تقدمه عندما تكون مرتاحة.. تشعر بالأمان.

ـ لا شك أن أمريكا مصرة الآن على إقلاق راحتها بعد أحداث 9/11 في نيويورك.

ـ معك حق.. لن يفوتوا هذه الفرصة.. 15 شاباً من أصل 19 شاركوا في التنفيذ هم سعوديون.. لن يتركوا وسيلة خبيثة للضغط عليهم وابتزازهم إلا ويفعلوها.. والخاسر سيكون فلسطين!..

سأل نجيب:

ـ وحرب 73 ألم تكن نصراً لنا؟..

ـ يا جدّو.. كان عندي صديق.. رحمة الله عليه، أبو شكري.. يعرفه الدكتور علي، بعد حرب 73 قال.. حروبنا مع إسرائيل كلها «مضبوطة».. مسيطر عليها!.. شبّه حروبنا معها بالمصارعات التي كان يشاهدها في قريتهم عندما كان صغيراً.. كانت تحدث عادةً بين ابن الأغا وأحد أبناء الفلاحين.. كانت تسمى مباطحة، إذا تغلب ابن الآغا على ابن الفلاح..

فالأمور تسير بشكل طبيعي، أما إذا ساءت الأمور.. أي عندما كان ابن الفلاح يكاد يتغلب على ابن الآغا.. يجري التدخل!.. يوقف أحد «زلْم» الآغا المصارعة بحجة مخالفة القواعد، أو أي عذر آخر.. وإذا لم يكن هناك أي عذر.. يقوم بفركشة ابن الفلاح ويغير مسار المصارعة!.. في حرب 73 فركشونا.. زقّونا.. وكانت الدفرسوار.

في هذه الأثناء أطلت عروبة.. طلبت زوجها لأمر ما، عندما غادر علي.. قال رأفت:

- ألم تسمعوا يا أولاد بقصة الدكتور علي مع العاهرة؟!..

- ماذا؟!..

- دكتور علي لم يكن يخفي عني أمراً.. عندما كان طالباً اتفق مع رفاق له وتشاركوا على استقدام عاهرة، عندما وصلت المرأة.. وقبل أن يبدؤوا، سمعت نقاشاً كان يدور بين الرفاق.. كانوا جميعهم ناصريين، باستثناء واحد منهم.. كان يغمز من قناة عبد الناصر، فجن جنونها!.. أقسمت ألاّ تبقى دقيقة واحدة!.. حاول علي جهده معها.. وأكد لها أنه ناصري حتى العظم!.. بل فعل أكثر من ذلك.. ضاعف لها من أجرها، لكنها رفضت.. وانسحبت غاضبة صافقة الباب من ورائها.

توقف رأفت عن الكلام.. فقد انفجر ضاحكاً وهو يقول: يالها من عاهرة مسيّسة ملتزمة!..

كانت صفاء فى ذروة خجلها وارتباكها..كانت تعرف أن جدها، فى السنين الاخيرة، أصبح لايأخذ بعين الاعتبار أية لياقات في حديثه.. فهو يتكلم كما يشاء، ومن لا يعجبه.. فليسد اذنيه، كان يقول!.. ومع ذلك.. فقد فوجئت واحمر وجهها من هذا الحديث.

علق نجيب:

- ولكن عاهرة مسيّسة ملتزمة؟!..

- وأين الغرابة يا ابني؟.. ما بهن العاهرات؟!.. بعد انتهاء الحرب العالمية

الثانية.. قام ديغول بتعليق أوسمة على صدور عشرات العاهرات في باريس.. أظنه كان وسام الشرف!.. أو جوقة الشرف من الدرجة.. لا أعرف ما هي!.. كن عاهرات.. نساء شاركن في المقاومة السرية الفرنسية للألمان، ما بهن العاهرات؟.. مثلهن مثلنا نحن تماماً من حيث المشاعر الوطنية.. بل وكل المشاعر الأخرى، في تلك الأيام كانت الأرض كلها يا أولاد ناصرية.. الأرض ومن عليها.

في هذه الأثناء كان عليّ يعود.. ويأخذ مكانه من جديد، لاحظ ابتسامة صفاء ونظراتها له.. لكنه لم يفهم، خاطبه رأفت قائلاً:

- يا دكتور عليّ.. أرجوك، أرجوك قص على الأولاد أحداث ذلك اليوم المشهود في ثانوية المأمون.. حتى يفهموا ماذا أعني، أحداث ذاك اليوم من شتاء عام 58.

ابتسم عليّ وهو ينظر إلى عمه.. ثم إلى نجيب وصفاء، ووضع ساقاً فوق ساق ثم قال:

- ثانوية المأمون في الخمسينيات، كان فيها كابوس اسمه عمر كردي.. كان معاوناً للمدير، يا إلهي.. لا تزال ذكراه العاطرة تعشعش في حتى الآن.. كان، رحمة الله عليه، حازماً قاسياً.. ذا بأس وحضور، يرمي الرعب في قلوب الطلاب جميعاً.. مشاغبين كانوا أو عاقلين، وكان هناك كابوس آخر.. هو بواب المدرسة، كان اسمه «صاروخان».. إذا دقت الساعة وأغلق صاروخان البوابة الحديدية للمدرسة.. لا تستطيع دبابة اقتحامها، ليس بسبب قوة الحديد فيها.. بل بسبب منكبيه وصدره العارم!.. كانت باحة المدرسة واسعة جداً، وكان سورها مرتفعاً.. يصل ارتفاعه إلى مترين ونصف وفي بعض الأمكنة ثلاثة أمتار، أي طالب كان يتسلق السور ويقفز خارج المدرسة.. أي يقلب عنه ويهرب، كان يطرده عمر كردي لأيام محدودة.. وإذا كرر فعلته كان يطرده طرداً مؤبداً!.. كانت الكلمة الأخيرة، أي الطرد المؤبد، إذا نطقها عمر كردي، فهي تعني النهاية..

نهاية الطالب.

في أحد الأيام.. وكان في شتاء 1958، بعد إعلان الوحدة بقليل.. كان عبد الناصر وصل إلى دمشق من يومين.. وقامت الدنيا هناك، كنا في دوام بعد الظهر.. كانت هناك حصتان بينهما فرصة قصيرة.. خرجنا في الفرصة، وعلى الفور شعرنا أن هناك أمراً ما.. أمراً كبيراً يحدث.. كان عمر كردي يقف على الباب الداخلي لبناء المدرسة.. شابكاً يديه وراء ظهره وهو ينظر بهدوء إلى السور عبر الباحة.. نظرت إلى السور، فرأيت طلاباً عديدين يتسلقونه ويقفزون إلى الجهة الأخرى منه.. إلى الشارع، الغرابة لم تكن فيما يفعلون.. بل في رؤية عمر كردي لهم وبقائه ساكتاً ساكناً!.. خطوت بضع خطوات مع رفاق لي في الباحة، وعلى الفور أحسست بالكهرباء.. بالمغناطيس، يا أولاد أنا لا أبالغ أبداً، عندما أقول كهرباء ومغناطيس فأنا أعني حرفياً ما أقول.. كانت العيون.. عيون الطلاب مأخوذة، والأفواه تهمس بكلمات غير مفهومة، والأقدام تمشي بسرعة ثم تهرول.. كان في الجو لوثة جماعية واضحة.. خلال ثوان وصلت إليّ وإلى رفاقي فبدأنا نسرع بخطانا من دون أن نفهم شيئاً.. ثم أخذنا نهرول باتجاه السور.. وصلت أنا إليه ونظرت نظرة أخيرة باتجاه عمر كردي.. فرأيته في مكانه، بقفزة واحدة كنت فوق برميل القمامة، وبقفزة أخرى كنت فوق السور، ثم وجدت نفسي في الشارع وبجانبي رفيق يضع يده على كاحله وهو يقول: فدى جمال.. نظرت إليه فقال: جمال في المحافظة، فخفق قلبي وانطلقت مهرولاً إلى حي المحافظة.. إلى بيت المحافظ، كانت الشوارع مليئة بالمهرولين.. طلاباً من جميع المدارس ومن مختلف المراحل، أصحاب دكاكين تركوها مفتوحة وهرولوا عند سماعهم النبأ.. رجالاً مسنين، شباباً.. أطفالاً، خلال دقائق كنت هناك، مع أن المحافظة بعيدة بعض الشيء عن المدرسة، عندما وصلت.. كان شيء من العتمة بدأ يخيم على المكان.. وسكون عجيب غريب يعم جميع الحاضرين مع أنهم كانوا بالآلاف.

كان سور بيت المحافظ قليل الارتفاع.. كان حائطاً سميكاً عريضاً يسمح لرجل بالسير فوقه براحة.. فجأة ظهر، كنت أنا قرب السور مباشرة.. لم أسمع أي صوت مع أنهم قالوا لي أن الحناجر انجرحت من الصراخ.. تأملته مذهولاً، كان طويلاً جداً.. جميلاً جداً.. أسمر البشرة جداً، عيناه تلمعان وتبرقان مبتسمتين للجميع، اصطكت ركبتاي.. كان على بعد مترين مني، ولكن للحظات فقط.. فقد كان يمشي على السور مبتعداً محيياً الناس بيده، انجرفت مع تيار قوي من الناس تدفق باتجاه سير الريّس.. فوجدت نفسي محشوراً بين السور والتيار، فكدت أجن من الغضب والإحباط.. بعد دقائق انتهى كل شيء.. وجدت نفسي أسير عائداً مع الناس، كان الجميع يسير هادئاً، ينظرون إلى الأرض والذهول والنشوة على وجوههم.. والحسرة أيضاً، فعيونهم لم تشبع بما رأت.

أنهى عليّ كلامه ونظر إلى الشابين فرآهما ساكنين وكأن على رأسيهما الطير.. نظر إلى عمه فرأى دموعاً في عينيه، توجه بالحديث إلى نجيب وصفاء:

ـ عندما رويت ـ حينها ـ لجدكما ما حدث ذاك اليوم، نفرت الدموع من عينيه كما اليوم.. لكنها كانت أغزر.. وكانت من نوع مختلف، كانت دموع الفرح وليست..

ولكنه لم يكمل بل لاذ بالصمت.

ـ أخوات الحفيانة، لقد اصطادوه.. فمات من الحسرة، رحل جمال شاباً، في الخمسين من عمره.. واأسفاه.

ـ نعم.. لقد حاربوه، ولازالوا يحاربونه.. مضى على رحيله ثلاثون عاماً ولازالوا يحاربونه، يقولون.. كان ديكتاتوراً.. كان مغامراً.. كان بلاء على العرب.. الخ.

ـ كل من يجابه إسرائيل وأمريكا هو كذلك بنظرهم.. هناك تهمة بل رزمة من التهم بانتظاره!.. إما شيوعي أو متطرف ديني أو راديكالي

أو ديكتاتور، وكأن حكام العرب جميعهم ديمقراطيون!.. كانت سجون عبد الناصر مليئة بالشيوعيين، وكانوا يقولون إنه شيوعي!.. كان يجابه أمريكا سرًّاً وعلناً وكانوا يقولون عنه إنه أمريكي، لا يمكن أن يكون السبب في مجابهته لأمريكا وإسرائيل هو وطنيته.. لا يمكن أن يكون وطنياً، إذا طلب الدعم من روسيا فهو شيوعي.. إذا طلبه من الهند فهو بوذي.. إذا وصله من إيران فهو شيعي، أما إسرائيل التي تدعمها أمريكا بكل شيء، فلا أحد يتهمها بشيء.. إنها دولة تسعى وراء أهدافها الوطنية بمساعدة العالم الحر!..

هذا الكلام نسمعه نحن من الغرب، ولكن معظمه يصدر من هنا.. من قلب العالم العربي.. من صحافيين.. كتاب أفذاذ ليبراليين.. طليعة الأمة!..

ـ يا عمي.. لو أتى النبي محمد.. محمد بن عبد الله ليجابه أمريكا وإسرائيل لاتهموه بهذه التهم!..

ساد الصمت لدقائق قطعه نجيب قائلاً:

ـ وقع مؤخرا بين يدي كتيّب صغير اسمه فلسفة الثورة لعبد الناصر.. يقال أن حسنين هيكل كتبه.

ـ هيكل صاغ أفكار عبد الناصر فيه ولم يكتبه.. كان، يعني.. مثل كاتب خطابات الرئيس.

قال د. عليّ.. فعلّق رأفت:

ـ أكثر شوية!..

قالها مبتسماً وتابع:

ـ هل تعلمون كم كان عمر هيكل عندما غطى حرب البلقان.. حرب اليونان الأهلية في نهاية الأربعينيات؟.. 24 أو 25 عاماً!.. وهو الآن يقترب من الثمانين.. كان ألمعياً، منذ ذاك العمر اليافع وهو غاطس حتى أذنيه في الحدث ونقله وتحليله.. وبعض المرات صنعه!..

قال د. علي:

- في منتصف الخمسينيات، كان عمري 14 عاماً عندما كنت أهرع كل سبت من المدرسة إلى المكتبة لتلقف مقاله الأسبوعي في الأهرام «بصراحة».

ساد الصمت للحظات.. قطعته صفاء قائلة:

- ولكن ماذا حدث؟.. كيف انحسر هذا المد القومي؟..

- هل فعلا انحسر؟.. لا اعرف يا صفاء، ولكن انا.. انا لازلت مؤمنا به وسأبقى كذلك حتى آخر يوم فى حياتى، والاسباب موضوعية.. كلها موضوعية، أنظري يا صفاء: أنا أعتقد انه عندما أستيقظ صباحا وأسمع فيروز تغنى: نحنا والقمر جيران، أعتقد أن هناك رجلاً ما فى عمان.. فى الأردن يسمعها معي، وصبية مصرية في القاهرة تسمعها معنا نحن الاثنين، والابتسامة تكون واحدة على وجوهنا.. ابتسامة حلوة لطيفة ترسمها فيروز على وجوهنا نحن الثلاثة.. أما ظهرا، فسأكون أنا هنا، والأردني في عمان، والصبية في القاهرة، نجلس في الوقت ذاته تقريبا على مائدة الطعام، والطبق الرئيسي هو الملوخية.. وسنستمتع ثلاثتنا بتناولها، عصراً قد نسمع نحن الثلاثة أم كلثوم تصدح: أعطني حريتي أطلق يديَّ.. فنصرخ ثلاثتنا: آه..آه، أما مساء فسنجلس ثلاثتنا أمام الشاشة الصغيرة لنتابع الأخبار.. وعندما نرى، وسنراه حتماً كل يوم، بسطار جندي اسرائيلي يركل فتى فلسطينياً.. أو نرى، وسنراه حتماً كل يوم، وجه امرأة فلسطينية تبكي بحرقة، عندما نرى ذلك. .ستسقط دمعة من عيني هنا في حلب، وأخرى هناك في عمان، وثالثة في القاهرة.. هذا هو حس الانتماء، هذا هو الشعور القومي يا صفاء، هوأم كلثوم وفيروز والملوخية.. وتلك الدمعة !..

- هذه الدمعة كانت موجودة وعلى مر الأيام.. من نسي منا دمعة أحمد شوقي على دمشق عندما قصفها الفرنسيون أيام الانتداب؟.. . ودمع لا يكفكف يا دمشق !..

- عفي عليك يا نجيب.. لكن هل فعلاً انحسر هذا الشعور في داخلنا؟.. سأصدق ذلك عندما نكف عن سماع فيروز، و نكف عن سماع أم كلثوم، ونمتنع عن تناول الملوخية، وعندما.. عندما تختفي تلك الدمعة، عندها فقط. ..

تدخّل الدكتور علي قائلاً بمرارة:

- انهم يعملون على ذلك.. يعملون بجد على تغيير ذوقنا الموسيقي، وربما مطبخنا أيضاً!.. أنظر الى شبابنا اليوم.. ماذا يسمعون، وماذا يأكلون!.. وجميعنا مشترك في ذلك.

- هل سينجحون؟!..

في المساء.. وبينما كانت زينب تدخل غرفة المعيشة، رأت ابنتها عروبة وربيعة جالستين قرب الهاتف.. فابتسمت، لا بد أن ربيعة تريد التكلم مع نيويورك.. مع وداد، وبالفعل طلبت عروبة الرقم، كان على الطرف الآخر من الخط فرنسي.. حفيدة وداد، بدأت ربيعة ووداد تتخاطبان عبر الاثنتين.. كانت ربيعة تسأل فتترجم عروبة سؤالها وتنقله إلى فرنسي التي تنقله بدورها إلى وداد، و في بعض المرات كانت فرنسي تضع سماعة الهاتف على أذن وداد فتسمع السؤال بالعربية من ربيعة مباشرة.. ثم تجيب بقلمها العريض.. فتكتب جوابها بالانجليزية على ورق مقوى.. كانت الاثنتان، عروبة وربيعة.. منهمكتين، عندما ظهرت علامات الدهشة والاستغراب على وجه عروبة وهي تترجم: كيف تبهج الناس.. أيها الزهر البنفسجي اللون مع أنك زهر كئيب!..

وعلى الفور قالتها ربيعة:

- ليه يا بنفسج بتبهج.. وأنت زهر حزين!.. يا إلهي.. تريد أن تسمعها!.. عندي شريط الأغنية تحت.. في شقتي.

قفزت عروبة واقفة، بعد أن أعطت سماعة الهاتف لربيعة وهي تسألها:

- أين تضعين أشرطتك؟..

وإذ بأمها زينب تخاطبها بحدة:

- هل أنت مجنونة؟!.. أسبوع ابن أختك بعد يومين، وأنت..

- عفواً.. عفواً.. معك حق!..

وعادت لتجلس وتهمس لربيعة:

- سنُسمعها الأغنية بعد يومين.

بعد أن تناول الجميع طعام العشاء.. انسحبت ربيعة إلى شقتها، سأل رأفت ان كانت حفيدته صفاء تنام عند ربيعة، فأجابته زينب أنها هي وأختها عند ربيعة.

بعد قليل استأذن عليّ حماته في تشغيل التلفاز.. كان يريد متابعة نشرة الأخبار، فطلبت منه أن يبقى الصوت منخفضاً، لم تكن هناك أخبار جديدة.. القتل والتدمير «شغّال» في فلسطين!.. أصبح مقتل عشرة أو عشرين فلسطينياً في اليوم الواحد نبأ روتينياً، في نهاية النشرة.. بث خبر قصير عن مزاد علني جرى في مدينة أمريكية، بيع فيه بنطال أو حذاء ملك الروك أندرول الفيس بريسلي بمئة ألف دولار.. ابتسم رأفت وخاطب زوجته:

- هل تذكرين يا زينب أول مرة شاهدنا فيها ألفيس بريسلي في السينما؟..

- نعم أذكر.. التقينا في السينما وقتها بتلك الشخصية الرائعة.. علياء الصلح.

سألت عروبة أمها:

- تعرفت عليها هنا في حلب؟..

- نعم، كانت مع أمها.. فوزية الجابري، أمها كانت تزور أهلها هنا في حلب.. كان ذلك في بداية الخمسينيات.. يا إلهي كانت شخصيتها.. شكلها، لباسها..

- كانت ابنة رئيس وزراء لبنان.. فكيف تريدينها أن تظهر؟!..

- عندما تبادلنا التحية معهم.. قالت لها أمها وهي تقدم لها والدك، هذا قريبي وهذه زوجة قريبي.. إنه يفوقها بثلاثين عاماً.. لكنه كهين، لا يظهر عليه العمر!..

- إنها قريبتي من طرف أمها.. هي امرأة مميزة ومهضومة.

ـ المميزة كانت ابنتها علياء.. لقد أحببتها منذ اللحظة الأولى.. وهي أحبتني.

ـ هل تعرفون يا أولاد.. السبب؟.. عندما كنا نغادر السينما.. وبينما كنا نهبط السلالم، سألتُ زينب إن كان أعجبها ألفس بريسلي فأجابت: لا، قالتها بصوت عالٍ، وأكملت بنفس الصوت: انه أحْلس.. شكرٌ بكرٌ لا أنثى ولا ذكر، فانفجر الضحك من ورائنا.. كانت علياء الصلح، توقفنا لبعض الوقت خارج السينما نتبادل أطراف الحديث، ثم تمنت علينا أن نزورهم في بيروت.. فوعدناها، لكن هذا لم يحصل إلا بعد عشرين عاماً، عندما ذهبت زينب أمك إلى هناك.

ـ ولكنكم ذهبتم عدة مرات في الستينيات إلى بيروت.. كنت أنا معكم في إحداها.

ـ كنا نذهب ليوم أو يومين فقط يا عروبة.. ولم نتصل بهم إلا في السبعينيات.

ـ عندما ذهبت من أجل أخي جمال.

قال الدكتور علي:

ـ كان ذلك عام 1974.. اذكر ذلك جيداً.. لأننا قدمنا ذاك العام من أمريكا.. وكانت عروبة حامل.

ـ لقد عانيتم مع أخي جمال أليس كذلك؟.. ولكني حتى الآن لم أفهم تماماً ملابسات التحاقه بالفلسطينيين في لبنان.

ـ يا ابنتي.. عام 74، وفي أول الصيف، قال إنه أنهى فحوصه في كلية الهندسة وهو واثق من نجاحه في جميع المواد.. كان في السنة الثانية من دراسته، قال انه يفكر بالالتحاق بالفلسطينيين في جنوب لبنان، فقط في أشهر الصيف.. وكانت معاناة!..

ـ لماذا؟..

ـ والده لم يستطع منعه.. لأسباب مبدئية تعرفونها.. ولا أنا استطعت،

فاوضناه لأيام وأيام، وأخيراً غَلَبنا، لم يكن يهمه الفصيل الذي يريد أن يعمل فيه.. فتح أو جبهة شعبية أو جبهة ديمقراطية، كان يريد أن يكون مع الفلسطينيين.. وكفى، تمنينا عليه أن يختار فتح، فالفتحاويون أصحاب دين.. عكس الفصيلين الآخرين، كان الأمر وذهب.. لكنه عشق هناك فتاة فلسطينية رائعة من الجبهة الشعبية.. وكانت مشكلة كبيرة!..

ـ وبعدها؟..

ـ بعدها ذهبت أنا إليه في لبنان.. وهناك التقيت مجدداً بعلياء الصلح.

ـ أطلت المكوث في لبنان.. أليس كذلك؟..

ـ بقيت هناك ثلاثة أسابيع.. ولولا مشاكل أخيك جمال، لكانت من أبهج وأغنى الأيام.

ـ التقت هناك بياسر عرفات.. وبأمير سعودي سلب منها عقلها!..

علق رأفت.. فقالت عروبة:

ـ أنا سمعت بنتف متفرقة عن زيارتك للبنان، ولكن ولا مرة فصلت لنا يا أمي.

ـ يا ابنتي، استقبلتني علياء الصلح وكأني صديقة عمرها.. ولم أكن كذلك، أصرت على استضافتي في بيتها، فأنا زوجة قريبها كما قالت.. حاولت جهدي أن أعتذر ولكنها أصرت، كانت حينها صديقة لياسر عرفات.. وناقدة قاسية له، ذهبت برفقتها في أحد الأيام لمقابلته.. كان يحترمها كثيراً، فقد كانت ابنة أسرة عريقة جداً، وابنة رئيس وزراء سابق.. قدمتني إليه بصفتي زوجة قريبها من حلب.. عندما علم أني سورية قال: اللهم احمني من أصدقائي، أما أعدائي فأنا أتكفل بهم.. يبدو أن علاقته كانت متوترة مع دمشق، أنا امتعضت، قالت له علياء إن ابني التحق بهم منذ ثلاثة شهور، فسأل إن كان في الصاعقة، أجابته بأنه قد التحق بالعاصفة في فتح، حينها نظر إليّ وقال: شرف كبير لي ولفتح ولمنظمة التحرير الفلسطينية أن يكون ابنك، ابن حلب الشهباء.. معنا.

لم تبدل كلماته كثيراً من امتعاضي، لاحظت انشغاله بمكالمات هاتفية لا تتقطع.. معظمها مع سياسيين لبنانيين.. كان منغمساً بشكل كامل بالسياسة اللبنانية.. الأمر الذي استغربته جداً.. فقد رأيته ـ حينها ـ سياسياً أكثر منه ثورياً.

ـ وعلياء؟..

ـ علياء كانت رائعة.. في بيتها كنا لا نتكلم إلا في السياسة.. يومياً سياسة، كنا نفطر سياسة ونتعشى سياسة، كانت نذر عاصفة كبيرة تظهر في سماء لبنان عام 74، قلت لها في إحدى المرات، أني أشبه الفلسطيني عندهم بقريب لي.. سُرق بيته فالتجأ إلى بيتي، وبدأ يرمي على سارق بيته من بيتي.. سأساعده في البدء، ولكن عندما سيرد السارق ويرمي عليه.. أي على بيتي، أظن أنه سيكون لي رأي آخر.. وقد اختلف مع أولادي حول الأمر، وقد يختلفون هم فيما بينهم حول الأمر، وسينتهي الأمر برمته إلى فوضى كبيرة في بيتي.. قلت لها انَّ هذا بالضبط ما سيحدث في لبنان، نظرت إليَّ ملياً.. وأطالت، ثمَّ قالت لي: أنت امرأة فطنة يا زينب!..

كان الدكتور علي يتابع باهتمام حماته.. إلا أن رأفت نهض طالباً منه مساعدته في البحث عبر الإنترنت عن مقال سمع به ويريد الإطلاع عليه.. فدخل الاثنان إلى غرفة رأفت، عندها سألت عروبة أمها:

ـ والأمير السعودي؟..

ـ الأمير السعودي هو قريب لعلياء، يا ستي.. كانت علياء تقيم «عزومة»، كل يومين أو ثلاثة أيام.. كان عندها «عزومة»، صحافيين.. سياسيين.. مثقفين، وتلك الليلة.. الأمير السعودي، كان أول القادمين.. عندما قالت لي انه ناصري، ملت إليه على الفور، كان وسيماً.. قريباً من القلب.. صوته رخيم.. رخيم جداً، لم يكن يرتدي العباءة بل بدلة فاخرة جداً وربطة عنق أفخر.. لكنه كان بصاصاً من الطراز الأول.. قد يكون فهم ميلي إليه خطأ.. لا أعرف، ما أعرف وأتذكر أن عينيه كانتا جريئتين..

جريئتين جداً، كنت أرتدي تايوراً رائعاً، وكنت صففت شعري في أحد صالونات بيروت.

- أنا أذكر أناقتك في السبعينيات.. كنت في الأربعين من عمرك.. كنت جميلة وأنيقة جداً.. كنت في عزّك!..

- ولازلت جميلة وأنيقة يا بنت!.. المهم.. عندما زادت جرأة عينيه.. التجأت أنا إلى علياء فأجارتني!.. همست في أذني ان لا أخاف.. فزوجته كانت في الغرفة الأخرى ولن تلبث أن تحضر.. وكان الأمر، عندما حضر بقية المدعوين.. بدأت الأحاديث وتشعبت، فجأة أتى أحدهم على سيرة عبد الناصر، فبدأ آخر يكيل له.. ديكتاتور.. خرب الدنيا ثم رحل.. الخ، ألحّ على نقطة.. قال أنه يكفي أن نتذكر الاسم الذي يحمله مناصروه.. مريدوه، حتى نعرف ضحالته وضحالتهم.. يسمون أنفسهم ناصريين!.. يتبعون شخصاً واحداً.. يعبدونه ويؤلهونه!..

كنت أتابع هذا الإسفاف ونبضي يرتفع ويرتفع.. نظرت إلى الأمير السعودي علّه يرد.. فهو ناصري كما ذكرت علياء، لكنه لزم الصمت، استطعت منع نفسي من التدخل ولكن ليس لمدة طويلة.. حزمت أمري في النهاية وقلت بنبرة حادة: الناصرية ليست فرداً.. وليست عبادة للفرد، عبد الناصر نفسه لم يكن ناصرياً.. نحن جعلنا منه ناصرياً، نحن السوريين والفلسطينيين والأردنيين واللبنانيين.. وكل العرب، العرب جميعهم جعلوا منه ناصرياً.. توقفت عن الكلام قليلاً ونظرت إلى وجوه الحاضرين.. كانت عيونهم كلها جاحظة إليّ، أما عينا الأمير.. ماذا أقول لك.. كانت عيناه عينين أخريتين وكأنه استبدلهما لتوه.

- يا إلهي يا أمي.. ما قلته لهم كان قوياً.. قوياً جداً!..

- لا أعرف إن كان قوياً.. ما أعرف أنه كان صحيحاً، المهم.. تابعت أقول: عبد الناصر لم يكن ناصرياً.. انظروا إلى كتابه فلسفة الثورة.. الدائرة العربية كانت عنده دائرة من دوائر ثلاث، أتى على ذكرها بمعنى

متواضع وفي سياق عام، لكن بعد نصره المدوي في معركة السويس عام «56»، فوجئ بصوتنا.. صوتنا الذي شق سماء العرب، سمعه جيداً فانتبه إلينا وذهل!.. ذهل بنا كما ذهلنا نحن به.. بل أكثر!.. وهكذا أصبح ناصرياً!..

- والأمير؟..

- الأمير لا أذكر منه سوى عينيه.. كان يثني عليّ دون أن يحرك شفتيه.. وكان يصفق لي دون أن يستعمل يديه.. حينها تيقنت أنه ناصري، ظل صامتاً، لكنه وفي نهاية السهرة اقترب مني ومن علياء وقال لها: أنا متيقن أنه لا يوجد رجل في الدنيا محظوظ مثل زوج صديقتك.. فأجبته أنه إذا اجتمع مع رأفت زوجي سيقول العكس، ثمَّ دعاني مع علياء إلى قصره في الجبل، فعل ذلك باحترام شديد. .كان اميرا ساحرا عندما كان يبصبص، وكان اميرا ساحرا عندما اصبح جادا، لكني لم استطع الذهاب.. كان عليّ أن أكون في ذاك اليوم في الجنوب مع جمال أخيك.

- وعلياء الصلح؟..

- كانت مبسوطة.. السهرة بشكل عام كانت غنية وخصبة.

في هذه الأثناء كان رأفت وعلي يعودان إلى غرفة المعيشة.. قال رأفت بعد أن سمع عن علياء الصلح:

- علياء الصلح تكيل لسوريا.. موقفها حاد جداً تجاهنا.. مع أنها نصف سورية!..

- معها حق.. ذهبنا لمساعدتهم، فجثمنا على صدورهم.

- جثمنا على صدورهم؟.. لولانا يا زينب لما بقيت لهم صدور ولا رؤوس!.. كانوا مزقوا بعضهم لتأتي إسرائيل وتبتلعهم أشلاءً.

- أنا لا أنكر ولا هم ينكرون دور سوريا.. ولكن تّختّاها معهم!..

قالت عروبة:

- يا إلهي.. حرب أهلية تدوم 15 سنة، من يصدق؟!..

ـ لبنان يا بنتي.. نيقة عن الخليقة، كما يقول اللواذقة، لبنان لا تستقيم أموره إلا بتسوية.. أساساً هو قام على تسوية بين قوى عظمى وقوى محلية، القوى العظمى كانت فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا.. والمحلية كانت الدولة العثمانية. الآن.. ومنذ خمسين سنة، القوة العظمى هي أمريكا.. أما القوة المحلية ومنذ خمسين سنة أيضاً هي سوريا!.. أكانت سوريا شكري بيك القوتلي أو سوريا عبد الناصر أيام الوحدة أو سوريا حافظ الأسد.. فالجغرافيا ثابتة، هذه التسوية هي التي كانت وراء لبنان الذهبي الذي عرفناه في الستينات أيام فؤاد شهاب، وكانت حينها تسوية بين عبد الناصر وأمريكا، وهي وراء لبنان الذهبي الذي نعرفه الآن في أيام رفيق الحريري.. وهي تسوية أيضاً بين أمريكا وسورية.. لبنان يعني تسوية، لا توجد تسوية.. لا يوجد لبنان، أقصد لبنان كما نعرفه نحن ويعرفه اللبنانيون.

قالت زينب:

ـ أعطني حفنة من اللبنانين.. سأقذفهم في أي مكان في العالم.. في جزيرة مثلاً، حفنة فقط.. ولو كانت من 17 فرداً، ثم سأدعهم لحالهم سنة واحدة من دون أي تدخل.. ثم سأرسلك إليهم، ستجدهم في حال تذهلك!.. لن تصدق ما هم قادرون على فعله.

ـ لمن تقولين هذا الكلام يا زينب؟.. اللبنانيون كانوا يبهروني ولا زالوا يبهروني حتى الآن، ويبهرون جميع العرب.. في إبداعهم الفني و الثقافي والمالي، إنهم خلاقون حتى بمقاومتهم، ولكن دولتهم قائمة وواقفة على «دقرة».

علق الدكتور علي:

ـ عندما تكون الدولة ضعيفة هشَّة.. يعوض الفرد عن ذلك بخصائص فردية مذهلة، ما ذكر قبل قليل هو جزء بسيط منها.

ـ ولكن يا أبي كيف نسفت هذه التسوية طوال 15 سنة من حرب

أهلية مدمرة؟..

- لقد نسفتها اسرائيل.. ولولا غزو العراق للكويت وحاجة الخليج و أمريكا لسوريا لماعادت التسوية من جديد، لاستمرَّت اسرائيل بنسفها حتى الآن.. وقد تنسفها من جديد بعد تفجيرات نيويورك الأخيرة.

- إنك تصور الأمر وكأن أمريكا وسوريا قوتان متعادلتان متكافئتان!..

- هما ليستا كذلك بالتأكيد.. ولكن في مكان معين وزمان معين وفي ظرف معين.. يمكن لقوة صغرى معادلة قوة كبرى!..

- كيف؟..

- أولاً، في حالة سوريا.. هناك قوَّة الجغرافيا، وهي هائلة.. ثم هناك استثمارها من قبل قيادة محنكة.

- يا إلهي.. أعرف يا أبي صديقة لبنانية، في كليفلند.. عندما كان أحد الأشخاص يأتي على ذكر الحرب الأهلية اللبنانية، كانت تبدأ بالارتجاف.. من قدميها وحتى شفتيها.!..

- نعم.. كانت حربا شرسة.. كل الحروب الأهلية هي كذلك، ولكن الحقيقة أنها كانت أكثر من حرب أهلية.. لقد كانت أشبه بحرب عالمية، شارك فيها الفلسطيني والإسرائيلي.. السوري والأمريكي.. الفرنسي والعراقي، والسعودي والليبي والإيراني.. لم يبق ابن امرأة في المنطقة أو خارج المنطقة إلا وشارك بها.. اقتتل الجميع.. وقاتل الجميع الجميع، ودفع الشعب اللبناني أثماناً غالية.. أما أمراؤه وساسته.. فقد اغتنوا وأثروا ثراءً فاحشاً، فقد كان المال السياسي يتدفق بالأطنان.

- ومن ربح تلك الحرب؟..

- سوريا.. حافظ الأسد.

- ماذا.؟.. كيف؟!..

- كما قلت قبل قليل.. الجغرافيا والحنكة، جعل من سوريا قوة

إقليمية عظمى، أكبر من حجمها بكثير، معتمداً على لا شيء تقريباً.. معتمداً على الجغرافيا، وعلى جنون السوريين بالعروبة.. وحنكة قلَّ نظيرها.

ـ هناك فرق مهم بينه وبين عبد الناصر.. عبد الناصر كان يترك الشارع يقوده، بينما الأسد هو من كان يقود الشارع.

ـ لقد ظلم عبد الناصر في هذه النقطة يا دكتور.

ـ ولكن هذا صحيح.. لاحظ انه عندما كان يخطئ عبد الناصر كانت الناس تسامحه على الفور، لأنها تعرف وتدرك أن الخطأ هو خطؤها!..

ـ هناك فرق اخر بين الاثنين.. كلاهما كانا مدخنين، الأول كف عنه.. والثاني استمر، هل تتخيلون معي للحظة لو أن عبد الناصر ترك التدخين باكراً وعاش سنوات أكثر؟!.. هل تتخيلون ماذا كان سيحصل لو بقي عبد الناصر إلى ما بعد أكتوبر 73؟.. الى ما بعد العبور العظيم؟.. وهو على أي حال أبو العبور الحقيقي.. وحتى مع الدفرسوار!.. هل تتصورون ذلك؟..

صمت رأفت للحظة قبل أن يتابع قائلاً:

ـ انظري كيف تعاطى الأسد مع «الخبيصة» اللبنانية.. وطوال عشرين عاماً!..

ـ طوال عشرين عاماً.. لم تبق جهة هناك إلا واصطدمنا معها!..

ـ هذا هو لبنان يا زينب.. قد تضطرين هناك لمحاربة خصومك وحلفاءك في السنة نفسها.. إنه لبنان السوريالي.. قد يتحارب فيه خصومك فيما بينهم، وقد يتحارب أيضاً حلفاؤك فيما بينهم، وقد تضطرين إلى نصرة خصم لك ضد خصم آخر.. وحليف ضد آخر.. تنامين في الليل وعندك خصم.. في الصباح تجدينه حليفاً لك.. ياللبنانيين ويالروعتهم.. يالجنونهم المنقطع النظير.. في لبنان.. أنت كأليس في بلاد العجائب.

ـ ولكن بالمختصر المفيد، بين من ومن كانت الحرب اللبنانية؟..

أجابت زينب:

ـ العنوان الرئيسي لكل حروبنا في المنطقة هي إسرائيل والعرب.!..

حروب صغيرة.. حروب كبيرة.. حروب بالوكالة.. حروب بالأصالة، كلها من ارومة واحدة. الحرب اللبنانية.. فريق من اللبنانيين يريد أن يكون مع الفلسطينيين ويدخل في الصراع مع إسرائيل، وآخر لا يريد الدخول فيه.. انتهى الأمر بأن دخل الفريقان في الصراع.. ولكن ضد بعضهما بعضاً.!.. تصارعا فيما بينهما ولمدة 15 سنة.!.. والمعركة لا زالت مفتوحة.. هدأت الآن، ولكن قد يعاودها اللبنانيون.. خاصة الآن، بعد تفجيرات9/11.. قد يحدث خلل بالتسوية إياها ويجن اللبنانيون مرة ثانية.

أيدها رأفت قائلاً:

ـ كل أمر سيء حدث لنا أو يحدث أو سيحدث وراءه إسرائيل.!.. هل تذكرون ما قاله مرة كريستوفر عن الأسد؟.. قال: الأسد يعتقد أنه إذا أمطرت فإسرائيل هي السبب، وإذا لم تمطر فإسرائيل هي السبب!.. قالها كريستوفر متهكماً ابن ال.. الأوادم، أنا من جهتي أتفق مع هذا القول بالمطلق.. فإسرائيل وراء كل خراب يصيبنا، أنا أعتقد أن الأسد كان ينام بعين واحدة.. أما الأخرى فكانت على إسرائيل.. 24 ساعة في اليوم، 12 شهراً في السنة ولمدة ثلاثين عاماً.. لم يسه يوماً، عبد الناصر سها مرَّة.. فكانت الـ 67.. وهذا سر وسبب نجاحه أكثر من أي سبب آخر.

ـ ربك حميد.. أن رئيسنا طبيب عيون.!.. ولن يجد صعوبة في فعل ذلك.!.. وقد يطور فيه.!..

ـ عليه أن يطوِّر كثيراً.!.. فالنوم بعينٍ واحدةٍ الآن قد يكون ترفاً.. عليه أن يطوِّر مهارات جديدة.. النوم مثلاً بعينين كلتيهما مفتوحتين.!.. 24 ساعة في اليوم.. 30 يوماً في الشهر.. 12 شهراً في السنة، عينان مفتوحتان.. ودائماً على اسرائيل .!..

ـ يا جماعة، إسرائيل هي كارثة، هل رويت لك يا د. علي ما حدث

لحفيد المرحوم أبو شكري، صديق العمر.. أنت لابدّ تذكره.

- نعم أذكره جيداً.

- يا سيدي، في أحد الأيام عاد حفيده، واسمه عمر، من سفرٍ، عاد إلى زوجته وكانا في السنة الأولى من زواجهما.. كانا عروسين، عاد وهو بشوق إلى عروسه.. وهي أيضاً، قبل أن يخلدا إلى الفراش ويطفئا شوقهما لبعضهما.. شاء حظ عمر العاثر أن يتابع نشرة الأخبار.. كان هذا عام «87» أو «88».. كانت الانتفاضة الفلسطينية الأولى.. انتفاضة الحجارة، شاهد من على شاشة التلفاز جندياً إسرائيلياً يمسك بتلابيب امرأة فلسطينية.. كانت امرأة خمسينية سافرة، كانت تشترك في تظاهرة، أنا رأيت المشهد وتذكرته حينها وأتذكره حتى الآن، أمسكها الجندي من صدرها بقوة.. أمسك قميصها وأخذ يشد به.. فتقطعت أزراره وبانت حمالة صدرها.. ضبّت المرأة صدرها بيديها الاثنتين مرتاعة خائفة وهربت منسحبة من التظاهرة.. هذا المنظر بالنسبة لنا نحن العرب، وحتى بالنسبة لغير العرب.. يسبب غليان الدم في العروق، ويبدو أن هذا ما حصل مع عمر، عندما انسحب آخر الليل إلى فراشه مع زوجته، كان حانقا..حانقا جدا، لم يستطع.. لم يستطع مقاربتها!.. جن جنونه.. حاول وحاول وألح.. لكن عبثاً!.. زوجته من طرفها لم تفهم شيئاً.. فهذا يحصل لأول مرة مع زوجها.. الذي - على ما يبدو - ركبته العقدة، فلم يستطع الاقتراب منها في الليلة التالية أيضاً.. ولا في الليلة التي تلتها!.. فجن جنون المرأة وتيقنت أن زوجها عاشق لغيرها.. وأنه أتى تلك الليلة من سفره وهو شبعان!.. هو أنكر وأقسم وتوسل قائلاً أن الذنب كله هو ذنب إسرائيل!.. باختصار.. تم الطلاق بين الزوجين الحبيبين بتهمة عنانة الزوج.. والسبب من؟!..

يا جماعة كل بلائنا هو من إسرائيل.. من الأول: تشريد الفلسطينيين سببه إسرائيل.. وكل الحروب التي تبعت ذلك، حروب 48 - 56 - 67 - 73- 82.. كلها كانت بسبب ومع إسرائيل.. حرب الأخوة في الأردن عام 70

سببها إسرائيل.. حرب لبنان سببها إسرائيل.. طلاق عمر من زوجته سببه إسرائيل، الآن نسمع بأن الأمريكيين ينوون غزو العراق.. إذا تم هذا فوراءه إسرائيل.. كل مصيبة تحل بنا وراءها إسرائيل.. أنا الآن على وشك الاختلاف مع زينب ـ وما أدراكم ما زينب بالنسبة لي ـ والسبب هو الحجاب، أي..

تلعثم رأفت قليلاً، بينما كانت زينب تنظر إليه مبتسمة منتظرة أن يكمل جملته.. لكنه لم يفعل.

قبل يوم من ذكرى أسبوع لؤي.. وقبل موعد العشاء بقليل، كانت عروبة وربيعة على الهاتف مع نيويورك، كانت عروبة تسجل على ورقة أسماء شوارع وأمكنة في حلب طلبت وداد صوراً لها.. صوراً وشريط فيديو إن أمكن، كانت ربيعة تقرأ ما تسجله عروبة ودموعها تنهمر مدراراً، قرأت.. شارع اسكندرون في الجميلية.. الطريق من مدرسة الجان دارك إلى آخر خط الترامواي في الجميلية.شارع بارون.. مدخل سوق المْدينة.. الحديقة العامة من الداخل.. الشارع الرئيسي لحي السبيل، بعد أن انتهت المكالمة.. شهقت ربيعة بدموعها وهي تقول:

ـ دخيلك يا عروبة.. دبّريني، يجب أن أسافر معكم.. يجب أن أراها.. دخيلك دبّريني!..

كانت الدموع تترقرق في عيني عروبة أيضاً.. فكرت قليلاً قبل أن تجيب:

ـ سفرك معنا أمر سهل، ولكن عودتك وحدك هو الصعب.. يجب أن نأخذ معنا إحدى البنات.. أي فتاة عندها عطلة مدرسية أو جامعية أو..

ـ أنا أستطيع تأمين ذلك.. لبنى..

قطعت حديثها.. فقد كان رأفت يقترب منهما محدقاً مستفسراً وقد لاحظ بكاءها:

ـ هل حدث شيء لوداد؟..

ـ لا.. إنها تطلب صوراً وشريط فيديو لهذه الأمكنة..

ألقى رأفت نظرة سريعة على الورقة.. فارتبك وبرقت عيناه، فكر.. يالهذه العاشقة.. لقد عشقت زوجها، وعشقت حبيبها، وعشقت حلب.. وخسرتهم كلهم، يالها من امرأة، لكنه كابر وقال بحدة:

ـ ما هذا السخف..! أنا لست مهتماً بمثل هذه السخافات.. عندي مئة أمر وأمر يشغلني.

كان عصبياً.. كان قد فقد هدوءه منذ البارحة.. كانت أخبار القتل في الانتفاضة الثانية تدفعه الى الجنون، لقد لاحظت ذلك جيداً زينب وعروبة ود. علي أيضاً، غادر الغرفة.. ثم سمعنا صوت صفق باب غرفته، بعد قليل نهضت عروبة وبحثت عن زوجها لترسله إلى والدها، فقيل لها أنه في غرفة والدها.. شقت باب الغرفة قليلاً لتتأكد.. فرأت زوجها جالساً، أما والدها فكان يتمشى جيئة وذهاباً وبعصبية واضحة، نظرت إلى زوجها ثم إلى والدها وتراجعت مغلقة الباب بهدوء، لم يلمحها والدها فقد كان منهمكاً يتكلم.. كان يقول:

ـ اذا لم تحصل معجزة.. ستحل بنا الكارثة يا دكتور، أنظر الى اسرائيل كيف تقتل ونحن نتفرج مطأطئين رؤوسنا، سنوات قليلة.. قليلة جداً، وتحل الكارثة. الهزيمة الكاملة، ويحل السلام.. السلام الاسرائيلي، هل تعلم ماالذي سيحصل بعدها؟.. هل تعلم ماذا سيكون عملنا نحن الشعوب؟..

سنزرع لإسرائيل الخيار والكوسا والطماطم.. سنكون ريفاً لإسرائيل، وعمالنا سيصطفون كل يوم للفحص الجسدي والفكري سائرين فرحين للعمل داخل إسرائيل، أما كتابنا وصحفيونا المبدعين.. فلن يكون لهم عمل سوى التغني بالديمقراطية التي صدرها لنا السلام الاسرائيلي، قد نقرأ لأحدهم مانشيت بالخط العريض: كنت أحلم بشتم حاكمي.. وها إني أفعل الآن، يا لنسيم الحرية.. شكراً لك أيها السلام.. شكراً لك إسرائيل!.. وقد يأتيك ثان بمانشيت آخر: حماة الديار عليكم

سلام.. إسرائيل تستعد لحماية العرب من الغزو الفارسي القادم على بلادنا وعلى بلاد الإغريق!.. سيختفي الصراع العربي الإسرائيلي من جميع القواميس، وستحل محله صراعات أخرى، صراعات إسلامية مسيحية.. سنية شيعية.. عربية كردية، ثم يظهر أغبياؤنا، وهم أسياد كل زمن رديء، ويبدؤون بنبش القبور والتاريخ والحاضر.. فيعيشون في البلاد قتلاً وخراباً.. وبإشراف دقيق.. دقيق جداً من إسرائيل.

كان رأفت يتكلم وهو يرتجف.. كان لا يزال يتمشى جيئة وذهاباً، فجأة أحس بالتعب.. فنهض علي ورافقه إلى سريره وهو يقول له:

ـ لم أرك يوماً متشائماً كما الآن!..

ـ لا.. لست متشائماً، ما ذكرته قبل قليل لن يحدث.. سيحدث إذا لم تسمعوا مني، استمعوا اليّ وسترون.

فكر علي: الوحدة.. لماذا لا يقولها؟.. منذ زمن لم يعد يلفظها.

راقب عمه وهو يستلقي على سريره.. ثم جلس على طرف سريره وهو يمعن النظر فيه.. كان هدأ بعض الشيء، قال رأفت بصوت رقيق:

ـ يبدو أني سأرحل خلال أيام يا علي..

ـ بعيد الشر عنك يا عمي.. سنحتفل بعيدك بعد يومين.

ـ للراحل رغبة أخيرة أليس كذلك؟.. أنا لي رغبتان، صبية لعوب.. تضج أنوثة.. تندس في سريري بغفلة من الجميع.. لا أريدها ابنة الأربعة عشر ربيعاً كما حدث مع النبي داوود.. ابنة العشرين عاماً أو الثلاثين تفي بالغرض!..

ثم نظر محدقاً بعلي.. قبل أن تعلو ابتسامته:

ـ تظن إني أمزح.. أليس كذلك؟..

ـ لا.. والرغبة الثانية ما هي؟..

ـ أن أستطيع، بقدرة قادر.. جعل يهود العالم كلهم يعيشون بيننا بسلام وأمان، بعد أن ينسوا أساطيرهم السخيفة ويذكروا عيشهم الهني

بيننا!.. أريد وداد وأبو أسحق وخواجة رفول.. أريدهم كلهم، ومعهم جميع يهود العالم.

قال ذلك بصوت خافت جداً.. ثم أغمض عينيه وأغفى.

ظل عليّ لدقائق جالساً على طرف السرير يراقب تنفسه.. كان طبيعياً، بعد قليل انسحب ومشى على رؤوس أصابعه.. فتح الباب بهدوء وخرج.

بعد ساعتين.. وقرابة منتصف الليل، استيقظ رأفت.. فتح عينيه، شعر وكأنه غفا لمدة طويلة، أحس أن ذهنه متقد جداً.. وأن جسده قوي جداً، أمر ما يحصل!.. فكّر.. هل سيرحل؟.. وفي هذه الليلة تحديداً؟!.. لا.. يجب أن يحل المشكلة أولاً.. مشكلة فلسطين!.. غادر سريره وخرج من غرفته.. توجه إلى غرفة المعيشة، فوجد عروبة وربيعة وقد انضمت إليهما زينب، خاطب زينب قائلاً:

ـ هل تظنين أن اليهود يقتلون النساء والأطفال عن طريق الخطأ؟.. لا.. إنهم يفعلون ذلك عامدين متعمدين.. لماذا برأيك يفعلون ذلك؟.. هل لأنهم برابرة؟.. لا.. أنا أعرفهم جيداً، يفعلون ذلك لأنهم خائفون مرتعبون.. انهم خائفون جداً.. هم يعلمون ماذا فعلوا!.. السارق يعرف.. المرتكب يعرف.. المرأة تعرف!.. لذلك هم خائفون.. قلوبهم منخلعة من الخوف.. انظري إلى هذه القسوة غير الطبيعية في القتل.. هم يريدون نقل خوفهم وإسقاطه على خصومهم ليرتاحوا بعض الشيء، ولكنهم لن يرتاحوا.. وسيقتلون ويقتلون ولن يكفوا عن القتل في منطقتنا حتى يكفوا عن الوجود فيها!.. أعْطهم الأمان.. لن يرتاحوا، أعطهم السلام.. لن يصدّقوا!..

فجأة نظر إلى زينب وقال:

ـ لم لا تتابعينني؟..

ـ أنا أتابعك.

قالت ذلك والقلق بادٍ على وجهها.. كان وجه رأفت محتقناً ونظرات

عينيه غريبة، التفت إلى ربيعة وقال لها بصوت عالٍ:

- وأنت.. ما رأيك بالموضوع؟..

- أي موضوع؟!..

انتفض ونظر إلى زينب من جديد وقال:

- أرأيت.؟.. أنت لا تتابعينني.

قال ذلك.. ثم توجه إلى غرفته وصفق الباب من ورائه.. بعد دقائق لحقت به عروبة وتبعتها زينب وربيعة.. عندما دخلوا وجدوه جالساً وبيده سيجارة.. كان ينفث دخانها مبتسماً.. في هذه الأثناء انضم عليّ إليهم فخاطبه رأفت قائلاً:

- هل تعلم يا دكتور؟.. هذه ثاني سيجارة أدخنها خلال مئة عام!..

- من أين أتيت بها..

سألت زينب.

- من إحدى حفيداتك التي تدخن بالسر!..

- حسناً.. ستنهي سيجارتك وسنخلد جميعنا إلى النوم.. غداً أسبوع المرحوم لؤي وسيكون يوماً طويلاً.

- سأنام.. سأنام، لكن خلال ذلك علينا أن نصمد، يا إلهي أنا قلق.. يجب أن أطمئن، لا بدَّ أن أطمئن قبل أن أرحل.. على زينب أن تتحجَّب، حينها.. حينها فقط أرحل وأنا مطمئن أنَّ القنفذ احتمى بدرعه.. بشوكه!..

كانت الساعة قاربت الثانية صباحاً.. كانت عينا رأفت ذابلتين تعبتين، كاد يغمضهما.. إلا أنه فتحهما مكابراً.. ثمَّ طلب أن يساعدوه في الذهاب إلى سريره، فعل ذلك لأوَّل مرَّة في حياته.. كانت زينب ترافقه والرعب مُرتسمٌ على كامل وجهها، تمدَّد على سريره.. نظر إليها وابتسامةٌ صغيرةٌ لطيفةٌ ترفرف على شفتيه.. ثمَّ أغمض عينيه.

لم ينم أحدٌ منهم.. ظلَّ الدكتور علي يراقب نبض رأفت كل نصف ساعه.. أما زينب فقد أخذت لنفسها كرسياً بجانب السرير وجلست عليه،

فعلت مثلها عروبة وربيعة.. أما البقية، بقية الأبناء والأحفاد.. فقد انسحبوا إلى غرفة المعيشة وظلّوا هناك حتى الصباح.

حوالي الساعة السابعة صباحاً.. فتح رأفت عينيه، نظر إليهم فوجدهم لا يزالون في أمكنتهم.. جميعهم مستيقظون باستثناء ربيعة، فقد كانت تكبو وهي جالسة على كرسيها.. ضحك وقال لهم:

- يا لكم من جبناء.. ماذا تفعلون هنا؟.. أليس اليوم هو أسبوع المرحوم؟.. هيا.. هيا اذهبوا إلى بيت أم لؤي!..

اقتربت منه زينب وهي تبتسم.. كان وجه رأفت بعد أن استيقظ مرتاحاً.. غمرتها السعادة، ولكنها لم تتفوّه بكلمة، طلب منها ان تذهب وتأخذ الجميع معها باستثناء ربيعة.. طلب أن تظلّ معه.. بعد ان غادروا، نظر إلى ربيعه وقال:

- كيف هي ركبتك؟.. ألا يزال الألم شديداً؟..

- لا.. خفَّ كثيراً بعد أن أعطوني حقنة فيها.. في ركبتي.

- تريدين أن تسافري إلى أمريكا مع عروبة.. أليس كذلك؟..

لم تجب.. فتابع وهو يلاحظ بريق عينيها:

- سأرسلك معها.. ستذهبين، ستذهبين إلى صديقتك.. إنها مشلولة، الصديق وقت الضيق.. أتذكرين؟..

- أدفع كل ما تبقى من حياتي مقابل يوم ثلاثاء واحد في حي الجميلية.. أنا في المطبخ أُعدُّ الطعام بانتظارك، وهي معي تسلّيني مع فنجان قهوتها وقفشاتها!..

- مسكينة وداد، إذا نحيّنا الأم الفلسطينية.. لا توجد امرأة في العالم دفعت أكلاف قيام دولة اسرائيل مثلها.. لقد فقدت الحبيب والزوج والابن وابن الابن!.. يا لها من امرأة!..

قال ذلك ثمَّ طلب من ربيعة أن تعد له فنجاناً من البابونج.

عادت جميع النساء قرب منتصف النهار.. أسرعت زينب إلى غرفتها،

فرأت رأفت نائماً وربيعة بجانبه.. نائمة، ابتسمت.. هذه أوّل مرّة تنام ربيعة في سريرها!.. أغلقت الباب بهدوء وعادت إلى الصالة الكبيرة.. كانت الصالة تعجُّ بالبنات والحفيدات والصديقات المقرّبات، لم تنقضِ نصف ساعة حتى سمعت صوته.. فأجفلت، نظرت.. وإذ برأفت يستند على الحائط بيده وهو يبحث عنها قائلاً:

- أين زينب؟.. أجلسوني بجانبها!..

قفزت اثنتان من البنات باتجاهه وساعدتاه على الجلوس بجانب زينب.. أما هي فقد تسمّرت في مكانها وهي تمعن النظر في وجهه، غار قلبها.. أحسَّت به وقد سقط من مكانه، أمسكت بيده اليمنى.. كانت يده ترتجف، قال لها بصوتٍ ضعيف:

- أنا راحلٌ يا زينب، ولكن قبل ذلك.. أنا أرجوك.. للمرَّة الأخيرة..

- سأتحجَّب يا رأفت.. سأتحجب.

- أنا أصدِّقك.. ولكن سأصدقك اكثر إن فعلتها الآن!..

نظرت إليه والدموع تنفر من عينيها:

- قلت لك.. ساتحجَّب.

- زينب.. أيتها المرأة العنيدة، انظري جيداً إلي.. سأقولها وستفهمينها، لن أموت حتى تتحجَّبي!..

شهقت زينب بدموعها.. كانت تمسك يده بكلتا يديها، أفلتت يدها اليمنى ومدَّتها باتجاه النساء.. وإذ بأكثر من عشرة مناديل تسقط على يدها، أمسكت بواحدٍ منها.. كان منديل ابنتها عروبة وقد نزعته عن رأسها.. غطَّت زينب شعرها بالمنديل وساعدتها ابنتها، ثمَّ نظرت إلى رأفت.. كان يبتسم وهو ينطق بآخر كلماته:

- إنَّك أجمل محجَّبة في العالم.

وصل الرجال سريعاً.. فقد تمَّ إعلامهم بالأمر على الفور، نقلوا الجثمان إلى غرفة النوم في الغرفة الأخرى.. عندما التقت عينا عروبة بعيني

أمها المحجبة، وقبل أن تحضنا بعضهما باكيتين، لاحظت زينب نظرات الامتنان في عيني ابنتها، حضنتها بقوة وقررت.. لن تنزعه قبل ذكرى الأربعين. أما علي فقد كان مع الرجال.. عندما نظر إلى عمه وهو مُسجّى على سريره، نفرت الدموع من عينيه.. بحث عن زوجته وعانقها بقوّة.. كانت تبكي بحرقة، بحث عن زينب ووجدها بصعوبة.. فقد كانت محجَّبة، عانقها هي أيضاً ثمَّ انسحب إلى غرفته.

تمدَّد علي على سريره وسمَّر نظره في سقف الغرفة، كانت عيناه مليئتين بالدموع عندما قرَّر أن يهتف إلى ابنه في أمريكا.. أعلمه بوفاة جدِّه وطلب منه أن يأتي مع أخته إلى حلب، ثمَّ عاد ليتمدَّد على سريره.. لكن سرعان ما نهض وطلب أمريكا مرة ثانية، طلب نيويورك هذه المرَّة، ردَّت ماري.. مسز شو، سألها عن أحوالها وعن فرانسي.. ثمَّ عن وداد، صمتت لبرهة ثمَّ قالت:

ـ لقد رحلت يا علي.. رحلت أمس.

فوجئ علي.. صمت بدوره لبرهة ثمَّ قال:

ـ أمس؟..

ـ نعم.. رحلت مباشرة بعد أن حزمت أمرها واختارت بعد طول تردُّد..

ـ اختارت ماذا؟..

ـ العبارة التي ستكتب على شاهد ضريحها.. كانت من ثلاث كلمات.

سأل علي بصوتٍ مرتجف:

ـ والكلمات.. ما هي؟..

ـ وداد ـ من حلب.

انتهت

فطوقته بذراعيها وأخذت تهمس له: لا تذهب.. لا تذهب.. من أجلي لا تذهب، لم يرد عليها وظل يضمها ويهدهدها.. ثم بدأ يقبلها.. قبلها من عنقها.. من تحت أذنها ثم من خدها.. فتحركت وأطبقت على شفتيه بقبلة.. سرعان ماتحولت الى قبلة محمومة طالت حتى أعادتهما إلى البداية.. ولكنها لم تكن كالبداية.. كان الأمر وكأنها تريد إخفاءه داخلها والقفل عليه، ولكنها لم تنجح.. نجحت فقط بأن أطارت صوابه وصوابها.

عندما كان يرتدي ثيابه للمرة الثانية قال لها:

ـ لن نمضي وقتنا هناك كله في القتال!.. سمعت أن يهوديات أوروبا القادمات إلى فلسطين كلهن شقراوات.. بعيون زرقاء كلون البحر والسماء.

ابتسمت وداد.. كانت تعرف أن نساء بولونيا هن أجمل نساء العالم، ولكنها قالت له:

ـ إنهن شقراوات برصاوات.. لونهن أبيض شاحب كلون الأموات!..

ـ يا ساتر!.. لكن لابد أن أجد حنطية جميلة تشبهك هناك!..

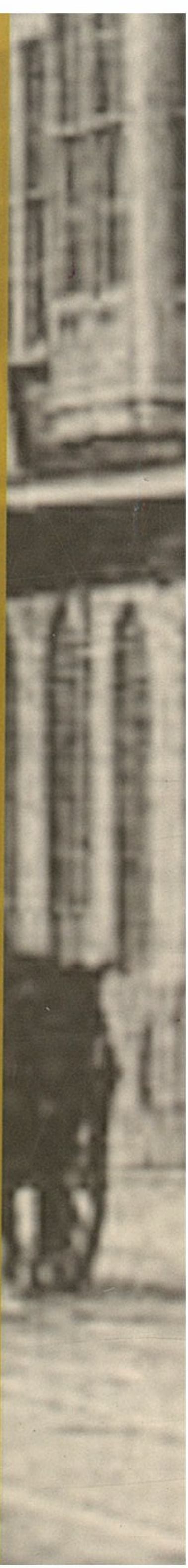

ISBN 978-9933-9094-2-0

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع